

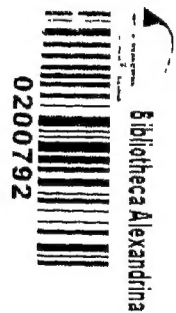
مصر والشرق الأدنى القديم
(١٨)

المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم

الجزء الثانى
الشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور
محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفتة الجامعية
٤٠ ش. سوتير - المنارطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش. قنال السريس - السكلى - ت ٥٩٧٣١٤٦



مصر والشرق الأدنى القديم

(١٨)

المدن الكبرى
فى
مصر والشرق الأدنى القديم

الجزء الثانى
الشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفه الجامعيه

٤٠ ش. سوئح - القناريه - ت. ٤٨٣٠١٦٢
٣٨٧ ش. قنار الرئيس - الجبل - ت. ٥١٧٣١٤٦

تقديم

تحدثنا فى «الجزء الأول» من هذا الكتاب (المدن الكبرى والمراكز الأثرية فى مصر والشرق الأدنى القديم) - عن مصر.

ونتحدث فى هذا «الجزء الثانى» من نفس الكتاب، عن المدن والمراكز الأثرية فى «الشرق الأدنى القديم» - فى بلاد العرب، وفى العراق القديم، وفى بلاد الشام (فلسطين - لبنان - سورية - شرق الأردن)، وفى السودان والمغرب القديم، ثم فى إيران وآسيا الصغرى.

وسوف يرى القارئ - كما قلنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة - أن هناك من المدن التاريخية القديمة ما تغير اسمه القديم، حتى نسيه الناس - أو يكادون - على أن هناك نوعاً آخر من المدن التاريخية، لم يحفظ له أهميته غير مكانته الدينية ومثالنا فى ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف

وأما «مكة المكرمة»: حيث الحرم المكى الشريف، حيث الكعبة البيت الحرام، ومقام إبراهيم^(١) وزمزم^(٢).

وفى مكة المكرمة، ولد سيد الأولين والآخرين - سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله، ﷺ وفيما نبى، ومنها خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل، وإليها يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل الأجناس، وصدق الله العظيم، حيث يقول: «وأذن فى الناس بالحج، يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق»^(٣).

والمدينة المنورة: مدينة الرسول - ﷺ - ودار الهجرة، التى نصرت الإسلام، وأعزت كلمة المسلمين، فاستحقت التكرين والتخليد، حتى يقوم الناس لرب

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٢) محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ١٢٧ / ٢ - ١٣٣، يحيى حمزة كوشك: زمزم، طعام

طعم، وشفاء سقم - جدة ١٩٨٣، وانظر: نيل الأوطار ٨٦ / ٥ - ٨٨، صحيح مسلم ٦٣ / ٩ -

٦٤، صحيح البخارى ٢٢١ / ٤، محمد بن علوى: فى رحاب البيت الحرام - جدة ١٩٧٩.

(٣) سورة الحج: آية ٢٧.

العالمين، ثم شاءت إرادة الله - الكريم المنان، ذى الفضل العظيم - ولا راد لمشيئة - أن تعطى المدينة المنورة، مالم تعطه لغيرها من المدائن، وأن تخصصها بميزة لا تتطاول إليها واحدة من مدائن الدنيا، حيث شرفت بأن تضم فى ثراها جثمان سيد الأولين والآخرين، جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ.

هذا إلى أن بالمدينة المنورة ثانى الحرمين الشريفين، فضلا عن أنها البلد الذى اختاره الله، ليكون أول عاصمة إسلامية فى التاريخ، تخرج منها جيوش النور، تحمل راية الإسلام، وهداية القرآن، إلى جميع أنحاء المعمورة.

ومسجد الرسول بالمدينة، أحد المساجد الثلاثة، التى لا تشد الرحال إلا إليها، (المسجد الحرام - المسجد النبوى الشريف - المسجد الأقصى)، هذا إلى أن الصلاة فى مسجد الرسول، خير ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام^(١).

وفى مسجد سيدنا رسول الله - ﷺ وآله وسلم - بالمدينة المنورة «الروضة الشريفة» التى هى روضة من رياض الجنة^(٢).

والقدس الشريف: هى المدينة الوحيدة فى العالم التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت - وما تزال ومستظل إن شاء الله أبداً - رمزاً للبشرية المتدينة، على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، فاليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ويقدسها المسيحيون لأنها موطن السيد المسيح، ومبعث هدايته، ولأبها كنيسة القيامة التى يحجون إليها، لأن جثمان السيد المسيح الطاهر - فيما يعتقدون - قد

(١) نُظِرَ صحيح البخارى ٧٦ / ٢، صحيح مسلم ١٦٣ / ٩ - ١٦٨، محمد يومى مهراڤ: السيرة النبوية الشريفة ١١١ / ٣ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٧.

(٢) صحيح البخارى ٧٧ / ٢، صحيح مسلم ١٦١ / ٩ - ١٦٣، محمد يومى مهراڤ: السيرة النبوية الشريفة ١٣٨ / ٣ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢ / ٢٥٧ - ٢٦٢، الدكتور السيد المالكى: الذخائر المحمدية ص ٧٧ - ٨١، السهمودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٢ / ٤٢٦ - ٤٣٩، عباسى الملا القارى: شرح الشفا ١٦٣ / ٢ - ١٦٥، القاضى عياض الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٩١ / ٢ - ٩٩.

دفن في مكان هذه الكنيسة ثم رفع إلى السماء^(١).

ويقدسها المسلمون لأنها أولى القبلتين، وبها ثالث الحرمين الشريفين^(٢)،
ولأنها مسرى مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول
«سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي
باركنا حوله»^(٣).

وعن أبي الدرداء، عن النبي - ﷺ - أنه قال «فضلت الصلاة في المسجد
الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدي بألف صلاة، وفي مسجد بيت
المقدس بخمس مائة صلاة»^(٤).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: البيت المقدس بنته الأنبياء،
وسكنته الأنبياء، مافيه موضع شبر، إلا صلى فيه نبي أو قام فيه ملك^(٥).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك كثيراً من عواصم الشرق
القديم لا يعرف عامة الناس عنها شيئاً، بل إن بعضاً من المثقفين لا يكادون يعرفون
عنها شيئاً ذا قيمة علمية، فماذا يذكر الناس عن: قرناو - شبوه - تمنع -
صرواح، وكلها كانت عواصم لدول في بلاد العرب (معين وحضر موت وقتبان
وسبأ)، كانت يوماً ما، ملء السمع والبصر.

وماذا يذكر الناس مثلاً عن عواصم الآشوريين في العراق القديم: آشور -

(١) لوقا ٢٤ / ٤١ - ٥٢، فيلب حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١ / ٣٨٧، عمر كمال توفيق:

تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - ١٩٦٧، ص ٣٩ ثم قارن:

Eusebius, Bk, IX, ch. 5, 2 وكذا Sozomenus, bk, i, ch. 4

(٢) صحيح مسلم ٩ / ٥ - ١١، صحيح البخاري ١ / ١١٠ - ١١١، ١ / ٢٥، إرواء الغليل ١ /

٣٢٢، محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ١ / ٣٥٠ - ٣٥٤، سيرة ابن هشام ١ /

٤٠١، ابن كثير: السيرة ٢ / ٣٧٢ - ٣٧٣، التفسير ١ / ٢٨٦ - ٢٨٨.

(٣) سورة الإسراء: آية ١.

(٤) مجير الدين الحنبلي: الأنس الحليل بتاريخ القدس والخليل ١ / ٢٩٩ الشيخ محمد محمود

الفحام: المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٢.

(٥) مجير الدين الحنبلي: المرجع السابق، ص ٢١١.

كالحج، «كار - توكلتى - نتورتا» - دور شاروكين - نينوى». وماذا يذكر الناس عن عواصم أسيا الصغرى، بل عن المغرب والسودان القديم. وبدهى أن هذا الأمر، إنما ينطق على مدن ومواقع أثرية كثيرة، فى مصر والشرق الأدنى القديم، لم نشأ أن نتبع فيها طريقة المعاجم التقليدية، وإنما اخترنا أن نسير فيها، طبقاً للتسلسل التاريخى لكل بلد على حدة -- قدر الإمكان - ومن ثم فقد قدمنا فى كل جزء منها فهرست بالمدن والمواقع، حتى يستطيع القارئ الرجوع إلى مكان الموقع الذى يريده فى الدراسة.

والله العلى الكريم، ذو الفضل العظيم، أسأل أن يكون فى هذه الدراسة بعض النقع للقارئ المتخصص، فضلاً عن القارئ العادى.

«وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب»

الاسكندرية فى ٢٥ رمضان ١٤١٩هـ

١٣ يناير ١٩٩٩

دكتور

محمد بيومى مهران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا مولانا محمد وآله الطيبين الطاهرين

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت
على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل
محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم في
العالمين، إنك حميد مجيد

الفصل الأول

فى شمال الجزيرة العربية

(١) مكة المكرمة

(١) موقع مكة الجغرافى وأهميته:

تقع مكة المكرمة فى منتصف الطريق السالك بين اليمن والشام، وعلى مبعده ٨٠ كيلو من البحر الأحمر، فى واد غير فسيح من أودية جبال السراة تحيط به الجبال من كل جانب، وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ، يصله أحدها بطريق قريب من البحر الأحمر، عند مرفأ «الشعبية» - مرفأ مكة فى عصر النبوة وما قبله، وبعده، حتى عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م)، حيث بنى ميناء جدة - وأما المنفذ الثالث، فيصل المدينة المقدسة، بالطريق المؤدى إلى فلسطين^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الأبحاث العلمية الحديثة، إنما قد أثبتت أن «الكعبة المشرفة» فى قلب مكة المكرمة، إنما هى «مركز الأرض» فى الخامس عشر من شهر يناير من عام ١٩٧٧ م، أعلن الأستاذ الدكتور حسين كمال، رئيس قسم الهندسة المدنية فى كلية الهندسة - جامعة عين شمس، فى حديث له نشر فى صحيفة «الأهرام» بأنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التى تؤكد أن «مكة المكرمة» فى مركز اليابس من الكرة الأرضية - أى «مركز الأرض».

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا، أنه من المعروف - تاريخياً ودينياً، قبل الإسلام، وفى الإسلام - أن «الحجر الأسود» هو علامة بدء طواف الطائفين حول الكعبة، وأن هؤلاء الطائفين إنما يبدأون طوافهم منه، جاعلين الحجر الأسود عن أيسارهم، ويسبرون هكذا فى سائر طوافهم حول الكعبة، حتى يختموا طوافهم

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الحجاز قبيل ظهور الإسلام، ص ٢٧ (الجزيرة العربية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين - الجزء الأول - الرياض ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م).

بالحجر الأسود أيضاً، فى إطار مسيرتهم، وهو على أيسارهم - ما عدا الحمى - .

ومن ثم فإذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة للأرض، وبين عملية الطواف الذى يمشى فيه الطائفون صوب اليسار، وأضفنا إلى ذلك دورة الكرة الأرضية العامة من هذه الناحية، فنكون حينئذ قد أدركنا جزءاً كبيراً من سر الطواف صوب اليسار، خلافاً للتيا من، الذى عليه آداب الإسلام، فى الأعمال والأحوال ومختلف الشؤون الإسلامية العامة.

ولعلنا الآن نفهم الحكمة الإلهية من اختيار مكة المكرمة، مقراً لبيت الله الحرام، ومنطلقاً للرسالة الخاتمة - رسالة سيد محمد ﷺ - وهكذا كانت مكة المكرمة، مكاناً مقدساً، شرف بمولد - وكذا مبعث - النبى الخاتم، سيدنا ومولانا وجدنا، محمد رسول الله - ﷺ - ومهبطاً للوحى، ونقطة انطلاق الدعوة الإسلامية إلى العالم أجمع^(٢)، حيث بعثه ربه إلى الناس كافة، قال تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً»^(٣).

وهكذا أصبحت مكة المكرمة - بموقعها المتوسط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب - محطة صالحة لطرق القوافل الطوال، وهكذا أصبحت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود بتجارة من الشام يحملها إلى شواطئ جنوب الجزيرة العربية.

والواقع أن موقع مكة الممتاز جغرافياً، إنما كان سبباً فى أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التى ترد من الجنوب تريد الشام، أو القادمة من 'اسم تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادى، كتب للقرشيين

(٢) محمد يومى مهران، الحضارة العربية القديمة، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٣٠٣، عبد القدوس الأضرارى، الكعبة، (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض، ١٩٨٤، ص ١٢٥)، الحم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأحبار أم القرى، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) سورة ساء آية ٢٨.

نَجْحاً بعيد المدى فى احتكار التجارة فى بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التى كانت تربط اليمن بالشام من ناحية، وبالعراق من ناحية أخرى^(٤).

(٢) أسماء مكة المكرمة:

لاريب فى أن مكة المكرمة، إنما هى أهم مواضع الحضر فى الحجاز الشريف، ولاريب كذلك فى أنها إنما ترجع - فى نشأتها الأولى - إلى عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م)، وولده إسماعيل عليه السلام (١٨٥٤ - ١٧١٧ ق. م)^(٥)، وأن سكانها إنما كانوا من أبناء إسماعيل عليه السلام، إلى جانب قبائل عربية أخرى، لم يقدم لنا المؤرخون عنها معلومات دقيقة - أو حتى شبه دقيقة كالعالمى وجرهم وخزاعة^(٦)، وأن الإسماعيليين - أو العدنانيين كما يسميهم المؤرخون المسلمون - كانوا يتكلمون اللغة العربية التى لم تصلنا بها نقوش مكتوبة، ربما بسبب عدم وجود خط متميز لهم قبل الإسلام - كخط المسند فى الجنوب - وربما لأن طبيعة السكان فى الحجاز لم تكن تميل إلى الكتابة^(٧)، وإن وجدت كتابات لغير الإسماعيليين فى الحجاز، كالشموديين مثلاً.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٥٤، وكذا:

S. A. Huzayyin, Arabia and The Near East, Cairo, 1942, p. 142

- 143 W. M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 3.

وفى الترجمة العربية (محمد فى مكة - تعريب شعبان بركات) ص ١٨ - ٢٠.

(٥) أنظر: (محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٢١ - ١٢٧، ١٩٥٠ (الرياض ١٩٨٠).

(٦) أنظر ابن قتيبة: المعارف ص ٣١٣، الأغاني ١٩ / ٩٤، وأنظر عن العماليق (محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢ / ٥٦٣ - ٥٧١).

(٧) النويرى ٢ / ٢٧٨، كشف الظنون ١ / ٢٥ - ٢٦، أصل الخط العربى ص ٧، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية ١ / ٧٧، وكذا: E. Gibbon, the decline and fall of the Roman Empire, p. 220.

ويختلف المؤرخون فى اشتقاق كلمة «مكة»، فذهب فريق إلى أنها إنما سميت مكة كذلك، لأنها تملك الجبارين، أى تذهب نخوتهم، وذهب فريق ثان إلى أنها إنما تقع بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك، وذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة مشتقة من «أمتك» من قولهم: أمتك الفيصل ضرع أمه، إذا مصه مصاً شديداً، ولما كانت مكاناً مقدساً للعبادة فقد امتكت الناس، أى جذبتهم من جميع الأطراف^(٨)، إلى غير ذلك من التفسيرات المألوفة عند الاخباريين فى تفسير الأسماء التى لاعلم لهم بها.

غير أن إسم مكة لما كان سابقاً لتفسيرات الاخباريين هذه، ولما كان الجنوبيون قد سكنوا مكة مع الإسماعيليين، فإن هناك من يرجح أن الاسم إنما أخذ من لغة الجنوب، مستنداً إلى البيت الحرام، فمكة أو «مكرب» - فى رأى هذا الفريق من العلماء - كلمة يمنية مكونة من «مك» و «رب»، ومك بمعنى بيت، فتكون «مكرب» بمعنى «بيت الرب» أو «بيت الإله»، ومن هذه الكلمة أخذت مكة إسمها، - بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب - ويرى «بروكلمان» أنها مأخوذة من كلمة «مقرب» العربية الجنوبية، ومعناها «الهيكل»^(٩).

هذا وقد أطلق القرآن الكريم على مكة عدة أسماء، منها «بكة» لقول الله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين»^(١٠)، وهنا يحاول الاخباريون أن يفرقوا بين مكة وبكة، فالأولى هى القرية كلها، والثانية

(٨) ياقوت ١ / ١٨١ - ١٨٢، ابن هشام ١ / ١٢٥ - ١٢٦، عند العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٣٩١.

(٩) أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ٣٣، وكذا:

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24.

(١٠) سورة آل عمران: آية ٩٦، ويرى أن رجلاً سأل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، أهر أول بيت، قال لا، وقد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، وأول من بناء إبراهيم عليه السلام (تفسير الكشاف ١ / ٤٤٦، تفسير الطبرى ٣ / ٦٩، ٧ / ١٩، ثم قارن ١٧ / ٢٠، البداية والنهاية ٢ / ٢٩٩).

موضع الكعبة البيت الحرام، أو أن «بكة» هي موضع البيت الحرام ومكة ما سوى ذلك» (١١).

كذلك أطلق القرآن على مكة «أم القرى» في قوله تعالى «ولتنذر أم القرى ومن حولها» (١٢)، ولعل هذه التسمية القرآنية إنما تدل على أن مكة إنما هي أعظم مدن الحجاز، ولأنها شرفت ببيت الله، أول بيت وضع للناس في الأرض، فيه الهدى، وفيه البركة، وفيه الخير الكثير، جعله الله مثابة للناس وأمناء، وهو كذلك للأحياء جميعاً، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض جميعاً - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل - وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل البقاع، ومن كل الأجناس (١٣)، وصدق الله العظيم حيث يقول «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» (١٤).

وهناك الاسم القرآني «البلد»، لقول الله تعالى: «لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد» (١٥) وهناك «البلد الأمين» لقول الله تعالى: «والتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين» (١٦).

هذا وقد أورد أصحاب التواريخ والمعاجم اللغوية ومعاجم البلدان، أسماء كثيرة للبلد الحرام (١٧). وقد نظم «القاضي أبو البقاء بن الضياء الحنفى» سبعة أبيات،

(١١) الأزرقى ١ / ١٨٨، تفسير المنار ٤ / ٧، تفسير الطبري ٧ / ٢٣ - ٢٧، تفسير البيضاوى ١٧٢ / ١.

(١٢) سورة الأنعام: آية ٩٢، سورة الشورى: آية ٧.

(١٣) في ظلال القرآن ٧ / ١١٤٨، ٢٥ / ٣١٤٢.

(١٤) سورة الحج: آية ٢٧.

(١٥) سورة البلد: آية ١ - ٢.

(١٦) سورة التين: آية ١ - ٣.

(١٧) انظر (معجم البلدان لياقوت الحموى ١ / ٤٧٥، ٥ / ١٨١ - ١٨٢، الفاسى: العقد الثمين ١ /

٣٦-٣٧، سيرة ابن هشام ١ / ١٢٥ - ١٢٦، البويرى: نهاية الأرب ١ / ٣١٣ - ٣١٤،

القاموس المحيط ١ / ٢٣٥، ٢٣٩، ٣ / ٩٧، ٣١٩، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص

١٨، صبح الأعشى ٤ / ٢٤٨، بلوغ الأرب ١ / ٢٢٨، تاريخ الخميس ص ١٢٥، تفسير القرطبي

٢٠ / ٥٩ - ٦٠، تفسير البيضاوى ٣ / ٥٥٩، تفسير الفخر الرازى ٣١ / ١٨٠، تفسير الطبرى

٧ / ١٩ - ٢٦، ٣٠ / ١٩٣ - ١٩٤).

جمع فيها أسماء مكة المكرمة نحو الثلاثين اسماً، نقلها «ابن ظهيرة» في كتابه «الجامع اللطيف»، وهي:

لمكة أسماء ثلاثون عُددت	ومن بعد ذلك اثنان منها اسم بكة
صلاح وكوني والحرام وقادس	وحاطمة البلد العريش بقرية
ومعطشه أم القرى رحم ياسة	ونساسة رأس بفتح الهمزة
مقدسة والقادسة ناشة	ورأس وتاج أم كوني كبرة
سبوحة عرش أم رحمن عرشنا	كذا حرم البلد الأمين كبلدة
كذلك اسمها البلد الحرام لأمنها	وبالمسجد الأسنى الحرام تسمت
وما كثرة الأسماء إلا لفضلها	جباها به الرحمن من أجل كعبة ^(١٨)

(٣) نشأة مكة المكرمة:

لعل أقدم ذكر لمكة البلد الحرام في النصوص القديمة، إنما يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، إذ يحدثنا الجغرافي اليوناني التميمي - بطليموس - (١٢١ - ١٥١ م) من بطلمية (النشأة الحالية بمحافظة سوهاج)^(١٩)، عن مدينة دعاها «مكرية» (ماكورابا Macoraba)، رأى العلماء أنها المدينة المقدسة - مكة المكرمة^(٢٠).

هذا ويذهب «أوجست ميلر» وغيره، إلى أن المعبد الذي ذكره «ديودور الصقلي» (القرن الأول ق.م) في أرض قبيلة عربية، دعاها (Bizomeni) إنما يعنى به «بيت مكة»، أمر غير مقبول، فهو يقع بعيداً عن مكة المكرمة في «حسمى» في مكان دعاها «ألويس موسل» باسم «عوافة»، حيث بنت قبيلة ثمود،

(١٨) الأزرقي: أخبار مكة ١ / ٢٨٣ (مكة المكرمة ١٩٨٣).

(١٩) انظر (محمد بيومي مهران: مصر ١ / ٨٧ - ٨٨).

(٢٠) انظر:

Ptolemy, VI, p. 7, 32.

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24. وكذا.

فيما بين أخريات عام ١٦٦م، وبداية عام ١٦٩م، معبداً هناك^(٢١)، وربما كان هذا المعبد هو الذي أشار إليه «ديودور» على أنه المعبد الذي يقده العرب^(٢٢).

وليس هناك إلى سبيل من ريب، في أن المدينة المقدسة، إنما ترجع إلى ما قبل عصر بطليموس (١٢١ - ١٥١م)، حيث كتب كتابه «الجغرافيا» والمعروف باسم «جغرافية بطليموس» حوالي عام ١٥٠م^(٢٣).

ومن ثم فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن مكة المكرمة، إنما هي سابقة لكتابة أسفار التوراة (العهد القديم)^(٢٤)، فإنما هي «ميشا» المشار إليها في سفر التكوين^(٢٥)، وهي «ميشا» التي يرى الرحالة «برتون» أنها كانت بيتاً مقصوداً لعبادة أناس من الهند، ويقول الرحالة الشرقيون أنها كانت كذلك بيتاً مقصوداً للعشائين، الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون^(٢٦).

على أنه من الغريب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن تأسيس المدينة المقدسة، إنما كان في منتصف القرن الخامس الميلادي^(٢٧)، ومن ثم فإنه

(٢١) أنظر عن معبد العوافة:

Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 15.

J. B. philby, The Land of Middian, MEG, 9, 1955, p. 127 F. وكذا:

Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

وكذا: BIOR, 15, 1958, p. 8 - 9.

(22) Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

C. H. Oldgather, Diodorus Siculus, Bibliotheca Book, III, وكذا: XXXI.

(٢٣) أنظر:

Ptolemy, Geographia, Edited by C. F. Nobble, 3 Vols 1843 - 1845.

(٢٤) أنظر عن تاريخ كتابة أسفار التوراة (محمد ييومي مهران: إسرائيل، الجزء الثالث، التوراة، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١٨ - ٩٦).

(٢٥) تكوين ١٠ / ٣٠.

(٢٦) عباس العقاد: مطلع النور، ص ١١٣.

(٢٧) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ٤٥/١، صبح الأعشى، ١/٤، ٢٥٠.

يتأخر بتاريخها حوالي ثلاثة وعشرين قرناً، لسبب لا أدريه، وإن كان يخيل إلى أنه اعتبر تاريخ مكة لا يبدأ إلا بقصى بن كلاب، الذي حدد له القرن الخامس الميلادي^(٢٨)، وطبقاً لرواية الإخباريين التي ذهبت إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى أمرها «قصي بن كلاب» ذلك لأن جرهم وخزاعة - فيما يزعمون - لم يكونوا براغمين في إقامة بيوت بجوار بيت الله الحرام^(٢٩)، وكأنما يريد هؤلاء الإخباريون أن يقولوا لنا أن مكة ظلت على بداوتها، منذ أقام بها اسماعيل، عليه السلام، في القرن التاسع عشر ق. م، وحتى أصبح أمرها بيد «قصي بن كلاب» في القرن الخامس الميلادي، وتلك مبالغة - فيما أظن - غير مقبولة.

هذا وقد ذهبت آراء أخرى إلى أن تاريخ مكة، إنما يرجع إلى القرن الأول ق. م، اعتماداً على رواية «ديودور الصقلي» - الآنف الذكر - ورغم أن ديودور لم يذكر تاريخ واسم المعبد، إلا أن أصحاب هذا الاتجاه إنما رأوا أن وصف ديودور للمعبد بأنه كان محجة للعرب جميعاً، لا ينطبق إلا على الكعبة المشرفة^(٣٠)، ولكن «ديودور» لم يحدد لنا بدء سكنى المدينة المقدسة، فضلاً عن تحديد تاريخ بناء المعبد نفسه، ومن ثم فربما اعتمد المؤرخون في تحديدهم للقرن الأول ق. م، كباية لسكنى مكة، على أنه العصر الذي عاش بعده ديودور الصقلي.

ويذهب «دوزي» إلى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى أيام داود عليه السلام، حيث أقام بنو شمعون بن يعقوب - والذين يسميهم الإخباريون جرهم - الكعبة^(٣١)، في القرن العاشر ق. م^(٣٢)، وتلك أكذوبة كبرى لأسباب منها (أولاً)

(٢٨) حسن إبراهيم: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٩) تاريخ يعقوب، ١ / ١٩٧.

(٣٠) جواد علي ٤ / ١٢، وكذا: R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, p. 13.

وكذا: E. Gibbon, op. cit., p. 50.

وكذا: Caussin de Perceval, op. cit., I, p. 174.

(٣١) R. Dozy, op. cit., p. 15.

(٣٢) انظر عن تاريخ داود، كتابنا إسرائيل، ص ٤١٧ - ٤١٨.

أن قبيلة شمعون الإسرائيلية لم تهاجر أبداً إلى مكة، وإنما كل ما جاء عنها - وطبقاً لرواية التوراة نفسها^(٣٣) - أنها هاجرت على أيام حزقيا ملك يهوذا (٧١٥ - ٦٨٧ ق.م) إلى الجنوب الغربي من واحة معان، ثم تابعت سيرها حتى يمانية الجنوب الغربي لجبل سعير، حيث قضوا على بقايا ضعيفة، أو جيوب صغير للعمالق هناك^(٣٤)، ومنها (ثانياً) أن قبيلة شمعون كانت من أضعف القبائل الإسرائيلية حتى عشية موت سليمان، عليه السلام، في عام ٩٢٢ ق.م، وانقسام الدولة بعد ذلك مباشرة، إلى يهوذا وإسرائيل، ويكاد يجمع المؤرخون اليهود أنفسهم على أن قبيلة شمعون إنما كانت دائماً وأبداً تعيش على هامش القبائل الإسرائيلية، وأنها أبداً لم تحتل المكانة التي تجعلها تقوم بدور مستقل في العصر التاريخي الإسرائيلي^(٣٥)، فضلاً عن أن تقوم بهجوم ساحق على بلاد العرب وتستولي على مكة.

ومنها (ثالثاً) أن التوراة نفسها تكاد تتجاهل سبط شمعون، دون غيره من أسباط إسرائيل، ربما لضآلة شأنه، حتى أنها لا تكاد تتعرض لذكر هذا السبط، إلا عند دخول بني إسرائيل أرض كنعان^(٣٦)، وإلا بعد طلب من يهوذا^(٣٧)، ثم مرة أخرى، عند رحيله من جنوب يهوذا إلى واحة معان، في أخريات القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق.م، كما أشرنا من قبل، مما دفع بعض الباحثين إلى أن يذهبوا بعيداً، فيرون أن سبط شمعون لم يكن له وجود في عالم الحقيقة^(٣٨).

ومنها (رابعاً) أن هذا الرأي إنما يؤمن بغير حدود بما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن الخليل عليه السلام، لم يذهب إلى الحجاز، وبالتالي لم يقيم

(٣٣) أخبار أيام ثان ٤ - ٤١ - ٤٣.

(٣٤) الرئيس موسل: شمال الحجاز، ص ٥ - ٩، وكذا:

D. S. Margoliouth, op. cit., p. 51.

(35) M. Noth, The History of Israel, p. 23.

(٣٦) يشوع ١٩: ١ - ٩.

(٣٧) قضاة ١: ٣.

(38) C. F. Burney, Israel's Settlement in Canaan, p. 37 - 58.

مع ولده اسماعيل ببناء الكعبة، وهو زعم لا يعتمد إلا على التعصب ضد العرب، وعلى معارضة الحقائق التاريخية، فضلاً عما جاء في القرآن الكريم بشأن هذه الأحداث الثابتة^(٣٩)، ومنها (خامساً) أنه يتأخر بتاريخ مكة المكرمة قرابة قرون تسعة.

وهناك رواية اخبارية يزعم أصحابها أن العماليق إنما كانوا يعيشون في مكة والمدينة وبقية مدن الحجاز، وأنهم قد عاثوا في الأرض فساداً، ومن ثم فقد أرسل إليهم موسى، عليه السلام، جيشاً قضى عليهم، وسكن اليهود المنطقة بدلاً عنهم^(٤٠) ولا ريب في أن هذا زعم كذوب من أساسه - الأمر الذي سوف نناقشه بالتفصيل عند الحديث عن المدينة المنورة - وعلى أى حال فإن موسى إنما كان يعيش في القرن الثالث عشر ق.م، وأنه خرج بالاسرائيليين من مصر حوالي عام ١٢١٤ ق.م، كما حددنا ذلك في كتابنا اسرائيل^(٤١).

والرأى عندى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ذلك أننا نعرف - تاريخياً ودينياً - أن الخليل عليه السلام، قد أتى بولده اسماعيل وزوجه هاجر من فلسطين، وأسكنهما هناك في هذه البقعة المباركة^(٤٢)، طبقاً لصريح القرآن الكريم، حيث حيث يقول «ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة

(٣٩) انظر كتابنا اسرائيل، ص ١٨٣ - ١٨٩، وكتابنا «دراسات في التاريخ القرآني»، الفصل الرابع، من الجزء الأول ص ١٨١ - ٢٣٥.

(٤٠) حواد على ١٣ / ٤، الأعلام النفسية، ص ٦٠ وما بعدها.

(٤١) أنظر (محمد يومى مهران) اسرائيل ٣٥١ / ١ - ٤٥٦، وأنظر طبعة ١٩٩٩ ص ٢٥٩ - ٤٤٢.

(٤٢) تاريخ الطبرى ٢٥١ / ١ - ٢٥٩، ابن الأثير ١ / ١٠٢ - ١٠٥، ابن كثير ١ / ١٥٤ -

١٥٤، المقدسى ٣ / ٦٠، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٦ - ٣٧، شفاء العرام ٢ / ٣، تاريخ الخميس

ص ١٠٦، تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٥، تفسير روح المعاني ١٣ / ٢٣٦ - ٢٣٧، تفسير الطبرى

١٣ / ٢٣٠ - ٢٣٣، تفسير الفخر الرازى ١٩ / ١٣٦، الأزرقى ١ / ٥٤ - ٥٦.

من الناس^(٤٣) تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون^(٤٤).

والتاريخ يحدثنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد فقد الأمل في إيمان القوم في العراق القديم - بعد المناظرة التي جرت بينه وبين ذلك الذي وصفه القرآن بأنه الذي آتاه الله الملك^(٤٥) - فإن الله لا يهدى القوم الظالمين.

وهكذا اتجه الخليل عليه السلام، من بلده «حاران» (حاران) - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلا إلى الغرب من تل حلفا - إلى كنعان. ويقوم الخليل عليه السلام، ما شاء الله له أن يقيم في أرض كنعان، ثم يرحل عنها - لأسباب كثيرة، لا ريب أن أهمها الدعوة إلى الله تعالى^(٤٦) - صوب أرض الكنانة الطيبة، ويرجع العلماء - أو يكادون - أن وصول أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، إلى مصر، إنما كان على أيام الأسرة الثانية عشرة المصرية (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق.م)^(٤٧).

ثم يعود أبو الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - إلى فلسطين مرة أخرى، وقد تزوج في مصر من السيدة هاجر^(٤٨)، رضوان الله عليها، ويقوم في فلسطين،

(٤٣) تذهب كتب التفسير إلى أن الله سبحانه وتعالى لو قال «أفئدة الناس» ولم يقل «أفئدة من الناس»، لزدحم عليهم الفرس والروم والناس كلهم، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال «أفئدة من الناس» فاختص به المسلمون (انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٢، تفسير البيضاوي ١/ ٥٣٣، تفسير القرطبي ٩/ ٣٧٣، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩/ ١٣٧، تفسير النسفي ٣/ ٢٦٤، تفسير روح المعاني ١٣/ ٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

(٤٤) سورة إبراهيم: آية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعاني ١٣/ ٢٣٦ - ٢٤١، مجمع البيان للطبري ١٣/ ٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير الطبري ١٣/ ٢٢٩ - ٢٣٥، تفسير ابن كثير ٤/ ١٤١ - ١٤، تفسير الكشاف ٢/ ٣٨٠).

(٤٥) انظر (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - بيروت ١٩٨٨، ص ١٤٧ - ١٥٦).

(٤٦) انظر عن هجرات إبراهيم عليه السلام (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٨٢ - ١٣٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٢٧ - ١٥٩).

(٤٧) انظر (محمد بيومي مهران: مصر، الجزء الثاني، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٤٣٠ - ٤٣٦).

(٤٨) انظر عن السيدة هاجر (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ١٧٥ - ١٨٤)، وانظر طبعة ١٩٩٩، ص ١٦٤ - ١٧١.

حيناً من الدهر - شهوراً وربما سنين عدداً - ثم يتجه إلى أرض الحجاز الشريف،
بولده إسماعيل، وزوجه هاجر^(٤٩).

هذا ويروى البخارى عن «مسعود بن جبير» (٤٥ - ٩٥ هـ / ٦٦٥ -
٧١٤ م) عن «عبد الله بن عباس»^(٥٠) (٣ ق. هـ / ٦١٩ م - ٦٨ هـ / ٦٨٧ م)
قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل، أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها
على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى
وضعها عند البيت، عند دوحه فوق زمزم، فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ
أحد، وليس بها ماء، فوضعها هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء
فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب،
وتتركنا بهذا الوادى، الذى ليس فيه أنيس ولا شئ؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل
لا يتلفت إليها، فقالت له: أ الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا، ثم
رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يروونه، استقبل بوجهه
البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات^(٥١)، ورفع يديه، فقال: «ربنا إني أسكنت من

(٤٩) أنظر (محمد يوسى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٣٨ - ١٥٩)
(٥٠) أنظر عن ابن عباس (طبقات ابن سعد ٢ / ٣٦٥ - ٣٧٢ ط بيروت حلية الأولياء ١ / ٣١٤ -
٣٢٩، طبقات العقهاء للشيرازى ص ١٨ - ١٩، تذكرة الحفاظ للذهبي، ص ٤٠ - ٤٢،
نكت الهميان للصفدى، ص ١٨٠ - ١٨٢، تهذيب التهذيب لابن حجر ٥ / ٢٧٦ - ٢٧٩،
الأعلام للزركلى ٤ / ٢٢٨، الإصابة فى تمييز الصحابة ٢ / ٣٣٠ - ٣٣٤، الاستيعاب لابن
عبد البر ٢ / ٣٥٠ - ٣٥٧، فؤاد سركين: تاريخ التراث العربى ١ / ٦٣ - ٦٩، وفيات الأعيان
٣ / ٦٢ - ٦٩، ندرات الذهب ١ / ٧٥ - ٧٦).
(٥١) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٥٤ - ١٥٧، قصص الأنبياء ١ / ٢٠٣، تفسير القرطبي
٣٥٩٧، ٣٥٩٨، صحيح البخارى ٤ / ١٧٢ - ١٧٧.

ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات، لعلهم يشكرون» (٥٢).

وسرعان ما فرغ الطعام والماء، فعطشت هاجر، وعطش وليدها، وراح يتلبط، ونظرت إليه، وهو يتلوى من العطش، فأحست نياط قلبها يتمزق وكاد عقلها أن يطيش، وراحت تسعى بين الصفا والمروة، تلهف على رؤية أحد ينقذ وليدها من الموت عطشاً، حتى إذا ما أتمت السعى سبع مرات، عادت إلى اسماعيل، فإذا الماء قد ظهر عند قدميه، فجعلت تخوضه فى فرح، وتغرف الماء فى سقائها، وأرضعت وليدها، وإذا بملك عند زمزم يقول لها: لا تخافى الضيعة، فإن هذا بيت الله الحرام، يبينه هذا الغلام رأبوه، وأن الله لا يضيع أهله» (٥٣).

وهكذا كتب الله الرؤوف الرحيم لإسماعيل وأمه النجاة، وكان السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله، وصدق عز من قال: «إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً، فإن الله شاكراً عليم» (٥٤)، ويروى ابن عباس - حبر الأمة، وترجمان القرآن - عن سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) قوله: «فلذلك سعى الناس بينهما» (٥٥).

ولست أدري: هل كان يدور بخلد جدتنا العظيمة، أم اسماعيل، عليهما

(٥٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعاني ١٣ / ٢٣٦ - ٢٤١، تفسير السعدي ٤ / ٦٩ - ٧٣، تفسير الطبري ١٣ / ٢٢٩ - ٢٣٥، الطبرسي ١٣ / ٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير ابن كثير ٢ / ٨٣٧، تفسير الكشاف ٢ / ٣٨٠، فى طلال القرآن ٤ / ٢١٠٩ - ٢١١٠، صعوة التماسير ٢ / ١٠٠، زاد السير ٤ / ٣٦٧ - ٣٦٨، تفسير النسفى ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٤، تفسير القرطبي، ص ٣٥٩٧ - ٣٦٠٣.

(٥٣) معجم ياقوت ٣ / ١٤٨ - ١٤٩، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٦، شفاء الغراء ٢ / ٣ - ٤، المقدسى ١٣ / ٦٠ - ٦٢، الأزرقى ١ / ٥٤ - ٥٥، ٢ / ٣٩ - ٤٠، وانظر: القصة كاملة فى: صحيح البخارى ٤ / ١٧٢ - ١٧٩ (دار الحديث - القاهرة).

(٥٤) سورة البقرة: آية ١٥٨.

(٥٥) صحيح البخارى ٤ / ١٧٣.

السلام، أن ملايين المسلمين على مر السنين، سوف يسمعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط، تخليداً لذكرى ما كان في ذلك السعى من خير وبركة^(٥٦).

ويمر نفر من «جرهم» - أو من العماليق في رواية أخرى - بوادٍ قريبٍ من مكة، ويعرفون بأمر «زمزم»، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى يعرضوا على السيدة الجليلة - أم إسماعيل - أن يقيموا في جوارها على أن يكون الماء ماءها، فأذنت لهم، وشب إسماعيل بينهم، وتعلم العربية منهم - فضلاً عن المصرية التي أخذها عن أمه - ثم تزوج بواحدة من بناتهم^(٥٧)، وإن كانت التوراة إنما تذهب إلى أن هاجر قد أخذت لولدها إسماعيل زوجة من أهلها، من مصر^(٥٨).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هناك من المؤرخين المسلمين من تنبه إلى الفارق بين لغة قريش - لغة القرآن الكريم - ولغة عرب الجنوب، أي بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين، فلو كان إسماعيل قد تعلم العربية من «جرهم» لكانت لغته موافقة للغتهم، أو لغة غيرهم ممن نزل مكة، فضلاً عن أن منزلة «عرب» عند الله، ليست بأعلى من منزلة إسماعيل، عليه السلام، كما أن منزلة «قحطان» ليست بأعلى عند الله من منزلة إبراهيم، خليل الرحمن، وأبي الأنبياء، حتى يمنع إسماعيل فضيلة اللسان العربي، التي أعطيت ليعرب بن قحطان^(٥٩)، ومن ثم فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن إسماعيل إنما كان أول من ألهم هذا اللسان العربي المبين^(٦٠)، بل أن هناك من يذهب إلى أن قحطان

(٥٦) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩ / ١٣٦، تفسير القرطبي ٩ / ٣٦٩ - ٣٧٠، تفسير الطبري ١٣ / ٢٣٠ - ٢٣٢، شفاء الغرام ٢ / ٣ - ٦، ١٦، مروج الذهب ٢ / ٤٦ - ٤٧، ابن كثير: قصص الأنبياء ١ / ١٠٥، الأزرقى: أخبار مكة ٢ / ٤٠.

(٥٧) صحيح البخاري ٤ / ١٧٤، الكامل لابن الأثير ١ / ١٠٣ - ١٠٤، مروج الذهب ٢ / ٤٦ - ٤٧، تاريخ الطبري ١ / ٢٥٨، تفسير الطبري ١٣ / ٢٣٠، تفسير السيفي ١ / ٥٢٣، تفسير الألوسي ١٣ / ٢٣٧، تفسير القرطبي ٩ / ٢٧٤، الأزرقى ١ / ٥٧، ٢ / ٤٠، شفاء الغرام ٢ / ٤، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٧، ٣٣١، ٣٣٢، الإكليل ١ / ٩٨ - ١٠٢.

(٥٨) تكوين ٢١ / ٢١.

(٥٩) مروج الذهب ٢ / ٤٦.

(٦٠) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٨٦، تاريخ الخميس ص ١١٠، تاريخ 'سحقوبى' ١ / ٢٢١، لسان العرب ٢ / ٧٥.

نفسه من ولد اسماعيل (٦١).

هذا وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه - أن قحطان من ولد اسماعيل - على ما روى عن سيدنا رسول الله - ﷺ - أنه قال كل العرب من ولد اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (٦٢)، هذا فضلا عن أن سيدنا رسول الله - ﷺ - مر بناس من أسلم خزاعة - وهم من قحطان - وكانوا يتناضلون، فقال: إرموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا (٦٣)، ومن ثم فإن ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) إنما يذهب إلى أن جميع العرب إنما هم من ولد إسماعيل، لأن عدنان وقحطان، إنما يستوعبان العرب العدنانية والقحطانية (٦٤).

وفي إحدى زيارات الخليل لولده إسماعيل، وجده يصلح نبلا له، من وراء زمزم، فقال له: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعيني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه السلام، وهو يبني: وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (٦٥).

ثم قال إبراهيم لإسماعيل، عليهما السلام: إئتني بحجر حسن، أضعه على

(٦١) الاكلیل ١٣٠/١ - ١٠٥، الفلقشندي: نهاية الأرب ص ٣٩٦ - ٣٩٧، تاريخ ابن خلدون ٢٤١ ١/٢ - ٢٤٢

(٦٢) طبقات ابن سعد ٢٥/١ (دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨).

(٦٣) الاكلیل ١٠٣/١ - ١٠٥، وفي صحيح البخاري (١٧٩/٤): «مرن النبي ﷺ، على نفر من أسلم ينضلون، فقال رسول الله ﷺ: إرموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا، وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد العريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: مالكم لا ترمون؟ فقالوا: يا رسول الله نرمي وأنت معهم، قال: إرموا، وأنا معكم كلكم».

(٦٤) تاريخ ابن خلدون ٢٤١/٢، نهاية الأرب للفلقشندي ص ٣٩٦ - ٣٩٧، الاكلیل ١٠٣/١ - ١٠٥، قارن جواد علي ٤٨١/١ - ٤٨٢.

(٦٥) فتح الباري ١٧٥/٤، سنن ١٧٧/٤.

الركن، فيكون للناس علماء، وذهب إسماعيل يلتبس لأبيه حجراً، فأنه به، ولكنه وجده قد ركب «الحجر الأسود» في مكانه، فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يتكل على بنائك، أتاني به جبريل من السماء (٦٦).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن تقديس «الحجر الأسود»، ربما نجم من ارتباطه بشيء مقدس، فقد يكون رمزاً للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده، بجعل هذا البيت مثابة للناس وأمناء، أو يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده، بأن هذا قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى، ليكون للناس مصلى، ومسجدا للطائفتين والماكفين والركع السجود، ومن ثم فقد وضعه في الركن الأقرب إلى الباب، ليكون أول حدود هذا البيت المكرم، الذي يتبدأ منه الطائفون، ومن ثم فقد كان الحجر الأسود محترماً من إبراهيم، محترماً من ولده، مقدساً عند المسلمين إلى اليوم، وإلى الغد، وإلى أن يغير الله هذه الأرض غير الأرض (٦٧).

هذا وليس صحيحاً أن الحجر الأسود إنما قد اختار له إبراهيم اللون الأسود، لسهولة تعيينه، وتحديد مكانه، كما أنه ليس صحيحاً ما يزعمه بعض المستشرقين من أن الحجر الأسود إنما هو من نوع «التيازك»، وأن تلؤلؤه دليل على أنه كان ذي لون غير السواد، وذلك لأن هذا اللون الأسود الذي نراه الآن إنما كان سببه خطايا الجاهلية وأرجاسها (٦٨).

روى الحافظ الدمياطي (أبو محمد شرف الدين عبيد المؤمن بن خلف الدمياطي - ٦١٣ - ٧٠٥ هـ / ١٢١٧ - ١٣٠٦ م) في «المتجر الرابع» عن ابن

(٦٦) تاريخ الطبري ٢٥٠/١ - ٢٦٠، تفسير الطبري ٦٦/٣ - ٧٠، الكامل لابن الأثير ١٠٦/١، ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٦/١، ١٦٢ - ١٦٦، تفسير القرطبي ١٢٢/٢، تاريخ الخميس ص ١١٣، شفاء للفرام ٤/٢ - ٨.

(٦٧) علي حسن الدخوي: الكعبة على مر العصور - القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩ - ٢٠، لطفى جمصتك ثورة الاسلام ص ٥٩، الهجرى: كتاب الحج ص ٢٥، وانظر: العقد الثمين ٦٧/١ - ٦٨.

(٦٨) عبد القدوس الأنصاري: الكعبة ص ٢٣٦ (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض ١٩٨٤)، إدوار غالب: الموسوعة في علوم الطبيعة ٥٩٢/١.

عباس، رضى الله عنهما، قال قال رسول الله ﷺ: «الحجر الأسود ياقوته بيضاء من يواقيت الجنة، وإنما سودته خطايا المشركين، يبعث يوم القيامة مثل أحد، يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا» - رواه ابن خزيمة -.

ورواه الترمذى مختصراً قال: نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم» - قال الترمذى حديث حسن صحيح^(٦٩).

ولعل سائلاً يتساءل: متى انتقل إبراهيم الخليل بولده وزوجه إلى مكان البيت الحرام في مكة المكرمة؟ وبعبارة أخرى متى بدأ تاريخ مكة المكرمة؟ ثم متى بنيت الكعبة المشرفة؟

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أننا قد توصلنا في دراسات سابقة إلى أن سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - انما عاش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م)^(٧٠)، وأنه رزق بولده اسماعيل، وهو في السادسة والثمانين من عمره^(٧١)، ومن ثم فإن اسماعيل يكون قد ولد في عام ١٨٥٤ ق.م، ولما كان قد عاش ١٣٧ عاماً - طبقاً لرواية التوراة^(٧٢) - فإنه يكون قد عاش في الفترة (١٨٥٤ - ١٧١٧ ق.م).

هذا وإذا ما كان صحيحاً ماذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل قد شارك أباه إبراهيم، عليهما السلام، في بناء الكعبة، وهو في الثلاثين من عمره^(٧٣)، تصديقاً لقول الله تعالى: «وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»^(٧٤)، فإن بناء الكعبة إنما كان

(٦٩) الحافظ الدمياطي: المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح - تحقيق عبد الملك بن دهب ص ٣٠٤ (مكة المكرمة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٧٠) أنظر: محمد يوسى مهران إسرائيل ٧٢/١-٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٢٧-١٢١/١ (الرياض ١٩٨١) - دراسة حول التأريخ للأبياء ص ٨٩ - ١٧٨ (مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢م).

(٧١) تكوين ١٦/١٦.

(٧٢) تكوين ١٨/٣٥.

(٧٣) مروج الذهب ٣٦٧/١ (ط بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

(٧٤) سورة البقرة: آية ١٢٧.

حوالى عام ١٨٢٤ ق.م، ونظراً لأن إسماعيل قد جئ به إلى مكان الحرم، وهو مايزال رضيعاً، أى حوالى ١٨٥٤ ق.م، فإن بدء سكنى مكة إنما كان حوالى عام ١٨٥٤ ق.م، وهذا يعنى أن مكة قد عمرت منذ حوالى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهو تاريخ يجعلها واحدة من أقدم مدن بلاد العرب - الجنوبية والشمالية سواء بسواء-.

وهكذا يمكن القول: إن تاريخ الحجاز القديم، لن يكون مفهوماً، إلا عن طريق دراسة تاريخ أبى الأنبياء، سيدنا إبراهيم وولده سيدنا إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وعلى أية حال، فإن سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، إنما هو أبو العرب^(٧٥)، وهو باني كعبتهم^(٧٦)، وهو الذى دعا الله تعالى أن يجعل مكة أقدس بقاع الأرض^(٧٧)، وهو أول من أذن فى الناس بالحج^(٧٨)، وأول من دعا لهذه الأرض الطيبة من الحجاز الشريف بالأمن والسكينة، والخير والبركة^(٧٩).

وهكذا كان الحجاز الشريف مهد خاتم الأنبياء والمرسلين - سيدنا ومولانا وجدنا محمد، ﷺ - ومهبط الوحي، ومنزل القرآن، تتجه إليه ملايين - بل بلايين - قلوب المسلمين ووجوههم، فى كل يوم خمس مرات^(٨٠) وتؤمهم كل سنة الملايين من الحجاج، إستجابة لدعوة إبراهيم، وأداءً للفرصة الخامسة من فرائض الإسلام - الحج -^(٨١).

وهكذا يبدو بوضوح أن أبا الأنبياء - إبراهيم عليه الصلاة والسلام - لم يرتبط بدين من الأديان، كما ارتبط بالإسلام، ولم يؤمن أصحاب دين بالخليل،

(٧٥) سورة الحج: آية ٧٨.

(٧٦) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٧٧) سورة آل عمران: آية ٦٩.

(٧٨) سورة الحج: آية ٢٧.

(٧٩) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٨٠) أوقات الصلاة الخمس.

(٨١) سورة البقرة: آية ١٤٤.

كما آمن به المسلمون، ولم يتباه جنس بانتسابهم إلى الخليل، كما تباهى العرب بعامه - وقريش بخاتمة - ولم يتمسك أصحاب دين بدعوة الخليل، كما تمسك به المسلمون؛ رغم مزاعم اليهود والنصارى - أنهم ورثة الخليل، فى الإيمان والتوحيد الصحيح^(٨٢).

(٤) تحريم مكة المكرمة:

من المعروف - دينياً - أن مكة المكرمة، إنما قد حرمها الله - سبحانه وتعالى - بنص الكتاب والسنة.

(٩) فمن الكتاب قول الله تعالى: «إنما أمرت أن أعبد رب هذا البلدة الذى حرمها، وله كل شىء، وأمرت أن أكون من المسلمين»^(٨٣)، وقول الله تعالى: «وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرماً آمناً، يجسى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا، ولكن أكثرهم لا يعلمون»^(٨٤)، وقول الله تعالى: «أو لم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً، ويتخطف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون، وبنتمة الله يكفرون»^(٨٥). وروى البخارى (١٧٧/٤) بسند عن أنس: أن رسول الله ﷺ، طلع له أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرم ما بين لابتيتها (أى المدينة).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن مجاهد أن رسول الله - ﷺ، قام يوم الفتح فقال: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلى، ولا تحل لأحد بعدى، ولم تحل لى إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خللالها، ولا تحل لقطتها،

(٨٢) محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١١٥/١ - ١١٦.

(٨٣) سورة النمل: آية ٩١.

(٨٤) سورة القصص: آية ٥٧.

(٨٥) سورة العنكبوت: آية ٦٧، ثم أنظر عن تفسير الآيات الثلاثة الأخيرة (تفسير ابن كثير: ٦٠٤/٣ - ٦٠٥، ٦٣٠، ٦٧١ - ٦٧٢، تفسير القرطبي ٤٩٦٢، ٥٠١٥، ٥٠٧٩ - ٥٠٨٠، تفسير النسقى ٢٢٤/٣، ٢٤٠-٢٤١، ٢٦٤، فى ظلال القرآن ٢٦٦٩/٥ - ٢٦٧٠، ٢٦٧٠، ٢٧٠٣ - ٢٧٠٤، ٢٧٥٢، صفوة التفاسير ٤٢١/٢، ٤٤٠، ٤٦٨، تفسير البحر المحيط ١٢٦/٧).

(٨٦) صحيح البخارى ١٩٤/٥.

الا لمنشد، فقال العباس بن عبد المطلب، إلا الأذخر يارسول الله، فإنه لا بد منه للقين والبيوت، فسكت ثم قال، إلا الأذخر فإنه حلال^(٨٦).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمر بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - إئذن لى أبها الأمير، أحدثك قولاً قام به رسول الله - ﷺ - الغد يوم الفتح، سمعته أذناى، ووعاه قلبى وأبصرته عيناي، حين تكلم به، حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله - ﷺ - فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب^(٨٧).

وروى البخارى فى صحيحه (باب لا يحل القتال بمكة)، وقال أبو شريح رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: ولا يسفك بها دماً، وعن ابن عباس، رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ - يوم فتح مكة - «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنقروا فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى، إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها، قال العباس: يارسول الله، إلا الآخر، فإنه لقينهم، وليبوتهم، قال: إلا الأذخر^(٨٨)!

وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمر بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - إئذن لى أبها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله - ﷺ - للغد من يوم الفتح، فسمعته أذناى، ووعاده قلبى، وأبصرته عيناي - حين تكلم به - إنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن

(٨٧) صحيح البخارى ١٩٠/٥.

(٨٨) صحيح البخارى ١٨/٣ - ١٩.

لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب. فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فارا بدم، ولا فارا بخربة خربة بلية^(٨٩).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال قال النبى ﷺ، بمعنى، أتدرون أى يوم هذا؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: فإن هذا يوم حرام، أفتدرون أى بلد هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، أفتدرون أى شهر هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم؟ قال شهر حرام، قال: فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا^(٩٠).

وروى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ، يوم الفتح - فتح مكة - «الهجرة، جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»، وقال يوم الفتح - فتح مكة - «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط، إلا من عرفه، ولا يختلى خللاً، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الأذخر، فإنه لقينهم وليوتهم، فقال: إلا الأذخر^(٩١).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى الزبير عن جابر قال سمعت النبى ﷺ، يقول: لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح^(٩٢).

وعن أبى هريرة قال: لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ، مكة، قام فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وأنها لن تخل لأحد

(٨٩) صحيح البخارى ١٧/٣ - ١٨.

(٩٠) صحيح البخارى ٢١٦/٢ - ٢١٧.

(٩١) صحيح مسلم ١٢٣/٩ - ١٢٦.

(٩٢) صحيح مسلم ١٣٠/٩.

بعدي، فلا ينفر صيدها، ولا يختلى شوكتها، ولا تحل ساقطتها، إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يفدى، وإما أن يقتل، فقال العباس: إلا الأذخر يارسول الله، فإننا نجعله في قبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر^(٩٣).

وفي زاد المعاد «فلما كان الغد من يوم الفتح، قام رسول الله ﷺ، في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفلك فيها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحداً ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما حلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب^(٩٤).

وروى أبو داود في سننه عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: لما فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ، مكة، قام النبي ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنما أحلت لي ساعة من النهار، ثم هي حرام إلى يوم القيامة لا يعض شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها، إلا لمنشد، فقال عباس أو قال: العباس: يارسول الله، إلا الأذخر، فإنه لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر^(٩٥).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي الزبير عن جابر قال، قال رسول الله - ﷺ - «إن إبراهيم حرم مكة، وإنني حرمت المدينة، ما بين لابتيها^(٩٦)، لا يقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها^(٩٧).

(٩٣) صحيح مسلم ١٢٨/٩ - ١٢٩.

(٩٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد - تحقيق شعيب الأرنؤوط - الجزء الثالث ص ٤١١ - ٤١٢ (بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) وأخرجه السائي ٢٠٣/٥ - ٢٠٦، مسند الإمام أحمد ٣١/٤ - ٣٢، والترمذي.

(٩٥) سنن أبي داود ٤٦٥/١ (ط الحلبي - القاهرة ٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م).

(٩٦) اللابا (اللافا)، هي حرة فيها شيء مستطيل غير واسع، وهي على أية حال صخور بركانية، وأما لابتا المدينة فهما حرة وأقم والويرة حيث تحصر المدينة بينهما.

(٩٧) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

وفي «نيل الأوطار» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ - يوم فتح مكة - «إن هذا البلد حرام، لا يعصده شوكة، ولا يختلي خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته، إلا لمعرف، فقال العباس: إلا الأذخر، فإنه لا بد منه، فإنه للقيون والبيوت، فقال، إلا الأذخر» (٩٨).

وعن عطاء أن غلاماً من قريش قتل حمامة من حمام مكة، فأمر ابن عباس أن يفدى عنه بشاة - رواه الشافعي وابن أبي شيبة والبيهقي (٩٩).

وفي تهذيب الآثار بسنده عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل حرم مكة، فلم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلي خلاليها، ولا يعصده شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها، إلا لمعرف، قال العباس، إلا الأذخر، لصاغت لنا وقبورنا، قال: إلا الأذخر» (١٠٠).

(٥) حدود الحرم:

من البدهي - وقد أصبحت مكة حرماً بأمر الله تعالى - أن تحدد حدود هذا الحرم، وهي - على أية حال - معروفة، وقد نصبت فيها حجارة تعرف باسم «أنصاب الحرم»، فما رآه حل، وما دونه حرم، وأول من نصب هذه الحجارة (أنصاب الحرم) سيدنا إبراهيم عليه السلام، دله على مواضعها جبريل، عليه

(٩٨) محمد بن علي الشوكاني: نيل الأوطار، شرح متقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار - الجزء الخامس ص ٢٤ (ط الكتب العلمية - بيروت).

(٩٩) نفس المرجع السابق ص ٢٥

(١٠٠) الامام الطبري: تهذيب الآثار - مسند عبد الله بن عباس نخرج أحاديثه محمود محمد شاكر - السفر الأول ص ٧، وأنظر شرح الحديث ٨/١ - ٥٤ (ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، وأنظر أحاديث ٣٠/٥ - ٣١.

وقوله: «لا يعصده شوكة» أي لا يقطع، وقوله: «ولا يختلي خلاه» الحلا: هو الرطب من النبات واختلاؤه قطعه واحتشاشه، وقوله «إلا الأذخر» الأذخر: نبات معروف عند أهل مكة طيب الريح، له أصل مندفن وقضبان دقاق - ينبت في السهل والحزن، وأهل مكة يسقفون به البيوت بين الحشب ويسدون به الخلل بين اللينات في القبور (أنظر: نيل الأوطار ٢٤/٥ - ٢٥، تهذيب الآثار - مسند عبد الله بن عباس ٨/١ - ٥٤)

السلام، ثم حوفظ عليها بعد ذلك، قبل الإسلام، وبعده، وإلى الآن، وإلى الغد إن شاء الله.

وتروى المراجع أن أنصاب الحرم، إنما قد جددت، بعد إبراهيم، فى عهد ولده إسماعيل عليهم السلام، ثم فى عهد «قصى بن كلاب» (فى القرن الخامس الميلادى).

وفى عصر النبوة، أمر سيدنا رسول الله - ﷺ - «تسيم بن أسد الخزاعى» بتجديد أنصاب الحرم، يوم فتح مكة (٨ هـ = ٦٣٠ م)، ثم جددت فى عهد الفاروق عمر، رضى الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، فبعث أربعة كانوا يبتدئون فى بواديها - فجددوا أنصاب الحرم، منهم مخرمة بن نوفل وأبو هرد سعيد بن يربوع المخزومى، وحويطب بن عبد العزى، وأزهر بن عبد عوف . الزهرى - وهم من قريش، فجددوها.

وفى العام السادس والعشرين للهجرة (٦٤٥/٦٤٦ م) جدد ذو النورين «عثمان بن عفان» رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٦٤ - ٦٥٦ م) أنصاب الحرم وذلك عندما بعث «عبد الرحمن بن عوف» رضى الله عنه، على الحج، وأمره أن يجدد أنصاب الحرم، فبعث عبد الرحمن نفرا من قريش - منهم حويطب بن العزى، وعبد الرحمن بن أزهر، وكان سعيد بن يربوع قد ذهب بصره فى آخر خلافة عمر، وذهب بصر مخرمة بن نوفل فى خلافة عثمان، فكانوا يجددون أنصاب الحرم.

وفى العهد الأموى (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) جدها عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م).

وفى العصر العباسى (١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) جدها الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) فى عام ١٥٩ هـ (٧٧٦ م)، كما جدها «المقتدر بالله» (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)، وفى عام ٣٢٥ هـ (١٣٦ م) أمر «الراضى بالله» العباسى بعمارة العلمين من جهة التنسيم، وفى عام ٦١٦ م (١٢١٩ م) أمر «المظفر» صاحب أربيل بعمارة العلمين من جهة عرفة،

كما جددتها السلطان أحمد الأول العثماني في عام ١٠٢٣هـ (١٦١٤).

وأما آخر من جددتها فهو الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣م) من جهة عرفة. هذا ومن الجدير بالإشارة، أن حدود الحرم الغربية والشرقية إنما تبعد عن الكعبة المشرفة ٢٠ كيلا، ومن الجنوب ١٣ كيلا، حيث الآكام التي تحف بوادي عرفة، ومن الشمال مسجد العمرة (مسجد السيدة عائشة على رأس وادي التنعيم، وعلى مبعدة ٨ كيلا من الكعبة المشرفة)، وهذا يعني أن حدود حرم مكة المكرمة، إنما هو ٨٨٢ كيلا مربعا تقريبا (١٠١).

(٦) أمان مكة:

قال الله تعالى: «إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِفِينَ وَالرُّكَّعِ وَالسُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ، مِنْ أَمْنٍ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (١٠٢).

والآيات الكريمة إنما تؤكد أن الله تعالى، إنما أراد أن يكون هذا البيت مثابة يثوب إليها الناس جميعا، فلا يروعه أحد، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم، فهو ذاته أمان وطمأنينة وسلام (١٠٣).

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله - وهذا ما تختاره في تفسيره (١٠٤) - فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو

(١٠١) أنظر: الأزرقى: أخبار مكة ١٢٥/٢ - ١٣١، ٣٠٩/٢ محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - السيرة النبوية الشريفة ٢٦٠/١ (بيروت ١٩٩٠م).
(١٠٢) سورة النقرة: آية ١٢٥ - ١٢٦، وأنظر: تفسير القرطبي ج ٤٩٦ - ٥٠٥، تفسير السفي ٧٣/١ - ٧٥، صفوة التفاسير ٩٢/١ - ٩٤، تفسير السعدي ٦٥/١ - ٦٦، تفسير الطبري ٢٥/٣ - ٥٦، تفسير المنار ٣٧٨/١، تفسير ابن كثير ٢٥٠/١ - ٢٥١.
(١٠٣) في ظلال القرآن ١١٣/١.

(١٠٤) اختلف المفسرون في المراد بمقام إبراهيم، فقليل هو المقام المعروف، وقيل هو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة، وقيل هو الحرم كله، وروى ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها، وقيل عرفة ومزدلفة والجمار، وعن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر، رضي الله عنه، ملتصقا بالبيت، ثم أخره عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، وقيل كان المقام عند البيت، فحول رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا (أنظر تفسير المنار ٣٧٩/١، تفسير ابن كثير ٢٥١/١ - ٢٥٤).

الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً، وهو أول قبلة يتوجه إليها المسلمون - ورثة إبراهيم بالإيمان والترحيد الصحيح - بما أنه بيت لقصاده وعباده من المؤمنين، بيت الله، لا بيت أحد من الناس، وقد عهد الله - صاحب البيت - إلى عبيد من عباده صالحين، أن يقوموا بتطهيره وإعداده للطائفتين والعاكفين والركع السجود، - أى للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون - فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكاً لهما، فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده.

ثم مرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت وللبلد، ويدعو للمؤمنين من سكانه أن يرزقهم الله من الثمرات^(١٠٥).

وعن أبى العالية فى قوله تعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً، يقول: وأمناً من العدوان، وأن يجعل فيه السلام، وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسيون.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يعرض له، كما وصفه الله - فى المائدة - «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس»، أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها سوء^(١٠٦).

ولقد أكد الله تعالى الأمن للبلد الحرام، فى سورتي القصص والعنكبوت^(١٠٧) - كما أشرنا من قبل -.

(٧) مكة فى عهد إسماعيل وولده:

عاش إسماعيل - عليه السلام - بجوار بيت الله الحرام، وتزوج من امرأة مصرية، على رواية التوراة^(١٠٨)، ومن يمتنيه على رواية الإخباريين^(١٠٩) وقد أنجب

(١٠٥) فى ظلال القرآن ١١٣/١ - ١١٤.

(١٠٦) تفسير ابن كثير ٢٥١/١، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(١٠٧) سورة القصص: آية ٥٧، سورة العنكبوت: آية ٦٧.

(١٠٨) تكوين ٢١: ٢١.

(١٠٩) ابن كثير ٢/١ - ١٩٣، تاريخ الطبرى ٣١٤/١، ابن الأثير ٤/١ - ١٠٥، ١٢٥،

الأردنى ٨٦/١، مروج الذهب ٢/٢٠ - ٢١، تاريخ ابن خلدون، المعارف ص ١٦

من زوجته المصرية أو اليمنية - لست أدى على وجه التأكيد- أولاده إلاثني عشر، وهم - طبقا لرواية التوراة^(١١٠) - «بنايوت وقيدار وأدثيل ومبسام ومشماع ودومه ومسا وحدار وتيحا ويطور ونافيش وقدمه» وقد نقلهم الأخباريون في كتبهم بشيء قليل أو كثير من التحريف^(١١١).

وأيا ما كان الأمر، فإن إسماعيل قد ظل - بعد إبراهيم - يدعو الناس إلى عبادة الله في مكة ومجاورتها، حتى إذا ما انتقل إلى جوار ربه الكريم قام بنوه من بعده على السلطة الزمنية في مكة، وعلى خدمة البيت الحرام غير أن «جرهم» - طبقا لرواية الاخباريين - سرعان ما تولت أمر البيت، وأبناء إسماعيل مع أخوالهم لا يرون أن ينازعوهم الأمر، لخزولتهم وقرابتهم وإعظاما للحرمة أن يكون بها بني أو قتال، إلى أن قدمت قبائل «الأزد» مهاجرة من اليمن، في فترة لانستطيع تحديدها على وجه اليقين، ونازعت واحدة من هذه القبائل (خزاعة) جرهم أمر البيت، حتى استولت عليه وطردت جرهم من مكة، ولم يلبث أبناء إسماعيل أن انتشروا في أنحاء شبه الجزيرة العربية، وخاصة في شمالها، وليست أسماء القبائل التي نسب إلى إسماعيل، إلا أسماء أبنائه أو أحفادهم^(١١٢).

وتاريخ بنى إسماعيل من هذه الفترة، وحتى عهد قصى، غامض غموضا شديدا، ولا يعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملأون فراغ هذه القرون المتطاولة، ولا تبرز شمسهم - مشبعة بالغيوم - فوق أفق التاريخ الحقيقي - إلا من عهد قصى في منتصف القرن الخامس الميلادي، على أن هذا لا يمنعنا أن نذكر - طبقا لروايات الاخباريين - أنهم هم الذين قاموا على الحكومة والبيت في مكة،

(١١٠) تكوين ٢٥: ١٤ - ١٦.

(١١١) ابن الأثير ١٢٥/١، تاريخ الطبری ٣١٤/١، ابن كثير ١٩٣/١، مروج الذهب ٢١/١ - ٢٢، تاريخ ابن خلدون ٣٩/٢، الأخبار الطوال ص ٩، تاريخ الخميس ١١١، جمهرة أساب العرب ص ٧، ٩ - ١٥، شفاء الغرام ١٧/٢ - ١٨.

(١١٢) مروج الذهب ٢٢/٢ - ٢٤، الأخبار الطوال ص ٩ - ١٠، صبح الأعشى ٣١٥/١، العقد الشمس ١٣١/١ - ١٣٢، تاريخ الخميس ص ١٢٤ - ١٢٦، أحمد إبراهيم الشريف. مكة والمدنية في الجاهلية وعصر الرسول ص ١٠١، مبروك نافع: المرجع السابق ص ١٣٣، ابن هشام ١٢٥/١.

الخليل، عليهما السلام^(١١٦)، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «إختار الله من ولد إسماعيل كنانة، وإختار قريشا من كنانة، وإختار بنى هاشم من قريش، وإختارني من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار^(١١٧)» وفي رواية مسلم في صحيحه (٣٦/١٥): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصياً إنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالفنا ريب فيما نقول، فالرجل قد خلّد ذكره في التاريخ بأعماله العظيمة في مكة، رغم ريب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم في تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مئات السنين، والرجل هو الذي جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد إسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المغتصبين من خزاعة.

وقد قام قصي بعدة إصلاحات في مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه «دار الندوة»، حيث كان يدار فيها - تحت رياسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح - فما كان لرجل ولا لأمراة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك بيناتهم إذا بلغن الحلم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

(١١٦) تاريخ الطبري ٢/٢٥٤ - ٢٧٥، ابن الأثير ١٨/٢ - ٣٣، ابن خلدون ٢/٢٩٨، تاريخ الاسلام للذهبي ١٧/١، الاشتقاق ١/٢٠ - ٣٢، الاكليل ١١٠/١ - ١١٦، أخبار الزمان للمسعودي ص ١٠٤، القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزبيرى: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤

(١١٧) ابن كثير. البداية والنهاية ٢/٢٠٢، وانظر: المواهب للقسطلاني ١/١٣١.

الخليل، عليهما السلام^(١١٦)، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «اختار الله من ولد اسماعيل كنانة، واختار قريشا من كنانة، واختار بنى هاشم من قريش، واختارني من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار»^(١١٧) وفي رواية مسلم في صحيحه (٣٦/١٥): «إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفاني من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصيّا إنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالفنا ريب فيما نقول، فالرجل قد خلد ذكره في التاريخ بأعماله العظيمة في مكة، رغم ريب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم في تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مشات السنين، والرجل هو الذي جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد اسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المفتصبين من خزاعة.

وقد قام قصي بعدة إصلاحات في مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه «دار الندوة»، حيث كان يدار فيها - تحت رياسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح - فما كان لرجل ولا لأمراة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك بيناتهم إذا بلغن الحلم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

(١١٦) تاريخ الطبري ٢/٢٥٤ - ٢٧٥، ابن الأثير ٢/١٨ - ٣٣، ابن خلدون ٢/٢٩٨، تاريخ الاسلام للذهبي ١/١٧، الاشتقاق ١/٢٠ - ٣٢، الاكليل ١/١١٠ - ١١٦، أخبار الزمان للمسمودي ص ١٠٤، القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزبيرى: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤.

(١١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/٢٠٢، وانظر: المواهب للقسطلاني ١/١٣.

أعضاء دار الندوة هذه، فكانوا جميع ولد قصى، وبعضاً من غيرهم، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عمره، أو كان من ذوى القدرات الخاصة^(١١٨)، وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة فى آن واحد، يديرها الملاء من القوم - الذين كانوا يشبهون إلى حد ما أعضاء مجلس الشيوخ الأثينى^(١١٩) - ويتكونون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأى والحكمة فيهم، للنظر فيما يعترض القوم من صعاب^(١٢٠).

وكان قصى شديد العناية بالبيت الحرام، حتى ذهب البعض إلى أنه أعاد بناءه، ومن ثم فإن قصياً إنما هو أول من جدد بناء الكعبة من قريش ثم سقفها بخشب الدوم، وجريد النخل.

ويشير الأزرقي إلى استعانة قصى بأخيه لأمه «زراح بن ربيعة»، وهو بيلاد قومه «بنى عذرة» من قضاة، وأن قصياً - وقد انتصر على أعدائه من خزاعة، وأصبح سيد المدينة المقدمة - إنما قال فى ذلك شعراً يتشكر فيه لأخيه «زراح بن ربيعة»:

أنا ابن العاصمين بنى لوى	بمكة مولدى وبها ربيت
ولى البطحاء قد علمت معد	ومروتها رضيت بها رضيت
وفيهما كانت الآباء قبلى	فما شويت أخى ولا شويت
فلست لغالب إن لم تأئل	بها أولاد قيسدر والنبيت
زراح ناصرى وبه أسامى	فلست أخاف ضيماً ما حيت ^(١٢٠)

(١١٨) عبد الحميد العبادى: المرجع السابق ص ٨ - ٩، الأغابى ٤ / ٣٨٤، الألوسى ١ / ٢٤٨، ابن هشام ١ / ١٣٤ - ١٣٦ (مكتبة الجمهورية بمصر)، ابن سعد ١ / ٣٩ - ٤٠، المقدسى ٤ / ١٢٧، الأزرقي ١ / ٢٠٧ - ٢٠٩، ياقوت ٥ / ١٨٦ - ١٨٧، تاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٧ - ٢٥٩، تاريخ يعقوبى ١ / ٢٤٠، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٣٥، أساب العرب للبلادى ١ / ٥٢، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٣٠٠، شفاء الغرام ٢ / ٨٦ - ٨٧، الإشتقاق ١ / ١٥٥، تاريخ مكة ص ٤٥، حياة محمد ص ١١١، أحمد إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١٥.

P. K. Hitti, op. cit., p. 104.

(119) W. M. Watt, op. cit., p. 9.

De Lacy O'Leary, op. cit., p. 183.

(١٢٠) جواد على ٤ / ٤٧، وكذا:

هذا وقد نص الشعر العربي الجاهلى على بناء «جرهم للبيت الحرام» ومن ذلك قول «زهير بن أبى سلمى المزنى» (ت. ٦٠٩ م) فى معلقته:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم (١٢١)

وقول الأعشى (ميمون بن قيس ت. ٦٢٩ م):

فسيانى وثوبى راهب اللج والى بناها قصى والمضاض بن جرهم (١٢٢)

ويقول الأستاذ الأنصارى: ولما كانت «الراو» فى اللغة العربية حرف عطف، لا يقتضى الترتيب الزمنى فيما عطف بها، وعليه فتقديم «قريش» و «قصى» فى البيتين على «جرهم»، ليس معناه أن بناء قريش وقصى - الذى نرى أن المعنى به بناء قريش - هو سابق فى الزمن لبناء جرهم، فإن الأمر بالعكس من ذلك، كما هو معلوم ومعروف، بالبداية من التاريخ (١٢٣).

وكان قصى أول من أظهر «الحجر الأسود» وجريد النخل، كما كان أول من أظهر الحجر الأسود بعد أن دفتته «إياد» فى جبال مكة، ثم أوكل أمره من بعده إلى جماعة من قريش، حتى أعاد القوم بناء الكعبة فى عام ٦٠٦ م (١٥ ق. هـ)، فوضعه فى ركن البيت بإزاء باب الكعبة فى آخر الركن الشرقى، ويحدثنا التاريخ أن القوم كادوا يقتتلون على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، لولا حكمة سيد الأولين والآخرين - محمد ﷺ - وذلك بأن وضع الحجر فى ثوب، ثم أمر بأن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم رفعوه جميعاً، فلما بلغوا موضعه، وضعه بيده الشريفة، ثم بنى عليه (١٢٤).

(١٢١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى، ص ١٤.

(١٢٢) ديوان الأعشى، ص ١٥.

(١٢٣) عبد القدوس الأنصارى: الكعبة (الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م).

(١٢٤) مروج الذهب ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٦، تاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٠، ابن كشير ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٤، ابن الأثير ٢/ ٤٤ - ٤٥، باقوت ٤/ ٤٣٦٦، ابن هشام ١/ ١٩٩ - ٢٠٠، الأزرقى ١/ ١٥٧ - ١٦٤، تاريخ الخميس، ص ١٢٦ - ١٣١، المقدسى ١/ ١٤٠، ابن سعد ١/ ٩٣ - ٩٥، تفسير القرطبى ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، هيكمل: حياة محمد، ص ١٤١ - ١٤٢.

ولعل من أهم أعمال قصى أنه جعل وظيفة «سدانة الكعبة» - وهى خدمة البيت الحرام - من أهم الوظائف فى عهده، والأمر كذلك بالنسبة إلى وظيفة «السقاية»، بخاصة فى بلد شحت مياهه فى وقت كان يستقبل فيه أكثر مما يطبق من الحجيج، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار بيت الله الحرام، حتى يسر لهم مهمة الحج، ويجعل الإقبال عليه كبيراً، ومن ثم يذهب الاخباريون إلى أن قصياً قد حفر بئراً سماها «العجل»، وكانت «الرفادة» - وهى خراج تدفعه قريش من أموالها إلى قصى ليصنع منه طعاماً للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة - من الوظائف الهامة التى ظهرت فى مكة على أيام قصى، وتروى المصادر العربية أن قصياً قال لقومه: «إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشرباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم»، ففعلوا فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام «منى»، فجرى الأمر على ذلك فى الجاهلية والإسلام، وأخيراً كان من أعمال قصى «اللواء» - وهو رئاسة الجيش فى الحروب - ويسند لمن بيده اللواء، يسلمونه إليه عند قيام الحرب (١٢٥).

ويجمع المؤرخون على أن قصياً إنما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعاً حتى وفاته، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع فى قومه، لا يخالف، ولا يرد عليه شئ أقره، ولعله فى جمعه لرئاسة دار الندوة وعقده اللواء وجمعه الرفادة، يقابل فى اصطلاحاتنا الحديثة، رئاسة السلطات التشريعية والحربية والمالية - إن جاز هذا التعبير (١٢٦).

ولعل هذا هو الذى دفع «الأب هنرى لامانس» إلى القول، بأن مكة إنما

(١٢٥) ابن الأثير ٢ / ٢١ - ٢٣، الطبرى ٢ / ٢٥٨ - ٢٦٠، ابن هشام ١ / ١٣٤ - ١٤٠، ياقوت

١٨٧٦ / ٥، ابن سعد ١ / ٤١، البلاذرى ١ / ٥١، ابن خلدون ٢ / ٢٣٥، اليعقوبى ١ / ٢٤٠ -

٢٤٢، الأزرقى ١ / ٦٢، ١٢٧.

(١٢٦) محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص ١٣٩.

كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية، وقد يكون لشخصية «قصي» الفذة تأثيره في ذلك، إلا أن تنظيمات قريش لم تكن في واقع الأمر، إلا تنظيماً قبلياً في جوهره، وإن بدا في ظاهره تنظيماً جمهورياً، لأن الزعيم لم يكن يحمل لقباً معيناً، فضلاً عن أن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن العشيرة إنما كانت تتمتع بحرية كاملة، ولا تخضع لسلطان غيرها في كثير من الأحيان، بل إن كثيراً من الأفراد إنما كانوا يخرجون على رأى العشيرة نفسها، ومن النوع الأول عدم مشاركة بنى زهرة لقريش في موقعة بدر، رغم موافقتها على القتال وخروجها إليه، بل إن بنى عدى لم يخرجوا للقتال أصلاً، ومن النوع الثانى خروج أبى لهب على رأى بنى هاشم، وانضمامه إلى بقية بطون قريش في مقاطعتها لبنى هاشم، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش. رغم تضامنه مع بنى هاشم، هذا إلى جانب أن العشيرة إنما كانت تخرج أحياناً على رأى مجلس القبيلة، ومثال ذلك اجتماع بنى هاشم والمطلب على حماية المصطفى - ﷺ - ومواجهة قريش (١٢٧).

ويرى الدكتور طه حسين - يرحمه الله - أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاماً من نظم الحكم التى يعرفها الناس، فلم يكن لها ملك، ولم تكن جمهورية ارسطوقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضاً، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها، وإنما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية، فهى منقسمة إلى أحياء وبطون وفصول، والتنافس بين هذه جميعاً قد يشتد حيناً ويلين حيناً آخر، ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية، كما هو الحال فى البادية، وأمور الحكم، تجرى كما تجرى فى البادية، وكل ما وصلت إليه قريش من التطور فى شؤون

(١٢٧) أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ١١٢ - ١١٣، ابن هشام ١/ ٣٦٥، الطبرى ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٨، ٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٣، ابن الأثير ٢/ ٨٧، ١٧، ١٢١، ابن كثير ٣/ ٨٤ - ٨٨، ٢٥٧، ٢٦٦، وكذا.

H. Lammens, La Republique Marchand de la Mecque.

الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يرجع إليه فيما يشكل من الأمر، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتزم منها مجلس في المسجد الحرام، أو في دار الدوة (١٢٨).

ويذهب الدكتور الأنصاري إلى أن أقرب مسمى ينطبق على مكة المكرمة لعله المسمى الذي كان معروفاً منذ القدم، وهو «ممالك المدن»، وإن كانت قريش لم تأخذ بمميزات هذه الممالك، إلا أن ما قام به «قصي» من تنظيمات نجعلنا نعتقد أن تأثير التنظيمات السياسية في بلاد الشام، إنما كان واضحاً فيها، ومن المعروف أن قصياً إنما قد عاد يافعاً من أطراف بلاد الشام، فلعله شاهد فيها تنظيمات المدن (١٢٩)، ووجد مكة سهياً لذلك، ووجد في قريش عنصراً مساعداً على تفهم الأهداف التي يرمى إليها، وإن كان الأمر أصبح وراثياً، فيما وزعه بين أبنائه من سلطات وأعمال كلفوا بها.

وأما أقدم ذكر لقريش في النصوص العربية الجنوبية القديمة، فربما كان - كما أشرنا من قبل - يرجع إلى أيام الملك الحضرمي «العزيط»، والذي حكم في القرن الأول قبل الميلاد على رأي، وفي القرن الثالث الميلادي على رأي آخر (١٣٠)، فهناك ما يشير إلى أن عشر نساء قرشيات رافقن الملك «العزيط» إلى حصن «أنو»، فإذا كان النص يعني حقاً قرشاً، قريشاً صاحبة مكة، فإننا نكون وقفنا لأول مرة على اسم قريش في وثيقة مدونة من عصر هذا الملك (١٣١).

(١٢٨) طه حسين: مرآة الإسلام، ص ٢٢.

(١٢٩) فؤاد حسين. المرجع السابق، ص ٢٧٤ - ٢٧٩، وكذا:

H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., p. 114.

BASOR, 119, p. 14.

وكذا:

(١٣٠) حراد على ١٢ / ١٤٥، وكذا:

Le Museon, 1964, 3 - 4, p. 484.

(٩) بنو هاشم:

وأياً ما كان الأمر، فلقد أنجب قصى ثلاثة أبناء - عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى - ورغم أن عبد الدار كان أكبر أخوته، إلا أن عبد مناف كان أكثر شهرة، وأرفع شأنًا، وأعظم مهابة، ومن ثم فقد رأى قصى أن يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة، فأسند إليه كثيراً من الوظائف ليقارم شخصية أشبه بالقوية؛ وتمضى الأيام وورث الأبناء الآباء، ويقوم النزاع بينهم، حتى ينتهى آخر الأمر؛ بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة (مفاتيح الكعبة) واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار (١٣٢).

ويتولى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه عبد مناف، ويروى المؤرخون أنه كان غياث قومه فى عام الهجرة، فرحل إلى فلسطين حيث اشترى كميات من الدقيق وقدم بها إلى مكة؛ فبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس أو وارد عليه، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الشريد ودعوة الجياح إلى قصاعه بدلاً من اسمه الأصلي عمرو، وما يروى عنه كذلك أنه أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها، فنسب إليه أنه أول من سنها (١٣٣).

هذا بالإضافة إلى أن الرجل العظيم قد عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية، ومع أمير غسان، معاهدة حسن جوار ومودة، وحصل من الامبراطور الرومانى على

(١٣٢) ابن الأثير ٢/ ٢١، تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٥، ٢٥٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٥-٣٣٦، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤١، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٤، ابن سعد ١/ ٤١ - ٤٢، المحبر، ص ١٦٦، المعارف، ص ٦٠٤، أنساب الأشراف ١/ ٦٠، العقد النسيم ١/ ١٤٨، شفاء العرام ٢/ ٧٥ - ٧٦، ٨٧، نسب قريش ص ١٤، ياقوت ٥/ ١٨٧، جمهرة أنساب العرب، ص ١٤، نهاية الأرب ١/ ٢٤٨، الأزرقى ١/ ١٠٩ - ١١٠.

(١٣٣) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥١ - ٢٥٢، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٦ - ٣٣٧، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٥ - ٢٨٦، ابن هشام ١/ ١٤٥ - ١٤٦، أنساب الأشراف ١/ ٥٨، الاشتقاق ١/ ١٣، المقدسى ٤/ ١٢٨ - ١٢٩، ابن سعد ١/ ٤٣ - ٤٤، ذيل الأمالى والوادى ص ١٩٩ - ٢٠٠، حياة محمد ص ١١٢، العقاد. المرحح السابق، ص ٢٠، الأزرقى ١/ ١١١. تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٢ - ٢٤٣، صبح الأعشى ١/ ٣٥٨، نهاية الأرب للقلقشدى ص ٣٩٥، العقد النسيم ١/ ١٤٨، بلوغ الأرب ٢/ ٢٨٤، شفاء العرام ٢/ ٧٧، ٨٨.

الإذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس، ومعاملة تجارية مع الحميريين في اليمن (١٣٤).

ويذهب الاخباريون إلى أن هاشماً وعبد شمس نؤمان، وأن أحدهما ولد قبل الآخر وأصبح له ملتصقة بجبهة صاحبه، فنحيت فسال الدم، فقليل يكون بينهما دم، ومن ثم فإنهم يرون أن أمية بن عبد شمس قد حسد هاشماً على رياسته وإطعامه، فتكلف أن يصنع مثله، ولكنه قد عجز، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش، وتنافر هو وهاشم، وانتهى الأمر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين، فكان ذلك أول خلاف بين بني هاشم وبني أمية (١٣٥).

وفي الواقع - كما يقول الأستاذ العقاد - فلقد كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء، وينعقد الإجماع - أو ما يشبه الإجماع - على أخبار الجاهلية التي تنم على هذه الخصال في الأستين، وبقي الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه (١٣٦).

وهناك ما يشير إلى أن المنافرات بين البيتتين - الهاشمي والأموي - قد استمرت، وذلك أمر لا غرابة فيه، فالبيتان - فيما نظن - على طرفي تقيض، وربما خفي السبب الذي يرجع إليه هذا الفارق بين الأستين، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول، وقد رمى الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة عمود

(١٣٤) تاريخ يعقوبى ١/ ٢٤٢ - ٢٤٣، تفسير الفجر الرازي ٣١/ ١٨٠، نمار القلوب للثعالبي ص ١١٥ - ١١٦، ذيل الأمالي والنوادر، ص ١٩٩، حياة محمد ص ١١٥، وكذا: L. Caetani, Annali dell'Islam, 1905, p. 109.

(١٣٥) ابن الأثير ٢/ ١٦ - ١٧، تاريخ الطبري ٢/ ٢٥٢ - ٢٥٤، تاريخ يعقوبى ١/ ٢٤٢، ابن سعد ١/ ٤٤، ٥٢، شفاء الغرام ٢١/ ٨٥، نسب قريش ص ١٤، بلوغ الأرب ٢/ ٢٨٣ - ٣٨٤، نهاية الأرب ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨، المقريزي: كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ص ٢، ٧، حواد على ٤/ ٧١ - ٧٢، عمد المنعم ماحد. المرجع السابق ١/ ١٠٣ - ١٠٤، قارن تفسير المنار ١١/ ٩٧.

(١٣٦) العقاد. مطلع النور، ص ١١٨.

النسب، وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم فى صدر الإسلام، وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة «ذكوان» الذى يقولون أنه من آبائهم، ويقول النسابون أنه عبد مستلحق على غير سنة العرب فى الجاهلية.

فلقد روى «الهيثم بن عدى» فى كتاب «المثالب» أن «دغفلا» النسابة دخل على معاوية بن أبى سفيان - وهو خليفة - فقال له معاوية: من رأيت من عليّ قريش؟ فقال: رأيت عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس قال: فصفت أمّية، قال: رأيت شيخاً قصيراً، نحيف الجسم، ضريباً يقوده عبده «ذكوان»، فقال: مه، ذاك ابنه أبو عمرو، فقال: هذا شئ قلتموه وأحدثتموه، أما الذى عرفت، فهو الذى أخبرتك (١٣٧).

وفى العقد الفريد، «قيل للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة - أخبرنا عنكم وعن بنى أمّية، فقال: بنو أمّية أغدر وأمكر وأفجر، ونحن أصبح وأفصح وأسمح».

وعلى أى حال، وأياً ما كان سر هذا الفارق البين، فلقد كان بنو هاشم - أسرة النبى ﷺ - أصحاب رئاسة، وكانت لهم أخلاق رئاسة، عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة، وبرزت كل خليفة من هذه الخلائق فى حادثة ماثورة مذكورة، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديج التى يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التى ترسل إرسالاً على الألسنة ولا يراد بها معناها.

ويبلغ هذا التنافر بين الأسرتين شأواً بعيداً، فيما بين عبد المطلب وحرب بن أمّية، إذ كان كلاهما نمطاً فى بابه، ويروى المؤرخون أن حرباً نافر عبد المطلب إلى نفيل جند عمر بن الخطاب - وإن رأى البعض أن المنافرة إنما كانت مع هاشم - وأن نفيلاً قد قضى فيها لعبد المطلب، وأنه خاطب حرباً قائلاً: «أتنافر

(١٣٧) انظر. العقد: مطلع البور، ص ١١٨ - ١٢٠، ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلى، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٢٢، الأعشى ١/ ١٢.

رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً، وأطول منك مذوداً^(١٣٨).

وأما في الإسلام، فقد كان بنو أمية حجرة عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية وناصبوها العداء الشديد، إلا قليلاً منهم ممن هداهم الله للإسلام، وبعد هجرة الرسول - ﷺ - إلى المدينة المنورة، واشتباك المسلمين مع مشركي قريش، كان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قائد الجيش في غزوة بدر، وكان أبو سفيان قائد العير، وفي غزوتي أحد والأحزاب كان أبو سفيان قائداً للجيش، بل إن أبا سفيان، حتى بعد إسلامه يوم فتح مكة، فقد كان - وكذا ولده معاوية - من الطلقاء ومن المؤلفة قلوبهم، فضلاً عن أنه هو القاتل بعد اضطراب المسلمين في غزوة حنين والأزلام في كنانته ولا تنتهي هزيمتهم دون البحر، تعبيراً عما في نفسه من الضغن على الإسلام ورسول الإسلام^(١٣٩).

هذا وقد تميز عهد عبد المطلب بأمر كثيرة هامة، لعل أهمها: إعادة حفر زمزم، وحملة الفيل على مكة، على أن أهم الأحداث من عهده دون منازع - ليس في تاريخ مكة فحسب، وإنما في تاريخ البشرية جمعاء - إنما كان مولد جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ - وبذا كتب للرجل العظيم أن يكون جد سيد الأولين والآخرين، جد المهطلي ﷺ.

وعلى أية حال، فإن كتب السيرة إنما تروى أن عبد المطلب، إنما قد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم حتى أنه

(١٣٨) العقاد: مطلع النور، ص ١١٨ - ١٢٠، وانظر: بلوغ الأرب ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨، أعلام النبوة للماوردي، ص ١٣٨ (القاهرة ١٩٣٥)، عبد الفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٠.

(١٣٩) عبد الفتاح شحاته: المرجع السابق، ص ٢٥٠، ابن الأثير ٢ / ١٢٣ - ١٢٤، ١٢٤، ١٤٩، ١٧٨، ٢٦٣، ابن كثير ٣ / ٢٦٩ - ٢٧٠، ٤ / ١١، ٩٥، ٣٢٧، تاريخ الطبري ٢ / ٤٤٢ - ٤٤٣، ٥٠١، ٥٦٦، ٣ / ٧٤، المعارف ص ٧٥، المخبر ص ٤٧٣، تفسير الطبري ١٤ / ٣١٣ (دار المعارف ١٩٥٨) نهاية الأرب للقلقشندي ص ٧٩٨ (بغداد ١٩٥٨)، عبد المعصم ماجد. المرجع السابق، ص ١١٣، ١١٥ - ١١٧.

كان يفرش له فراش حول الكعبة، فيجلس عليه، ويجتمع حوله رؤساء قريش، لا يجزؤ أحد على أن يجلس على فراشه، إلا النبي ﷺ (١٤٠).

وروى ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: كان لعبد المطلب مفرش في الحجر يجلس عليه، لا يجلس عليه أحد غيره، وكان رؤساء قريش يجلسون حوله - دون المفرش - فجاء رسول الله ﷺ - وهو غلام لم يبلغ الحلم - فجلس، فجذبه رجل فبكى، فقال عبد المطلب: ما لابنى يبكى؟ قالوا: أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه، فقال عبد المطلب: دعوا ابني يجلس، فإنه يحس في نفسه الشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لا يبلغه عربى - قبله ولا بعده - فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب.

هذا وقد دلت شفاعية عبد المطلب على ما للنبي ﷺ، من شأن عظيم، فأحبه حباً ما أحبه أحد مثله، وفي كل مناسبة كان يأخذ بيد ولده أبى طالب، ويضعها في يد حفيده محمد - ﷺ ويقول له: «يا أبا طالب سيكون لابنى هذا شأنًا، فاحفظه ولا تدع مكروهاً يصل إليه».

هذا وتروى كتب السيرة أيضاً أن عبد المطلب إنما كان مجاب الدعوة، وكان يقال له «الفياض» لجوده، و«مطعم طير السماء»، لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، كما كان من حلماء قريش وحكمائها.

وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنشئات الأمور، وكان يقول - كما في السيرة الحلبية - «لن يخرج من الدنيا ظلم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل من أهل الشام لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك ففكر ثم قال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بأساءته».

هذا وقد رفض عبادة الأصنام - في آخر عمره على الأقل - وروى الله سبحانه وتعالى، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، وجاءت السنة بها، منها الوفاء

بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المروودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان^(١٤١).

وكان عبد المطلب - أو شعبة الحمد، وهذا اسمه الأصلي^(١٤٢) - قوى الشخصية، عريض الجاه، مسموع الكلمة، روى أن رجلاً من «تميم»^(١٤٣) تقدم حرب بن أمية، فقال له حرب: موعذك مكة، فبقى التميمي دهرأ، ثم أراد دخول مكة، وأخذ يبحث عن مجير له، فقبل له: لا يجيرك إلا عبد المطلب، فأتى ليلاً، ودخل دار الزبير بن عبيد المطلب بن هاشم - أول من دعا إلى حلف الفضول^(١٤٤) - وأخبره القصة، فقال له الزبير: تقدم إلى المسجد، فإننا لا نتقدم من نجيره، فرآه حرب بن أمية، فلطمه، فغدا عليه الزبير بالسيف، فأخذ حرب يعدو، حتى دخل دار عبد المطلب - والد الزبير - وقال له: أجزني من الزبير، فأكفا عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها، فبقى تحتها ساعة، ثم قال له عبد المطلب: أخرج، فقال حرب: كيف أخرج، وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيوفهم على الباب، فألقى عليه عبد المطلب رداءة، فعلم أنبأه أنه أجاره، ففترقوا.

والى هذه القصة أشار عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حين دخل على معاوية بن أبي سفيان بن حرب في خلافته، وعنده وفود العرب، فذكر كلاماً عن حرب بن أمية، فقال له ابن عباس: «من أكفا عبيد المطلب إناء، وأجاره بردائه، فسكت معاوية تماماً»^(١٤٥).

وروى أن يهودياً - كان في جوار عبد المطلب - أغلظ القول لحرب بن أمية في سوق نهامة، فأعزى به من قتله، فلم يتركه عبد المطلب حتى أخذ منه مائة

(١٤١) انظر السير الحلبية ١ / ٦ - ٧.

(١٤٢) أساب الأشراف ١ / ٦٤ - ٦٥، ابن كثير، السيرة النبوية ١ / ١٨٤ - ١٨٥، سيرة ابن

هشام ١ / ١٣٧ - ١٣٨، السيرة الحلبية ١ / ١٠ - ١١.

(١٤٣) تميم: قبيلة عربية في نجد، لها بطون كثيرة (كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة

١ / ١٢٥ - ١٣٣).

(١٤٤) انظر: السيرة الحلبية ١ / ٢١١ - ٢١٥، ابن كثير، السيرة النبوية ١ / ٢٥٧ - ٢٦١.

(١٤٥) انظر (محمد. يومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١ / ٨٣

ناقة، دفعها لابن عيم اليهودى، الذى كان فى جواره، ثم ترك منادمة حرب، ونادم عبد الله بن جدعان^(١٤٦).

هذا وقد تنازع العلماء فى دين عبد المطلب، فذهب فريق إلى أنه كان على ملة إبراهيم - أى أنه لم يعبد الأصنام، على أن هناك وجهاً ثانياً للنظر، يذهب إلى أن الله أحياء - بعد حديث النبى - ﷺ - أنه من أصلاب الطاهرين وأرحام الطاهرات، دليل على أن آباء النبى - ﷺ - وأمّهاته إلى آدم، ليس فيهم كافر، لأن الكافر لا يوصف بأنه طاهر، روى ابن الجوزى^(١٤٧) فى الوفاء عن ابن عباس، أن رسول الله - ﷺ - قال: «لم يلتق أبواى قط على سفاح، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، ولانتشعب شعبتان، إلا كنت فى خيرهما».

وعن أبى هريرة أنه ﷺ، قال: «ما ولدنى بغى قط، منذ خرجت من صلب آدم، ولم تتنازعنى الأم كائناً عن كائناً، حتى خرجت من أفضل حيين من العرب، هاشم وزهرة»، وفى هذا دليل على طهارة آباءه وأمّهاته من الكفر.

وأورد «ابن عساكر» من حديث عاصم عن شعيب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى «وتقبلك فى الساجدين»^(١٤٨) قال: «من نبى إلى نبى، حتى أخرجت نبياً».

وروى البزار وابن أبى حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: يعنى قلبه من صلب نبى إلى صلب نبى، حتى أخرجه نبياً^(١٤٩).

وفى تفسير القرطبى: وقال ابن عباس: أى فى أصلاب الأنبياء آدم ونوح

(١٤٦) انتظر: أنساب الأشراف ١/ ٧٣ - ٧٤، السيرة الحلبية ١/ ٦، محمد يومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١/ ٨٣.

(١٤٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى: الوفا بأحوال المصطفى - الجزء الأول - القاهرة ١٩٦٦.

(١٤٨) سورة الشعراء: آية ٢١٩

(١٤٩) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣.

وإبراهيم حتى أخرجه نبياً (١٥٠).

هذا وقد حكم الإمام القرطبي أن من مات قبل البعثة - زمن الفترة - إنما يموت ناجياً، ولا يعذب، ويدخل الجنة (١٥١)، لقول الله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (١٥٢).

وقد طبقت الأئمة الأشاعرة من أهل الأصول، والشافعية من الفقهاء، على أن من مات، ولم يبلغه الدعوة، يموت ناجياً، ويدخل الجنة، ونص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه (١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م) في درته الفريدة «الأم» (١٥٣)، ومن ثم فإن عبد المطلب إنما كان مؤمناً، أو أنه لم يشرك بالله عز وجل.

وفي السيرة الحلبية، عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال رسول الله - ﷺ - «يبعث جدى عبد المطلب فى زى الملوك، وأبهة الأشراف» (١٥٤).

على أن هناك رجهاً رابعاً للنظر إنما يذهب أصحابه إلى أن عبد المطلب إنما كان مشركاً - هو وغيره من آل النبي ﷺ - إلا من صح إيمانه، وهذا أمر فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الفرق فى النص والاختيار (١٥٥).

(١٥٠) تفسير القرطبي، ص ٤٨٦٠.

(١٥١) تفسير القرطبي، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٢) سورة الإسراء: آية ١٥، وانظر تفسير ابن كثير ٤٧ / ٣ - ٥٤، تفسير النسفي ٣٠٩ / ٢، فى ظلال القرآن ٢٢١٦ / ٤، صفوة التفاسير ١٥٤ / ٣ تفسير القرطبي، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٣) انظر: الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، - الأم - (كتاب الشعب - القاهرة ١٩٦٩، ٧ أجزاء).

(١٥٤) على برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية (إنسان العيون فى سيرة الأئمة المأمون) الجزء الأول، القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م، ص ١٨٤.

(١٥٥) انظر عن الآراء المختلفة فى عقيدة عبد المطلب (محمد بيومى مهران: فى رحاب النسي وآل بيت الطاهرين - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول، بيروت، ١٩٩٠، ص ٧٩ - ٨٦).

(١٠) مكانة مكة المكرمة:

أصبحت مكة منذ آل أمرها إلى قريش على أيام قصي مركزاً للحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية، تشد إليه الرحال، وتشخص إليه الأبصار وفيها أكثر من كل جهة سواها، كانت ترعى الأشهر الحرم، بسبب وجود الكعبة المشرفة هناك، لذلك كله، ولمركزها الممتاز في تجارة العرب، كانت تعتبر وكأنها عاصمة شبه الجزيرة العربية.

وفى الواقع أنه رغم وجود «البيوت الحرام» في بلاد العرب، كبيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت نجران وغيرها من البيوت الحرام^(١٥٦)، فإن واحداً منها لم يجتمع له مثل ما اجتمع لبيت مكة، ذلك لأن مكة إنما كانت ملتقى القوافل بينَ الجنَوبِ والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمشاة مطروقة تتردد عليها، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها، فليست مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن، أو المناذرة في الحيرة، أو الغساسنة في الشام - وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان، كسلطان الروم أو الفرس أو الأحباش، وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ، أو بين بوادي الصحراء - وإنما كانت مكة بمشاة عبادة وتجارة، وليست في حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم زمانها، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جبرهم والعماليق، الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة^(١٥٧).

وزاد من قيمة مكة، أن اليمن - بعد الاحتلال الحبشى في عام ٥٢٥هـ -

(١٥٦) أنظر: ياقوت ١/ ٢٣٨، ٣/ ٤٢٧، ٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥، ٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩، بلوغ الأرب

٣٤٦ - ٣٤٧، ٢/ ٢٠٢، ٢٠٧ - ٢٠٩، ١١٢، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٣،

الأصنام ص ٣٨، الروض الأوفى ١/ ٦٦، الأغاى ٣/ ١٧٢

(١٥٧) العقد. مطلع النور، ص ١١٢ - ١١٣

لم تنجح فى سد الفراغ الذى تركته البحرية الرومية، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية، ومن ثم فقد أصبح الطريق البرى - عبر تهامة والحجاز - هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة، وكان لابد - بعد زوال النشاط اليمنى - أن يوجد من يسد هذا الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين، لنقل التجارة، وقد وجد هذا الوسيط ممثلاً فى مكة (١٥٨)، التى حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادى بمكانة ممتازة بين عرب الشمال فضلاً عن طرفى الصراع الدولى (الفرس والروم) وقت ذاك، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنافسين فى وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى (١٥٩).

وهكذا كان موقع مكة الجغرافى سبباً فى أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التى ترد من العربية الجنوبية تريد الشام، أو القادمة من الشام تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادى تحج القرشيين فى احتكار التجارة فى بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التى تربط اليمن بالشام من ناحية وبالعراق من ناحية أخرى (١٦٠).

وقد بلغت شهرة القرشيين فى التجارة ومهارتهم فيها، إلى أن يذهب البعض إلى القول بأن «قريشاً» إنما سميت كذلك لاحتراقها التجارة، لأن التقرش إنما هو التجارة والاكتساب (١٦١)، وإلى أن تذكر رحلاتهم التجارية فى القرآن الكريم،

(١٥٨) أحمد إبراهيم: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٥٤.
S. A. Huzayyin, Arabia and the Far East, p. 142 - 3. وكذا.
E. Gibbon, op. cit., 5, p. 213. وكذا:

(١٥٩) أنظر كتابنا «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، الجزء الأول.
(160) W.M. Watt, Muhammed at Mecca, Oxford, 1963, p. 3.
(١٦١) ابن هشام ١/ ٦٠، ياقوت ٤/ ٣٣٦، مجمع الأمثال ٢/ ٧٢، نهاية الأرب ص ٣٦٤ (بتداد ١٩٥٨)، فحصر الإسلام ص ١٣ - ١٤، تاريخ مكة، ص ٥٩، السلاوى ١/ ٥٩، راجع تفسيرات أخرى فى: ياقوت ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٧، تفسير روح المعانى ٣٠/ ٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير الفخر الرازى ٣٢/ ١٠٦

حيث يقول سبحانه وتعالى: «إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (١٦٢).

هذا وقد كانت قوافل مكة أشبه بالحملات تكون بالآلاف الإبل، التي يقوم على حمايتها جيش خاص دعوة «الأحابيش» (١٦٣) لعلهم من العرب أو السودان، فكادت مكة أشبه بينك كبير، فلم تكن القوافل ملكاً لشخص واحد وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة، كهاشم وأمية ومخزوم ونوفل (١٦٤)، وقد أدى ذلك إلى تضخم أموال قريش، حتى بلغت قوافلهم التجارية في عهد غزوة بدر (١٦٥) ألف بعير، مضافاً إليها خمسون ألف دينار منقولة بين أنقافهم، بل إن رجلاً واحداً - هو سيّد بن العاص (أبو أحيحة) - استطاع أن يسهم في رأس مالها بثلاثين ألف دينار، كما بلغت قوافلهم في بعض المرات ألفين وخمسمائة بعير، وهي نسبة لها قيمتها المادية. إذا قيست بالثروات في عهدها، هذا وقد بلغ ثراء قريش إلى أنها قد استطاعت في غزوة بدر أن تفتدى أسراها من المكيين

(١٦٢) سورة قريش، وانظر: تفسير القرطبي ٢٠ / ٢٠٠ - ٢٠٩ (دار الكتب المصرية)، تفسير الفهر الرازي ٣٢ / ١٠٣ - ١١٠، تفسير البيضاوي ٢ / ٥٧٧، تفسير الطبري ٣٠ / ٣٠٥ - ٣٠٩ (طبعة الحلبي)، تفسير روح المعاني ٣٠ / ٢٣٨ - ٢٤١.

(١٦٣) انظر عن الأحابيش: تاج العروس ٤ / ١٣٠، ٩ / ٢٠٠، تاريخ الطبري ٢ / ٥٠١، تاريخ البيهقي ١ / ٢٤١، تاريخ مكة ص ٥٢، نسب قريش ص ٣٨٩، ابن الأثير ٢ / ١٤٩، المعارف ص ٣٠٢ - ٣٠٣، العمدة ٢ / ١٩٤، اللسان ٦ / ٢٧٨، البلاذري ١ / ٥٢، ٧٦، المخبر ص ٢٤٦، ٢٦٧ العبادي: المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣، حراد على ٣ / ٣٠ - ٣٦.

(١٦٤) تاريخ الطبري ٢ / ٤٢١ - ٤٢٢، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١٧، الطبقات الكبرى ١ / ٤٠، عبد المنعم ماجد ١ / ٧٩، وكذا:

Essad Bey, La Vie de Mahomot, p. 42.

(١٦٥) أنظر عن «غزوة بدر» (يوم الجمعة ١٧ رمضان ٢ هـ = ١٤ مارس ٦٢٤م): تاريخ الطبري ٢ / ٤٢١ - ٤٧٩، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١٧ - ٢١، ابن الأثير ٢ / ١١٦ - ١٣٧، ابن كثير ٣ / ٢٥٦ - ٣٤٤، وفاء الوفا ١ / ١٩٦ - ١٩٧، ابن هشام ٢ / ٦٣ - ٤، المعارف ص ٧٥ - ٧٨، الأغاني ٤ / ١٧٦ - ٢٠٩، ياقوت ١ / ٣٥٧ - ٣٥٨، البكري ١ / ٢٤١ - ٢٣٢، تفسير الطبري ١٣ / ٤٠٩، ٤٤٣، ٥٧٨.

بأربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، إلا من عفا عنهم النبي - ﷺ - من
المخدمين (١٦٦).

وعلى أى حال، فإن ظروف مكة السياسية والاقتصادية والجغرافية قد جعلت
منها مدينة عربية لجميع العرب، فلم تكن كسروية أو قيصرية، ولا تبعية أو نجاشية،
كما عساها أن تكون لو استقرت على مشارف الشام، أو عند تخوم الجنوب،
ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها، ويجدون فيها من
يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه (١٦٧).

وقد عملت قريش على توفير الأمن في منطقة مكة، وهو أمر ضروري في
بيشة تغلى بالغارات وطلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذاً للناس وأمناء،
وحتى يجد فيها من تضيق به الحياة، ويتعرض لطلب الثأر، الأمن والحماية،
ولعل هذا هو السبب في أن تحافظ قريش على الأشهر الحرم في موسم الحج،
حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم، هذا فضلاً عن حركة اصلاح أخرى
قامت بها قريش، مؤداها ألا تقر بمكة ظلماً، سواء أكان من أهلها أم من سائر
الناس، فعقدت من قبائلها ومع القبائل الأخر المجاورة حلفاً عرف «بحلف
الفضول»، يروى المؤرخون أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف، فاجتمع في دار
«عُبدُ الله بن جدعان» بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم،
وتعاهدوا على أن لا يظلم بمكة غريب ولا قريب، ولا حر ولا عبد، وإلا كانوا معه
يأخذون له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعهدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في
حفنة وبعثوا به إلى البيت الحرام فغسلت به أركانها وشربوه، ومن عجب أن
الأمويين وبنى عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف، وقد
روى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان

(١٦٦) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ٣٦ - ٣٧، وانظر: الراقي: كتاب المغازي، ١٣٨/١ -

١٤٥ بيروت ١٩٨٤.

كندا. P K.Hitti. op.cit.,p 104

(١٦٧) العقاد. مطابع النور ص ١١٣.

حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت، (١٦٨).

وأم تكتف قريش بذلك، وإنما عملت على توفير الماء والطعام للحجيج فى منطقة يشح فيها الماء ويقل الطعام، ومن ثم فقد قامت بحفر الآبار فى منطقة مكة وأنشأت فيها أماكن للسقاية، ثم أوكلت سقاية الحاج إلى البطون القرية منها، وهكذا غدت سقاية الحاج - بجانب عمارة البيت وسدائه - عملاً يراه القوم فى قمة مفاخرهم وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد فى سبيل الله» (١٦٩).

وكان أمر ضيافة الحجيج عملاً لا يقل عن سقايتهم، وقد أسندتها قريش إلى الأغنياء من رجالاتها، لأن قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية، يصعب معه حمل الزاد، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم، بجانب ما تقدمه قريش لهم، إلا أن هذا الأمر فى الوقت نفسه قد أفاد قريشاً كثيراً، إذ كانت المؤاكلة فى نظر العرب، إنما هى عقد حلف وجوار، فضلاً عن أن الضيافة فى ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه، وهكذا كانت قريش بعملها هذا، وكأنها تعقد حلفاً مع كل القبائل العربية، تحمى به تجارتها، وتسبغ على رجالاتها نوعاً من التقدير والاحترام عند العرب، لا يتوفر لغيرهم (١٧٠).

-
- (١٦٨) العقد المرجع السابق، ص ١١٣، ١١٩، ابن هشام ١/ ١٤٣ - ١٤٥ (مكتبة الجمهورية مصر)، المخير ص ١٦٧، المعارف ص ٢٩٤، ابن كثير ٢/ ٢٩١ - ٢٩٢، ابن الأثير ٢/ ٤١ - ٤٢، السيرة الحلبية ١/ ١٥٧، الروص الأنف ١/ ٩١، ثمار القلوب للثعالبي ص ١٤١، تاريخ اليعقوبى ١٧/ ٢ وما بعدها، عبد المنعم ماجد ١/ ٨٣، محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٣٥ (القاهرة ١٩٧١).
- (١٦٩) سورة التوبة آية ١٩، وانظر: تفسير الطبرى ١٤/ ١٦٨ - ١٧٣، تفسير المنار ١٠/ ٣١٥ - ٢٢٠، الكشف ٢/ ١٨٠، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤، تفسير القرطبي ٨/ ٩١ - ٩٢، فى طلال القرآن ١٠/ ١٦١٤ - ١٦١٥، تيسير العلى التقدير ٢/ ٢١٦ - ٢١٧.
- (١٧٠) ابن هشام ١/ ١٤٥، ابن سعد ١/ ٥٨.

وخطت قرش خطوة أخرى في اجتذاب القبائل العربية، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة^(١٧١)، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتي في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها، وهكذا أخذ عدد الأصنام يزداد عند الكعبة بمرور الزمن، حتى جاء وقت زاد عددها على ثلاثمائة، كان منها الكبير ومنها الصغير، ومنها ما هو على هيئة آدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات، وإن كان أكبرها جميعاً إنما هو «هبل» الذي جعله القوم على هيئة إنسان من عقيق أحمر^(١٧٢).

ويبدو أن الأساس الذي قامت عليه مكانة الكعبة، أن البيت الحرام بجملته كان هو المقصود بالقداسة، غير منظور إلى الأوثان والأصنام التي اشتمل عليها، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل، وتزديه قبائل أخرى، فلا يفض ذلك من مكانة البيت عند المعظمين والمزدرين، واختلفت الشعائر والدعوى التي يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت - كما يتولاها مدنته المقيمون إلى جواره والمتكلفون بخدمته - فكانت قداسة البيت هي القداسة

(١٧١) تعرضت الكعبة قبيل الإسلام لعدة سيول في أوقات مختلفة، أدت إلى تصدع جدرانها، مما اضطر القوم إلى عديمها وإعادة بنائها، ويكاد يجمع المؤرخون أن ذلك تم، والمصطفى (ﷺ) في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان المولد النبوي في ٢٠ أبريل ٥٧١م - كما حدده محمود الفلكي - فإن إعادة بناء الكعبة إنما كان في عام ٦٠٦م (انظر: الطبري ١٨٧/٢ - ٢٩٠، ابن الأثير ٤٢/٢ - ٤٥، المسعودي ٢٧١/١ - ٢٧٣، ابن كثير ٢٩٩/٢، ٢٠٤، ياقوت ٤/٤٦٦، الأزرقي ١/٢٥٤ - ٢٥٥، العمري ١/٦٤، المقدسي ١٣٩/٤ - ١٤٠، ابن هشام ١/١٩٢ - ١٩٩، التقويم العربي قبل الإسلام ص ٣٨، تفسير الطبري ١٢٢/٢ - ١٢٣، تاريخ الخميس، ص ١٢٦ - ١٣٦، نهاية الأرب ١/٢٣٢، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٧٦، وكذا:

A.Guillaume, op.cit, p. 23

وكذا:

I.Sahid, In CHI, I. 1970, p. 31

(١٧٢) تاريخ اليعقوبي ٢٥٤ - ٢٥٥، الروص الألف ٢/٢٧٦، الأزرقي ١/١٢٠ - ١٢١، نون حصاره لغرب ص ١٢٤، تاريخ التمدن الإسلامي ١/٣٧، الأصنام ٢٧ - ٢٨، E.Gibbon, op.cit., p. 225 وكذا:

التي لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية، وجاز عندهم - من ثم - أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم، ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير (١٧٣).

وبقيت الكعبة المشرفة هكذا بأصنامها (٣٦٠ صنماً) حتى العام الثامن للهجرة، حيث أكرم الله تعالى رسوله والمؤمنين بفتح مكة في رمضان ٨ هـ (ديسمبر ٦٣٠)، فقام المسلمون بتحطيم الأصنام، ويروى أن النبي ﷺ رأى صورة إبراهيم، وهو يستقسم بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، جعلوه شيعاً يستقسم بالأزلام، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، لما قدم مكة، أتى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، قال: فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم واسماعيل في أيديهما، لأزلام، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط (١٧٤)، ثم حكم رسول الله ﷺ، برفع كل التماثيل والصور، وهو يقول «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» (١٧٥).

وفي ثاني يوم الفتح، خطب النبي ﷺ، خطبته المشهورة التي وضع فيها مآثر الجاهلية، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا أهل قريش، يا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وهكذا اعتقهم رسول الله ﷺ، وكانوا له فيئاً، ومن ثم فقد سمى سكان مكة يوم الفتح «بالطلقاء»، ثم أعلن رسول الله ﷺ، أن مكة سوف تبقى

(١٧٣) المقاد: مطلع النور، ص ١١٥.

(١٧٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد ٢ / ٢٩٦ (بيروت ١٩٨٥)، صحيح البخاري ٣ / ٣٧٥ - ٣٧٦، سنن أبي داود ١ / ٦٤٧، السهيلي: الروض الآف ٢ / ٢٧٤ - ٢٧٦، صحيح مسلم ٥ / ١٧٣، ارشاد الساري ٧ / ٢١٠، السيرة الحلبية ١ / ١٤٤، ٣ / ٨٧، الفاسي: العقد الثمين ١ / ١٥٧، ٢١٢، ابن الكلبي: الأصنام ص ٣١ - ٣٣، الأزرقى: أخبار مكة ١ / ١٦٨ - ١٦٩.

(١٧٥) سورة الإسراء. آية ٨١

حرماً آمناً لا يقاتل فيها، وأن تكون الكعبة هي بيت الله الحرام، يحج إليها العرب حتى المشركون منهم^(١٧٦).

وفي العام التاسع للهجرة (٦٣٠ - ٦٣١ م) - عام الوفود - بقى المصطفى ﷺ في المدينة يستقبل الوفود، حيث كان ما يزال في بلاد العرب من لم يؤمن بعد بالله ورسوله، وإن كانوا في الوقت نفسه، ما يزالون - كما كانوا في الجاهلية - يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم، ومن ثم فليبقى سيدنا رسول الله ﷺ، إذا بالمدينة، حتى يتم الله كلمته، وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته، وليخرج أبو بكر حاجاً بالناس^(١٧٧).

على أن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، سرعان ما أمر الإمام على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه، أن يسرع إلى مكة قبل أن تصل إليها وفود الحجاج من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ليلغهم بسورة نزل بها الوحي من السماء، والتي عرفت بسورة براءة، ويقوم سيدنا الإمام على بالمهمة خير قيام، ويبلغ رسالة النبي الأعظم ﷺ، إلى الناس في اجتماعهم العام هذا «يوم الحج الأكبر» في «منى» وقبل الوقوف في «عرفات»، وقد جاء في هذه الرسالة، قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله، إن شاء، إن الله عليم حكيم»^(١٧٨).

(١٧٦) تاريخ الطبرى ٣ / ٧٦١، البلاذرى: فتوح البلدان ص ٤٢، النويرى: تهذيب الأسماء، واللغات ١ / ٢٩٨، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٤٤ - ٤٥، المسعودى مروج الذهب ٢ / ٢٩٠، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢ / ٢٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية ٤ / ٣٠١.

(١٧٧) ابن هشام: سير النبى ﷺ ٢ / ٩١٩، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢ / ٢٨٦ - ٢٩٢، ابن قتيبة: المعارف ص ٨٢، تاريخ ابن خلدون ٢ / ٥١ - ٥٨، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥، أرفيج: حياة محمد ص ٢٢٩، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤٧٠ - ٤٧٦، الصديق أبو بكر، ص ٥٣.

(١٧٨) سورة التوبة: آية ٢٨، وانظر: تفسير الطبرى ١٤ / ١٩٠ - ١٩٨، تفسير البحر المحيط ٥ / ٢٧ - ٢٩، فى ظلال القرآن ٣ / ١٦١٨ - ١٦١٩، تفسير الحلالى ص ١٧٠، ١٧٣، تفسير القرطبى ص ٢٩٤٢ - ٢٩٤٨، تفسير المنار ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤٧، تفسير السقى ٢ / ١٢٢ -

ويعلن الإمام على بن أبي طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة، بأمر رسول الله ﷺ، «يا أيها الناس: إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك، ليرجع كل قوم إلى بلادهم، ومن يومئذ لم يحج بالبيت مشرك، ولم يطف بالبيت عريان»، وهكذا أعاد الإسلام إلى الكعبة وجهها الصحيح، كما كان على أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بيتاً لله وحده، لا يعبد فيه أحد غيره» (١٧٩).

وهكذا ازدادت الكعبة المشرفة شرفاً وفضلاً فى الإسلام، فقد جعل الله تعالى الكعبة البيت الحرام قبلة المسلمين فى صلاتهم، وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى غيره، كما أن الحج - ركن الإسلام الخامس - لا يتم إلا بالطواف حول الكعبة المشرفة، فهذان ركنان من أركان الإسلام الخمسة - الصلاة والحج - لا يتم الواحد منهما إلا بالإتجاه إلى الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة. ولا يصح الثانى إلا فى مكة ومجاوراتها (عرفة - المزدلفة - منى)، وهكذا، ومنذ السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة (عام ٦٣٠/٦٣١ م) أصبحت مكة المكرمة مدينة الإسلام المقدسة، يحج إلى كعبتها كل عام عدد من البشر يفوق - على وجه اليقين - أى عدد آخر من الحجاج إلى أى مكان آخر على ظهر الأرض، يقصدون إليها لأداء فريضة الحج والصلاة فى بيتها الحرام، والطواف حول كعبتها

= ١٢٣، صفوة التفاسير ١/ ٥٣٠، تفسير أبى السعود ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥، تفسير ابن كثير ١٢/ ٥٤١ - ٥٤٢، صحيح البخارى ٦/ ٨١.

(١٧٩) ابن هشام: سير النبى ﷺ ٤/ ٢٠١ - ٢٠٥، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٢٩١، المسعودى: مروج الذهب ٢/ ٢٩٠، التنبية والإشراف ص ١٨٦ - ١٨٧، تاريخ اس خلدون ١٢/ ٥٣، تفسير الطبرى ١٤/ ٩٥ - ١١٢، تفسير البىضاوى ١/ ٣٨٣، محمد س عد الوهاب: مختصر زاد المعادى ٢ ٣٦٧ - ٣٦٨، الخربوطلى المرجع السابق، ص ٨٨٩، محمد حسين هيكى: حياة محمد ص ٤٧٦، الساعى: تاريخ مكة، ص ٥٤، فيلب حتى: المرجع السابق ص ١٦٤ - ١٦٥، محمد أشتونى المرجع السابق، ص ١٧.

هذا وقد رردت عدة أحاديث شريفة فى فضائل الكعبة المشرفة - فضلاً عن مكة نفسها - من ذلك ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بسنده عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كرمتها بالأمس، وليلغ الشاهد الغائب»، رروى الترمذى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلى ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك»، وفى رواية للإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان عن ابن الحمرء أن رسول الله ﷺ قال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت، رروى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة سلاح».

ورروى أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة فى مسجدى هذا (أى مسجد الرسول بالمدينة) خير من ألف صلاة، إلا فى المسجد الحرام، وفضل المسجد الحرام فضل مائة صلاة» وعن عطاء بن أبى رباح عن ابن الزبير قال، قال رسول الله ﷺ «فضل المسجد الحرام على مسجدى مائة صلاة»، وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام»، وروى النووى فى شرح صحيح مسلم عن عبد الله بن الزبير قال قال ﷺ: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى» وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى» (١٨٠).

(١٨٠) انظر: صحيح مسلم ١٢٣ / ٩ - ١٦٩ (بيروت ١٩٨١)

(٢) المدينة المنورة

(١) موقع المدينة الجغرافي وأهميته:

تقع المدينة المنورة - بئر - على مسافة ٤٨٠ كيلوا شمالى مكة المكرمة، فى واحة خصبة، غزيرة المياه، بين لابتين بركائيتين: الأولى: حرة واقم، وهى الحرة الشرقية، ونسمى أيضاً حرة بنى قريظة، لأنهم كانوا بطرفها القبلى، وحرة زهرة، لمجاورتها لها، وتنقسم حرة واقم، باعتبار المنازل الواقعة فيها قديماً، إلى خمس مناطق متجاورة، منطقتان كانتا لليهود، وثلاث كانت للأوس من الأنصار، فقى زهرة منازل بنى النضير، وفى شمالها منازل بنى قريظة، وفى شمال هذه - أى منازل بنى قريظة، تقع منازل بنى ظفر من الأنصار، وبجانبهم نحو الشمال كذلك منازل بنى عبد الأشهل، مع بنى زعور بن جشم الأنصارين، وفى منازل بنى عبد الأشهل كان حصنهم «واقم» وهو الذى سميت به الحرة، وبشمالهم منازل بنى حارثة إلى نهاية الحرة شمالاً^(١).

ويذهب الأستاذ الأنصارى: إلى أنه قد عثر فى «حرة واقم» هذه، على آثار مصنع قديم فيه أنواع القطع الفخارية المدهونة من كل لون، وبجانب هذا المصنع صهريج ماء مطلى بالرصاص بالداخل، وبشرقه غدير^(٢).

هذا وفى حرة واقم هذه كانت وقعة الحرة المشهورة (يوم الأربعاء ٢٨ ذى الحجة ٦٣ هـ - ٢٨ سبتمبر ٦٨٢ م)، حيث قتلت جيوش يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان (٦٠ - ٦٣ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤ م) خلقاً كثيراً، واستبيحت مدينة الرسول (ﷺ) ثلاثة أيام، وذهبت بعض المصادر إلى أن عدد القتلى بلغ ألف

(١) السهمودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ١١٨٨ (بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧١)، عبد القدوس الأنصارى: آثار المدينة المنورة ص ٢١٠، (المطبعة السلفية، المدينة المنورة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م).

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢١١.

وسبعمائة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، وقتل من حملة القرآن سبعمائة، ومن قريش ٩٧ قتلوا صبراً، وافتضت ألف عذراء، روى ابن الجوزي بسنده إلى المدائني عن أبي قرة، قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زواج، وروى المدائني بسنده عن أم الهيثم ابنة يزيد قالت: رأيت امرأة من قريش تطوف، فعرض لها أسود فعانقته فقبلته، فقلت: يا أمة الله، أتفعلين هذا بهذا الأسود، فقالت: هو ابني: وقع على أبوه يوم الحرة، ومن المؤلم المحزى أن يكتب مسلم بن عقبة المري - قائد جيش زياد في الحرة- بما فعله بأهل المدينة، ثم يوقع كتابه «فلانأس على القوم الفاسقين»^(٣).

والثانية - حرة الوبرة: وكانت تقع بضاحية المدينة الغربية - وعلى مبعدة ٤ كيلا من المدينة - وكانت أقرب إلى المدينة من حرة واقم، وتمتاز بكثرة الهضاب والمستنقعات والمنخفضات والمرتفعات، وفي هذه الحرة المدرج الذي يقال أنه «ثنية الوداع»، وفي طرفها الشمالي الشرقي منازل بنى سلمة، ومن تحت طرفها الغربي بئر عروة وقصره ومزارعه، وبطرفها الشمالي مسجد القبلتين، وبطرفها الغربي أطم الصيحات وقلعة قباء.

هذا ومن المعروف أن حرة الوبرة هذه، وحرة واقم، أنهما اللابتات اللتان تحدان حرم المدينة، وأنهما تلتقيان في ناحيتهما الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية، بالنسبة للمدينة^(٤).

(٣) أنظر عن واقعة الحرة (تاريخ الطبري ٥ / ٤٨٢ - ٤٩٥، ابن الأثير. الكامل في التاريخ ٤ / ١١١ - ١٢١، المسعودي مروج الذهب ٢ / ٩٢، حس إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ١ / ٢٨٦ - ٢٨٧، تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١، منجم بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين، الجزء الثامن، الإمام الحسين بن علي، ص ١٨٣ - ١٨٩ (بيروت ١٩٩٠)، العقد النريد ٤ / ٢٨٦، ٥ / ١٣٦ - ١٤٠، حسين محمد يوسف: الحسين بن علي، ص ٣٧٨ - ٣٨٤ (القاهرة ١٩٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ١٩٨ - ٢١٩، ابن دقماق: الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص ٦٩٠ - ٦١١).

(٤) السجودي الوفاء ٤ / ١١٨٨ - ١١٩٠، عبد القدوس الأنصاري. المرجع السابق، ص ٢١٢ -

هذا ويحد المدينة المنورة من الشمال «جبل أحد»، كما يقع «جبل عير» على حدها الجنوبي، وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب، منحدره من الجنوب والشرق، محيطة بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تجتمع في شمالها الغربي، وتسير في انحدارها مياه الأمطار فتجعل من أرض المدينة جنات ذات زرع، زاهية بالخضرة، وبساتين تنبت أشجار النخيل والفاكهة، ولذلك فقد كانت حياة السكان في المدينة إنما تعتمد في المقام الأول على تملك الأرضين الزراعية واستثمارها.

وأما أودية المدينة فهي ستة: ١- وادي العقيق (في ضاحيتها الغربية) ٢- وادي رانواء (في ضاحيتها الجنوبية الغربية) ٣- وادي بطحان (في ضاحيتها الجنوبية) ٤- وادي مذنيب (في ضاحيتها الجنوبية الشرقية) ٥- وادي مهزور (في ضاحيتها الشرقية) ٦- وادي قناة (في ضاحيتها الشمالية الشرقية).

هذا ويسيل وادي العقيق وقناة في خارج المدينة، أما الوديان الأربعة الأخرى (رانواء - بطحان - مذنيب - مهزور) فتجتمع في وادي بطحان من جنوب المدينة، وتسير ممتزجة مع بعضها حتى تدخل المدينة من الأبواب الحديدية التي كانت معمولة لها قديماً تحت باب قباء بشرقيه.

هذا وتشق الأودية الأربعة المدينة ممتزجة، إلى الشمال، وذلك في المسيل المعروف باسم «أبو جيدة» حتى تخرج من باب «البرابيخ»، وتفيض في «صفاصف» إلى أن تبلغ سفح جبل «سلع» ثم تفيض إلى «زغابة» حيث تجتمع بسيلي العقيق ووادي قناة (٥).

ولعل من الأهمية بمكان أن أهل المدينة (يثرب) إنما كان مدار شربهم في الجاهلية على الآبار وهي:

١- بئر أريس: نسبة إلى صاحبها، وتقع غربي مسجد قباء بحوالي ٣٨ م،

(٥). انظر وديان المدية (عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م، ط ثلاثة، ص ٢١٥ - ٢٣٧).

وعمقها ١٢ متراً وفي أسفلها فتحتان يجرى منها الماء إلى البئر، وثلاثة تصلها بمجرى العين الزرقاء، وماؤها غزير، وهو عذب خفيف، وكثيراً ما جلس النبي (ﷺ) على قفها، وقد عرفت باسم «بئر الخاتم» منذ وقع فيها خاتم النبي من يد عثمان بن عفان في السنة السادسة من عهده والبئر الآن جافة.

٢- بئر رومة: وتقع في عرضة العقيق الكبرى، قرب مجتمع الأسيال (زغابة) بشمال غربي المدينة، وقطرها ٤ م، وعمقها ١٢ م، وهي غزيرة الماء، وماؤها عذب صاف، خفيف للغاية، ولذا فقد رغب النبي (ﷺ) أصحابها على شرائها، ووقفها على المسلمين، وقد فعل ذلك عثمان بن عفان فاشتراها من صاحبها اليهودي بعشرين ألف درهم ثم أوقفها على المسلمين.

٣- بئر غرس: وكان النبي (ﷺ) يشرب منها، بل وأوصى بغسله بمائها بعد وفاته، وكانت وقت ذلك لسعد بن خيثمة الأنصاري.

٤- بئر حاء: وتقع خارج سور المدينة، وكانت ملكاً لأبي طلحة الخزرجي، وقد أوقفها على أقاربه، وآل قسم منها إلى حسان بن ثابت، ثم اشتراها كلها معاوية بن أبي سفيان وبنى بها قصراً (قصر بني جديلة لوقوعه في منازلهم)، ليأوى إليه بنو أمية، إذا وقعت بهم النوائب، كما كان متوقفاً.

٥- بئر بضاعة: وتقع قريباً من سقيفة بني ساعدة، وهما لبنى إساعدة.

٦- بئر السقيا: وتقع جنوبى مبنى السكة الحديدية، ويفصل بينهما طريق مكة، وهي عميقة محفورة في الصخر، وقد شرب منها النبي (ﷺ) وتوضأ، وعلى أرضها - وتدعى الفلجان - عرض النبي (ﷺ) الجيش الذهاب إلى «بدر»، وكانت ملكاً لذكوان الزرقى، ثم اشتراها منه سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

٧- بئر أبي أيوب: ولعله أبو أيوب التجارى الخزرجى الأنصارى، الذى تنسب إليه بشران أو ثلاثة، - وهو الذى شرف بنزول النبي (ﷺ) - بمنزله عند قدومه المدينة فى الهجرة عام ٦٢٢ م (١هـ) - وتعرف حتى الآن ببئر أبي أيوب، وتقع شرقى البقيع، وكان ماؤها بين العذب والمالح.

٨- بئر ذروان: وتنسب إليها حادثة السحر المزعومة^(٦)، وتقع فى منازل بنى زريق وهم أصحاب الشر، وتقع حوىى المدينة.

٩- بئر عمروة بن الزبير، وتقع فى طرف حرة الوبرة الغربى بالنسبة إلى المدينة، عن يمين المسافر فى الطريق إلى مكة، وماؤها أرق مياه المدينة وأعذبها وأخفها، ويقول ابن خلكان: ليس فى المدينة بئر أعذب منها.

(٢) بين مكة ويثرب:

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك خلافاً بين الأوضاع الجغرافية والسكانية والاقتصادية بين كل من المدينتين المقدستين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - فإذا كانت مكة المكرمة قد تمتعت بالنظام، وسادها جو من الهدوء والاستقرار، وكانت العوامل التى تربط بين الجماعة فيها، تؤدى وظيفتها على نحو مرض إلى حد كبير، وذلك بسبب وحدة السكان فيها، واجتماعهم على غاية واحدة هى: رعاية البيت الحرام، والقيام على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، والتى كانت أهم موارد الرزق فى البلد الحرام^(٧).

إذا كان ذلك كذلك فى مكة المكرمة، فإن «يثرب» (المدينة المنورة) لم تكن كذلك، فسكانها من عنصرين مختلفين (عرب ويهود)، وكذلك؛ لم تكن لهم غاية مشتركة يحرصون عليها، ويترابطون من أجلها، ومن ثم فقد سادها الإضطراب، وعمتها المنازعات.

وإذا كانت حياة الزراعة من طبيعتها، أن تربط الناس بالأرض، وتفرض عليهم الاستقرار، فإنها فى مجتمع المدينة، وهو مجتمع قبلى، إنما تكون مثاراً للنزاع الدائم، حيث لا توجد فى هذا المجتمع قوة فوق قوة القبائل والعشائر، تستطيع أن تقر الحقوق، وتفرض السلم، وتعاقب من يخل به.

(٦) انظر عن قصة سحر النبى ﷺ (محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة، الجزء الثالث، بيروت ١٩٩٠، ص ١٦٩ - ١٨٩)

(٧) عند القدوس الأنصارى آثار المدينة المنورة - المدينة المنورة ١٩٧٣ ص ٢٤١ - ٢٥٦ إبراهيم رفعت مرآة الحرمين ١/ ٤٢٨ - ٤٣٠، على حافط فصول من تاريخ المدينة، ص ١٦٩

ومن ثم، فما كان من شأنه أن يؤدي إلى الاستقرار، كان هو في ذاته، عامل من عوامل النزاع والاضطراب، حيث كان كل فريق يتطلع إلى أن تكون أخصب البقاع في يده، وكان السعي عن طريق القوة هو الطريق أو السبيل المألوف لتوسيع الأملاك، والحصول على أفضل البقاع الزراعية.

ولما كانت المدينة مكونة من عنصرين من السكان (عرب ويهود) فقد انقسمت إلى معسكرين متعادين، يترقب الواحد منهما الفرصة لقهر الآخر والحصول على ما في يده - أو خير ما في يده -.

على أن كلا من هذين القسمين - العرب واليهود - إنما انقسم بدوره إلى وحدات متصارعة، ولم يربط بين هذه الوحدات في المعسكر الواحد، إلا ما كان يربطها من تقاليد العصبية القبلية، والشعور بأن الفرد وحده، إنما هو عاجز عن حماية نفسه ضد الآخرين، ومن ثم فقد ساد المدينة جو من عدم الأمن، جعل الحياة في يثرب - قبل الإسلام - أمراً عسيراً.

وهكذا اتجه ميل السكان في يثرب - قبل الإسلام - رغبة في الحفاظ على النفس والمال إلى إقامة الحصون والآطام، للإحتماء بها عند الحاجة، حتى امتلأت المدينة بالحصون، وحتى كان لليهود وحدهم - كما يقول السمهودي - تسعة وخمسون إاطماً، ولم يكن العرب أقل منهم رغبة في بناء الآطام، حتى كان لبطن واحد منهم، تسعة عشر إاطماً^(٨).

هذا وقد اختلفت يثرب عن مكة في أنها إنما تتميز عنها بمزايا لم تعرفها مكة، من طيب الهواء، وجودة التربة، كما أنها لم تكن على طريق القوافل التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب، وإنما كانت كذلك راحة حقيقية، ذات تربة صالحة لزراعة النخيل - وهو كثير فيها - ومن ثم فقد أصبحت واحدة من أمهات المراكز الزراعية في بلاد العرب^(٩).

(٨) السمهودي: وفاء الوفا ١٩٠ - ٢٢٠ (بيروت ١٩٧١)؛ أحمد إبراهيم الشريف. الحجاز قبل ظهور الإسلام، ص ٣٢ - ٣٣ (الحزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، الجزء الأول، الرياض، ١٩٨٩م).

(9) P. K. Hitty, History of Arabs, 1960, p. 104.

ولم تقتصر الخلافات بين مكة والمدينة (يثرب) على النواحي الجغرافية والسكانية والإقتصادية، وإنما امتدت كذلك إلى النواحي الدينية، ذلك أن مكة جميعها تسكنها قبيلة عربية واحدة - قريش - تدين بدين واحد - الوثنية - أما المدينة (يثرب) فكان فيها العرب وثنيين، واليهود يدينون باليهودية.

(٣) أسماء المدينة المنورة:

لم تكن المدينة المنورة تعرف بهذا الاسم - أى المدينة - قبل نصرتها للإسلام وهجرة سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) إليها فى الثانى عشر من ربيع الأول - فى السنة الثالثة عشرة من المبعث (٢٤ سبتمبر عام ٦٢٢م)، وإنما كانت تسمى «يثرب»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا» (١٠).

وقد ذكرت يثرب فى الكتابات المعينية، ربما بسبب وجود جالية معينة كانت تقيم هناك، خلفتها أخرى سبئية، بعد أن ورث السبئيون دولة معين فى اليمن، ومستعمراتها فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية، ولعل هذا هو السبب الذى دفع بالنسابين من بعد أن يروا فى سكان يثرب من العرب، أزدًا من قحطان (١١).

هذا وقد كثرت أسماء المدينة فى العصر الإسلامى، حتى بلغت عشرة أسماء، على رأى، وأحد عشر اسماً، على رأى آخر، وتسعة وعشرين على رأى

(١٠) سورة الأحزاب: آية ١٣، وانظر. تفسير القرطبي ١٤ / ١٤٧ - ١٤ (دار الكتب)، تفسير الفخر الرازى ٢٥ / ١٩٩ - ٢٠٠، تفسير روح الممانى ٢١ / ١٥٨ - ١٦١، تفسير البيضاوى ٢ / ٢٤٠ - ٢٤١، تفسير الطبرى ٢١ - ١٣٤ - ١٣٧، تفسير أبى السعود ٣ / ٢٠٥، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٥ / ١٨٧ - ١٨٨، تيسير العلى القدير ٣ / ٣٥٥ - ٣٥٦، تفسير الكشاف ٣ / ٢٥٤، فى ظلال القرآن ٢١ / ٢٨٣٨ - ٢٨٣٩.

(١١) جواد على ٤ / ١٢٨، وكذا:

Ency. of Eslam, III, p. 83. p. 118.

H Winkler, Arabisch-Semitsch Orientalisch, in MVG, 1901, وكذا: p 63.

ثالث، وأربعة وتسعين على رأى رابع، وإن كان أهمها جميعاً: المدينة وشرب وطيبة وطابة والعاصمة والقاصبة والجديّة والمحجوبة والمؤمنة والمباركة والمحفوظة والمختارة والجابرة والعذراء والغراء والبارّة والمقدسة والناجية وذات الحرار ومدخل صدق وقرية الأنصار وسيدة البلدان والخيرة وأرض الهجرة ودار الهجرة ودار الأنبياء ودار الإيمان ودار الأبرار ودار السنة وبيت الرسول ومدينة الرسول وموضع الرسول ورحم رسول الله ﷺ (١٢).

ومن أسف أن تاريخ يثرب القديم مجهول، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها، ولم تقم بها حفريات علمية يمكن أن تقدم لنا معلومات ذات قيمة عن تاريخ المدينة المقدسة القديم، وإن كانت هناك حفريات قد أجريت دون أن يقصد بها ذلك الهدف العلمى - كالتى حدثت فى الأعوام ١٣٣٣، ١٣٣٥، ١٣٥٢ هـ - فى أحد البساتين، إبان حفر أساس القسم الشمالى لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء، وفى المناخية جنوب السبيل، إلا أنها قد كشفت عن بعض أشياء قد تشير إلى أن المدينة الحالية، إنما قامت على أنقاض مدينة أخرى - الأمر الذى أشار إليه السمهودى منذ القرن التاسع الهجرى - ومن ثم فإن معلوماتنا الحالية، إنما تعتمد فى الدرجة الأولى على زواياك الاخباريين، وأكثرها من ذلك النوع الذى عرفناه من قبل (١٣).

(٤) سكان المدينة:

يروى الأخباريون أن سكان يثرب إنما كانوا من العماليق، ثم من اليهود، ثم العرب - من أوس وخزرج - وأن العماليق إنما كانوا أول من زرع الزرع واتخذ

(١٢) وفا الوفا ١/ ٧ - ١٩، خلاصة الوفا ص ٧ - ١٧، الدرر الثمينة فى تاريخ المدينة (ملحق بالجزء الثانى من شفاء العرام)، ص ٣٢٣، المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٣٠ (لیدن ١٩٠٦)، الأعللاق ص ٥٩، ٨٧، البكرى ١/ ٤ - ١٢٠١، ١٢٠٢، ياقوت ٥/ ٨٢ - ٨٣، ٤٣٠، عمدة الأخبار ص ٤١، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥٣٨.

(١٣) عبد القدوس الأنصارى: آثار المدينة المنورة، ص ١٩٢ - ١٩٤، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٢٩٠ - ٢٩١، محمد حسين هيكى فى منزل الوحى، ص ٥١٢ - ٥١٤.

بها النخيل، وعمر بها الدور والآطام، واتخذ الضياع، وأنهم يرجعون في نسبهم إلى عملاق ابن أرفخشذ بن سام^(١٤).

غير أن التاريخ لا يحدثنا عن سكان المدينة إلا عن اليهود والعرب.

(١) اليهود:

يقدم لنا الاخباريون روايات ترجع بوجود اليهود في يثرب إلى عصر موسى عليه السلام (الأمر الذي ناقشناه في كتابنا «إسرائيل»^(١٥))، وقد ناقشنا هذه الروايات في كتابنا «تاريخ العرب القديم»^(١٦)، ورفضناها جميعاً، غير أن هناك حقيقة تاريخية تقول: إن اليهود كانوا يسكنون يثرب، حتى أجلاهم عنها سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، بل عن الحجاز كله، بعد غزوات: بنى قينقاع^(١٧)، وبنى النضير^(١٨)، وبنى قريظة^(١٩)، وخيبر^(٢٠)، ثم عن بلاد العرب كلها، فلقد روى عن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً» - رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه^(٢١).

-
- (١٤) وفاء الوفا / ١ / ١٠٧، ١١، خلاصة الوفا، ص ١٥٤ - ١٥٦، ياقوت / ٥ / ٨٤ (مادة مدينة).
(١٥) أنظر عن عصر موسى والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل / ١ / ٣٢٤ - ٤١١ (طبعة ١٩٩٩).
(١٦) أنظر (محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم / ٢ / ٢٠٦ - ٢٢٤ (الطبعة السادسة عشرة ١٩٩٥).
(١٧) أنظر عن «غزوة بنى قينقاع» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة / ٢ / ٢٦٧ - ٢٧٥ (بيروت ١٩٩٠).
(١٨) أنظر عن «غزوة بنى النضير» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة / ٢ / ٢٧٧ - ٢٨٦ (بيروت ١٩٩٠).
(١٩) أنظر عن «غزوة بنى قريظة» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة / ٢ / ٢٨٧ - ٣٠٢ (بيروت ١٩٩٠).
(٢٠) أنظر عن «غزوة خيبر» (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة / ٢ / ٣٠٣ - ٣٣٤ (بيروت ١٩٩٠).
(٢١) الشوكاني - الأقطار من أحاديث سيد الأحرار - شرح مستقى الأحبار، الجزء الخامس من ٦٤، (بيروت - دار الكتب العلمية).

وعن عائشة قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ، أن قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان» - رواه أحمد (٢٢).

وعن ابن عمر: أن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وذكر يهود خيبر، إلى أن قال: أجلاهم عمر إلى يثماء وأريحا - رواه البخاري (٢٣).

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب» - رواه أحمد (٢٤).

في الواقع أن الآراء متضاربة في هذا الأمر إلى درجة أننا لانستطيع التوفيق بينها، إذ تذهب بعض الآراء إلى أن ذلك إنما حدث في القرن الثالث عشر ق.م (٢٥)، بينما تذهب آراء أخرى إلى أنه إنما كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد (٢٦)، والفرق بينهما جد شاسع، قد يصل إلى حوالي أربعة عشر قرناً، ومن هنا كانت الصعوبة في التوفيق بين هذه الآراء المختلفة أحياناً، والمتضاربة أحياناً أخرى.

وهناك رأى ثالث يذهب إلى أن اليهود انما قدموا إلى بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد؛ بعد سقوط السامرة - عاصمة إسرائيل - في أيدي الآشوريين عام ٧٢٢ ق.م (٢٧)، وليس من شك في أن هذا الاتجاه قد تركز إلى حد كبير

(٢٢) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٦٤ - ٦٥، وانظر: محمد أبو زهرة: خاتم النبیین ١/٢، ٩٠٦، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤١٤ - ٤١٦ (القاهرة ١٩٦٥)، منن الدرامي ٢/ ٢٢٣، إحسان ثريا صيرما: سياسة الرسول ﷺ في غزواته مع اليهود (كتاب البحوث والدراسات، قطر ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ٢١٧).

(٢٥) ولاء الرفا ١/ ١٠٧، ١١١، الروض الأنف ٢/ ١٦، أبو الفداء ١/ ١٢٣، ياقوت ٥/ ٨٤، ابن حلدون ٢/ ٨٧ - ٨٨ (القسم الأول) ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧ (القسم الثاني)، الأغاني ٣/ ١١٦، ٩٤ / ١٩

(26) Jisephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.

وكداء. O'Leary, op. cit., p. 173 IC, III, p. 170

(٢٧) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١٩٤٠-١٩٥٠.

A Guillaume, Islam, 1964, p 11

بسقوط السامرة في يوم ما من شهر ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م^(٢٨)، وأن العاهل الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) قد هجر أكثر عناصر السكان أهمية، وربما النبلاء والأعياء، غير أن التهجير إنما كان - طبقاً لرواية التوراة^(٢٩) - إلى «حلب وخابور ومدن مادي»، وحين تكررت العملية في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م، فإن العاهل الآشوري قد جاء يقوم من «بابل وكوت وحماء»، ومن موسة وعيلام، فضلاً عن قبائل ثمود (تامود) ومرسيمانو وجبايا، والعرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء وأسكنهم في السامرة، وذلك رغبة من العاهل الآشوري في كسر التحالفات القديمة في سورية وفلسطين، بإدخال أجانب إلى البلاد^(٣٠)، وهكذا يبدو واضحاً أنه ليست هناك أية إشارة في التوراة، أو في النصوص إلى تهجير يهود من السامرة إلى يثرب، وإلى غيرها من بلاد العرب، ومن ثم فإن المؤرخين يرفضون هذا الاتجاه.

وهناك فريق رابع يرى أن هجرة اليهود إلى يثرب إنما كانت بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل في القرن السادس قبل الميلاد، على يد «نبوخذنصر» في عام ٥٨٦ ق.م - وربما في أغسطس ٥٨٧ ق.م - وإبعاد كثير من اليهود إلى بابل، وهو ما عرف في التاريخ باسم «السبي البابلي»^(٣١)، وعندما قتل اليهود

(28) A.T. Olmsted, in AJSL, 47, p. 262.

A.Leo Oppenheim, in ANET, p. 28

وكذا

J.Finegan, op.cit, p. 210.

وكذا

A.G.Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annals, 1929, p. 5.

(٢٩) ملوك ثان ١٧ - ٦.

(٣٠) ملوك ثان ١٧ : ١ - ٢٦، عزرا ٤ : ٢، ٩، محمد بيومي مهران. إسرائيل ٢ / ٥٠٩ - ٥١٢.

A.L. Oppenheim, in ANET, p. 260.

وكذا

S A. Cook, in CAH, III, p. 385.

وكذا

C.Roth, A Short History of The Jewish People, p. 28 - 9.

وكذا

(٣١) تاريخ الطبری ٥٣٩/١، أبو الفداء ١٢٣/١، الأغاني ٩٤ / ١٩، الروص الألف ١٦/٢،

إسرائيل ولفنون. المرجع السابق ص ٦.

E.Dozy, op- cit, p. 135 وكذا A. Guillaume, op- cit, p. 11

وكذا

«جداليا» نائب نبوخذنصر في أورشليم^(٣٢)، أدركوا مدى الكارثة التي حلت بهم، وخوفاً من إنتقام العاهل البابلي، فقد كان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاح الوحيد أمامهم، ونقرأ في التوراة «فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين»^(٣٣)، ومرة أخرى ليس في هذه الأحداث إشارة إلى هروب يهود إلى يثرب، كما تذهب الروايات العربية^(٣٤).

على أنه في هذه الإضطرابات، لا يمكننا القول أن مصر كانت هي سبيل النجاح الوحيد أمام اليهود - كما تقول التوراة - ومن ثم فربما قر فريق من يهود إلى بلاد العرب، وإن كنا لانستطيع - بحال من الأحوال - أن نقول أنهم قد ذهبوا إلى يثرب بالذات، ولعل الذهاب إلى تيماء وإلى وادي القرى ومجاورتهما، ربما كان أقرب إلى الصواب من الذهاب بعيداً إلى يثرب، ذلك لأن الطريق إلى الحجاز لم يكن مقفلاً أمام يهود في تلك الفترة، بخاصة وأن اليهود كانوا هاربين من فلسطين، يبحثون عن ملجأ يقيهم شر العذاب الذي يمكن أن يصبه عليهم العاهل البابلي، والحجاز أقرب المناطق إلى فلسطين، كما أن وجود بعض من يهود على طرق التجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها فيما بعد العصر الروماني، قد يدعم الرأي القائل بوجود هجرة يهودية إلى بلاد العرب منذ تلك الفترة^(٣٥).

البابليين غير أن حملات المتكررة بعد ذلك على شتال بلاد العرب، فضلاً عن استقرار «نبونيد» في تيماء، ولمدة قد تقرب من سنوات عشر، كما أشرنا من قبل، قد يضعف هذا الاتجاه، ورغم أن هناك من يذهب إلى أن حملة نبونيد على بلاد العرب، قد ضمت بين رجالها بعضاً من يهود، وأن هذا النفر من يهود، إنما أقاموا في شمال الحجاز - وحتى يثرب - إقامة دائمة استمرت حتى ظهور

(٣٢) ارمياء ٤١: ١ - ١٨، زكريا ٥٧.

(٣٣) مذكور ثان ٢٥: ٢٦.

(٣٤) وفاء الوفا ١١٢/١، تاريخ ابن خلدون ١٠٧/٢.

(٣٥) اسرائيل ولفسون. تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦، وكذا A Guillaume, op.cit. p. 11.

الإسلام، فإن العاهل البابلي لم يشر أبداً إلى عناصر يهودية في جيوشه، أو أنه قد أسكن يهوداً في تلك المناطق، كما أننا لانملك من الأدلة ما يؤيد وجهة النظر هذه. (٣٦)

وهناك فريق خامس يذهب إلى أن وجود اليهود في يثرب إنما يرجع إلى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وليس من شك في أن الأدلة التاريخية إنما في جانب هذا الاتجاه أكثر من غيره، ولعل من أهم هذه الأدلة أن الظروف السياسية التي كانت يهود تمر بها في تلك الفترة - بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول ق.م، وعلى اليهودية ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد - قد ساعدت هذه الظروف على هجرة أعداد من يهود إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية، فضلاً عن أن بلاد العرب إنما كانت مازال في بداوة تشبه ما كان عليه اليهود إلى حد ما، هذا إلى أن اليهود أنفسهم إنما كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم من ولد إسماعيل، وبما أنهم - أي اليهود - من ولد اسحاق، فهو جميعاً إذن من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، وبالتالي فهم من ذوى رحمهم، ولهم بهم صلة قرى، هذا فضلاً عن أن أمر هجرة اليهود إلى أعالي الحجاز ودخولهم إليه أمر سهل ميسور، فالأرض واحدة وهي متصلة، والطرق مفتوحة مطروقة، ولا يوجد مانع يمنع اليهود، أو غير اليهود، من دخول الحجاز، ولا سيما أن اليهود كانوا خائفين، فارين من فتك الرومان، وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز (٣٧).

غير أن الهجرة الحقيقية إنما كانت بعد الثورة اليهودية ضد الرومان، ثم إخماد هذه الثورة بأشد العنف وأقسى أنواع التدمير على يد «تيتوس» في عام

(٣٦) جواد على ٥١٣/٦.

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, II, p. 74.

وكذا

O'Leary, op.cit, p. 173.

وكذا

(٣٧) فيليب حتى. المرجع السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

Josephus, The Jewish War, II, 18 1, 3 - 4.

وكذا

تم هدم المدينة المقدسة، وأُحرق المعبد الذي بُني بناءً زهيرياً،
إدراكاً تاماً، حتى أن القوم نسوا بعد حين من الدهر، إن كان المعبد قد بُني على
التل الشرقي أو الغربي من أورشليم، وحتى أن محاولة بنائه - اعتماداً على وصف
التوراة له - قد فشلت نهائياً، كما منع بقية السكان من مجرد الإقتراب من
أورشليم، ومن ثم فقد هاجرت مجموعات من السكان إلى بلاد العرب، ووصلت
إلى يثرب.

غير أن الثورة سرعان ما تجددت مرة أخرى على أيام هديران، فيما بين عامي
١٣٢، ١٣٥م، وانتهت الثورة إلى القضاء تماماً على اليهود، ككيان سياسي في
فلسطين، وتغير اسم المدينة المقدسة (القدس) إلى «إيليا كابيتولينا» وتحول المعبد
اليهودي إلى معبد لإله الرومان «جوبيتر»، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء،
وضاع اليهود في غياهب التاريخ، وسرعان ما فر - من أسعده الحظ فنجاً - إلى
مكان يحتمى به من غضبة الرومان القاسية، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من
يهود وصل إلى يثرب.

وكان هؤلاء - إلى جانب من وصلوا بعد قدوم القدس على يد تيتوس -
هم الذين كونوا الجالية اليهودية في شمال الحجاز، وفي يثرب بصفة خاصة (٣٨)،
وزاد عددهم بمرور الزمن، حتى إذا أظهر الإسلام كان معظم سكان وادي القرى
إلى يثرب من اليهود، هذا وهناك في الحجاز، وفي مراضع أخرى من أرض
الأنباط، كتابات نبطية، يرجع بعضها إلى القرن الأول الميلادي، وبعضها الآخر
إلى القرن الرابع الميلادي، وردت بها أسماء عبرية تشير إلى أن أصحابها من
يهود (٣٩).

وتؤيد المصادر العربية هذا الاتجاه، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بني إسرائيل
جاءهم بالشام فوطؤوهم ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير وبني قريظة وبني هذل

(٣٨) فواجب حتى: المرجع السابق من ٣٧٥ - ٣٧٧.

وكذا Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.

J.Herovity, Judaeo -Arabic Relations in Pre - Islamic, Times, (٣٩)
IC.III, 1929, p. 170.

(يهدل) هاربين إلى من بالحجار من يهود، فلما فصلوا عنهم بأهليهم اتبعهم الروم فأعجزوهم، وهلك جند الروم في المفاوز والصحارى الخالية من الماء، وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم، ثم قصد بنو النضير وقرية منطقة يثرب، وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها^(٤٠).

وهكذا سكنت جاليات يهودية منطقة يثرب، والطرق المودية إلى الشام وأن تركزت كتل اليهود الكبرى في يثرب بالذات، حيث كان فيها ثلاث قبائل، ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين، وهى قينقاع^(٤١) والنضير وقرية، إلى جانب بطون وعشائر يهودية أخرى، ذهب الاخباريون إلى أنها بلغت أكثر من عشرين بطنا، منهم بنو عكرمة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو الشظية وبنو جشم، وبنو يهدل وبنو عوف وبنو القصيص (العصيص) وبنو ثعلبة^(٤٢).

هذا وهناك من يرجع بنسب بنى النضير وبنى قرية إلى طبقة الكهان - سلالة هارون عليه السلام - وأما بقية يهود بلاد العرب، فبعضهم يرجع إلى نفس طبقة الكهان، وبعضهم الآخر إنما ينتمى إلى نسل الأسباط العشرة المفقودة^(٤٣). غير أننا لانستطيع أن نوافق على هذا الاتجاه، ذلك لأن- الأسباط العشرة -

(٤٠) الأغاني ١٩ / ٩٥، ابن خلدون ٢ / ٢٨٧، وفاء الوفاء ٢ / ١١٢، اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠٠ أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٠٧.

(٤١) يرى «أوليري» أن بنى قينقاع إما عرب متهودون، أو من بنى آدم (Op.cit, p. 173)، وأظهر عن موقفهم من الرسول ﷺ وعن علاقتهم مع غيرهم من يهود بنى قرية وبنى النضير، وأنشراهم في يوم يبعث (ابن كثير ٤ / ٣ - ٤، للقمي ٤ / ١٩٥، ابن خلدون ٢ / ٢٣، ابن هشام ٢ / ٣٣٤، المعارف ص ٩٤، تاريخ الطبري ٣ / ٤٧٩ - ٤٨٣، لاسرائيل. ولفنسون: المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٣١).

(٤٢) وفاء الوفاء ١ / ١١٢ - ١١٦، ابن هشام ٢ / ٢٥٩، الأغاني ١٩ / ٩٥، اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١١٤، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٥، جواد على

٥٢٢/٦

Friedlander The Jews of Arabia and The Rechabites, in JQR, (٤٣)

1914 - 1911 p 254

والذين كانت تتكون منهم دولة اسرائيل التي قامت عقب انفصال الدولة عشية موت سليمان في عام ٩٢٢ ق.م، إلى اسرائيل وعاصمتها السامرة، ويهوذا وعاصمتها اورشليم^(٤٤) - إنما ضاعوا في غياهب التاريخ بعد الاحتلال الآشوري للسامرة في عام ٧٢٢ ق.م، ثم قيام سرجون الثاني بتهجير أكثرهم إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية، ثم أتى بقبائل أخرى من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب، لتحل محل الإسرائيليين المسبيين، ثم أسكنهم في السامرة ومجاراتها، ومن هذا الخليط الجديد ظهر في التاريخ ما سمي «بالسامريين»^(٤٥).

وهكذا وضع سرجون الثاني نهاية لكيانهم كأمة، وأنهى وجرد الأسباط العشرة كدولة، ولم يقدر لهم العودة مرة أخرى إلى المنطقة التي أخذوها غيلة واغتصاباً من أصحابها، ثم سرعان ما اندمجوا مع غيرهم من السكان الأصليين في المناطق التي أجسروا على الإقامة فيها، وليست هناك أية إشارة على أن بلاد العرب كانت ضمن هذه المناطق، وإن ذكرت نصوص العاهل الآشوري أن من بين من أتى بهم إلى السامرة قبائل من بلاد العرب^(٤٦) - كما أشرنا من قبل - فهل أتى سرجون بجزء من الأسباط العشرة في مكان هؤلاء المهجرين من بلاد العرب؟ هذا ما سكنت عنه النصوص تماماً، ومن ثم فإننا لانستطيع القول بأن بعضاً من يهود بلاد العرب كانوا من الأسباط العشرة.

وعلى أي حال فإن فريقاً من المؤرخين انحنأ يذهب إلى أن يهود بلاد العرب، إنما هم عرب تهودوا، وإن لم يكونوا مزوديين بمعلومات كافية في التوحيد، وأنهم لم يكونوا خاضعين لقانون التلمود كله، حتى أن بعضاً من يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أنكروا عليهم يهوديتهم، وأن

(٤٤) ملوك أول ١١: ٣٥ - ٣٦، ١٢: ٢ - ٢٥.

M. Noth, op.cit, p. 58.

وكذا

C.Roth, op.cit, p. 23.

وكذا

(٤٥) فيليب حتى المرجع السابق ص ٢١٤.

The Book of Jewish Knowledge, 1964, -p. 120.

وكذا

A.L. Oppenheim, ANET, p 286

(٤٦)

كانوا من ذلك شديدي التمسك بدينهم^(٤٧).

هذا ويذهب فريق من المؤرخين إلى أن بنى النضير وبنى قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية، تهودوا وسموا باسم المكان الذى نزلوا فيه^(٤٨)، وطبقا لرواية الاختباريين، فإن «حبل بن جوال» من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان، قد تهود هو وقومه، وعاش مع بنى قريظة، حتى ظهور الإسلام، ثم هداه الله إلى الدين القويم فأسلم^(٤٩).

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يهود بلاد العرب انما هم من يهود فلسطين، وأنهم قد تركوها فيما بين عامى ٧٠، ١٣٥ م^(٥٠)، كما أشرنا من قبل - ويذهبون إلى أن يهود بنى النضير وبنى قريظة من نسل هارون^(٥١)، وأن بقية البطون اليهودية من أسباط بنى إسرائيل الأخرى^(٥٢)، وأن يهود خيبر من «يهو ناداب بن ركاب»، وأنهم هاجروا إلى خيبر بعد خراب الهيكل الأول فى عام ٥٨٦ ق.م، ثم بقوا فيها حتى عهد الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ - ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، وأن كلمة «خيبر» كلمة عبرانية بمعنى الطائفة والجماعة، وبمعنى الحصن والمعسكر^(٥٣)، وهو نفس الرأى الذى ذهب إليه

(٤٧) إسرائيل ولغزون. المرجع السابق ص ١٣، ٧٣، حسن إبراهيم المرجع السابق ص ٧٣.

D.S. Margoliouth, op.cit, p. 60

وكذا

H.Lammens, op.cit, p. 66, 81.

وكذا

Graetz, History of The Jews, III, p. 51 - 75.

وكذا

(٤٨) تاريخ اليعقوبى ٣٦/٢، ٣٩.

(٤٩) جواد على ٥٥/٦، وكذا الإصابة ٢٢٣/١ وما بعدها (رقم ١٠٧١).

O'Leary, op.cit, p. 173. (٥٠)

Graetz, op.cit, p. 56. وكذا D.S. Margoliouth, op.cit, p. 59. (٥١)

Freidlander, op.cit, p. 254. وكذا ٥٢٢/٦ - ٥٢٣، (٥٢)

(٥٣) ملوك ثان ١٠: ١٥ - ٢٨، البكرى ٥٢١/١، تاج العروس ١٦٨/٣، زاد المعاد ١٣٣/٢،

Graetz, op.cit, p. 56. وكذا

C.C. Torrey, The Jewish Foundations of Islam, p. 13 وكذا

J.Hastings, op.cit, p. 784. وكذا EI, 3, p. 869 وكذا

من نسبوها إلى رجل يدعى «خيبير بن قانية بن مهلائيل»، رأى فيه البعض «شفطيا بن مهلائيل» من بني فارض^(٥٤)، على أن هناك من يفسرها بمعنى مجموعة من المستوطنات، وإن رأى أن اللفظة عبرية^(٥٥).

على أن الاستدلال يبحث لغوى على جنسية يهود بلاد العرب، طبقا لما تشير إليه الأسماء التي يحملها اليهود - قبائل وأفراد - لا يمكن أن يعتد به أو يعول عليه، فمن الحق أن بعض أسماء القبائل اليهودية عربية محضة، ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس، إذ يمكن أن تكون جسرع اليهود التي هاجرت إلى بلاد العرب، قد اتخذت أسماء الأماكن التي نزلت بها أسماء لها، بل إن الواقع إنما يدلنا على أن اليهود كانوا قد تركوا منذ أمد طويل الإنتساب إلى قبائلهم، وأصبحوا يعرفون بأسماء القرى والأقاليم التي جاءوا منها، فكان يقال فلان الأورشليمي أو فلان الحبروني... هكذا ومن ثم فالطريقة المثلى - فيما يرى إسرائيل ولفنسون - إنما هي النظر في الأخلاق والتفاليد، واتجاه الأعمال والأفكار، وهنا فسوف نجد أن يهود بلاد العرب يهودا أكثر منهم عربا، هذا إلى جانب أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال بلاد العرب، إنما أتى اليهود بها من فلسطين، حيث تكثر هناك الحصون المنيعة في الجبال^(٥٦).

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما وجه الخطاب إلى اليهود بتعبير «بنى إسرائيل»، ونعى عليهم مسلك اليهود الأقدمين مع موسى والأنبياء من بعده، وما كان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتكذيب وعدو، ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أمواله الناس بالباطل، وذلك في صدد التنديد بموقفهم من النبي - ﷺ - وفي كثير من الآيات جعل اليهود المعاصرين والقدامي موضع خطاب وسياق وسلسلة واحدة، حيث يوجه

R.Dozy, op.cit, p 136

(٥٤) أبو الفدا ٨٩/١، وكذا

G.Weil, Mohammed der Prophet, p. 185

(٥٥) حواد على ٥٢٦/٦ كذا

(٥٦) إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ١٥ - ١٦.

الخطاب إلى بنى إسرائيل أو إلى اليهود بصيغة الخطاب القريب، فيقتصر «ما كان من الأقدمين وما كان من المعاصرين بأسلوب يرجح أن المقصود به تقرير الصلة النسبية بين هؤلاء وأولئك، وربط مابدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من أخلاق القدماء، كأن الجميع يصدر عن جبلة واحدة وأخلاق متوارثة، وإذن: فتتجه الخطاب في القرآن الكريم إلى يهود يشرب بـ «بنى إسرائيل» يسوغ الترجيح، بل الجزم بأن اليهود الذين كانوا في الحجاز، بصفة عامة، هم نازحون وأنهم إسرائيليون، وأنهم ليسوا قبائل عربية تهودت، وإن كان هناك عرب تهودوا، فإنهم لم يكونوا جماعة محسوسة، وليست إلا أفراد» (٥٧).

على أنه يجب ألا يفهم من هذا كله، أن كل يهود بلاد العرب من أصل يهودي، فهناك الكثير من العرب المتهودين، ولا سيما بالقبائل اليهودية المسماة بأسماء عربية أصيلة، لها صلة بالوثنية، مما يدل على أنها إنما كانت وثنية قبل أن تهود، وهناك الكثير من البطون العربية التي تهودت (٥٨)، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب، وقوم من غسان، وقوم من جذام، وقوم من «بلي» (٥٩).

هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن المرأة المقلات في الجاهلية كانت تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده، ومن ثم فقد تهود بعض منهم، فلما جاء الإسلام أراد الأنصار إكراه أبنائهم عليه، فنهاهم الله عن ذلك (٦٠)، حيث يقول سبحانه

(٥٧) عبد الفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام - الجزء الثاني، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥٨) T.Noldeke, op.cit, p. 52

(٥٩) تاريخ اليعقوبي ١، ٢٥٧، حواد ٥٢٥/٦.

وكتا Graetz , op- cit, p. 408 وكتا Islamic Culture, II, 2p. 177

(٦٠) أديان العرب في الجاهلية ص ٢٠١، إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٨٨، السنن الكبرى للبيهقي ١٨٦/٩، سنن أبي داود ٧٨/٣ - ٧٩.

وتعالى لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^(٦١)، كما أن اليهود قد عملوا على التبشير بدینهم بین العرب إلى حد ما.

(٢) العرب:

يروى الاخباريون أن القبائل العربية - من أوس وخزرج - قد هاجرت من اليمن إلى يثرب على أثر حادث سيل العرم، وهناك في يثرب وجدت تلك القبائل أن الأموال والأطام والنخيل في أيدي اليهود، فضلاً عن العدد والقوة، فأقام الأوس والخزرج مع اليهود، وعقدوا معهم حلفاً يأمن به بعضهم إلى بعض، ويمتنعون به من سواهم^(٦٢).

وهكذا فإن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب - إنما كانت - طبقاً لرواية الاخباريين - بسبب سيل العرم، الأمر الذي لا يمكن تحديد زمنه بسهولة ذلك لأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات، خلال الفترة الطويلة التي مضت منذ تشييده في منتصف القرن السابع ق.م - وربما الثامن ق.م^(٦٣) - وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣م، على أيام أبرهة الحبشي طبقاً لما جاء في نصي (جلالز ٦١٨) ر (CIH, 541)^(٦٤)، إذ أن هناك عدة اشارات إلى تهدم السد واصلاحه،

(٦١) سورة البقرة: آية ٢٥٦، وأنظر: تفسير الطبري ٤٠٧/٥ - ٤٢٤ (دار المعارف بمصر)، تفسير القرطبي ٢٧٩/٣ - ٢٨٢، تفسير روح المعاني ١٣/٣ - ١٥، تفسير مجمع البيان للطبرسي ٣٠٤/٣ - ٣٠٧، تفسير المنار ٣٥/٣ - ٤٠، تفسير أبي السعود ١٨٩، ١ - ١٩٠، تفسير ابن كثير ٣١٠ /١ - ٣١٢ (دار احياء التراث العربي)، تفسير العلي القدير ٢٢٠/١ - ٢٢٢، تفسير الكشاف ٣٨٧/١، في ظلال القرآن ٢٩٣/٢ - ٢٩٦، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٢٩/١ - ٣٣١، تفسير النسخي ١٢٩/١.

(٦٢) ابن كثير ١٦٠/٢، الأعاني ٦٩ /١٩، ياقوت ٣٥/٥ - ٣٨، تاريخ يعقوبي ٢٠٣/١ - ٤٢٠، ابن هشام ١٧/١ - ١٩، الأعلام النفسية ص ٦٢، جواد علي ١٢٩/٤، علي حافظ: فصول من تاريخ المدينة من ١٤ - ١٥.

(٦٣) جواد علي، ٢٨١/٢، نزيه مؤيد العظام، المرجع السابق ص ٨٨

D.Nielsen, op.cit, p. 79 وكذا Die Araber, p. 27

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 587. (٦٤)

A.Sprenger, op.cit, p. 31 - 126. وكذا

E Glasser. op.cit, p 390. وكذا

=

منها ما حدث على أيام «شمر يهرعش»^(٦٥)، ومنها ما حدث على أيام «ناران يهنم» عندما تهدم السد عند موضع «حبابض» و«رحبتن»، وأن القوم قد كتب لهم نجحا كبيرا في إصلاحه^(٦٦).

ولعل التهدم الذي حدث على أيام «شرحبيل يعفر» في القرن الخامس الميلادي، إنما كان واحدا من أشد تهدمات السد خطورة، لأن آثاره تعدت الآثار الجانبية، إلى هروب سكان المنطقة إلى الهضاب والجبال، ثم هجرتهم من هذه المنطقة إلى أرضين أخرى، ربما لأنه كان بسبب كوارث طبيعية، كالزلازل والبراكين، وليس لمجرد سقوط أمطار غزيرة، ومع ذلك فقد نجح القوم بعد كل هذا في تجديد بناء السد وترميمه، على مقربة من «رحب» وعند «عبرن»، فضلا عن حفر مساليل للمياه، وبناء القواعد والجدران، كما أشرنا من قبل، وقد تم ذلك في عام ١٤٤٩ / ٤٥٠ م^(٦٧)، وأخيرا ذلك التهدم الذي كان على أيام أبرهة الحبشي.

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب، وهجرة القبائل العربية من اليمن إلى وسط بلاد العرب وشمالها، أمر لا يمكن - على ضوء معلوماتنا الحالية - أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل، أو حتى قريبا من هذا القول، وأن الأمر ما يزال في مرحلة الحدس والتخمين، حتى تقدم لنا الأرض الطيبة في اليمن أر في غيرها، ما ينير أماننا الطريق.

LeMuseon, 1953, 66, p. 340.

وكذا

A.F.L Beeston, Problems of Sabaean Chronology, BASOR, 16, 1954.

(٦٥) جراد على ٢١٠/٧.

A.Jamme, op,cit, p. 176. (٦٦)

Le Museon, 1964, 3-4, p. 491 - 498.

وكذا

E.Glaser, in MVG, II, 1897, p. 372 - 372, 389 - 390

(٦٧)

Le Meseon, 1964, 3-4, p.493 - 4.

وكذا

H.St.J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947

A Sprenger, Dice Alte Geographie Arabiens, Berlin. 1875 p 13, 20, 28

وأما الروايات العربية، فإن بعضها منها إنما يشير إلى أن ذلك إنما قد حدث قبل الإسلام بأربعة قرون، بينما يشير البعض الآخر إلى أن تلك الهجرات إنما تمت في القرن الخامس الميلادي، وعلى أيام «حسان بن تيان أسعد»^(٦٨)، على أن هناك فريقا ثالثا إنما يقترح أخريات القرن الرابع الميلادي، معتمدا في ذلك على نسب «سعد بن عبادة الخزرجي»، وجعله مقياسا للزمن الذي ربما تكون الهجرة قد تمت فيه، فنسب سعد - طبقا لرواية النسابين - إنما هو «سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة»، فمن سعد إلى الخزرج الأكبر أحد عشر جيلا، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرين عاما، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (في عام ٦٢٢ م)، وبين الخزرج الأكبر، حوالي مائتين وخمسة وسبعين سنة، أي أن هجرة الأوس والخزرج، ربما كانت في أخريات القرن الرابع^(٦٩)، هذا ويحدد «سديو» هذه الهجرة بعام ٣٠٠ م، ثم الاستيلاء على المدينة في عام ٤٩٢ م^(٧٠).

وأيا ما كان الأمر، فإن الأخباريين يذهبون إلى أن الأوس^(٧١) والخزرج أخوان، فهما أبناء «حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن امرئ القيس البطريق، بن ثعلبة بن مازن بن الأزدة»^(٧٢)، الذي ينتهي نسبة إلى «يعرب بن قحطان»، ولكن القوم إنما كانوا

(٦٨) باقوت ٣٥٥/٥، حرجي زيدان: العرب قبل الإسلام ص ١٥٥، وانظر. الفصل التاسع من كتابنا، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ٣٠٩ - ٣٥٢.

(٦٩) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ٣١٥.

(٧٠) لويس أميل سديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعير ص ٥١.

(٧١) هناك من يفسر كلمة الأوس بأنها اختصار لكلمة «أوس مناة» وهو صنم جاهلي (جواد علي ١٣٥/٤).

(٧٢) ابن الأثير ٦٥٥/١، وفاة الرقا، ١٢٤/١، اللسان ١٨/٤، تاج العروس ١٠٣/٤، العقد الفريد ١٦/٣، ١٥٦، ابن هشام ٣٤٧/٣، الاشتقاق ٤٣٥/٢، ٤٣٧، باقوت ٢٠٣/٤، ٨٥/٥، المعارف ص ٤٩، المقدسي ١٢٠/٤ - ١٢١، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣، جمهرة أنساب العرب ص ٣٣٢، نهاية الأرب للقلشندى ص ٥٢ - ٥٣، ٩٣ - ٩٤.

ينتسبون إلى أمهم «قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة»، ولهذا كانوا يدعون «أبناء قيلة»، مما يدل على أن هذه المرأة إما كانت تتمتع بشهرة عريضة، دفعتهم إلى الإلتساب إليها^(٧٣).

وعلى أى حال، فلقد أقام الأوس والخزرج فى المدينة، وربما لم يكونوا فى أول الأمر يسلكون من القوة وكثرة العدد، بحيث يخشى اليهود بأسهم، هذا يبدو أن اليهود قد عملوا على الإفادة من خبراتهم التى اكتسبوها منذ فترة طويلة، فى مجال الزراعة والتجارة فى مواطنهم القديمة فى اليمن، ومن ثم سمحوا لهم بالإقامة فى مجاراتهم، إلا أن وجود الثروة والسلطان فى أيدي اليهود جعل الأوس والخزرج يعيشون حياة قاسية، ومن ثم فقد كان الواحد منهم، إما أن يعمل فى مزارع يهود، وإما أن يستغل خبرته السابقة فى الزراعة، فيعمل فى أرض لا تنتج الكثير من الغلات، لأنها فى غالب الأحيان إنما كانت أرض موات تركها اليهود، وفى كلا الحالتين فقد كان القوم غير ميسر عليهم فى الرزق^(٧٤).

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى استطاع أصحابنا من أوس وخزرج أن يكونوا أصحاب مال وعدد، حتى أن يهود بنى قريظة والتضير أحسوا أنهم لو تركوهم على حالهم هذا، فقد يشكلون فى وقت قريب خطراً، قد يهدد مصالح يهود فى المدينة، وربما قد يهدد القوم أنفسهم، ومن ثم فقد «اتمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى بينهم، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم خائفين أن تجلبهم يهود، حتى نجّم منهم مالك بن العجلان، من بنى سالم بن عوف بن الخزرج، فكان سبياً فى أن يسود الحيات، الأوس والخزرج»^(٧٥).

(٧٣) ابن حزم ٣٣٢/١، اللسان ٥٨٠/١١، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٠٤، المعارف ص ٤٩، خلاصة الوفا ص ١٦٤، التبية والاشراف للمسعودي ص ١٧٤، ياقوت ٨٥/٥، وفاء الوفا ١٢٤/١، جواد على ١٣٣/٤.

(٧٤) تاريخ ابن خلدون ٢٨٦/٢ - ٢٨٧، الأغاني ٦٩/١٩، خلاصة الوفا ص ١٦٥، وفاء الوفا ١٢٥/١، على حافظ - المرحع السابق ص ١٥.

(٧٥) المسعودي، وفاء الوفا بأحبار دار المصطفى ١٢٥/١ - ١٢٦، الدرر الثمينة ص ٣٢٦ - ٣٢٧، الأعلام النفيسة لاس رسته ص ٦٣، أحمد إبراهيم الشريف المرحع السابق ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

ومن ثم فقد أصبح للحيين - الأوس والخزرج - كيان سياسى فى يثرب، يفوق ماكان لليهود فيها، ومن أسف أن القوم مالئوا أن أصيبوا بلعنة الصراع القبلى، وتحولت المنافسة التى كانت بينهم وبين يهود، إلى مشاحنات بينهم وبين بعضهم البعض الآخر، أدت فى النهاية إلى قيام الحروب بين الحيين العربيين، لعبت فيها العوامل السياسية والتنافس على الزعامة فى يثرب دورا كبيرا، هذا فضلا عن العوامل الاقتصادية التى تتلخص فى رغبة كل من الفريقين فى الاستيلاء على ما عند يهود، ثم حدث أن احتل الأوس بقاعا أخصب وأغنى من تلك التى احتلها الخزرج، فى الوقت الذى كان الخزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة، لأن نصرة العرب، إنما جاءت على يد رجل خزرجى - هو مالك بن العجلان-.

وهكذا كان الخزرج ينفثون على الأوس مكانتهم الاقتصادية، بينما كان الآخرون ينفثون على الأولين، مكانتهم السياسية، حدث هذا فى وقت كانت فيه سياسة اليهود مع القبائل العربية إنما تقوم على الإيقاع بينها، وإثارة الأحقاد بين المتخاصمين منهم، كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان، ومن ثم فقد عملت يهود على إذكاء روح التحاسد والتباغض التى بدأت تظهر فى سماء العلاقات بين الحيين العربيين الشقيقين، حتى يشعلوا نارا، إن لم تقض على الأوس والخزرج معا، فعلى الأقل تشغل كل فريق بالآخر، وتنتهز يهود الفرصة لاستعداد لجولة قادمة، أو على الأقل الحفاظ على أمانهم عليه.

وحققت يهود نجاحا بعيد المدى فيما تريد، ودقت طبول الحرب بين الفريقين، تناوب قىها الأوس والخزرج النصر والهزيمة، وكان من أهمها ما عرف بحرب سمير، وحرب كعب بن عمرو المازنى^(٧٦) وحرب حاطب بن قيس^(٧٧)، فضلا عن يوم السرارة^(٧٨) ويوم فارع^(٧٩)، ويوم الفجار الأول

(٧٦) ابن الأثير ١/٦٦٠ - ٦٦٢، وفاء الوفا ١/١٥٢، أيام العرب فى الجاهلية ص ٦٩ - ٧١.

(٧٧) ابن الأثير ١/٦٧١ - ٦٧٢.

(٧٨) ابن الأثير ١/٦٦٢ - ٦٦٥.

(٧٩) ابن الأثير ١/٦٦٨ - ٦٧١.

والثاني^(٨٠)، وحرب الحصين بن الأسلت^(٨١)، ثم حرب بعات، وكان أولها حرب سمير، وآخرها حرب بعات قبل الهجرة بخمس سنوات^(٨٢)، أي عام (٦١٧م).

وأما يوم سمير، فقد كان - طبقاً لرواية الاخباريين - كأغلب أيام العرب لسبب غير خطير، ذلك أن رجلاً من بني ذبيان يقال له «كعب الشعلي» نزل ضيفاً على مالك بن العجلان، ثم خرج إلى سوق بني قينقاع، فرأى رجلاً من «غطفان» معه فرس، وهو يقول «ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب» فقال كعب مالك بن العجلان، فسمعه «سمير» الأوسي فشتمه ثم قتله بعد مدة في حديث طويل، وخاف الحيان أن تنشب الحرب، إلا أن الخزرج أبو إلا دية الصريح، ولج الأمر بينهم حتى أدى إلى المحاربة، فاجتمعوا واقتتلوا قتالاً شديداً على مقرية من «قباء»، فانتصر الأوس، وانتهى الأمر إلى أن يحتكموا إلى «المنذر بن حرام» الخزرجي، جد حسان بن ثابت، الذي حكم بأن تدفع الأوس دية الصريح، وانتهت الحرب، وإن افترق القوم وقد شبت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم^(٨٣).

وأما «يوم بعات»، فقد كان آخر الحروب التي نشبت بين الأوس والخزرج، وقبل هجرة المصطفى - ﷺ - بخمس سنوات، وتروى المصادر العربية أن الحروب السابقة بين الأوس والخزرج، إنما كانت في غالبيتها للخزرج، ومن ثم فقد رأى الأوس محالفة بني قريظة، فأرسلت إليهم الخزرج «لئن فعلتم فأذنوا بحرب»،

(٨٠) ابن الأثير ٦٧٦/١، ٦٧٨ - ٦٨٠.

(٨١) ابن الأثير ٦٦٥/١ - ٦٦٦.

(٨٢) وفاء الوفا ١٥٢/١، ١٥٥، ابن الأثير ٦٥٥/١ - ٦٨٤، الأغاني ١٩/٣ - ٤٢، إسرائيل ولفسون: المرجع السابق ص ٦٨.

(٨٣) ابن الأثير ٦٥٨/١ - ٦٦٢، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٣٣، المفضليات ص ١٣٥، البدء والتاريخ ١٣٠/٣، الاشتقاق ٢٦٦/١، الأعتاق الفسسية ص ٦٤، وفاء الوفا ١٥٢/١، الأغاني ١٦١/٢ - ١٦٤، أيام العرب في الجاهلية ص ٦٢ - ٦٨، جرجي زيدان: المرجع السابق ص ٣٦١ - ٣٦٢، قارن: تاريخ الجاهلية ١٢٣ - ١٢٤.

فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج «إنا لآنحالفهم ولاندخل بينكم»، ومع ذلك فقد استمر كل فريق يستميل إليه يهود، فضلا عن قبائل عربية أخرى، ولعب اليهود أخطر الأدوار في إشعال نار الحرب بين الحيين العربيين، وبالتالي عودة السيادة لهم في يثرب من جديد.

وهكذا جدد بنو قريظة والتضير تحالفهم مع الأوس، ثم ضموا إليهم قبائل أخرى من اليهود واستعدوا للحرب، وخشى الخزرج أن تنزل بهم هزيمة، فراسلوا حلفاءهم من بنى أشجع وبنى جهينة، وراسل الأوس حلفاءهم من بنى مزينة، وأخيرا نشبت الحرب بين الفريقين عند «بعاث» - حصن بنى قريظة - وانهزم الأوس في اليوم الأول، غير أن «عمر بن النعمان» قائد الخزرج، سرعان ما قتل، وانهزم الأوس الفرصة، فمالوا على الخزرج ميله رجل واحد، يقتلون رجالهم ويحرقون منازلهم ونخيلهم، بعد أن كانت يهود قد نهبت ما استطاعت من أموالهم، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة، إلا خشية الأوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق في يثرب، فيضطروا لمواجهة متفردين بعد القضاء على الخزرج، وفعلا فلقد بدت نيات اليهود واضحة في تحطيم الخزرج وإذلالهم، بخاصة وأنهم أصحاب اليد الطولى في القضاء على نفوذ اليهود في المدينة، ومن ثم فقد فضلت الأوس الاكتفاء بالقضاء على روح التسلط في الخزرج، وصاح واحد منهم «يامعشر الأوس: أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، ألقواهم خير من جوار الثعالب».

ويروى أن السيدة عائشة - رضی الله عنها - قدت عن هذا اليوم «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ، وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام» ذلك لأن يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها وأوجد فيها ميلا إلى الإتحاد كما أضعف كذلك روح العداوة والحقد في نفوس البطون اليثربية، حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتا حارا على نار العداوة الكامنة في القلوب ليزيد في ضرارها،

ويعمل من أربابها... حتى كثر من قتلهم، ودفنوا في المقابر، حتى كثرت يده،
حتى لا يدخل السيوف من أعينها، وجاء الإسلام وانتقلت الكلمة، واجتمع
الأوس والخزرج على نصرته الإسلام وأهله، وكفى الله المؤمنين شر القتال، وأصبح
القوم بنعمة الله اخواناً (٨٤).

(٥) فضائل المدينة:

بدأت «يثرب» بالهجرة النبوية الشريفة (١هـ / ٦٢٢م) عهداً جديداً، وباسم
جديد، بدأت العصر الإسلامي، وباسم «المدينة المنورة»، أو مدينة الرسول ﷺ،
وأصبحت عاصمة الإسلام، ومقر رسول الله ﷺ - حياً وميتاً - ومقر الخلفاء
الراشدين الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) من بعده.

هذا وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائل المدينة المنورة، روى البخاري في
صحيحه (باب حرم المدينة) بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
«المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث من أحدث
حدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (٨٥).

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي
الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «حرم ما بين لابتي المدينة - على لسانى» (٨٦).

(٨٤) المسهوى: خلاصة الوفا ص ١٧٧ - ١٧٨، البكري ٢٥٩/١ - ٢٦٠، ياقوت ٥١/١،
تاريخ ابن خلدون ٢٨٩/٢ - ٢٩٠، ابن الأثير ٦٨٠/١ - ٦٨٤، تارح العروش ١٠٤/١،
شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٧٨، ابن هشام ١٨٣/٢، صحيح البخاري ١٠٨/٥، إسرائيل
ولفئسون: المرجع السابق ص ٦٢ - ٧٠، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٣٦،
محمد أحمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب في الجاهلية ص ٧٣ - ٨٤، إبراهيم العياشي:
المدينة بين الماضي والحاضر ص ٤١ - ٤٣، وكذا المسهوى: وفاء الوفا ٢١٨/١ - ٢٢٠
(بيروت ١٩٧١)، الأغابى ١٥٤/١٥ - ١٥٧، ١٦/١٦، ١٩/١٩ - ٩٦، ١٠١، ١٠٦ (ط
الساسي)، الروض الأنف ١٤/١ - ١٥، مصنع الأمثال للميداني ٢٦٨/٢ - ٢٧٠، الاشتقاق
ص ٢٦٦، الصحاح للجوهري ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٢٩/٣ - ٨٠، الصحاح
للجوهري ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٢٩/٣ - ٨٠، صبح الأعشى ٣١٩/١، تاريخ أبر
الفداء ١٠٧/١.

(٨٥) صحيح البخاري ٢٥/٣.

(٨٦) صحيح البخاري ٢٦/٣.

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن على بن رضى الله عنه قال: ما عندنا شىء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبى ﷺ وآله: المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا من أحدث فيها حدثاً، أو أوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل (٨٧).

وروى البخارى فى صحيحه (باب فضل المدينة، وأنها تنفى الناس) عن يحيى بن سعيد قال: سمعت أبا الجباب سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يشرب، وهى المدينة، تنفى الناس، كما تنفى خبث الحديد (٨٨).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول: لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ماذعرتها، قال رسول الله ﷺ: ما بين لا بيتها حرام (٨٩).

وروى البخارى فى صحيحه (باب من رغب عن المدينة) بسنده عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبى زهير رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تفتح اليمن فيأتى قوم ييسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتى قوم ييسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (٩٠).

وروى البخارى فى صحيحه (باب الإيمان يأزر إلى المدينة) بسنده عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: أن الإيمان ليأزر إلى المدينة، كما تأزر الحية إلى جحرها (٩١).

وروى البخارى فى صحيحه (باب اثم من كاد أهل المدينة) بسنده عن عائشة قالت: سمعت سعدا رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: لا يكيد أهل

(٨٧) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٨) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٩) صحيح البخارى ٢٦/٣ - ٢٧.

(٩٠) صحيح البخارى ٢٧/٣.

(٩١) صحيح البخارى ٢٧/٣.

المدينة أحد، إلا انماع، كما ينماع الملح فى الماء (٩٢).

وروى البخارى فى صحيحه (باب لا يدخل الدجال المدينة) بسنده عن أبى بكره رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان (٩٣).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال» (٩٤).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ليس من بلد، الا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب، إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومتافق» (٩٥).

وروى البخارى فى صحيحه «باب المدينة تنفى الخبث» بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ، فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموا، فقال أقلنى، فأبى ثلاث مرار، فقال: المدينة كالكير تنفى خبثها، وينصع طيبها» (٩٦).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت فى صاعها ومدنها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» (٩٧).

وعن رافع بن خديج قال: قال رسول الله ﷺ: «ان إبراهيم حرم مكة، وإنى

(٩٢) صحيح البخارى ٢٧/٣.

(٩٣) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٤) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٥) صحيح البخارى ٢٨/٣.

(٩٦) صحيح البخارى ٢٩/٣.

(٩٧) صحيح مسلم ١٣٤/٩ - ١٣٥.

أحرم ما بين لابتيها - يعنى المدينة (٩٨).

وعن جابر قال: قال النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة، ما بين لابتيها، لا يقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها» (٩٩).

وحدثنا ابن نمير، حدثنا أبي، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أحرم ما بين لابتي المدينة، أن يقطع عضاهها، أو يقتل صيدها، وقال: «المدينة خير لهم، لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها، إلا أبدل الله فيها، من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها، إلا كنت له شفعيا أو شهيدا يوم القيامة» (١٠٠).

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثم ذكر مثل حديث ابن نمير، رزاد في الحديث: ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء، إلا أذابه الله في النار، ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء» (١٠١).

وحدثنا حامد بن عمر، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عاصم قال: قلت لأنس بن مالك، أحرم رسول الله ﷺ المدينة؟ قال: نعم، ما بين كذا إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثا قال: ثم قال لى هذه شديدة، من أحدث فيها حدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، قال: فقال ابن أنس: أو أوى محدثا (١٠٢).

وروى مسلم في صحيحه عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: خطبنا على بن أبي طالب فقال: من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه، إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة، قال: صحيفة معلقة في قراب سيفه، فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: المدينة حرم ما بين غير إلى ثور،

(٩٨) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(٩٩) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(١٠٠) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

(١٠١) صحيح مسلم ١٣٧/٩ - ١٣٨.

(١٠٢) صحيح مسلم ١٤٠/٩ - ١٤١.

فمن أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو اتقى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» (١٠٣).

وعن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: حرم رسول الله ﷺ، ما بين لابتي المدينة، قال أبو هريرة: فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ماذعرتها، وجعل اثني عشر ميلا (حوالي ١٩ كيلا) حول المدينة حمى (١٠٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرما، وإنى حرمت المدينة، حراما ما بين مأزميها، أن لا يهراق، فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا تخط فيها شجرة، إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذي نفسى بيده ما من المدينة شعب ولا نقب، إلا عليه ملكان يحرسانه» (١٠٥).

وعن سهل بن حنيف قال: أهوى رسول الله ﷺ: بيده إلى المدينة فقال: انها حرم آمن» (١٠٦).

وحدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم - يعنى ابن اسماعيل - عن عمر بن نبيه، أخبرني دينار القراظ قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: قال رسول الله ﷺ: من أرد أهل المدينة بسوء، أذابه الله كما يذوب الملح في الماء (١٠٧).

(١٠٣) صحيح مسلم ١٤٢/٩ - ١٤٤.

(١٠٤) صحيح مسلم ١٤٥/٩.

(١٠٥) صحيح مسلم ١٤٧/٩ - ١٤٨.

(١٠٦) صحيح مسلم ١٥٠/٩.

(١٠٧) صحيح مسلم ١٥٧/٩.

(٦) المسجد النبوي:

هذا وقد شرفت المدينة بمسجد سيدنا رسول الله ﷺ - ثاني الحرمين الشريفين، روى البخاري في صحيحه (باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة) بسنده عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى، (١٠٨).

وعن أبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال. صلاة في مسجدي هذا، خير من ألف صلاة. فيما سواه، إلا المسجد الحرام، (١٠٩).

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا، أفضل من ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١٠).

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١١).

وعن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ: لا تشد الرحال، إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى، (١١٢).

(٧) الروضة الشريفة:

هناك في مسجد سيدنا رسول الله ﷺ في المدينة المنورة «الروضة الشريفة» روى البخاري في صحيحه (باب فضل ما بين القبر والمنير) بسنده عن عبد الله بن أبي بكر، عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد المازني، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال، ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة» (١١٣).

(١٠٨) صحيح البخاري ٧٦/٢

(١٠٩) صحيح البخاري ٧٦/٢..

(١١٠) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١١) صحيح مسلم ١٦٥/٩.

(١١٢) صحيح مسلم ١٦٧/٩ - ١٦٨.

(١١٣) صحيح البخاري ٧٧/٢.

وعن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي (١١٤).

وعن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي (١١٥).

وعن عباد بن تميم عن عبد الله بن ريد الأنصاري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة (١١٦).

هذا وقد اختلف العلماء في المراد بقوله ﷺ «ما بين بيتي (١١٧) ومنبري روضة من رياض الجنة» (١١٨)، وفي رواية أنه قال: «ما بين هذه البيوت يعني بيوته - إلى منبري، روضة من رياض الجنة، والمنبر على ترعة من ترع الجنة»، وفي حديث آخر: «منبري على ترعة من ترع الجنة» هل هو على الحقيقة أم المجاز؟

والرأي عند الامام مالك (٩٠-٩٧هـ / ٧٠٨-٧٧٩م) أنه الأول - أى على الحقيقة - فقال: «إنها روضة من رياض الجنة تنقل إليها، وليست كسائر الأرض تذهب وتفتنى»، ووافقة على ذلك جماعة من العلماء: وصححه «ابن الحاج»، وقال ابن أبي حمزة: ويحتمل أن تكون تلك البقعة نفسها الآن من الجنة، كما أن «الحجر الأسود» منها، وتعود روضة فيها، وقال الداودي:

(١١٤) صحيح البخارى ٧٢/٢.

(١١٥) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١٦) صحيح مسلم ١٦١/٩.

(١١٧) جاء في الشفا: قال الطبري: فيه معنيان، أحدهما أن المراد بالبيت بيت سكناه على الظاهر - مع أنه روى ما يبينه «بين حجرتي ومنبري»، والثاني: أن البيت هنا هو القبر - وهو قول زيد بن أسلم في هذا الحديث - كما روى «بين قري ومنبري»، قال الطبري: وإذا كان قبره في بيته، انفقت معاني الروايات، ولم يكن بسها خلاف، لأن قسره في حجرته - وهو بيت -، وقوله «منبري على حوضي»، قيل يحتمل أنه منبره بعينه الذي كان في الدنيا، وهو أزهره، والثاني أن يكون له هناك منبر، والثالث: أن قصد منبره، وللحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة، يورد الحوص، ويوجب الشرب منه قاله الباجي (القاضي عياض: الشفا ٩١/٢ - ٩٢).

(١١٨) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي عن عبد الله بن زيد المازني، ورواه الترمذي عن أبي هريرة، ومثل هذا اللفظ عن أبي هريرة وأبي سعيد - أى في الموطأ - وفي نسخة صحيحه زاد أبو سعيد الحدودي: «ومنبري على حوضي» (الملا على القارئ شرح الشفا ١٤٦/٢).

كما جاء في الشفاء - أن تلك البقعة قد ينقلها الله تعالى، فتكون في الجنة بعينها (١١٩).

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن ذلك على المجاز - وليس على الحقيقة - قال الحافظ «ابن حجر العسقلاني» (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) محصل ما أول به العلماء ذلك، أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة، في نزول الرحمة، وحصول السعادة، بما يحصل فيها من ملازمة خلق الذكر، لا سيما في عهده ﷺ، فيكون مجازاً، أو أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضاً.

وقال «ابن عبد البر» (٣٦٣ - ٤٦٣ هـ / ٩٧٣ - ١٠٧٠ م): لما كان ﷺ، يجلس في ذلك الموضع ويجلس الناس إليه للتعلم، شبهه بالروضة، لكرم ما يجتنى منه، وأضافها إلى الجنة، كقوله ﷺ «الجنة تحت ظلال السيوف» - أي أنه عمل يدخل الجنة -.

هذا وقد ذهب «ابن حزم» (٦٧٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) أيضاً إلى أن الروضة إنما هي من الجنة على سبيل المجاز، إذ لو كانت حقيقة، لكانت - كما وصف الله تعالى الجنة - «إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى» (١٢٠).

هذا وقد رجح الحافظ ابن حجر الرأي الأول في موضع من «فتح الباري»، وأن تلك البقعة نفسها، (الروضة الشريفة، ومساحتها ١٩/٢٢ م) إنما هي روضة حقيقية من رياض الجنة، كما أن الحجر الأسود من الجنة، فيكون الموضع المذكور - أي الروضة الشريفة - روضة من رياض الجنة الآن ويعود روضة في الجنة، كما كان، ويكون للعامل بالعمل فيه روضة من رياض الجنة، وذلك لعلو مكانته ﷺ، وليكون بينه وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبه، وهو أنه لما خص الخليل - عليه الصلاة والسلام - بالحجر الأسود من الجنة، خص الحبيب المصطفى ﷺ بالروضة من الجنة.

هذا فضلاً عن أن المخبر بأن الروضة من الجنة، هو المخبر بأن الحجر والمقام

(١١٩) أنظر محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - الجزء الثاني - السيرة السوية الشريفة - الجزء الثاني - ص ١٣٨ - ١٤١ - بيروت ١٩٩٠ (١٢٠) سورة طه: آية ١١٨.

منها، هذا ولا ينافى كون الروضة من الجنة حقيقة، حصول الجوع والعري فيها، لانصافها بصفة دار الدنيا، كما أن الحجر الأسود ومقام إبراهيم من الجنة، لكنهما نزلا في هذه الدار «الكعبة المشرفة» انصافاً بصفاتها، فلا يلزم من انتفاء الجوع والعري عمن حل في الجنة، انتفاؤهما فيما نقل منها، وإلا لنفى بذلك كون الحجر المقام من الجنة حقيقة، ولا قائل به.

هذا وقد اختلف العلماء أيضاً في تحديد الروضة الشريفة، فذهب فريق إلى أنها ماسامت (أى ما قابلت ووازت) كلا من طرفي المنبر والحجرة، فتؤخذ مستوية فيدخل فيها محاذاة الحجرة من جهة الشمال، وإن لم يسامت المنبر، ومجازاة طرف المنبر من جهة القبلة، وإن لم يسامت الحجرة لتقدمه من جهة القبلة، فتكون الروضة مربعة، وهى الأروقة الثلاثة: رواق المصلى الشريف، والروقان بعده إلى صف أسطوانة الوفود، وهى التى خلفت أسطوانة الحرس، وذلك هو سقف مقدم المسجد فى زمنه ﷺ ويدخل فى حيثئذ موقف الصف الأول مما يلى الحجرة، وجميع المصلى الشريف، وهذا هو الأولى بالإعتماد، وظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس، كما فى المنح، وقد رجحه العلامة «السمهودى» (١٢١) ١٤٤٠ - ١٥٠٥ م) فى الوفاء وخلاصته، وتبعه جمع ممن بعده من أئمتنا وغيرهم.

وخلاصة حد «الروضة الشريفة» الآن - كما جاء فى النزهة على هذا القول الراجح - الأساطين المرخمة بالرخام الأبيض والأحمر، المذهبة إلى حد النصف منها، ودليل هذا القول، قوله ﷺ «ما بين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة».

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما هى: ماسامت الحجرة الشريفة، والقبر الشريف المنيف فقط، فتؤخذ غير مستوية، فتكون متمسكة من جهة الحجرة، ضيقة من جهة المنبر، فتكون منحرفة الاطلاع،

(١٢١) أنظر عن ترجمة السمهودى - المصرى الحنفى، نزيل المدينة المنورة، وعالمها ومفتيها، ومدرستها ومؤرخها (شذرات الذهب ٥٠/٨ - ٥١، السحارى الضوء اللامع فى أحوال أهل القرن التاسع ٢٤٥/٥، مقدمة وفاء الوفا ٤/١-٥).

لتقدم المنبر الشريف فى جهة القبلة، وتؤخر الحجرة الشريفة فى جهة الشام فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعا، على قدر امتداد المنبر السوى الشريف، وهو خمسة أشبار - كما حرره السمهودى - ودليل هذا القول: التمسك بظاهر لفظ البينية الحقيقية من الحديث، وحيث يخرج عنها الصف الأول مما يلى الحجرة، فلا يكون من الروضة الشريفة.

وهنالك وجه ثالث للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما تعم جميع المسجد الذى كان موجوداً على أيام النبى ﷺ، وهو الذى جزم به السمعاني وغيره، ونقله الريمى عن الخطيب بن جملة، واستدل له بقوله ﷺ «ما بين بيتى»، وهو مفرد مضاف يفيد العموم فى سائر بيوته ﷺ، ويفسر هذا - وإن لم يستدل به - رواية صحيححة للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ/٧٨٠م - ٢٤١هـ/٨٥٥م) فى «زوائد المسند» جاء فيها «ما بين هذه البيوت» - يعنى بيوته ﷺ - «إلى منبرى».

ويقول «الشنقيطى»: وأنا أميل إلى رأى الإمام مالك والزن المراعى فى تحديد الروضة الشريفة، لأدلة منها:

أولاً: ما ذكره فى حمل الخصوص فى قوله «قبرى» على العموم فى قوله «بيتى».

وثانياً: ما رواه الإمام أحمد - رحمه الله - «سابقاً» البيوت إلى منبرى، روضة من رياض الجنة».

وثالثاً: حديث: «رقوائم منبرى على ترعة من ترع الجنة»، الذى يفهم إن ما كان شمال المنبر الشريف من الأرض هو ترعة من ترع الجنة وإلى الشمال الغربى من ذلك فى نهاية المسجد حيث باب الرحمة كان يقع آخر بيت من بيوت رسول الله ﷺ.

وهناك وجه رابع للنظر يصحب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما تعم جميع المسجد النبوى الشريف، فى زمنه ﷺ، وبعد زمنه.

هذا وقد يجمع بين الروايات السابقة بأن الروضة الشريفة إنما تطلق على أماكن متفاوتة في الفضل ، فأفضلها ما بين القبر والمنبر، ثم بقية المسجد في زمنه ﷺ ، ثم ما زيد عليه بعده، ثم ما كان خارجاً إلى المصلى.

وعلى أية حال، فلقد وضع العثمانيون علامات للروضة الشريفة، بجعل أساطينها بيضاء - كما هو المشاهد الآن، وفي عام ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م حصل نقشر في رخام بعض أساطين الروضة الشريفة، فقامت المملكة العربية السعودية بترميمها برخام أبيض أيضاً وقد أظهر ذلك أناقتها.

وأما «القبة الخضراء» فهي أصلاً من بناء سلطان مصر «الملك الأشرف أبو النصر قايتباي» (١٤١٠ - ١٤٩٦م)، وفي عام ١٢٣٣هـ (١٨١٧م) أمر السلطان العثماني «محمود خان الثاني» (١٧٨٤ - ١٨٣٩م) بترميمها - وفي رواية بهدمها من قواعدها، وبناءها على قواعد متينة ثم طلاؤها باللون الأخضر، الذي جعلها تسمى «بالقبة الخضراء» - بعد أن كانت خضراء - منذ بنائها «قايتباي» بناء محكماً، وقد أخذ لها الجبس الأبيض من مصر - وقد تم ذلك في عام ٨٩٢هـ (١٤٨٦/١٤٨٧م)، وكتب على طرازها من الناحية الغربية «أنشأ هذه القبة الشريفة العالية، المعترف بالتقصير الراجي عفوره القدير، قايتباي».

ولعل من الأهمية بسكان الإشارة إلى «الحجرة الشريفة» وكانت تسمى قديماً «المقصورة»، قال صاحب مرآة الحرمين: وفي زاوية المسجد الجنوبية الشرقية - جزء فصل من المسجد بسور من النحاس الأصفر، طول كل من ضلعيه - الجنوبي والشمالي - ١٦م، وكل من ضلعيه - الشرقي والغربي ١٥م، ويقال له «المقصورة الشريفة».

وبناء المقصورة الحالي من آثار الملك «الأشرف قايتباي» من سورها الخارجي المعروف «بالشباك» إلى قبته التي فوق الداخلية، إلى دائرها الخمس، إلى القبة الداخلية، المبنية بحجر أبيض وأسود، الكائنة فوق الحجرة النبوية، التي فيها القبور الثلاثة الشريفة: قبر سيد الأنام محمد ﷺ، وقبرا صاحبيه وخليفته: أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، رضى الله عنهما، ومن ثم فقد مضى على هذه البناءات المؤلف منها ما يسمى «بالمقصورة» أو «الحجرة الشريفة» ما ينيف على أربعة قرون.

هذا وفي شمال الدائر المحمس - فى داخل الشباك - حجرة السيدة فاطمة عليها السلام، أو قبرها، ويحلفه محراب يقال له «محراب فاطمة» (١٢٢). ولعلنا نختم هذا الحديث عن «المسجد البوى الشريف» إلى أنه انما كان مصدراً لاهتمام كتاب العالم كله، وذكره المؤرخون والأدباء والمحدثون والرحالة والجغرافيون من جزيرة العرب، ومن أرض الكتانة، ومن العراق والشام والمغرب والأندلس، ومن إيران وتركيا والهند، ومن فرنسا وانجلترا وهولندا وألمانيا وإيطاليا. ومن ثم فقد رأينا موسوعة «مصادر تاريخ الجزيرة العربية»، إنما تخصص له فى جزئها الأول بحثاً خاصاً، كتبه الأستاذ «رشيد بورويبة» بعنوان، «مسجد المدينة فى حداثى الكتب الثمينة»، وقدم لنا فيه قرابة تسعين كتاباً، جمعت بين كتب المحدثين وأصحاب السير، من حيث أننا نجد، بجانب مواليد الجزيرة العربية، مصريين وشاميين، وعراقيين وفرنسا، وأتراكا وهنودا، ومغاربة وأندلسيين وانجليزيين وفرنسيين وألمانيين وإيطاليين وغيرهم.

(١٢٢) أنظر: الدكتور محمد علوى المالكى: الذخائر المحمدية ص ٧٧ - ٨٧ السمهردى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٤٢٦/٢، على الملا القارى: شرح الشفا ١٦٣/٢ - ١٦٥، القاضى عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٩١/٢ - ٩٢، عبد الحميد قدسى: الذخائر القدسية، ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين ص ٢٤٠ - ٢٤٥، محمود الشرقاوى المدينة المنورة ١٩٦ - ٢٠٣، غالى محمد الأمين الشقيطى: كتاب الدار الثمين فى معالم دار الرسول الأمين، ع - الدرحة ١٩٨٨ ص ٢٤ - ٢٧، لبيب البتنونى: الرحلة الحجازية ص ٢٤٨ - ٢٥٠، ابراهيم ابن على السياسى: المدينة بين الماضى والحاضر، محمد صبرى أبو علم باشا: الروضة الشريفة، الرضى المراضى بتحقيق الصرة فى معالم دار الهجرة، على حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ابن السجار: أخبار المدينة، أحمد بن عبد الحميد العباسى عمدة الأخبار فى مدينة المختار، عبد القدوس الأنصارى آثار المدينة المنورة ص ٨١ - ١٧٦ - المدينة المنورة ١٩٧٣ م. - نقوت ٩/٥، تقرير البلدان ص ٩٥، حراد على ١٤٢/٤.

(٣) الطائف:

تقع الطائف على مبعدة حوالي ١٢٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقي من مكة، على جبل غزوان، أبرد مكان في الحجاز، وتتميز على مكة المكرمة بأنها ذات جو طيب في الصيف، وبأنها كثيرة الشجر والتمر، وأكثرها ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعنان^(١) وتصل كمية المطر السنوية إلى ٢٠٠ ملميمتر، وتزيد أحيانا إلى ٤٥٠ ملميمتر، ويزيد من أهميتها انخفاض درجة الحرارة وبالتالي قلة البخر.

وتاريخ الطائف ما يزال غامضاً، وإن عشر الباحثون على كتابات مدونة على الصخور المحيطة بالمدينة، وفي مواضع ليست بعيدة عنها، بعضها بالنبطية، وبعضها بالشمودية، وبعضها الثالث بعربية القرآن الكريم، كما عشر على كتابات تشبه اليونانية، وأخرى تشبه الخط الكوفي، وإن كانت جميعها لم تدرس حتى الآن^(٢).

ويذهب الاخباريون إلى أن اسمها القديم «وج»، نسبة إلى «وج» أخو «أجأ» الذي سمي به أحد جبلي طي، وهما من العماليق، وإنما سميت بالطائف بحائطها المطيف بها، وقد أقامه رجل دعوه «الدمون» حتى لا يصل إليهم أحد من العرب، ثم حاولوا بعد ذلك إعطاء صفة مقدسة، ربما بتأثير من بنى ثقيف سكان الطائف، فزعموا بأنها من دعوات إبراهيم الخليل، وأنها أرض ذات شجر كانت حول الكعبة، ثم انتقلت من مكانها بدعوة إبراهيم، فطافت حول البيت، ثم استقرت في مكانها، فسميت الطائف، وزعم آخرون أن جبريل قد اقتطفها من فلسطين، وسار بها إلى مكة فطاف بها حول البيت، ثم أنزلها حول الطائف^(٣)... إلى غير ذلك من أساطير لا تقدم نفعاً، ولا تفيد علماً.

هذا وهناك من يزعم أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق، ثم غلبهم

(١) ياقوت ٩/٤، تقويم البلدان ص ٩٥، جواد على ١٤٢/٤.

(٢) جواد على ١٤٣/٤، القزويني: آثار البلاد ص ٩٨.

وكذا: Osman R. Rostem, Rock Inscriptions in The Hijaz, P. 11.

(٣) ياقوت ٩/٤، ١٢، البكري، ٨٨٦/٣، تاج العروس ١٨٤/١، المقدسي ١٠٩/٢، تقويم البلدان

٤٩٩/٣ وما بعدها

عليها بنو عدوان من قيس بن عيلان، ثم بنو عامر بن صعصعة، ثم أخذتها منهم ثقيف^(٤)، وزعم آخرون أن الذين سكنوا الطائف بعد العماليق إنما هم قوم لثمود قبل ارتحالهم إلى وادي القرى، ومن ثم فقد ربط أصحاب هذه الرواية نسب ثقيف بالثموديين الذين سببهم إلى جد أعلى هو «قسي بن منبه»، الذي يجعله بعضهم من «إباد»، بينما يجعله البعض الآخر من «هوزان». وزعم فريق ثالث أنه كان بالطائف قوم من يهود، طردوا من اليمن ومن يثرب، فجعأوا إلى الطائف، وسكنوا فيها، ودفعوا الجزية لسادتها ومنهم اتباع معاوية بن أبي سفيان أمواله بالطائف^(٥).

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب، من حيث ميلهم إلى الزراعة والإشتغال بها، وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التي كانوا دائمى السعى إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة منها، كما كان لهم خبرة ومهارة بالأمور العسكرية، الأمر الذى ظهر واضحاً إبان محاصرة الرسول (ﷺ) لمدينتهم وتحصنهم بسورها، هذا إلى جانب ميل إلى الحرف اليدوية كالدباغة والنجارة والحدادة، وهى أمور مستهجنة فى نظر العربى^(٦)، وقال الهمداني عن الطائف^(٧): مدينة قديمة جاهلية، وهى بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروفة.

هذا وقد عاش أهل الطائف فى مستوى أرفع من عامة أهل الحجاز، بل حتى حظ فقراء الطائف كان أفضل من حظ غيرهم من فقراء الحجاز. وقد ذهب المفسرون إلى أن كلمة القريتين التى جاءت فى سورة الزخرف فى

(٤) المعارف ص ٩١؛ تاج العروس ١١٠/٢، اللسان ٣٩٧/٢، الأغاني ٧٤/٤، أنساب الأشراف ص ٢٥، الاشتقاق ص ١٨٣، ياقوت ٩/٢ - ١١، ابن خلدون ٢٤/٢، نهاية الأرب لائقشدى ص ١٩٨، ٢٠٠، وكذا، EI, 4, p. 734. وكذا J.A.Montgomery op.cit. p. 137

(٥) ابن سعد ٣١٢/١، أنساب الأشراف ٣٦٦/١، تاريخ الطبرى ٨٢/٣ - ٨٥، ابن الأثير ٢٦٦/٢ - ٢٦٨، ابن كثير ٣٤٥/٤ - ٣٥٢، ابن خلدون ٥٠/٢ - ٥١، السيرة الحلبية ١٣١/٣، واطر: محمد يومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٣٢٣/٢ - ٤٧٧ (بيروت ١٩٩٠).

(٦) الملاذرى: فتوح البلدان ص ٦٨.

(٧) الإكليل ١٨/ ١٢٠.

قول الله تعالى: وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم^(٨) أن المراد: مكة والطائف^(٩).

وكان لشراة الطائف حصون يدافعون بها عن أنفسهم وأموالهم، كما كان لهم علم بالحرب، وقد جمعوا عندهم - بجانب الحصون والأسوار - معظم وسائل المقاومة المعروفة وقت ذاك، مثل أوتاد الحديد التي تخمى بالنار، لتلقى على الجنود المختفين بالدبابات، هذا إلى جانب أنهم قد تعلموا من أهل اليمن - ومن مدينة «جرش»^(١٠) بالذات - صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات^(١١).

هذا وكان أغنياء الطائف - شأنهم في ذلك شأن أغنياء مكة وغيرهم من أغنياء العرب - إما كانوا أصحاب ربا، ومن ثم فحين أسلموا، اشترط عليهم سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ: أن لا يرابوا، ولا يشربوا الخمر، ولا يزنا، وكتب لهم كتابا^(١٢).

وكان لأهل الطائف تجارة مع اليمن، وإن كنا لانسمع عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق، وربما كانوا يساهمون مع تجار مكة في تجارتهم مع هذه البلاد، خاصة، وأن أثرياء قريش كانوا يستثمرون أموالهم في الطائف، وأنهم قد اشتروا بعض المياه (الآبار) وبنوا لهم منازل بالطائف للإقامة بها صيفاً، فضلاً عن إسهامهم مع كبار القوم في ثقيف في أعمال تجارية رابحة، وحاولوا - جاهدين - ربط الطائف بمكة^(١٣).

(٨) سورة الزخرف: آية ٣١.

(٩) أنظر تفسير ابن كثير ١٩١/٤ - ١٩٢، تفسير النسفي ١١٧/٤، تفسير الطبري ٣١٨٦/٢٥،

تفسير الطبرسي ٤٦/٥، تفسير الزمخشري ٣٥٠/٢، البلاذري، أنساب الأشراف ٣٦٦/١.

(١٠) حرش وتقع على مسعدة ٣٠ كيلا جنوب «أبها»، وعلى مسعدة ٢٠ كيلا من «خميس مشيط» بالعودية - وليست حرش الأردن -.

(١١) المنجنيق: آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف، وأما الدبابة: فآلة تتخذ لقلب الحصون يدخل فيها الجنود، ويصربون في أصل حائط الحصن حتى ينقبوه، وكانت في أبسط مظاهرها في تلك العهود تتخذ من الخشب ليحتمى بها الجنود، وهم ينقبون الحصون (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٢٤/٢).

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٧، السيرة الحلبية ٢٤٠/٣ - ٢٤٤.

(١٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٦٨ وما بعدها.

على أن أهل الطائف من ناحية أخرى، إنما كانوا يحاولون أن يأخذوا مكانة قريش التجارية، وقد نجحوا إلى حد ما يوم استولى الفرس على اليمن، فكانت قوافل كسرى التجارية، ولطائف ملوك المناذرة في الحيرة، تذهب إلى اليمن وتعود منها، عن طريق الطائف، غير أن أثرياء قريش سرعان ما نجحوا في بسط سلطانهم على الطائف، عن طريق إقراض ساداتها الأموال، وشراء الأرضين هناك، حتى جعلوا من الطائف - آخر الأمر - بمثابة التابع لقريش^(١٤).

وأما أهم معبودات الطائف في الجاهلية فقد كانت «اللات»^(١٥)، وهي من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، وقد انتقلت إلى الحجاز - فيما يبدو - من الأنباط، والقبائل العربية الشمالية، وتروى المصادر العربية أنها كانت صخرة مربعة، بنت عليها «ثقيف» في مدينة الطائف بيتاً تضاهي به الكعبة المشرفة، وكانت العرب تعظم بيت اللات، بل أن «ثقيفاً» إنما كانت تخص اللات، بما كانت تخص به قريش «العزى»، فكان الواحد منهم إذا قدم من سفر، توجه إلى بيت اللات، فتقرب إليه، وشكر اللات على عودته سالماً، ثم يذهب إلى بيته، هذا

(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٨، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الرابع - بيروت ١٩٧٠ ص ١٥٢ - ١٥٣.

ومن عجب أن تبرز الطائف على مكة في عصر الأمويين - فعندما أراد معاوية بن أبي سفيان التخلص من النفوذ القرشي، استبدل العصبة القرشية بالعصبة النخعية، كما برزت ثقيف بروزاً شديداً في عهد بني مروان الأمويين وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد (أحمد إبراهيم الشريف: الحجاز قبيل ظهور الإسلام ص ٣١ - ٣٢).

(١٥) كانت «اللات» كبيرة آلهة الصفويين، وأهم الآلهة عندهم، وقد عرفها اللحيانيون كذلك، فكان من أسمائهم «تيم اللات»، كما تعبد لها الأنباط، وعدوها أم الآلهة، ومن ثم فقد ذهب «روبرتس سميت» إلى أنها كانت الآلهة الأم في السراء، وأنها بمثابة «أرتميس» عند القرطاجيين، كما أطلق «إبيجانيوس» على معبدها في السراء «مغد الأم العذراء» (أنظر: جواد علي، ٢٣٢/٦، موسكاتي الحضارات القديمة ص ٣٥٨ - ٣٥٩، وبنو ديسو: العرب في سورية قبل الإسلام ص ١١١، ١١٥).

W.Caskel, Lihyān Und Lihyānsch, Kohn, 1954, p. 46. ركداً

J.Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, p. 33.

A. Grohmann, Arabien, 1963, p. 82.

W.R. Smith, op. cit, p. 33 - 34.

فضلاً عن أن القوم إنما كانوا يعتقدون أنه لا يجوز أن تقطع أشجار من حماها، ولا يصاد عنده، ولا يراق دم آدمى فيه (١٦).

وتذهب المصادر العربية إلى أن «عمراً بن لحي» هو الذى أدخل «اللات» على العرب، وطبقاً لرواية الاخباريين، فقد كان «اللات» رجلاً من ثقيف، يلت له السوق للحج على صخرة اللات، فلما مات أشاع «عمرو بن لحي» أنه لم يموت، وإنما دخل فى الصخرة، ثم أمر بعبادته، وأن ينزل عليها بنياناً يسمى «اللات» (١٧). على أن رواية أخرى إنما تذهب إلى أن «عمراً بن لحي» هو الذى كان يلت السوق، ويطعم الحاج، وذهبت رواية ثالثة إلى أن يهوديا كان هو الذى يلت السوق (١٨).

وأياً ما كان الأمر، فمن المعروف أن «عمراً بن لحي» هذا، إنما هو أول من اتبع هواه، ونشر عبادة الأصنام بين العرب، روى الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ / ٧٨٠م - ٢٤١هـ / ٨٥٥م) بسنده عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبة، وهو أول من سيب السوائب».

ويقول الحافظ «ابن كثير»: والمقصود أن عمراً بن لحي - لعنه الله - كان

(١٦) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٦، ١٩، ٢٧، ٤٣، ياقوت: معجم البلدان ٤/٥، ابن حبيب: المحبر ص ٣١٥، محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٦، محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٦ ص ١١٩، تفسير البحر المحيط ٦٠/٨، تفسير ابن كثير ٢٥٣/٤.

(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧١/٢، الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٢٥ - ١٢٦، الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢٨١/٢، معجم البلدان ٤/٥، الألوسي: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٣٤٦/١ (القاهرة ١٩٢٤م).

Alfred Guillaume, Islame, (Penguin Books), 1964, p. 7-8.

(١٨) تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢، تفسير الخازن ١٩٤/٤، تفسير روح المعاني ٤٧/٢٧، تاج العروس ٥٨٠/١، الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٢٥، اللسان ٣٨٨/٢، ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٦.

ونى صحيح البخارى (١٧٦/٦) عن ابن عباس رضى الله عنهما: اللات رجلا يلت سوقاً انحاح.

قد ابتدع لهم أشياء في الدين، غيّر بها دين الخليل - عليه الصلاة والسلام -
فاتبعه العرب في ذلك، فضلو بذلك ضلالاً بعيداً (١٩).

هذا وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غيب»، تحفظ فيها
الهدايا والندور والأموال التي كانت تقدم للصنم، ولما أسلمت «ثقيف» بعث
سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ، المغيرة بن شعبه - وهو من ثقيف -
فهدمها وحرّقها بالنار، ثم أخذ الأموال التي كانت في «الغيب» وسلمها إلى أبي
سفيان بن حرب، إمتثالاً لأمر المصطفى ﷺ (٢٠).

ولعل من الجدير بالإشارة أنه كان «لللات» حمى، وحرم في جوار الطائف،
يقصده حجيج مكة، وسواها، ويقدمون لها الذبائح، وقد حرم قطع الأشجار
والصيد والقتل في مثل هذا المكان فإن الحيوان إنما قد استمد من تلك البقعة
مناعة الحرم (٢١).

وتذهب المصادر العربية إلى أن قريشاً إنما كانت - قبل الإسلام - تطوف
بالكعبة المشرفة، وتقول: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرائق

(١٩) ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٨/٢ - ١٩٠، الفاسي: العقد الثمين ١٣٦/١ (القاهرة
١٩٥٩)، شفاء الغرام ٢١/٢، ٤٦ - ٤٧ (القاهرة ١٩٥٦)، المسعودي: مروج الذهب ٢٩/٢
- ٣٠ (بيروت ١٩٧٣)، الديار بكرى: تاريخ الخميس ص ١٢٤ (القاهرة ١٣٠٤هـ)، تاريخ
اليعقوبي ٢٥٤/١ (بيروت ١٩٦٠)، ابن دريد: الاشتقاق ٤٧٤/٢ (القاهرة ١٩٥٨)، ابن
هشام: سيرة النبي ﷺ ٨٤/١ - ٨٥، الأزرقي: أخبار مكة ٨٨/٢، ١١٨ (بيروت ١٩٦٩)،
فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٩٨/٦ - ٤٠٠، صحيح البخاري ١٨٤/٤، ٥٤/٦ -
٥٥، محمد بيومي مهران: الحضارة العربية ص ٣٢٥ - ٣٢٧، ٣٥٧ - ٣٦٣ (اسكندرية
١٩٨٨).

(٢٠) تاريخ الطبري ٩٩/٣، تاريخ ابن خلدون ٥١/٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨٣/٢ -
٢٨٤، ابن هشام ٣٢٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٣/٢ - ٢٠٤، معجم البلدان ١٨٥/٤، ٥/٥،
ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٧، ابن حبيب: المغير ص ٣١٥، تفسير القطراني ص ٦٢٦٩،
تفسير ابن كثير ٤٣٢/٧ (دار الشعب - القاهرة ١٩٧١).

J. Wellhausen, op.cit, p. 31.

وكذا

(21) P.H.Hitti, A History of The Arabs, 1960, p. 99.

J. Wellhausen, op.cit, p. 32.

وكذا

العلل، وأن شفاعتھن لترتجى»، وكانوا يقولون: بنات الله، وهن يشفعن إليه (٢٢).

والى هذا يشير القرآن الكريم فى قول الله تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة» (٢٣) الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى، إن هى إلا أسماء سميتوهن أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى، (٢٤).

وفى تفسير ابن عباس: وأخرج سعيد بن منصور والفاكهى عن مجاهد قال: كانت اللات رجلا فى الجاهلية على صخرة بالطائف، وكان له غم، فكان يأخذ من رسلها (٢٥)، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط، فيجعل منه حبا، ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبده، وقالوا: هو اللات (٢٦).

وكان يقرأ «اللات» مشددا (٢٧)، وهذا التفسير ظاهر على قراءة تشديد «التاء»، وهى قراءة ابن عباس، وذكر «ابن الجزرى» أنها قراءة «رويس» (٢٨).

(٢٢) مستينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد عليه السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٦٠، الألوسى: بلوغ الأرب ٣٠٣/٢.

(٢٣) روى البخارى فى صحيحه (ومناة الثالثة الأخرى): حدثنا الحميدى حدثنا سفيان الزهرى: سمعت عروة، قلت لعائشة رضى الله عنها، فقالت: اما كان من أهل بمناة الطاغية التى بالمشلل، لايطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى «ان الصفا والمروة من شعائر الله، فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون، قال سفيان: مناة بالمشلل من قديد» (صحيح البخارى ١٧٦/٦ - ١٧٧).

(٢٤) سورة النجم: آية ١٩ - ٢٣، وأنظر تفسير القرطبى ٩٩/١٧ - ١٠٣، تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢، تفسير الكشاف ٣٠/٤ - ٣١، تفسير النسفى ١٩٦/٤ - ١٩٧، السيوطى: تفسير الدر المنثور فى التفسير بالأمثور ١٢٦/٦ - ١٢٧، فى ظلال القرآن ٦/٣٤٠٧ - ٣٤١٠، تفسير الطبرسى ٤٤/٢٧ - ٥١، تفسير روح المعانى ٥٤/٢٧ - ٥٨، تفسير الطبرى ٥٨/٢٧ - ٦٢، تفسير أبى السعود ١١٢/٥ - ١١٣، تفسير ابن كثير ٣٩٢/٤ - ٣٩٥ (بيروت ١٩٨٦).

(٢٥) رسلها: يعنى لبنها (انظر: النهاية فى غريب الحديث - مادة رسل).

(٢٦) عبد العزيز بن عبد الله الحميدى: تفسير ابن عباس ومروياته فى التفسير من كتب السنة ٨٤٢/٢ - ٨٤٣ (جامعة أم القرى - بمكة المكرمة).

(٢٧) الدر المنثور فى التفسير بالأمثور ١٢٦/٦.

(٢٨) الش فى القراءات العشر ٣٧٩/٢.

هذا وقد أمر رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة - وهو من ثقيف - بهدم (اللات)، فلما دخل المغيرة عليها بضربها بالمعول، وخرجت نساء ثقيف حاسرات يبكين عليها، ثم أخذ المغيرة مالها وحليها بعد أن كسرها.

والقصة - كما ترويها كتب السيرة - أن ثقيفاً إنما كان لها موقف غير كريم من سيدنا رسول الله ﷺ حين خرج إليهم في أخريات شوال من عام ١٠ من المبعث (٦٢٠م) على قدميه في صحراء موحشة قاسية، ليس معه أحد إلا مولاه زيد - في بعض الروايات - فردوه جميعاً رداً منكراً، وأغلظوا له العجواب - وتجاهلوا أنه ابن عبد المطلب سيد العرب - إن لم يؤمنوا أنه رسول الله ونبيه -.

ثم شاركت «ثقيف» في غزوة حنين وأوطاس - ضد المسلمين - ولكنها سرعان ما رجعت إلى الطائف منهزمة، فدخلت حصونها، وغلقت أبوابها، بعد أن تزودت بكل ما تستطيع من مؤنة وسلاح، وأخذت أهنتها لحصار طويل الأمد - إن أراد النبي أن يحاصرهم - وكان رجال ثقيف ذوى خبرة بقتال الحصون، ومن ثم فقد أجمعوا أمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قوة - مهما طال الحصار -.

وطال أمد الحصار - والذي بدأ في شوال من عام ٨ هـ (فبراير ٦٢٠م) - إلى بضعة وعشرين ليلة، حاول المسلمون إبانها، إخراج ثقيف (٢٩) من حصونها فلم يفلحوا، فطلبوا منهم المبارزة فأبوا، فعيروهم بالجبن والفرار فلم يأبهوا بهم.

وهنا - وقد طال الحصار - رأى النبي - ﷺ - أن لا فائدة من الحصار وأن ثقيف قد انكسرت شوكتها، واستشار أصحابه، فقال أحدهم: ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، وأمر الرسول ﷺ بالرحيل، وقيل له:

(٢٩) من أحمار ثقيف في الجاهلية أن قبيلة «خثعم» عزت بني ثقيف في الطائف، غير أن ثقيفاً - بقيادة عيلان بن سلمة - انتصرت عليهم، ومن أيامهم كذلك «يوم وج»، وفيه هزمت ثقيف بني عامر بن ربيعة، بمون من حلفائهم «بنو نصر بن معاوية» (تاريخ ابن خلدون ٣٠٩/٢ - ٣١٠، الأعشى ٤٤/١٢ - ٤٥ (ط الساسي)، وانظر: الكرى: معجم ما استعجم ٧٧/١ - ٧٩، عمر رضا كحالة. معجم قتال العرب القديمة والحديثة ١٤٧/١ - ١٥١)

يارسول لله، أدع على ثقيف، فقال: اللهم اهد ثقيف، وآت بهم (٣٠).

وهذا ماحدث، فلقد أتى وفد ثقيف (٣١) في عام الوفود - العام التاسع الهجري - وأخذوا يحتنقون إلى رسول الله - ﷺ - وهو يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، وهدموا «اللات»، وأقاموا مسح الطائف في مكانها. وهكذا انتهت أسطورة معبودتهم «اللات» التي كان يهدون لها الهدى، ويطوفون حولها ويسمونها «الربة»، ويضاهون بها الكعبة، بيت الله الحرام في مكة، وكان سدنتها «آل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك الثقفي» (٣٢).

هذا وتشير الأبحاث الحديثة إلى أن منطقة الطائف إنما كانت تزخر بعدد كبير من السدود القديمة، أمكن حتى الآن معرفة خمسة عشر سدا، سجل منها تسعة سدود فقط (سد عين العقرب - سد ثلبة - سد السملقي - سد مسيد - سد العمير - سد صعب - سد عرضة - سد القصيبة - سد السلامة) (٣٣).

(٣٠) أنظر عن غزوة الطائف (زاد المعاد ٣/ ٤٩٥ - ٤٩٨، صحيح البخاري ١٩٨/٥ - ١٩٩، صحيح مسلم ١٢٣/١٢، تاريخ يعقوبي ٦٢/٢ - ٦٣، تاريخ الطبري ٨٢/٣ - ٨٥، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢٦٦/٢ - ٢٦٨، الندوى: السيرة النبوية ص ٣٠٦ - ٣٠٧، محمد محمد أبو شهة ٣٨٦/٢ - ٣٨٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٦٥٢/٢ - ٦٦٤، أبو زهرة: حاتم السبيني ١٠٥٥/٣ - ١٠٥٧، الصادق عرجون ٤٠٢/٤ - ٤١٦، سيرة ابن هشام ٣٥٧/٤ - ٣٦٢، محمد يومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٢٣/٢ - ٤٢٧).

(٣١) أنظر عن ثقيف وفروعها (عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - الجزء الأول - بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ١٤٧ - ١٥١).

(٣٢) أنظر عن وفد ثقيف للسبي ﷺ، وإسلامهم (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨٣/٢ - ٢٨٤، زاد المعاد ٣/ ٥٩٥ - ٦٠٢، سيرة ابن هشام ٣٩٧/٤ - ٤٠١، أبو زهرة: حاتم السبيني ١١٠٩ - ١١٠٤/٣، ابن كثير: السيرة النبوية ٥٣/٤ - ٦٣، أبو شهة ٤٢٩/٢ - ٤٣٥، الندوى: السيرة النبوية ص ٣٣٠، تاريخ الطبري ٩٦/٣ - ١٠٠، محمد يومي مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٩١/٢، صفى الدين الماركفوري: الرحيق المختوم ص ٥٠٣ - ٥٠٥ (مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م).

(٣٣) أنظر أيضا (سد درويش، سد اللصب، سد سداد - سد أم البقرة - سد داما، وهو الوحيد الذي يبعد حوالى ١٤٠ كيلا جنوب غرب الطائف في وادي داما)، وأنظر عن هذه السدود (مجيد خان، على مغنى سدود أثرية في منطقة الطائف - مجلة أطلال - العدد السادس ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ١٢٥ - ١٣٤).

وكذا Shirley Kay, Some Ancient Dams of The Hejaz, in PSAS 1978, p. 74- 80. 68- 73, Pis 1-15.

هَذَا، رَغِمَ عَدَمُ تَحْدِيدِ فُتُرَاتِ إِنْشَاءِ هَذِهِ السُّدُودِ، لَعَدَمِ تَوَافُرِ الْأَدْرَئَةِ الْأَثَرِيَّةِ، عِداً بَعْضِ الْكِتَابَاتِ الْكُوفِيَّةِ الْمُبَكَّرَةِ، وَمَجْمَعِهَا غَيْرِ مُؤَرَّخٍ، فَإِنَّ الْمَصَادِرَ السَّرِيَّةَ الْمُبَكَّرَةَ إِنَّمَا تُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ مَنَطَقَتِي الطَّائِفِ وَخَيْبَرَ، إِنَّمَا كَانَتَا حَافِلَتَيْنِ بِالنَّشَاطِ الزَّرَاعِيِّ، وَقَدْ تَنَافَسَتْ قَبْلَيْتَا قَرِيشٍ وَثَقِيفٍ فِي اسْتِغْلَالِ الْأَرْضِيَّاتِ الزَّرَاعِيَّةِ، الْأَمْرَ الَّذِي اسْتَمَرَّ حَتَّى بَعْدَ الْبُعْثَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ، وَخَاصَّةً عَلَى أَيَّامِ الْأُمَوِيِّينَ.

وَقَدْ تَعَمَّزَ بِنَاءُ هَذِهِ السُّدُودِ أحياناً بِالتَّعْقِيدِ، وَأحياناً بِالبَسَاطَةِ، هَذَا فَضْلاً عَنْ أَنَّ ضَخَامَةَ الْبِنَاءِ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى تَوَفُّرِ الْعُنْصُرِ الْبَشَرِيِّ وَالْمَادِيِّ فِي الْمَنَظِقَةِ، وَتَشَابَهُ هَذِهِ السُّدُودِ فِي اسْتِقَامَةِ وَاجْهَاتِهَا، مِمَّا يُلِي حِجْزَ الْمِيَاهِ وَالسَّلَالِمِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الرَّاجِحَاتِ الْأُخْرَى عَلَى طُولِ ارْتِفَاعِهَا، بِحَيْثُ تُكَوِّنُ قَاعِدَةَ السَّدِّ أَعْرَاضَ بِكَثِيرٍ مِنْ قَمْعَتِهِ، وَقَدْ اسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي السُّدُودِ الَّتِي عَثَرَ عَلَيْهَا عَلَى جَانِبِي «طَرِيقِ حِجِّ الْكُوفَةِ - مَكَّةَ» الَّتِي بَنِيَتْ عَلَى طَوْلِهِ الْمَحَطَّاتُ وَالْمَنَازِلُ الْمُخْتَلِفَةُ (٣٤).

وَعَلَى أَيْةٍ حَالَةٍ، فَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الطَّائِفَ مَدِينَةً قَدِيمَةً، كَمَا أَنَّهَا مِنْ أَشْهُرِ مَنَاطِقِ الزَّرَاعَةِ فِي الْحِجَازِ، وَخَاصَّةً عَلَى جَانِبِي «وَادِي وَجٍّ»، وَفِي أَكْثَانِهَا مِنَ الْكُرُومِ وَالتَّخِيلِ وَالْمُوزِ، وَسَائِرِ الْفَرَائِدِ (٣٥).

(٣٤) سَعْدُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الرَّاشِدُ: الْآثَارُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي عَصْرِ الرُّسُولِ ﷺ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِص ١٤٥ - ١٩٩ (الْجُزْءُ الْعَرَبِيَّةُ فِي عَصْرِ الرُّسُولِ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ - الْبَعْضُ الثَّانِي - رِيَّاسَتِي ١٩٨٤)، وَانْظُرْ: R.Raikes, Selected Studies on Hydrological Aspects of Taif Dams, (unpublished Study Conducted for The Ministry of Agriculture, Kingdom of Saudi Arabia, 1969).

(٣٥) فِي الرَّاقِعِ أَنَّ الطَّائِفَ إِنَّمَا هِيَ أُنْثَرٌ مَنَاطِقُ النَّوْاسِمِ فِي «وَادِي الْحَرَمِ» فَخِلَافُهَا الْمَدِينَةُ فَطَوْرُهَا أَصْنَافٌ مُتَعَدَّةٌ، وَأَمَّا زَيْبِهَا فَيَسْتَرْبِي فِي الْمَلْأَةِ وَبِهَا رِجَالُ الْبُشَيْرَةِ أَشْجَارُ النَّاعِمَةِ فِي الطَّائِفِ فَقَدْ اسْتَهْجَرَتْ تَرْبِيَةَ الْحَبْلِ، وَكَانَ أَحَدُ دِمَائِهَا الْمَلْأَةُ يَسْرِي فِيهَا مَاءٌ حَرِبَ عَصْلٍ قَرِيبَةً إِلَى دِمَائِهَا - اللَّهُ - نَعْمٌ - فَلَمَّا انْتَقَلَ - نَعْمٌ - إِلَى الرَّفِيقِ الْمُنْجَلِ، إِذَا رَأَى أَدْنَاهُ وَأَمْرَهُ مِنْ السَّوَادِ - رَضَى. اللَّهُ عَزَّ - أَمِيرُ الطَّائِفِ يَأْتِي بِمَنْ يَنْهَلُ بِالْمَلْأَةِ، كَانُوا يُوَدُّونَ إِلَى الْكَيْسِ - نَعْمٌ - (مُحَمَّدٌ مَحْمُودٌ: الزَّرَاعَةُ وَالرِّيُّ فِي الْحِجَازِ فِي الْعَصْرِ السُّوِّيِّ وَعَصْرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ص ٣٢٥، أَبُو يُوْسُفَ كِتَابُ الْمَرَاجِ ص ٤٥).

(٣) تيماء:

تقع تيماء على مبعدة ١٠٤ كيلا إلى الشمال من العلا، وعلى مبعدة ٤٧٤ كيلا من المدينة المنورة، ١٣٧٤ كيلا من الرياض، على الطريق التجارى بين جنوب بلاد العرب وشمالها، وقد بدأت تيماء تظهر فى التاريخ على الأقل منذ أيام الملك الآشورى «تجلات بلاسر» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) الذى تدلنا حولياته التى عثر عليها فى «كالح» (وهى نمرود الحالية، وتقع على مبعدة ٣٠ كيلا جنوبى نينوى، ٣٥ كيلا جنوب شرقى الموصل) - أنه أخذ منها الجزية، كما أخذها من زيبى (زبيبة) ملكة دومة الجندل، ومن «شمسى»، فضلا عن الجالية السبئية فى ديدان^(١) هذا وقد جاء ذكر «تيماء» فى التوراة^(٢) - كما فى أسفار أيوب^(٣) وأشعيا^(٤) وأرميا^(٥) وحبقوق^(٦) وعوبديا^(٧) وعاموس^(٨).

وتيماء فى الروايات العربية، بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى، على طريق حاج الشام ودمشق، والأبلى الفرد حصن السموال بين عادي اليهودى^(٩) مشرف عليها من ناحية الغرب^(١٠)، وهو مربع الشكل تقريبا، وفى وسطه بئر، وله دعامات من الخارج، ويشبه فى تصميمه وتنفيذه حصن كعب بن

(1) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 7.

وكنذا. A.I.Olmstead, History of Assyria, p. 189.

وكنذا. ANET, p. 280. وكنذا. A.Musil, op.cit, p. 288.

(٢) أنظر تاريخ كتابة أسفار التوراة، كتابنا اسرائيل ١٨/٣ - ٩٦.

(٣) أيوب ٦: ١٩.

(٤) أشعيا ١٤/٢١.

(٥) أرميا ٤٩: ٧.

(٦) حبقوق ٣: ٣.

(٧) عوبديا ١: ٩.

(٨) عاموس ١: ١٢ وانظر قاموس الكتاب المقدس ٢٩٦/١ ومابعدها.

(٩) هناك من يذهب إلى أن الرجل إما كان عربيا غسابيا (المخبر ص ٣٤٩، الاشتقاق ٤٣٦/٢)

وهذا يتماشى مع الفترة الميمنية التى حكم فيها الفساسنة، وعاصرها السموال فقد كان الفساسنة هم المسيطرون على الطريق التجارى من الشمال صوب الجنوب، ولايمد أن يكون السموال ممن لهم سلطة فى هذه الناحية مستمدة من صلته بالفساسنة (عبد الرحمن الأنصار: مجلة الدارة ٨٢/١).

(١٠) ياقوت ٦٧/١، البكرى ٣٢٠/١ - ٣٣٠، اللسان ٧٢/١٢، تقويم البلدان ص ٨٦، دائرة

المعارف الإسلامية ١٣٠/٦.

الأنشور، هي المدينة المختورة (١١)، وإن كان هناك من ذهب إلى أن الحسم من روجا
كان من بقايا تفسير نبونيد، أو من بقايا تفسير رجاء، أو من بقايا أبنية شيرة من
نزل هذا المكان (١٢).

هذا وتشير كتابات الملك الأشوري «منحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) إلى أن
أحد أبواب العاصمة الآشورية «نينوى» - وتقع الآن تحت تلى قوينجق والنبي
يونس، على الضفة الشرقية لنهر الدجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر»
(الخصر)، على مسبعة ٤٠ كيلا من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى قبالة
الموصل (١٣) - كان يسمى «باب الصحراء» حيث يمر منه «رجال سومو - ابل
رجاء تيماء» (١٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اسم «تيماء» (١٥) إنما قد ورد في
الكتابات المسمارية التي ترجع إلى عهد آخر ملوك بابل «نبونيد» (٥٥٥ -
٥٣٩ ق.م) وأهم هذه الكتابات هي:

١- حوليات نبونيد - كورش: وقد نشر هذا النص «بنجس»
(T.G.pinchs) لأول مرة في عام ١٨٨٢م، ثم أعاد نشره «سدني سمث» في
عام ١٩٢٤م، ويتحدث النص عن أعمال «نبونيد» طبقا لنظام الحوليات وقد أشار
إلى إقامة «نبونيد» في «تيماء» منذ عام حكمه السابق، وذكر أسماء تيماء بصيغة
«ت - ما» (Te - Ma - A)، «ت - ما» (Te - Ma).

٢- قصيدة نبونيد: (Account of Nabonidus): وقد نشرها - لأول مرة -
«سدني سمث» في عام ١٩٢٤، وهي عبارة عن نص مكتوب على لوح طيني
(١١) عهد الرحمن الأحماري: لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربى الجزيرة العربية، مجلة
الدار ٨٢/١ (الرياض ١٩٧٥).

(١٢) حواد على ٥٢٩/٦

(١٣) أنظر عن العواصم الآشورية (محمّد بيومي مؤلف). تاريخ العراق القديم ص ٣٢٦ - ٣٣٣
الإسكندرية ١٩٩٠

(١٤) ص: جى أنور رشيد. العلاقات بين رادى الراندين وبيماء س ٣٨٧ (الجزيرة العربية قبل الإسلام
- الرياض ١٩٨٤).

(١٥) أنظر عن تيماء: حماد إبراهيم أبو درك: مقدمة عن آثار تيماء الرياض ١٩٨٦م

بالمتحف البريطاني، وقد أصابه تلف، غير أن دراسات «لاندرجر» (Landsberger) و«بارو» (Bauer) قد سدت النقص الموجود فيه، وقد تحدث النص - وكتبه خصوم الملك - عن حملة نبونيد، وقتله لأمرها، فضلا عن ذبح ماشيتها وماشية سكان مجاوراتها، ثم تجميله للمدينة وبنائه قصرا على غرار قصر بابل، وتخصينه تيماء وتسويرها، وجاء إسم تيماء في هذا النص في صيغة «ت - ما - آ».

هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الكتابات كاللوح الطيني الذي نشره «دوتي» في عام ١٩٢٠م، ومؤرخ بالعام العاشر من حكم نبونيد، وجاء فيه أن المؤونة كانت تنقل بالجمال من معبد في مدينة الوركاء - وتقع شرق الفرات، على مبعده ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غرب أور - إلى الملك نبونيد في أرض تيماء^(١٦).

٣- كتابة بابلية على مسلتين من الحجر: عثر عليها الأثرى الانجليزي «رايس» (D.S.Rice) في أثناء تقنياته في أطلال الجامع الكبير في «حران» أو «حاران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفاء، وعلى مبعده ٤٤٨ كيلا شمال شرق دمشق - في عام ١٩٥٦م، وقد نشر الباحث الانجليزي (C.J.Gadd) النص المسماري الأصلي، وترجمته مع دراسة مفصلة ظهرت عام ١٩٥٨م، وقد تحدث النص عن حملة نبونيد إلى تيماء، وإقامته هناك لمدة عشر سنوات تنقل فيها بين «دادنو» (ديدان = العلا) و«باداكو» (فدك) و«خيبر» (خيبر) و«باديخو» (البديع) و«يتريو» (يثرب = المدينة المنورة)، وقد اعتمد «جاده» في تحديد موقع «بديع» (البديع) على «ياقوت الحموي»، وأنها بين فدك و«خيبر»، غير أن «حمد الجاسر» إنما يرى أن «بديع» تعرف الآن باسم «الحويط»، وأنها في شرق حرة خيبر، وأن تيماء ورد في الكتابة بصيغة (ت - ما أ) (Te - ma - a).

ولا ريب في أن ذلك كله إنما يدل على إهتمام ملوك بلاد الرافدين بتيماء،

(١٦) صبحي نور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

بل أن الملك «نبونيد» إنما قد أقام له قصرا في تيماء، عاش فيه حيناً من الدهر، قارب سنوات عشر، حتى أصبحت تيماء أثناءها، وكأنها قد غدت خليفة لبابل (١٧).

وأما «تيماء» في الكتابات الأرامية، فلقد جاء اسمها في أقدم كتابة أرامية، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك على الوجه الأمامي لمسلة تيماء المشهورة، وقد نشر هذا النص «كوك» (Cooke)، مع ترجمة له باللغة الإنجليزية، هذا فضلا عن ترجمة عربية لها، ذم بها الدكتور محمود الغزل (١٨).

وهناك كتابة أرامية أخرى - ترجع إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد - وقد عثر عليها في الكهف الرابع في «قمران» - على مقربة من البحر الميت - وقد نقش على قطعة من الرق، نشرها «ميليك» (J.T.Milik) في عام ١٩٥٦، وقد تحدث هذا النص الأرامي عن إقامة «نبونيد» في تيماء، ولكنه جعلها سبع سنوات - على عكس نص جامع حران الذي جعلها عشر سنوات - وربما قد تأثر هذا النص بنص سفر دانيال الذي جعل الملك «نبوخذنصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) يقضى سبع سنوات مع حيوانات الصحراء، ونظرا للنزعة والصبغة اليهودية لهذا النص، فلقد رأينا كثيرا من العلماء الأجانب - من ألمان وفرنسيين واسرائيليين وسوفيت - يهتمون به، خاصة «جفرياخو» و«بوررز» و«باردتكه» و«أموسين» و«ديون - سومير» و«ماير».

وأخيراً، فلقد عثر في مدينة «الحضر» على كتابة أرامية، تؤرخ بالعام الثالث قبل الميلاد، وتحدث عن قيام قبيلة «بنوتيمو» وقبيلة «بنو بلعقب» ببناء معبد للآله «نرجول» في مدينة الحضر.

(١٧) صبحي أنور رشيد: المرجع السابق ص ٢٨٨.

A.Musil, Northern Nejd, p. 224.

وكذا

S.Smith, op.cit p. 53 - 88.

وكذا

P.K.Hitti, op. cit, p. 39

وكذا

C.J.Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958, p. 8.

(١٨) سحي أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

وأما الكتابات النبطية، فلقد عثر في الحجر (مدائن صالح) على كتابة نبطية تحمل اسم «تيماء» (١٩).

وأما عن علاقة تيماء بمصر، فلقد كانت تيماء، واحدة من مراكز الحضارة في شبه الجزيرة العربية، التي تعكس آثارها التأثير المصرى، حيث قامت بدور هام على طرق تجارية استراتيجية (٢٠)، وهى الطرق التجارية - والتي نتحدثنا عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب - بين مكة المكرمة وبلاد الشام، وبين مصر وجنوب الجزيرة العربية، وبين مصر وبابل، ومن المحتمل كثيراً أن هذا الطريق التجارى هو نفسه الذى يخترق المدينة فى الوقت الحاضر.

وفى عصر الملك «نبونيد» (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م) - وكان قد اتخذها مقراً له، كما أشرنا آنفاً - كانت قد أصبحت نقطة ارتكاز للقوات العسكرية القائمة على حماية الإمبراطورية البابلية الحديثة من أعدائها، هذا فضلاً عن أن موقعها إنما كان عاملاً مهماً للإتصال الطبيعى بمصر.

هذا وقد دعت الحاجة إلى قيام تحالف عسكرى بين مصر وبابل ضد فارس، فى نفس الوقت الذى كانت بابل جد حريصة على استمرار قبضتها القوية على تيماء، تدعيماً لقوتها فى المنطقة - وخاصة فى مواجهة مصر - هذا فضلاً عن اتخاذ تيماء كنقطة ارتكاز عسكرى متقدمة للدفاع عن حدودها.

ولارىب فى أن أثار تيماء إنما تؤكد هذه الإتصالات، فضلاً عن التأثير المصرى فى تيماء، وأول هذا التأثير قصيدة نبونيد (Account of Nabonid-us) - وقد أشرنا إليها من قبل - والجديد هنا أن القصيدة تسجل استقبال نبونيد لوفد الصلح الذى بعث به إليها ملك مصر «أحمس الثانى» (أمازيس ٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) - من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ - ٥٢٥ ق.م)، وقد نجح هذا الوفد فى إعادة العلاقات الودية بين الدولتين،

(١٩) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٢٠) أنظر: (محمود عمر محمد سليم: التأثير المصرى فى آثار تيماء - رسالة المشرق - مركز الدراسات الشرقية - بكلية الآداب - جامعة القاهرة - العدد الأول يناير ١٩٩٣ ص ١١١ - ١٢٣).

بعد عدة قرون من الحروب (٢١).

هذا وقد أدت عودة العلاقات الودية بين مصر وبابل إلى كثرة تردد المصريين على تيماء - حيث يقيم العاهل البابلي نبونيد - الأمر الذى أدى بدوره إلى ظهور أسماء مصرية فى آثار تيماء، ومن ذلك ماورد على الوجه المكتوب بالأراميه على مسلة تيماء (٢٢)، حيث نقرأ عن قيام الكاهن «سلم شزب» (Salm- She- zeb) بن «بت - أوزيرى» (Pet - Osiri) بإدخال عبادة صنم جديد إلى تيماء هو «سلم هجم» فضلاً عن تشييد معبد له، ويذهب «كوك» إلى أن والد الكاهن التيمى إنما يحمل إسماً مشتقاً من المعبود المصرى (أوزير) (٢٣) وهو الاسم «بت - أوزيرى» وهو اسم مصرى شائع فى مصر الفرعونية Pi- di - Wsir (٢٤)، وأما إسم الكاهن نفسه فهو إسم آشورى أو بابلى (٢٥).

وهناك من تيماء أيضاً كتلة حجرية مكعبة عثر عليها بين بقايا «قصر الحمراء» (٢٦) - ويقع عند الطرف الشمالى الغربى لسلسلة المرتفعات الطبيعية بالمنطقة - عليها مشهدان على جانبيين مختلفين يضمّان ثور بين قرنية قرص الشمس، ويمثل المشهد الأول نقش عليه رأس ثور، يحمل بين قرنيه قرص

(٢١) نفس المرجع السابق ص ١١١ - ١١٣، صبحى أنور رشيد: دراسة تحليلية للتأثير البابلى فى آثار تيماء - سومر - العدد ٢٩ - بغداد ١٩٧٣ صص ١٥٧ - ١١٤.

(٢٢) مسلة تيماء أو حجر تيماء على الأصح: كشف فى عام ١٩٧٩م، وهو محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس، وهو من الحجر الرملى (١١٠ × ٤٣ × ١٢ سم) ونهايته العلوية مقوسة، ويرجع إلى عصر نبونيد (محمود عمر: المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١).

(٢٣) أنظر عن أوزير (محمد بيومى مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٤٩ - ٣٦٧).

(24) H.Ranke, Die Aegyptischen Personennamen, Band, I, Gleuckstadt, 1955, p. 123.

(٢٥) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢٦) أنظر عن قصر الحمراء (جاث بودن، ميلر، وكريستوفر اينلز: دراسات تحليلية - برنامج حصر للعالم الأثرية فى موقع تيماء القديمة - التنقيبات الأولية فى تيماء ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م - الأطلال - الرياض ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ص ٨٩ - ٩١، حامد إبراهيم أو بودرك: المرجع السابق ص ٣٧ - ٥٢.

الشمس، وقد وضعت رأسه على مذبح يتكرر من ثلاثة كثر حجرية، يعلوها كثرتان أحريان تحتيتان بالرأس، ويقف إلى يسار المشهد رجل يرفع يده اليمنى متعبدا، وفي الجانب الآخر من المشهد - حامل قربان أو مبخرة وفوق مائدة القربان نجمة عشرية يعلوها القمر، وإلى أقصى اليسار - أعلى الرجل - قرص شمس معنح، له جناحان مستطيلان، ونقش ريش الجناحين بشيء من التجديد، بالإضافة إلى ريش الذيل، الذى شكل أنصاف دوائر، وحول المشهد إطار يحيط به زخارف دائرية.

وعلى الجانب الشرقى من المسلة، يوجد المشهد الثانى، هو يشبه المشهد الأول إلى حد ما، ويعلوه إطار عليه زخارف فى شكل زهرة اللوتس وفى النصف الأسفل من هذا النحت ثور يتجه إلى اليسار، حمل بين قرنيه قرص الشمس، وأمامه سيدة برداء طويل، تقوم بتقديم طعام للثور، وأعلى الثور قرص معنح، أجنحته أكثر طولا، ويظهر ريشه أكثر تفصيلا، هذا وقد نقش الذيل بنفس الشكل الذى كان عليه فى الجانب السابق، وعلى جانبيه يتدلى ذراعان، وهناك، إلى أعلى قرص الشمس، وعلى الجانب الأيمن للمشاهد، توجد نجمة ثمانية.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أنه قد تكرر ظهور الشمس المجنة على مايسمى باللوح الحجرى المنقوش^(٢٧)، وكذا على الواجهة الثانية لمسلة تيماء، والتي قسمت إلى قسمين، فاصل بينهما خط مستقيم، حيث يضم المشهد العلوى قرصا معنحا أسفله، رسم لشخص رأسه وجسده مغطيان تماما، ويمسك بصولجان، وإلى أسفل شخص يقف إلى يسار رأس ثور وضعت على مائدة قربانين أو مذبح.

ويخلص الدكتور محمود عمر إلى أن المشاهد السابقة إنما قد كررت أمورا،

(٢٧) اللوح الحجرى المنقوش: طوله ١٠٢ سم، وعرضه ٤٥ سم، ومسكه ١٦ سم، وقد نقشت عليها عشرة سطور بالأرامية السارة، يعلوها مشهد لقرص الشمس المجنح، وجانبه نجمة ثمانية رتير كامل، ومن جناحي الشمس المجنح ساقان فى شكل شريطين متوسلين من أسفل، كما يشهدا خطافان، وريش الذيل مدمم على شكل حزمة من الخطوط الرأسية (أنظر: حامد أير درك المرجع السابق ص ٥٩، لوحة ٤٩).

منها (أولاً) ظهور الثور ثلاث مرات، منهما مرتان فيهما قرنيه بين قرص الشمس، ومنها (ثانياً) أن الشمس المجنحة ظهرت في المشاهد الأربعة ومنها (ثالثاً) تظهر النجوم والقمر في ثلاثة مشاهد، ومنها (رابعاً) ظهرت في المشهد الأول زخارف في شكل قرص الشمس، ومنها (خامساً) ظهرت في المشهد الثاني زخارف في شكل زهرة اللوتس. وهذا التكرار تعبير عن تأثير مصري واضح، سواء في الفن أو في العقيدة فالثور قد احتل مكانة بين الحيوانات المقدسة في مصر القديمة، فقدس نوع منه باسم «أيس» لكونه ممثلاً للخصوبة والقوة، ومن ثم فقد كان يرمز بالثور إلى قوة الملك وحكمه، وقد ظهر الملك «نعرمر» على أحد وجهي لوحته المشهورة (لوحة نعرمر) - وقد كشف عنها عام ١٨٩٧ م في معبد حور في «نخن» (البصيلية - مركز ادفو - محافظة أسوان)، وموجود الآن بالمتحف المصري بالقاهرة - برقم ٣٠٥٥ (٢٨) - في شكل ثور يدمر بقرنيه حصناً، وأسفله عدوه، هذا فضلاً عن أن ظهور الشمس بين قرني الثور، إنما هو تعبير عن العلاقة بين الثور المقدس وإله رع، وصلته بالسماء، وهذا تمثيل مصري قديم (٢٩). هذا وقد رمز للمعبود «بوخيس» بالثور، حيث قدمه أهالي مدينة أرمنت - وتقع على مبعده ١٥ كيلاً جنوبي الأقصر، وقد أصبحت منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١٨٤١ ق.م) مقر لعبادة العجل المقدس بوخيس (٣٠) - وقد أدمج بوخيس مع معبود أرمنت الرئيسي «مونتو» (٣١)، وارتبط بوخيس ارتباطاً وثيقاً بعبادة رع، ومن ثم فقد رمز إليه بالثور، وبين قرنيه قرص الشمس. وتلك كلها مشاهد إنما تؤكد أصالة إتياء مشاهد تيماء إلى العقائد المصرية القديمة (٣٢).

(٢٨) أنظر عن لوحة نعرمر (محمد بيومي مهران: مصر ٢٨٤/١ (لوحة ١٨)، مصر ٢٦/٢ - ٢٧).

(٢٩):

R.Maciver and A.Mace, El-Amrah and Abydos, 1899- 1919, p

1. 17, 91

(٣٠) أنظر عن «بوخيس» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ٤٠٢/٢ - ٣٠٣ - الإسكندرية ١٩٨٩).

(٣١) أنظر عن «مونتو» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثاني - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٨٧ - ٣٨٨).

(٣٢) محمود عمر: المرجع السابق ص ١١٢ - ١١٤.

هذا وقد عبد العجل «أيس» لقوته الجسدية، فضلا عن قوة أخصابه، وكان مركز عبادته في «منف» (٣٣) العاصمة المصرية التليدة، وقد عثر على جبانة ضخمة مخصصة له في سقارة، حيث عثر على تماثيل من البرونز للعجل «أيس»، أحدهما تمثله، وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه، وتتقدمه الحية المقدسة (٣٤).

وهناك في المتحف المصرى بالقاهرة تمثال (برقم JE, 38574) للبقرة المقدسة التى ترمز للإلهة «حتحور» (٣٥)، وبين قرنيها قرص الشمس، وتتقدمه الحية المقدسة، وفي المقدمة الملك تحوتمس الثالث (٣٦) (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وهناك تمثال آخر للبقرة المقدسة الإلهة «حتحور»، وبين قرنيها قرص الشمس، تعلوه ريشتان، وفي المقدمة الملك «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ ق.م) تضافى عليه حمايتها (٣٧).

هذا فضلا عن أن ظهور النجوم والقمر مع الشمس فى مشاهد تيماء، إنما هو أيضا تأثير مصرى، حيث يقرن الثور بالشمس، ومن ثم بالسماء ولهذا فلا بد وأن نترن به المظاهر المتصلة بها من شمس ونجوم (٣٨).

(٣٣) أنظر عن «منف» (محمود بيومى مهران: مصر - الجزء الثانى الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٧٨ - ٨٢.

(٣٤) محمود عمر: المرجع السابق ص ١١٥.

وكذا، H.S. Smith, A Visit to Ancient Egypt, Warminster, 1974, p. 15, 22 - 82.

(٣٥) أنظر عن «حتحور» (محمد بيومى: الحضارة المصرية القديمة الجزء الثانى ص ٤٠٤ - ٤٠٨).

(36) M.Saleh and H. Souroulian, Official Catalogue The Egyptian Museum Cairo, Mainz, 1987 - 1988, p. 138.

(37) M.Saleh and H.Souroulian, op.cit, p. 251.

(٣٨) ضياء أبو عازى: روع فى الدولة القديمة - القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢٢.

وقد استمر الفنان المصرى يشكل مشاهد فنية تضم الثور المقدس كاتجاه فنى يمثل جانبا من عقائد مصر القديمة، وقد ظهرت تأثيراته فى تيماء فى المشاهد الأنفة الذكر، بل لقد استمرت هذه المشاهد حتى أيام بطليموس الخامس (٢٠٥ - ١٨٠ ق.م) طبقا للوحة (رقم ٥٤٣١٣ JE) بالمتحف المصرى بالقاهرة، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس، تعلوه ريشتان طويلتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج أمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر فى تيماء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلا عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم 36335 JE) بالمتحف المصرى بالقاهرة، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس، تعلوه ريشتان طويلتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج أمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر فى تيماء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلا عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم 36335 JE) بالمتحف المصرى، وتؤرخ بعصر الملك أحسن الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) وقد أظهر الفنان فيها قدرته فى أسيابه وانسجام وتناسق الشمس وأجنحتها كما كان فنان تيماء مؤفقا فى محاكاته الفن المصرى من هذه اللوحة.

ولعل من التأثيرات الواضحة أيضا فى فن تيماء أن القدم اليسرى إنما تبرز إلى الأمام فى مشاهد الأشخاص، هذا فضلا عن اختيار الفن التيمائى زهرة اللوتس فى تزينه لأحد مشاهد، أضف إلى ذلك أنه قد عثر فى تيماء على أربع كسرات صغيرة من أربع أوان فخارية نقش عليها علامة المدينة أو القرية «نوت» NW.T بالمصرية القديمة.

هذا وقد عثر الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر فى حفائره فى «تل بسطة» - شرقى مدينة الزقازيق - على ثلاثة أختام تحمل نفس العلامة، وتمائل تماما تلك التى عثر عليها فى تيماء.

وهناك تمثال نحت الجزء الأعلى منه، والذي يبدأ من أعلى حزام المنتصف حتى نهاية الإزار، طبقاً للطابع المصري، وكان إزار صاحب التمثال ملاصقاً لجسده، وتبرز القدم اليسرى للتمثال كجزء من الشكل العام لهذا التمثال الذي نحت بأسلوب غنى مصرى قديم، هذا فضلاً عن مجموعة من الجعول من القاشاني الأخضر، وكل هذه الآثار إنما تؤكد أن أهل تيماء قد تأثروا بعبادة الشمس - وربما بعبادة رع بالتحديد - وأنهم كانوا على اتصال بمصر، الأمر الذي ظهر واضحاً في آثارهم - كما رأينا آنفاً.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك على مقربة من تيماء بقايا معبد عثر فيه على نقش، محفوظ الآن بمتحف اللوفر، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، نقرأ فيه بلغة آرامية، أن كاهناً قد أتى بصنم جديد (صلم هجم)، وبني له معبداً. وفي له كاهناً، كما صورته في زى آشوري، مما دفع البعض إلى أن يذهب إلى أن قدوم هذا الإله إنما كان على أيام نبونيد (٣٩٠).

هذا وقد عثر (Euting) على آثار معبد قديم، وعلى كتابة آرامية، تعود إلى فترة كانت المدينة فيها تحت السيطرة الفارسية، وإن أشارت الكتابة إلى ازدهار المدينة وقت ذاك (٤٠)، هذا فضلاً عن أن (جوسين وسافينياك) قد عثرا كذلك على «تل» هناك، فيه بقايا معبد ومجموعة من قبور القوم (٤١).

وفي عام ١٨٨٣م، عثر «هوبر» في تيماء على مسئلتها المشهورة، والتي كتبت على وجه واحد بالخط الآرامي، وعلى الجانب الأيسر نقش عليه رسمان، ربما كان الملك وكاهن، يتجه بعض الباحثين إلى أن الملك هنا إنما هو نبونيد، اعتماداً على المقارنة بين هذه المسلة ومسلة حران، وعلى أي حال، فمن المتفق عليه الآن أن هذه المسلة إنما ترجع إلى القرن الخامس ق.م (٤٢).

(39) J.A. Montgomery, op.cit, p. 67.

وكنة S.Smith, op-cit, p. 79 - 80

وكنة G.A. Cooke, op-cit, p. 195 - 6

(٤٠) جواد على ١٨/٦ هـ ، وكنة EI, 4, p 622

(٤١) جواد على ١٤ / ٥٢٩

A.J.Jaussen and R.Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, p 133, 163. (Paris, 1914).

(٤٢) عبد الرحمن الأنصاري، المرجع السابق ص ١٠٢

(٥) دومة الجندل:

وتسمى دومة الجندل الآن «بالجوف»، وكأنه يطلق عليها في العصور الآشورية «أدوماتو»، وفي التوراة «دومة»، وفي جغرافية بطليموس "Adomatho" (Doumatha) (١)، وأما في المصادر العربية فهي «دومة الجندل» نسبة إلى دوم (أو دومان أو دما أو دوماء) بن اسماعيل بن إبراهيم الحليل عليهما السلام (٢)، وعلى أى حال فقد نسبت إلى الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وهو الصخر، وهي في رأى «السكوني» حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طىء، كانت به بنو كنانة من كلب (٣)، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك نصا مصرياً يرجع إلى القرن الثامن عشر ق.م، جاء فيه ذكر منطقة «دوماتو» وأميرها «أقح»، وحاول البعض تقريب الاسم إلى إمارة أو مملكة أدوم في شرق الأردن، غير أن الأكثر احتمالاً تقريها إلى «دومة» (الجندل) ذات الموقع التجارى المتميز، لاسيما وقد ذكرها الآشوريون باسم «أدوماتو»، وقد اتصلت بمصر في فترة من تاريخها (٤).

ودومة أو دومة الجندل، واحة آدم الكبيرة، وتقع على مبعده ٤٠٠ كيلو مترا إلى الشرق من البتراء عاصمة الأنباط (٥)، على حافة النفود الكبير ومن ثم فقد كانت ذات أهمية كبيرة في التاريخ القديم، إذ كانت تعتبر بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية في وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي وإذا ماسقطت دومة الجندل تساقطت بالتالى باقى المدن المجاورة (٦).

(1) W.F.Albright, JRAS, 1925, p. 293.

F.Hommel, op.cit, p. 581, 594.

وكذا

(٢) ياقوت ٤٨٦/٢ - ٤٨٧، البكرت ٥٦٥ / ٢، وتلك رواية اسرائيلية في الواقع، حيث تذهب نعصوص التوراة إلى أن سلالة إسماعيل وإنما كانت تسكن في المنطقة الواقعة إلى شمال البحر الأحمر، وتمتد من حدود مصر حتى دومة الجندل (تكرين ٢١: ٢١، ألويس موسل: شمال الحجاز ص ٦٧).

(٣) ياقوت ٤٨٧/٢، قارن: الكرى ٥٦٤/٢ - ٥٦٥.

(٤) عبد العزيز صالحي: شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة ص ٣٠٣، وانظر: B.Maislen, RTJE, 1946, p. 33.

(٥) ألويس موسل: شمال الحجاز ص ٨٢

(٦) عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص ٨٢.

ونقرأ في حوليات العاهل الآشوري «تجلات بلاسر الثالث» التي عثر عليها في «كالح» عن جزية من «زيبى» ملكة بلاد العرب، التي يرى «ألويس موسل» أن مقرها إنما كان في «دومة الجندل»^(٧)، كما نقرأ كذلك في نقوش الملك «اسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) أن أباه «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) قد أخضع أدوماثو (أدمو Adumu) حوالي عام ٦٨٨ ق.م، وأخذ أصنامها إلى عاصمته، والأمر كذلك بالنسبة إلى الأميرة «تاري» (تبوؤة Tabua)، وكانت ملكة دومة الجندل «تلخونو» (تلخوخو) قد امتد سلطانها حتى حدود بابل، ثم وقفت بجانب الثوار البابليين ضد «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م)، ومن ثم فإن العاهل البابلي ما إن انتهى من القضاء على الثورة، حتى اتجه إلى دومة الجندل وفرض الحصار عليها^(٨). وهناك ما يشير إلى أن خلافا قد حدث بين الملكة وبين حزائيل - سيد قبيلة تيدار - الذي تولى قيادة الجيوش ضد سنحريب، مما أدى إلى استسلام وفرار حزائيل إلى البادية، فضلا عن أسر الأميرة تبؤة وأخذها إلى بابل، تمهيدا لإعدادها لتكون ملكة على قومها، تعمل بأمر آشور، وتنفذ سياسة ملوكها فيما يختص بالأعراب^(٩)، غير أن آمال الآشوريين في الملكة الجديدة قد خابت، فما أن يتم تعيينها ملكة على دومة الجندل حتى تفشل في مهمتها، ولعل السبب في ذلك إنما يرجع إلى العداء الدفين بين العرب والآشوريين، والذي ما كان في استطاعة تبؤة القضاء عليه^(١٠).

(7) A.T.Olmstead, op.cit, p. 189.

وكنّا. A.Musil, Arabia Deserta, p. 477.

(8) D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, 518

وكنّا. P.K.Hitti, op.cit, p. 38 وكنّا. ANET, p. 290

وكنّا. A.Musil, op.cit, p. 48.

(9) British Museum Tablets, K, 3087, 3405

وكنّا. P.K.Hitti, op.cit, p. 38

(10) A.L. Oppenheim, in ANET, p. 291.

وكنّا. D.J.Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, London, 1958, p. 4.

وعلى أى حال، فيبدو أن دومة الجندل كانت فى هذه الفترة مركزاً دينياً هاماً للقبائل العربية، كما أن هذه المنطقة قد عرفت فى هذه الفترة حكم الملكات اللاتى كن يجمعن بين السلطتين الدينية والزمنية، ولعل أشهرهن زيبية (يزى) وشمسى وتعلخونو وثبؤة^(١١).

وفى العهد البابلى خضعت دومة الجندل للملك نبونيد، وكما أشرنا من قبل، فلقد جرد الملك البابلى فى العام الثالث من حكمه حملة على المدينة واحتلها^(١٢).

هذا وتشير المراجع العربية إلى أن دومة الجندل إنما كانت مدينة محصنة بسور، فى داخله حصن منيع، يقال له «مارد»، نسبة البعض - طبقاً للروايات التقليدية - إلى سليمان عليه السلام، ونسبة آخرون إلى «أكيد بن عبد الملك السكونى»، وهو يهودى على رأى، وعربى من كندة على رأى آخر، وعلى أى حال، فإن الحصن على مايدرو قد بنى قبل القرن الثالث الميلادى، لأسباب منها صلة السكونيين بكندة، ومنها أن الحصن يشتمل فى بعض أجزائه على نقوش نبطية - والأنباط كما نعرف قد انتهت دولتهم فى عام ١٠٦م - ومع ذلك فالحصن ليس من عمل فرد واحد، ولا من فترة واحدة، وإنما من فترات متعاقبة، لعل آخرها منذ نصف قرن فقط^(١٣).

وهناك فى المصادر العربية مايشير إلى أن سكان دومة الجندل إنما كانوا أصحاب نخل وزرع، يسقون على التواضع، وزرعهم الشعير، وكان فى بلدهم سوق يبدأ فى أول يوم من شهر ربيع الأول، وينتهى فى النصف منه، هذا وقد

(١١) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨٢.

وكذا N.Abbot, Per- Islamic Arab Queens, in AJSL, 58, 1941
(12) CAH, 4, p. 194.

وكذا P.R.Dougherty, op.cit, p. 107

وكذا C.J. Gadd, op.cit. p. 35

(١٣) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨٤، ياقوت ٤٨٧/٢، حواد على ٢٣٦/٤ -

سكن دومة قبل الاسلام قبائل كلب وجديلة وطى، كما كان يتنازع السلطان فيها «الأكيدر» و «قناقة الكلبي» الذى كان يتولى الأمر فيها، حين تكون الغلبة من نصيب الغساسنة، مما يدل على التنافس بين كندة وبنى غسان على الطريق التجارى^(١٤)، «وكانت مبايعة العرب في دومة إلقاء الحجارة، وذلك أنه ربما اتفقوا فى السلعة الرهط، فلا يجدون بدا من أن يشتركوا وهم كارهون، وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمر بينهم، فوكسوا صاحب السلعة إذا طابقوا عليه»^(١٥).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه فى شعبان من عام ٦هـ (نوفمبر ٦٢٧م) أرسل سيدنا رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - إلى «بنى كلب»^(١٦) فى «دومة الجندل» (الجوف الحالية بالملكة العربية السعودية) على رأس سبع مائة من الصحابة.

وطبقاً لرواية «أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى» (١٦٨ - ٢٣٠هـ/٧٨٤ - ٨٤٥م) والمعروف «بكتاب الواقدي»، فإن سيدنا رسول الله - ﷺ - قال له: «أغز باسم الله، وفى سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً» وبعثه إلى «بنى كلب» بدومة الجندل، وقال له: «إن استجابوا لك، فتزوج ابنة ملكهم، فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم «الأصبغ بن عمرو» الكلبي - وكان نصرانياً - وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن بن عوف «تماضر بنت الإصبغ»، وقدم بها إلى المدينة المنورة^(١٧).

(١٤) عبد الرحمن الأنصارى، المرجع السابق ص ٨٤، تاج العروس ٥١٨/٣، ٢٩٧/٨، المحبر ص ٢٦٣ - ٢٦٤، التاريخ الكبير لابن عساكر ٨٩/١، وما بعدها، نسب قريش ص ٢٧٦، جواد على ٢٢/٤ - ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠.

(١٥) أبو جعفر محمد بن حبيب: كتاب المحبر - حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ - ص ٢٦٤.
(١٦) هم بنو كلب بن وبرة من قضاة من القحطانية، كانوا ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام. وكانوا يعبدون «وداً» ثم دخلوا النصرانية فالإسلام (معجم قبائل العرب ٩٩١/٣ - ٩٩٢، صبح الأعشى ٣١٦/١، الاشتقاق ص ٤١٣، ٣١٤، الأغاني ١١١/١٧ - ١١٢، ١١٥، ١٢/١٩، ١٢٠/٢٠ - ١٢٣).

(١٧) ضقات ابن سعد ٦٤/٢، محمد حسمى مهرا. السيرة النبوية الشريفة ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

وفى أثناء غزوة تبوك (رجب ٩هـ = سبتمبر - أكتوبر ٦٣٠هـ) (١٨)،
تخلف «أكيدر بن عبد الملك» - وكان نصرانيا - صاحب دومة، عن سيدنا
رسول الله - ﷺ - ومن ثم فقد ندب له النبي - ﷺ - خالد بن الوليد (١٩) -
رضي الله عنه - (ت ٢١هـ)، فى كتيبة من جنده، فى رجب عام ٩هـ .

وطبقاً لرواية ابن هشام فقد قال له رسول الله ﷺ: إنك ستجده يصيد البقر،
فخرج خالد، حتى اذا كان من حصنه بمنظر العين - وفى ليلة مقمرة صائفة
وهو على سطح له، ومعه امرأته، فبانت البقر شلت بقرونها القصر فقالت امرأته:
هل رأيت مثل هذا قط، قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا، قال: لا لأحد،
فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته - فيهم أخ له يقال له حسان
- فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله - ﷺ -
فأخذته، وقتلت أخاه، وانهزم فرسانه.

وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين، ومعه «أكيدر» قد نزع عنه
قبأؤه، وكان من ديباج مخصص بالذهب، وعندما رأى النبي - ﷺ - أصحابه
يلمسون القباء بأيديهم ويتعجبون، قال ﷺ: «أتعجبون من هذا فالذى نفسى
بيده، لمناذيل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن منه» .

ثم أطلق سراح صاحب دومة الجندل، بعد أن صالحه - فيما يرى ابن سعد
علي الفى بغير، وثمانمائة رأس من الماشية، وأربعمائه درع، وأربعمائه رمح، ثم
كتب له رسول الله - ﷺ - كتاب أمان، وإن ذهبت آراء إلى أن رسول الله - ﷺ -
قد عرض عليه السلام فأسلم، وأصبح أميراً على قومه

هذا وقد عاد «خالد بن الوليد» إلى «دومة الجندل» مرة أخرى فى عام

(١٨) أنظر الآراء المختلفة فى التأريخ لغزوة تبوك (محمد بيومى مهران: لاسيرة النبوة الشريفة ٤٦١/٢ - ٤٦٢).

(١٩) أنظر عن خالد بن الوليد (أسد الغابة الأثير ١٠٩/٢ - ١١٠، ابن حجر المسقلاى : الإصابة
فى تمييز الصحابة ٤١٣/١ - ٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٤٠٥/١ -
٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٤٠٥/١ - ٤١٠، ابن سعد: الطبقات
الكبرى ١/٢٤ - ٢، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٣٢/١).

١٢هـ، على أثر نقض «الأكيدر» للمعاهدة التى بينه وبين سيدنا رسول الله
- عليه السلام - (٢٠).

ولعل أهم معبودات أهل دومة الجندل، إنما كان المعبود «ود» (٢١)، ويذهب
الاخباريون إلى أن «عمرا بن لحي» إنما هو الذى نشر عبادة «ود» هذا فى تهامة
وفى وادى القرى وفى دومة الجندل، وأن مدنته إنما كانوا من بنى الفرافصة بن
الأحوص من كلب، وأن القوم قد استمروا يتعبدون له حتى كسره «خالد بن
الواليد» - بأمر من المصطفى - عليه السلام - عندما تغلب على «بنى عبد ود»، وعلى
«بنى عامر الأجدر»، وعلى «الأكيدر بن عبد الملك» صاحب دومة الجندل (٢٢)،

(٢٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١١٩/٢ - ١٢٠ (ط دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨)، الواقدي:
كتاب المغازى ١٠٢٥/٣ - ١٠٣١، أبو زهرة: خاتم النبیین ١٠٨٥/٣ - ١٠٨٦، ابن كثير:
السيرة النبوية ٣٠/٤ - ٣٢، سيرة ابن هشام ٣٨٧/٤ - ٣٨٨، زاد المعاد ٥٣٨/٣ - ٥٣٩، ابن
الأثير: الكامل فى التاريخ ٢٨١/٢، أبو شهبة: السيرة البوية ٤٠٨/٢ - ٤٠٩، تاريخ الطبرى
٥٦٤/٢، ١٠٨/٣ - ١٠٩، حمد الجاسر: فى شمال غرب الجزيرة ص ١٠٢ - ١٣٢ (الرياض
١٩٧٠م)، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٧٧/٢ - ٤٧٨، محمد الطيب النجار،
القول المبين فى سيرة سيد المرسلين - الرياض ١٩٨٢.
(٢١) أنظر عن «ود» (محمد بيومى مهران: الحضارة العربية القديمة ص ٣٨٥ - ٣٨٦ (الاسكندرية
١٩٨٨)، الديانة العربية القديمة ص ٤٤ (الاسكندرية ١٩٧٩).
(٢٢) اس حبيب المحصر ص ٣١٦، اس الكلى: كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٥، معجم ياقوت
الحموى ٣٦٧/٥.

(٦) الحجر (مدائن صالح):

تقع الحجر (مدائن صالح) على مبعدة ٢٤ كيلا إلى الشمال من مدينة العلا الحالية، وعلى مبعدة ٣٩٤ كيلا من المدينة المنورة، على الطريق التجاري العظيم الذي يربط جنوب بلاد العرب بسورية، وتتكون من عدة جبال رملية متناثرة، ومن ثم فقد سهّل على سكانها أن ينحتوا فيها مقابر لهم، إنتشرت في معظم هذه الجبال^(١)، هذا وقد ورد اسم «الحجر» بصيغة «حجرا» في نقشين على الأقل، من النقوش النبطية المحفورة على واجهات المقابر في مدائن صالح، كما وردت بصيغة «الحجرو» قريبا من إسمها العربي «الحجرة» في مقبرة رقوقش^(٢).

هذا وقد جاء ذكر المدينة في جغرافية بطليموس^(٣)، كما ذكرها «إصطيفانوس البيزنطي»^(٤)، والحجر - فيما يرى البعض - هي «أجرا Egra» التي ذكرها «سترابو» في حديثه عن حملة «إليوس جالليوس» على اليمن في عام ٢٤ ق.م، وربما كان لها ميناء يعرف بـ «فرضة الحجر» ومن الممكن، بل من المحتمل أن تكون هذه الفرضة معروفة بنفس الاسم الذي عرفته به الحجر^(٥) - كما أن ميناء مدين كانت تعرف كذلك باسم مدين - وأن ميناء الحجر هذه ربما كانت هي بعينها الميناء التي تعرف اليوم باسم الوجه^(٦).

وتشير الكتابات التي وجدت في مدائن صالح إلى أن المدينة ربما كان قد أنشأها المعينيون، كما تشير مقابرها التي جمعت في نحتها بخصائص فنية مختلفة -

(١) عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق ص ٨١.

(2) Jaussen and Savignac, op.cit, I, p. 157, 177, 201.

(3) Ptolemy, VI, 7, 29.

(4) Stephanus Byzantus, I, 260.

A.Grohmann, Arabien, p. 44.

وكذا

(٥) يذهب بعض الباحثين إلى أن الحجر إنما هي مدائن صالح، بينما يذهب آخرون إلى أن مدائن صالح هي العلا، لا الحجر، ووفق آخرون بين موضع مدائن صالح والعلا (جواد على ٥٥/٣،

وكذا A.Grohmann, op.cit, p. 4, 15, 39, 40.

(٦) أنويس موسل: شمال الحجاز ص ١٠٦.

فرعونية وأغريقية ورومانية وعربية - إلى أنها تشبه إلى حد كبير ماهو موجود في البتراء، ولعل هذا سببه أنهما ذات حضارة واحدة، وإن كانت مقابر مدائن صالح إنما تتميز بوجود شواهد عليها، مكتوبة بالخط الآرامي النبطي^(٧)، كما أن هناك في جبل أثلب معبدًا يذكّرنا بمعابد البتراء، فضلاً عن معبد آخر صغير يقع على مبعده ١٥٠ م إلى الجنوب من الجبل الأنف الذكر^(٨)، وأخيراً فلعل من الأهمية بسكان الإشارة إلى أن هناك من يرى في الموقع النبطي «إرم» الذي اكتشف على مبعده ٤٠ كيلا إلى الشرق من العقبة، «إرم» المذكورة في القرآن الكريم^(٩).

ويشير «بلينى» فى التاريخ الطبيعى (١٥٦: ٦) أن عاصمة اللحيانيين هي «حجرا» (هجرا Hagra)، وأن مركزهم الرئيسى هو واحة ديدان على مبعده ٢٤ كيلو مترا إلى الجنوب من الحجر - وأن اللحيانيين انما كانوا يسكنون بكل تأكيد فى واحة الحجر، كما كانوا يسكنون كذلك فى ديدان، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن «هجرا» عاصمة اللحيانيين، هي بعينها الحجر^(١٠)، وبفس الاسم (الحجر) عرفت عند الانباط.

وأما المصادر العربية فتذهب إلى أن الحجر، انما هي ديار ثمود، ناحية الشام عند وادى القرى^(١١)، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام، وقد ورد ذكرها

(٧) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨١.

(٨) جواد على ٥٦/٣، وكذا A.Musil, Arabia Petrae, p. 133, 146.

(٩) أنظر: سورة الفجر: آية ٨-٩، وأنظر: تفسير البيضاوى ٥٥٧/٢، تفسير الطبرى ١٧٥/٣٠ -

١٨٠ (طبعة الحلبي ١٩٤٥)، التفسير الكبير للفخر الرازى ١٦٦/٣٠-١٦٩، تفسير القرطبي

٤٤/٢٠ - ٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠)، وأنظر P.K.Hitti, op.cit, p. 73.

(١٠) الويس موسل: شمال الحجاز ص ١٠٧.

(١١) تاريخ الطبرى ٢٢٦/١، البكرى ٤٢٦/٢، ياقوت ٢٢٠/٢، ٢٢١، ابن بطوطه ص ٢٥٩، المنهر

ص ٣٨٤، المعارف ص ١٤، نهاية الأرب ص ١٩٩ - ٢٠٠، اللسان ١٧٠/٤، الويس موسل:

المرجع السابق ص ١٠٨ - ١٠٩، ابن الأثير ٨٩/١، تاريخ الخميس ص ٨٤، قصص الأسياء

ص ٥٨ - ٥٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣٠/١، تفسير ابن كثير ١٧١/٤ تفسير النسفى

٢٧٧/٢، تفسير روح المعاني ١٦٢/٨، ٧٦/٤، ١٢٤/٣٠، تفسير المنار ٥٠١/٨، ١٢٠/١٢،

تفسير الطبرى ٥٢٤/١٢، ٥٢٨، ٤٩/١٤، ٥٠ - تفسير البيضاوى ٥٤٥/١، تفسير القرطبي

٤٦/١٠، ٤٨/٢٠، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوى) ٥٤٥/١.

فى القرآن الكريم^(١٢)، وفى الحديث الشريف.

وعلى أى حال، فإن المدينة قد أخذت تفقد مكانها بالتدريج، حتى إذا ما كان القرن العاشر الميلادى أصبحت خرائب لا يسكنها أحد، هذا وقد عثر فى هذه الخرائب - التى تقع بين جبل وقصر البنت وسكة حديد الحجاز القديمة - على آثار حصن قديم، وبقايا أبراج وأعمدة ومزولة شمسية، فضلا عن نقود ترجع إلى أيام الحارث الرابع النبلى (٩ ق.م - ٤٠ م)^(١٣).

هذا ومعرفتنا عن الإستقرار السكانى المبكر فى الحجر (مدائن صالح) محدودة وقليلة، ورغم وجود مجموعة من التواريخ على الآثار النبطية الثابتة فى المواقع، فيما بين عامى (١ ق.م، ٧٥ م)، ومع ذلك فمن شبه المؤكد أن بداية الإستقرار إنما ترجع - على وجه اليقين - إلى تاريخ أسبق بكثير من أقدم تاريخ مكتوب، ومن ثم فليس هناك من سبيل إلى تحديد البداية الحقيقية للإستقرار، إلا عن طريق الحفائر الأثرية^(١٤).

غير أن هناك ما يشير إلى استقرار معينى فى الحجر، بدليل وجود نقوش معينة - ثلاثة على أحجار القلعة العثمانية، وثنان على واجهة أحد الآبار المجاورة - وإن كان من المحتمل أن هذه النقوش المعينة قد أتت من مكان بعيد، خارج حدود المنطقة، على أن هناك دليلا يمكن الاطمئنان إليه إلى حد ما، وأعنى به مجموعة الخريشات اللحيانية المكتوبة على مدرجات جبل «أثلب» (Ithlib) على الواجهة الشرقية لموقع الحجر^(١٥).

(١٢) سورة الحجر: آية ٨٠ - ٨٤، وانظر: تفسير القرطبي ١٠ / ٤٥ - ٤٦، تفسير روح المعاني ١٤ / ٧٥ - ٧٧.

(١٣) اللسان ١٧٠ / ٤.

(١٤) جواد على ٥٦ / ٣ وكذا A.Grohmann, op.cit, p. 66.

وكذا C.M.Doughty, op.cit, p. 113.

وكذا A.J.Jaussin and R.Savignac, Mission Aracheologikue en Arabie, I, p. 316.

(١٥) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد عزال وحفري كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب فى المملكة العربية السعودية - الرياض ١٩٨٤ ص ١٧ - ١٨.

هذا ويذهب «ونيت» إلى وجود استقرار سكاني «معيني - لحياني» سبق الإزدهار النبطي في الموقع، على أن «جروهمان» إنما يميل إلى تأييد فكرة الأصل المعيني، ويذهب «كاسل» إلى وجود نقوش لحيانية مبكرة، وأخرى متأخرة، وإن اختلف تأريخه لها عن «ونيت» هذا وذكر «بليني» أن الحجر (Hrga) (مدائن صالح) كانت المدينة الملكية لما أسماهم (Lacates) وضابقتها «موسل» باللحيانيين، ويؤيد «موسل» الرأي القائل بأن اللحيانيين قد أقاموا فعلاً في الحجر (مدائن صالح)، فضلاً عن «العلا» (ديدان)، وأن الأنباط في تحركهم من الشمال للإستقرار في الحجر، كان اللحيانيون يحكمونهم منذ البداية^(١٦).

هذا وربما يشير الظهور المفاجئ للمقابر الكثيفة والمؤرخة في الحجر من العام الأول قبل الميلاد، إلى أن الإستقرار السكاني قد بدأ من قبل في المنطقة، هذا فضلاً عن أن «إلويس موسل» إنما يذهب إلى أن الحجر إنما كانت مركزاً عربياً للأنباط أثناء حملة «إليوس جالليوس» في عام ٢٥ أو ٢٤ ق.م، كما أن بعثة جامعة لندن عام ١٩٦٨م قد عثرت على فحار نبطي في الموقع يرجع إلى هذا التاريخ^(١٧).

هذا وقد نحتت مقابر الحجر النبطية داخل الصخور الرملية الملساء، ذات اللون الأحمر والبنّي، في شكل حجرات ضخمة، نحتت في جوانبها فتحات الدفن العميقة لدفن الجثث ذاتها، كذلك توجد أيضاً فتحات غير عميقة لوضع الأشياء

(١٦) نفس المرجع السابق ص ١٨ - ١٩.

وانظر:

F.V.Winnett and W.L. Reed, Ancient Records From North Arabia Toronto 1970, p. 130

A.Grohman, Arabien, Munich, 1963, p. 44.

W.Caskel, Lihan und Lihyanicsh, p. 23- 31.

A.Musil, The Northern, Hejaz, New York, 1926, p. 306.

(١٧) نفس المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠.

P.J.Parr, G. L. Harding and J.E.Dayton, Preliminary Survey, وانظر: BIA. IO, 1971, p. 23.

الجنائزية التي ترافق المتوفى، يتقدم هذه الحجرات فى الواجهة مدخل مستطيل نسبياً فى بعض المقابر.

ومع أن هذا النوع من المقابر المنحوتة فى الصخر شائع فى منطقة الشرق الأدنى القديم - وقد رأيناه فى العلا - غير أن الإبتكار الفنى الذى يلفت الإنتباه فى مقابر الحجر (مدائن صالح) وبعض المواقع الأثرية فى المنطقة الشمالية الغربية (البدع) من المملكة العربية السعودية، إنما يكمن فى الزخرفة المعمارية لواجهات هذه المقابر، فقد صممت واجهات المقابر النبطية فى تناسق فنى بديع، وأخذت تكويناتها الزخرفية المعمارية أشكالاً هندسية دقيقة، أبرزها الفنان العربى النبطى فى شكل تماثلى رائع.

ويبرز هذا الأسلوب الفنى التماثل فى كل الوحدات الزخرفية - العمودية والأفقية - على واجهات المقابر النبطية بصفة عامة على النحو التالى: إذا بدأنا بالمدخل المستطيل الذى يؤدى إلى داخل المقبرة، نجد يحاط على كلا جانبيه بواجهة عمودية مسطحة، ناتئة من الحائط الأمامى فى بروز طفيف (Pilasters) تقوم على قاعدة، ويعلوها تاج نبطى بارز بشكل واضح ثم يتكرر هذا التماثل، لهذه الواجهات العمودية المسطحة بنفس الوصف مرة ثانية على جانبي الواجهة.

ونأتى بعد ذلك إلى الجزء الأعلى الذى يتوج هذا الجزء العمودى من الواجهة، حيث نجد التماثل الأفقى يتمثل فى تقسيمه أفقياً إلى أجزاء مستوية متوازية، تختلف مقاييسها بواسطة كرائيش أكثر بروزاً - ويشبه الكرائيش التى استخدمت فى العمارة المصرية فى العصر البطلمى (٣٢٣ - ٣١ ق.م).

وفى نهاية الجزء الأعلى من الواجهة نجد أن هذا الكورنيش المصرى البارز قد توج فى معظم الواجهات بزخرفة الشرافات (Grenellated) التى نظمت أيضاً فى أسلوب فنى متماثل، وربما يرجع هذا الأسلوب فى أصله إلى الزخارف المعمارية الآشورية فى بلاد النهرين، غير أنه فى غياب إطار تاريخى يربط مملكة الأنباط بالآشوريين مباشرة، يذهب البعض إلى أن الصلات بالفن الأخمينى (Achaemenid Art) فى غرب إيران، ربما تكون أصلاً لهذا الأسلوب المعمارى الفنى.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الفنان النبطي إنما قد أخذ عن الفن الإغريقي أجمل ما فيه من عناصر معمارية، وهى فكر الإفريز الدورى، والواجهة المثلثة وتفصيلاتها، وقد سادت هذه العناصر فى عمارة منطقة شرق البحر المتوسط طوال العصر الهلينستى، هذا فضلا عن وجود بعض التأثيرات المصرية، حيث طبق الفنان النبطي أبرز عنصر معمارى فى واجهة المبنى المصرى القديم، وهو الكورنيش الأعلى، فتزوج به بعض مقابر الحجر (مدائن صالح).

بقيت الإشارة إلى أن هناك نصا يرجع إلى عام ٢٦٧م، وجد على جدار قصر البنت فى مدائن صالح، يؤكد أن الأنباط ظلوا يعيشون هناك إلى هذا التاريخ، يمارسون الدفن فى مقابرهم، ويكتبون بالخط النبطي الذى عرف فى كل مكان فى المنطقة، وبقي يستخدم حتى القرن الرابع الميلادى.

على أن «ونيت» لا يميل إلى تأريخ النقوش الثمودية التى وجدت فى الحجر، إلى ما بعد عام ٣٠٠م، كما أنه ليس هناك من دليل على أن الحجر وقعت مباشرة تحت الاحتلال الرومانى، مع أن هناك معبدا فى «رافة» أو عوافة - بناء الثموديون وأهدوه للإمبراطور «ماركوس أوريليوس» و «لوكيوس أوريليوس فيروس» (١٦١ - ١٨٠م) ويؤرخ فيما بين عامى ١٦٦، ١٦٩م، عليه نقوش نبطية ويونانية، هذا فضلا عن رسومات منقوشة وكتابات يونانية لأعضاء قافلة جمال رومانية بيزنطية، يبدو أنها مرت من الطريق فى هذا الأقليم^(١٨).

(١٨) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب فى المملكة العربية السعودية - الرياض ١٩٨٤ ص ٤١ - ٤٦

(٧) العلا (ديدان):

تقع العلا فى وادى القبرى، جنوب شرق حرة العويرض، بين سلسلة من الجبال فى الشرق والغرب، وعلى مبعده ٣٧٠ كيلا من المدينة المنورة، ١٢٧٠ كيلا من الرياض، ٢٤ كيلا من الحجر.

ويقصد بالموقع الأثرى للعلا منطقة التلال الواطئة التى تعرف باسم «الخريبة»، وتقع إلى الشمال من مدينة العلا، حيث توجد البقايا السطحية للجدران، وتنتشر كسرات الأواني الفخارية فى أماكنها الأصلية، وقد حدد «جوسين» و«سافينياك» بقايا جدران المعبد وأجزاء من أعمال نحتية، وهى بقايا أثرية يمكن التعرف عليها فى هذا الجزء من الموقع لوجودها على السطح، هذا وتوجد سلسلة من المقابر المنحوتة فى المنحدرات الصخرية الخلفية، يحمل كثير منها نقوشا ديدانية ولحيانية ومعينية وغيرها، وتمتد هذه الآثار على مدى كيلو متر بطول المنطقة، تطل على تلال الخريبة الواطئة نحو الجنوب فى اتجاه العلا.

وتقع المقابر والنقوش المعينية فى أقصى الجنوب، بينما مايقع منها بعيد إلى الشمال بالقرب من الخريبة مقابر ونقوش لحيانية، وتمثل النقوش اللحيانية الثقافة الأصلية للمنطقة، فهى بلغت المحلية، وكتابات مميزة نوعا ما عن الكتابات الجنوبية، رغم أنها مشتقة منها، أما الثقافة المعينية فقد وردت إلى واحة العلا من العربية الجنوبية^(١).

ومن أسف أن كثيرا جدا من النقوش الموجودة على المنحدرات الصخرية إنما انتزعت من أماكنها، واستخدمت فى بناء المنازل فى مدينة العلا نفسها.

وكانت مدينة العلا تسمى قديما «ددن» أو «ديدان» - كما جاء فى التوراة^(٢) وبعض النصوص الآشورية - وأما كلمة «ددان» فهو اسم المكان على

(١) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٧-٨.

ادظر: A.Janssen and F.Savignac, Mission Archeologique en Arabic, Paris 1914, II, p. 57 - 63.

(٢) تكرر ٧/١٠، ٣/٢٥، إرميا ٢٥/٢٣، ٨/٤٩.

رأى، وإن كان هناك من حاول الربط بين هذا الأسم، وبين إسم الآله «دد» الذى كان معبوداً عند الساميين الشماليين^(٣).

هذا وكانت مدينة العلا واحة مزدهرة قبل وأثناء القرن السادس قبل الميلاد، وإن كان تاريخها قبل ذلك يحيطه الغموض، ويذهب «ألويس موسل» إلى أن «ديدان» إنما كانت هدفاً للسبئيين فى جنوب بلاد العرب فى العصور المبكرة، وإن ذهب «رنيت» إلى عدم وجود أدلة من النقوش توحى بالوجود السبئى فى ديدان، وإن أشار - بشئ من التردد - إلى وجود علاقة بين السبئيين والديدانيين تعتمد على الأصول المشتركة بينهما، هذا وقد لفت «بار» الإنتباه إلى حقيقة أن بعض الملتقطات السطحية من الفخار، والتي جمعت من «ديدان» إنما من نفس الأسلوب الذى جاء من المواقع الآدومية فى جنوب الأردن، وترجع إلى القرن السابع، بل وحتى بداية القرن السادس قبل الميلاد، ومن ثم فهو يفترض وجود علاقة بين الشعبين - الديدانى والآدومى - بناء على الأصول المشتركة بينهما فى شمال الجزيرة العربية^(٤).

وتاريخ المدينة يبدأ بحكومة ملكية ديدانية وطنية، أعقبها حكم الملوك اللحيانيين، أثناء الفترة الفارسية أو الهلنستية، استمر حتى بداية القرن الثانى قبل الميلاد، ومع أن آراء الباحثين ليست إجماعية حول تفسير هذا التاريخ، فالنقوش والأدلة الأثرية التى جاءت من «ديدان» حتى الآن تدعم هذا الرأى، وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى امتداد منطقة النفوذ اللحيانى إلى ما بعد حدود ديدان، حتى أن «بلينى» قد وصف خليج العقبة بالخليج اللحيانى^(٥).

(٣) عبد الرحمن الأنصارى - مجلة الدارة - العدد الأول - مارس ١٩٧٥ ص ٧٩.

(٤) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٨.

A.Musil, op.cit, p. 294.

وكذا

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.cit, p. 113.

P.J.Parr, Archaeological Sources for The Early History of The North West Arabia, I, 1979, Part, I, p. 42.

(٥) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٨-٩.

A.Musil, The Northern Hejaz, New York, 1926, p. 305

وكذا

هذا وقد عشرة جوسين وسافينياك في عام ١٩٠٩م على بقايا تماثيل الأشخاص نحتت جيداً من الحجر في الخريبة (ديدان)، وأعمال نحتية أخرى كانت في أماكنها ونشرت، وفي البداية ربط «جوسين» و «سافينياك» هذه التماثيل بمعبد لحياني نشره له رسماً تخطيطياً، كما نسباً كذلك إلى نفس المعبد، ذلك الحوض الكبير الذي يقف الآن وسط أنقاض الخريبة ويعرف باسم «محلل الناقة» (قطره الداخلي ٣,٧٠م، وعمقه ١٢,٥م)، وقد نالت دراسة هذا المعبد اهتمام كثير من الباحثين^(٦).

هذا وقد عشر أيضاً على أربع قواعد لتماثيل، ثلاثة منها كانت في أماكنها الأصلية أو قريبة جداً منها، وقد أقيمت هذه القواعد لتحمل التماثيل التي وجدت مقلوبة على الأرض، وقد نفذت هذه الأعمال النحتية في أساليب فنية مختلفة، نحت أحدها - بصفة خاصة - في دقة واتقان، وتؤرخ هذه الأعمال الفنية - فيما يرى «بار» - فيما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد^(٧).

هذا ويؤرخ فخار العلا (الخريبة) بالفترات الديدانية والليمانية، وقد أشار «بار» إلى عدم وجود أواني فخارية نبطية أو هلنستية متأخرة أو رومانية، الأمر الذي يشير - رغم استمرار العلا كمجموعة سكنية إلى فترة متأخرة - فإن العلا (ديدان) سرعان ماتدهورت أهميتها، مع ظهور «الحجر» (مدائن صالح) كموقع رئيسي.

هذا وقد تركز عدد كبير من النقوش والمقابر المعينية عند نهاية الطرف الجنوبي للمنحدر الصخري، شرقي الخريبة، وحيث ينحني التكوين الصخري نحو الشرق، هذا وقد أثارت هذه النقوش والمقابر جدلاً في كل رأي حول التطور التاريخي لمدينة العلا (ديدان)، فذهب فريق من الباحثين إلى أن الوجود المعيني القادم من الجنوب العربي يمثل سيطرة قام بها تجار من معين لمدينة العلا، على أن وجهها آخر للنظر يذهب إلى أن الوجود المعيني في ديدان، لم يكن إلا جزءاً من شكل

(٦) أنظر:

P.J.Parr, G.L.Harding, and J. E. Dayton, Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968, BIA, 8-9, 1970, p. 193- 242.

(٧) عبد الرحمن الأسمر وأحمد غزال وجفري كنج، المرحع السابق ص ١٠.

P.J.Parr, op.ciot, p. 42.

وكذا

عام للعلاقات التجارية بين البلدين، حيث كانت هناك مستوطنات معينة أخرى، استقرت في أماكن متعددة، ولم يكن لها سلطات سياسية قوية، وإنما كانت تجتمع للتجار المقيمين تحت رئاسة «كبير» (Kabir)، أو رئيس مشغل خارج الوطن العربي، مثل التجمع التجارى الذى قام فى الجزيرة اليونانية (ديلوس)، وكان يتبع «تمنع» عاصمة قتيان^(٨).

وعلى أية حال، فمن اللافت للنظر فى المقابر المعينية فى العلا (ديدان) هو صور المخلوقات التى أخذت شكل الأسد، وهى منحوتة على واجهات المنحدرات الصخرية فوق المقابر المنحوتة فى الصخر أيضاً، والمقابر التى لم تعلها صور الأسود، ربما كانت هى معينية أيضاً، بحكم وجودها داخل هذه المجموعة من النقوش المعينية المتمركزة فى هذه المنطقة الخاصة. ويذهب العلماء إلى أن هذه النحت الأسدية، ليست إلا تقليداً لأسد الماء الذى وجده «جوسين وسافينياك» فى الخريبة، والأسود المنحوتة فى الصخر كانت شائعة فى آسيا الصغرى وحوض الفرات الأعلى فى الألف الأولى قبل الميلاد، ويبدو أن الأسد الذى وجد فى الخريبة إنما كان مستورداً. أو نحت محلياً، ولكن بشكل أكثر دقة وفنية^(٩).

ولعل من الجدير بالإشارة أن العلا (ديدان) إنما ظلت - إلى أن أخذت الحجر مكانها - مدينة تجارية، عملت بتجارة الطيوب التى أنتجها عمالك جنوب بلاد العرب، ونقلتها عبر الصحراء، بواسطة الجمال، إلى الشمال حيث يتزايد الطلب عليها، مما أعطى المدينة شخصية عالمية.

هذا وتشير الأدلة الأدبية المتاحة إلى أن القوة للحيانية فى العلا (ديدان) قد أتت إلى نهايتها حوالى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، غير أن «ونيت» إنما يذهب إلى أن اللحيانيين إنما فقدوا سلطانهم منذ أيام «مسعود» - وقد سمي نفسه ملك لحيان، واستخدم الكتابة النبطية - ولكنه لا يراه ملكاً نبطياً وفى نفس الوقت يستبعد أن يستخدم ملك لحيانى كتابة أجنبية خاصة بالأنباط ثم يذهب

(٨) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ١٠ - ١٣.

وكذا Winnett and Reed, Ancient Records, 7, p. 117 - 118.

(٩) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ١٣.

إلى أن مسعوداً لم يكن سوى مجرد مغامر، تأثر بالثقافة النبطية وأن أحداث مسعود قد أنهت المملكة اللحيانية في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد، وأن الأنباط مدوا نفوذهم تدريجياً إلى الجنوب على حساب أحداث مسعود.

على أن «وارنر كاسل» إنما يذهب إلى أن مملكة لحيان بعد سقوطها على يد مسعود، إنما استطاعت - بعد فترة نبطية فاصلة امتدت من العام التاسع قبل الميلاد، وحتى عام ٣٥م - أن تنهض من جديد، وتستأنف حياتها مرة أخرى، الأمر الذي تعارضه جمهرة العلماء^(١٠).

(١٠) نفس المرجع السابق ص ٦٥ - ١٦.

W.Caskel, op.cit, p.40 - 43.

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.cit, p. 130.

الفصل الثانى

فى جنوب الجزيرة العربية

(١) فى دولة معين

(١) قرناو :

كانت قرناو عاصمة دولة معين، وتقع على مرتفع حصين تحيط به الأسوار والأبراج، على مسبعة ٧ كيلا إلى الشرق من قرية «الحرم» - مركز الحكومة الحالية فى الجوف - وقد عرفت قرناو كذلك باسم «معين»، كما عرفها الكتاب القدماء من الأغارقة والرومان باسم (Karna - Karana - Carna)، وهى عند الأخباريين «معين»، وهى واحدة من أبية «التبابعة»، وأنها حصن بنى فى نفس الوقت مع «براقش»، وبعد «سلحين»، وهو حصن بنى، فيما يزعمون، فى ثمانين عاماً.

وأما أهم آثار «قرناو» فمعبد «رصاص» الذى يقع خارج أسوار المدينة، فضلاً عن آثار سكنى فى مواضع متفرقة من المدينة، التى يرى البعض أنها ظلت مأهولة بالسكان حتى القرن الثانى عشر الميلادى، ثم بدأت الظروف تتغير، فأخذ سكان المدينة يتناقصون شيئاً فشيئاً حتى تحولت آخر الأمر إلى خرائب.

(٢) براقش :

وهى المركز الدينى الهام فى دولة معين، وتسمى «يطيل» و «ياثل»، وقد بقيت حتى أيام الهمداني (٢٨٠ - ٣٣٤هـ) فوصف آثارها وخرائبها، وهى نفسها مدينة (Athlula - Athrula) آخر موضع وصلت إليه حملة القائد الرومانى «إليوس جالليوس» على اليمن، عام ٢٤ ق.م، وأما سبب التحريف فى اسمها، فهو - فيما يرى البعض - صعوبة لغوية أو بالأحرى لفظية، ولعل إسم المدينة «ياثل» قد أصبح فى العربية الفصحى «وثلة»، فقد ذكرها «الفيروز أبادى» فى القاموس إسماً لقريه، وقال من ناحية أخرى «وذو وثلة قيل» يعنى أقيال اليمن.

وعلى أية حال، فمدينة «براقش» - عند الأخباريين - جد قديمة، كان يسكنها عد ظهور الإسلام «بنو الأوير من بلحارث بن كعب، ومراد»، وأما سبب

تسميتها «براقش» فموضع خلاف عندهم، فهناك رواية تذهب إلى أنها سميت كذلك نسبة إلى «كلبة» عرفت ببراقش، على أن رواية أخرى إنما تنسبها إلى امرأة تدعى «براقش» رعموا أنها زوج لقمان بن عاد، على أن هناك رواية ثالثة تذهب إلى نسبتها إلى أميرة تدعى «براقش» أسند إليها والدها تصريف أمور الدولة أثناء غيابه في واحدة من غزواته، فما كان منها إلا أن أهتلت الفرصة، فبنت مدينتي براقش ومعين، تخليداً لذكرها، غير أن ذلك إنما أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، وهكذا يحاول الإخباريون تفسير الأحداث ببساطة تدعو إلى العجب، غير أن الأمر الذي لاشك فيه أن المثل المشهور «على نفسها جنت براقش» إنما كان سبباً في هذه التفسيرات المتضاربة.

(٣) نشق :

وهي مدينة البيضاء، وقد استولى السبئيون عليها أيام «يدع إل بين» في عصر مكاربة سبأ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها هي نفسها المدينة التي ذكرها الكتاب القدامى الأغارقة والرومان باسم (Mesca - Mescus)، وهي عند «سترابو» (Aska) التي استولى عليها «إليوس جالليوس» عام ٢٤ ق.م.

(٤) نشان :

تقع مدينة «نشان» (نشن) في مكان «الحربة السوداء» الحالية، وقد اكتشف هناك ما يشير إلى أن المدينة إنما كانت مركزاً صناعياً هاماً.

(٥) لوق :

يذهب «جلالزر» إلى أن «لوق» إنما هي مدينة (Labecia) التي ذكرها «بلييني» (٣٢ - ٧٩ م) من بين الأماكن التي استولى عليها «إليوس جالليوس»، على أن «فون فيسمان» إنما يذهب إلى أنها «لبة» (Labbah) ^(١).

(١) انظر : محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٣١ - ٢٣٣، الهمداني : الإكليل ١٣٨/٨، ١٠٤ - ١٠٥، معجم ياقوت ٣٦٤/١، ٢٣٥/٣، ١٦٠/٥، القاموس المحيط ٢٧٢/٢، البكري ٢٣٧/١ - ٢٣٨، وكذا :

(٢) فى دولة حضرموت

(١) شبوه :

لا ريب فى أن مدينة «شبوه» العاصمة، إنما هى أهم مدن حضرموت، وقد ذكرها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان تحت إسم (Sabota, Sabotha, Sabbatha)، وهى عند «مونتجمرى» (Sabtah)، وعند «هوجارث» (Sawa)، وقد ذكرها «الهمداني» من بين حصون حضرموت ومحافدها، وذهب «ياقوت» إلى أنها من حصون اليمن فى جبل ريمة، وقال «ابن الحائك» : شبوه مدينة لحمير، وأحد جبلى الثلج بها، والثانى لأهل مأرب، هذا وقد خلط بعض المستشرقين بينها وبين «شيام» التى على مقربة من صنعاء.

هذا ويرجع السبق فى اكتشاف آثار شبوه إلى «جون فلبى» والتى من أهمها المعابد والقصور؛ فضلاً عن بقايا السدود التى كانت مقامه على وادى شبوه لحصر مياه الأمطار، فضلاً عن الإفادة منها فى إرواء المناطق الخصبة، وما يزال يشاهد فى وادى «أنصاص»، وفى خرائب شبوه، بقايا سدود وقنوات للإفادة من المياه عند الحاجة إليها. على أن شبوه إنما كانت تشهر كذلك بأنها أرض اللبان والمر، وقد كانا يصدران من ميناء «قنا».

(٢) ميفعة :

وكانت عاصمة «حضرموت» قبل شبوه، وهى نفسها مدينة (Mapharitis) التى أشار إليها صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأترىرى»، وهى عند «بطليموس الجغرافى» (Maiph - Metropolis).

-
- = R. H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell, 1954, P. 237.
 - H. Von Wissmann and M. Hofner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, Wiesbaden, 1953, P. 14 16, 32.
 - Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 435 وكتاب Handlbuch, I, P. 70, 82 - 83.
 - A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963.

وهناك الكثير من النصوص التي تتحدث عن نسويز «ميفعة» بالحجارة
وبالصخر المقدد وبالخشب، فضلاً عن الأبراج التي أقيمت حول السور لصد
الغزاة، ومنها نص يشير إلى أن «هيل بن شجب» قد بنى سور المدينة وأبوابها، كما
أقام فيها بيوتاً ومعابد، وأن ولده «صدق يد» قد زاد في أسوارها وأحكم بناءها،
على أن الخراب سرعان ما حل بها في القرن الرابع الميلادي، ثم حل مكانها
موضع عرف باسم «عيزان» (Sessani Adrumetronum).

(٣) قنا :

كانت مدينة «قنا» هي ميناء حضرموت الرئيسي، حيث كان يجمع اللبان
والبخور، ثم يصدر منها براً وبحراً، وأما موقع قنا فهو إلى الشرق من حضرموت،
وقد ذهب نفر من الباحثين إلى أنه في مكان «حصن الغراب الحالي»، وقد كان
يعرف قديماً باسم «عرمويت».

هذا وقد عثر «جيمس ولستد» في «حصن الغراب» عام ١٨٣٤م على نقش
(CIH, 728) جاء فيه أن «صيد أبرد بن مشن» كان مسئولاً عن «بدش» و «قنا»،
وأن ذلك قد كتب على «عرموية» (عрмаوية - حصن ماوية)، فأما قنا فهو إسم
الميناء المشهور، وأما الحصن الباقي أثره حتى اليوم فهو «حصن ماوية»، وأما
«بدش» (باداش) فما زال معروفاً حتى اليوم بشئ من التحريف، حيث يعيش قوم
رعاة يعرفون باسم «مشايخ باداس»، ومن ثم فإن «حصن غراب» إنما هو
«عرمويت»، وهو حصن مدينة قنا.

(٤) مذب :

اشتهرت مدينة «مذب» أو «مذاب» بمعبدها المكرس لعبادة إله القمر «سين»،
وتقع بقاياها اليوم في «الحريضة»، وقد قامت ثلاث رحلات أو ربيات (كاتون
طومسون، أ. جادرز، ف. شترك) في عام ١٩٣٧م برحلة إلى حضرموت، وهناك
في وادي عمد، مقابل الحريضة، كشف عن معبد إله القمر «سين»، كما
كشف عن بعض القبور والأواني الفخارية والخزفية التي ترجع إلى القرن السابع،

وربما القرن الخامس قبل الميلاد، هذا فضلاً عن العثور على عدد من الكتابات التي تبين أن بعضها كتابات سبئية.

على أن البعثة الأثرية لم تتوصل إلى تاريخ محدد لبناء معبد إله القمر «سين»، وإن كانت بعض واجهات المعبد إنما تعود إلى الفترة بين أواسط القرن الخامس، وحتى القرن الرابع قبل الميلاد، فضلاً عن أن بعض أجزاء المعبد إنما ترجع إلى العهد السلوقي، وأخيراً فإن هناك من يذهب إلى أن «مذاب» ومعبدتها إنما يعودان إلى الفترة فيما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد.

وهناك في حضرموت عدة أماكن قديمة (حضرمية وسبئية) ينسبها القوم إلى عاد وثمود، فمثلاً هناك قرية «سنا» التي يزعم القوم أن بها قبر «هود» عليه السلام، وهناك في «غبيون» خرائب يظنها القوم من آثار عاد، بينما يرى الآثاريون أنها بقايا مدينة حميرية، وهناك على مقربة من «تريم» خرائب قديمة، لعلها في أغلب الظن، من آثار معبد قديم، هذا فضلاً عن مواقع أثرية أخرى، مثل حصن «عر» وحادبة الغصن والمكنون وثوبة وغيرها من الأماكن التي أقيمت عليها الحصون والحاميات العسكرية^(١).

(١) محمد يومي مهران : المرجع السابق، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 86, 91, 108.
- C. Forster, The Historical Geography of Arabia, II, P.186.
- G. Caton Thompson, The Tombs nad Moon Temple of Hureidha, Oxford, 1944, P. 15F.
- W. Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, II, P. 301.
- D. G. Hogarth, The Penetration of Arabia, London, 1922, P. 149, 151, 221.
- Le Museon, 1947, 1 - 2, P. 71, 1961, 1 - 2, P. 194.
- Pliny, 6, 28, 32, Ptolemy, 6, 7, 38 وكذا J. B. Philby, Op. cit., P. 80F.
- J. A. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, P. 42.

(٣) فى دولة قتيان

(١) تمنع :

لاريب فى أن «تمنع» (تمنا - تمنة) العاصمة إنما هى أهم مدن قتيان، وقد عرفها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم (Thumna-Thomna-Tomna) ويذهب «أوليرى» إلى أن المدينة التى جاءت فى جغرافية بطليموس تحت اسم (Thouma) إنما هى «تمنة»، وقد وصف «بلىنى» مدينة (Thomna) بأنها من أكبر المدن فى بلاد العرب الجنوبية، وأن بها ٦٥ معبدًا، وأن المسافة بينها وبين مدينة «غزة» ٧٠٩٦ كيلا تقطعها الإبل فى حوالى ٦٥ يوماً، وأن هذه المدينة ليست سوى «تمنة» عاصمة قتيان.

وتقع تمنه فى وادى بيجان فى منطقة تدل آثار الرى فيها، على أنها كانت خصبة كثيرة المياه والبساتين، وقد أثبتت أعمال الحفر التى قامت بها البعثة الأمريكية تحت رياسة «وندل فيلبس» أن موقع «تمنة» القديم إنما هو فى مكان خرائب كحلان (هجر كحلان الحالية)، وأن المدينة قد خربت بسبب حريق هائل، ربما أتى على المدينة كلها، وأن هذا الحريق ربما كان بأيدى السبعينيين إبان الحروب التى اتسع أوارها بينهم وبين القتيانيين.

هذا وقد أثبتت الحفريات أيضاً أن «تمنة» قد جددت عدة مرات، وأن مقابرها كثيراً ما انتهكت حرمانها، سواء أكان ذلك فى الأيام الغابرة أو فى العصر الحديث، وأخيراً فقد كشفت الحفريات فى منطقة تمنع عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الرى لرقعة واسعة من البلاد.

(٢) حريب :

وقد ورد ذكر مدينة حريب عند الهمدانى، كما اشتهرت المدينة بالنقود التى

ضربت فيها، وحملت اسمها، كما أنها كانت عاصمة دولة قتيان في أخريات أيامها^(١).

(٤) في دولة سبأ وحمير

(٩) صرواح :

كانت صرواح عاصمة سبأ في العصر الأول (عصر المكاربة ٨٠٠ - ٦٥٠ ق.م)، ومقر الإله «الموقاة»، وواحدة من أهم المدن السبئية لعدة قرون بعد ذلك، وتقع الآن في موضع «الخريبة» و«صرواح الخريبة» فيما بين صنعاء ومأرب، وقد تردد ذكرها في أشعار العرب، ويصفها الهمداني بأنها لا يقارن بها شيء من المحافد المختلفة، كم جمع الكثير من الشعر الجاهلي والإسلامي الذي ورد فيه اسمها، وفي هذا كله دلالة على أهمية تلك المدينة القديمة، وعلى تأثيرها في نفوس القوم هناك، تأثيراً لم يستطع الزمن أن يمحوه بالرغم من أفول نجمها قبل الإسلام.

ويذهب الأخباريون إلى أن صرواح حصن باليمن، وأن الجن قد بنته للملكة «بلقيس» ملكة سبأ، بناء على أمر من سيدنا سليمان عليه السلام، ولاريب في أن هذا نوع من الأساطير التي لعب الخيال فيها دوراً كبيراً، فضلاً عن جهل فاضح بالتاريخ، إلى جانب أثر الإسرائيليات في إرجاع أي أثر لا يعرفون صاحبه إلى سليمان وإلى جن سليمان.

(١) جواد علي : المرجع السابق ٢٢٢/٢ - ٢٣١ ، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم،

ص ٢٥٩ - ٢٦١ ، وكذا :

- De Lacy D. D. O'Leary, Arabia before Muhammad, London, 1927, P. 97.

- W. Phillips, Qataban and Sheba, P. 58, 64, 119, 166.

- Pliny, 2, P. 453, 6, P. 32, Ptolemy, VI, 7, 37.

- C. F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia nad Persid, P. IXXIV, 75, Pl. XI, 21.

هذا وتوجد المناطق الأثرية فى صرّواح فى ثلاثة مناطق متقاربة، واحدة منها هى منطقة البناء (مكان السد القديم)، والثانية هى منطقة القصر - وهى قرية حديثة البناء استخدم القوم فى تشييد بعض منازلها، أحجاراً من المعابد القديمة، وأما الثالثة، فهى منطقة «الخربة» ذات الآثار الهامة.

على أن أهم آثار صرّواح إنما هو المعبد الكبير - معبد الموقاة، إله القمر - والذى استدارت إحدى ناحيتيه، فجعلت منه بناء نصف بيضى الشكل، ولا يمكن معرفة التصميم الأصلي للبناء الذى يبلغ ارتفاع جدرانها أكثر من عشرة أمتار، إلا بعد عمل الحفائر حوله وتنظيف داخله، لأنه قد استخدم خلال قرون طويلة كحصن فى العصور الوسطى، وفتحوا فيه بعض المداخل، كما سدوا بعض أبوابه القديمة، واستخدموا كثيراً من الأحجار الكبيرة فى تلك الترميمات.

هذا وقد زار أستاذنا الدكتور أحمد فخرى - يرحمه الله - أنقاض معبد الموقاة، وصوّر عدداً كبيراً من النقوش التى ترجم بعضها الأستاذ «ريكانز»، وعلى أية حال، فهناك إلى جانب معبد الموقاة، توجد عدة مبان أخرى، نقشتم بعض أعمدتها بالكتابات، مثل دار بلقيس، ومعبد يفعان، الذى نال حظوة كبيرة لدى المكارية^(١).

(٢) - مأرب:

كانت «مأرب» عاصمة سبأ فى العصر الثانى (عصر ملوك سبأ ٦٥٠ - ١١٥ ق.م)، وهى نفس المدينة التى جاءت فى الآداب اليونانية والرومانية تحت اسم «مريابا» (Mariaba). ويرى بعض الباحثين أن كلمة «مأرب» مأخوذة من «يارب»

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب - القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٢١، ٢٤٢، ٣٦٥، الإكليل ٤٥/٨

٧٥، ٢٢/١٠، ٢٤، ٢٦، ٣٩، ١١٠، أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم

ص ١٥٩ - ١٦٢، محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٢٨٥ - ٢٨٦، ياقوت

٤٠٢/٥، ديتلف نلسن: التاريخ العربى القديم ص ٢١ - ٢٢.

- G. Ryckmans, The Publication of The Inscriptions, III, Cairo, 1951.

و «يرب» اللتين وردتا في التوراة، أو أنها كلمة أرامية الأصل مركبة من كلمتين ماء» و «راب» أى الماء الكثير أو السيل الكبير. هذا وقد توهم «ياقوت الحموى» - وتابعه كثيرون - أن ساء هى مأرب، على أن الصحيح غير ذلك، فسبأ إسم البلاد والأمة، ولم تكن مدينة أبداً، كما توهموا أنها اسم لقصر كان للأزد باليمن، أو أنها إسم لكل ملك كان يلي سبأ، كما أن «تبعاً» إسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضر موت.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الإهتمام بمأرب وآثارها إنما بدأ منذ القرن الماضى، ففي ١٢ يوليو ١٨٤٣م، تمكن الصيدلى الفرنسى «جوزيف توما أرنو» من السفر من صنعاء إلى مأرب، فنار خرائب صرواح، وفحص بقايا أسوار فى مأرب، فضلاً عن معبد الموقاة الذى تقوم آثاره خارج مأرب ويطلق عليه القوم هناك اسم «محرم بلقيس»، كما نقل ٦٥ نقشاً سبئياً من هناك، وقد قام «فرزنال» القنصل الفرنسى فى جدة بنشرها عام ١٨٤٥م.

وفيما بين عامى ١٨٨٧، ١٨٨٨م، قام «إدوارد جلازر» برحلته الثالثة إلى اليمن، زار فيها مأرب ورسم تخطيطاً لآثار القنوات والسدود القديمة هناك، كما قدم وصفاً لآثار المناطق التى زارها.

وفى عام ١٩٤٧م قام أستاذنا الدكتور أحمد فخرى برحلته إلى اليمن، حيث زار مناطق صرواح ومأرب وماحولهما، وقد جمع حوالى ١٢٠ نقشاً جديداً، كما أخذ مجموعة صور «فوتوغرافية» عن سد مأرب والمعابد المختلفة، وقد نشر نتائج رحلته هذه فى بضع مقالات، وفى كتاب صدر عام ١٩٥٢م فى ثلاثة أجزاء باللغة الإنجليزية، ثم قام برحلته الثانية عام ١٩٤٨م، والثالثة عام ١٩٥٩م، وفيهما زار مأرب ونقل نقوشاً جديد- كما زار منطقة المساجد، حيث يوجد معبد كبير شيد «يدع إيل ذريح» الذى شيد كذلك معبد فى صرواح، وآخر فى مأرب، ثم توالى الاكتشافات بعد ذلك، ومايزال العلماء يبحثون وينقبون عن آثار اليمن العظيمة.

هذا وتقع مأرب على مبعده ١٠٠ كيلا إلى الشرق من العاصمة الحالية

«صنعاء»، وعلى ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتقوم بلدة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أثري كبير، هو خرائب المدينة ذات الشهرة الذائعة الصيت في التاريخ، وقد قدم لنا «أرنو» تخطيطاً للمدينة القديمة، وذكر أنها مستديرة، وبها ثمانية أبواب، غير أن وصف «أرنو» إنما يحتاج إلى تعديل، فالمدينة مستطيلة - وليست دائرية - وأركانها مستديرة، وربما لم يكن في أسوارها إلا أربعة أبواب فقط، بوابة في وسط كل سور.

على أن هناك من يرى أن مأرب - شأنها في ذلك شأن صرواح - إنما كانت في الأصل مدينة ذات بابين فقط، ويدور أن هناك أماكن كثيرة مكسورة في الجدران، اعتبرها «أرنو» أبواباً، وسماها بالأسماء التي كان يطلقها عليها الأهالي في أيامه، أما الباب الرئيسي في المدينة فكان في السور الغربي، وهو الذي يسمى الآن باب المدينة، «ما زالت بقايا موجودة، وعلى كل من جانبه آثار برج من الحجر، وفي السور البحري باب آخر، وهو الذي يستخدمه أهالي مأرب عند الخروج لدفن موتاهم، في الجبانة الواقعة في الناحية البحرية من الخرائب، ولهذا أسموه باسمها، أي باب الجنة.

ومدينة مأرب - شأنها في ذلك شأن أغلب المدن الكبرى في اليمن القديم - مدينة مسورة بسور قوى حصين له أبراج، تمكن القوم من الدفاع عن مدينتهم، وأن السور - طبقاً لما جاء في النقوش - قد بنى من حجر البلق، وهو حجر صلد قد من الصخر، فوقه صخور من جرانيت، ومن أسف أننا لانعرف حتى الآن من النقوش التي تم الكشف عنها في مدينة مأرب، اسم الملك الذي أسسها وربما كانت بعض أجزاء السور الحالي من السور القديم الذي بناه مكاربة سبأ القدامى، ونعرف من نقوش كثيرة أن واحداً منهم (ابن سمه على ينوف) قد بنى حائطاً حول مأرب، كما نعرف من نقوش (جلالزر ٤١٨، ٤١٩) أن «كرب إيل وتار» (من القرن السابع قبل الميلاد) قد أضاف بعض الأجزاء إلى سور مأرب، كما بنى بوابتين وبعض الأبراج

هذا ويذهب الأخباريون إلى أن مؤسس مأرب إنما هو «سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، ويرى الهمداني في الإكليل أنه كان يمارس ثلاثة قصور

(سلحين والهجر والقشيب)، وأهم تلك القصور هو قصر «سلحين» الذى تردد ذكره كثيراً فى كتب الأدب العربى، على أنه قصر الملكة بلقيس، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة وقالوا إنها تحمل العرش، وأن قواعدها تحت الأرض مثل ارتفاعها فوقها، وهى ٢٩ ذراعاً، وأما خارج بلاد العرب، فقد جاء اسم قصر سلحين فى ألقاب السيادة التى اتخذها ملوك أكسوم فى نقوشهم، ومنها لقب الملك «عيزانا» الذى اعتلى العرش حوالى عام ٣٢٥ م.

ورغم أن هناك من يذهب إلى أن قصر سلحين إنما كان فى الخرائب الواسعة فى غربى المدينة، فمن الصعب علينا - اعتماداً على أقوال الشعراء ومبالغاتهم الكتاب العرب - تحديد هذا القصر الذى يسميه الكتاب العرب «قصر بلقيس»، وذلك لأن اليمنيين إنما اعتادوا أن يطلقوا اسم «بلقيس» على كثير من المعابد فى «صرواح»، كما اعتادوا كذلك أن يطلقوا اسم «بلقيس» على معبد يبعد عن خرائب مأرب، بل إن اسم بلقيس إنما كان يطلق أيضاً على آثار أخرى بعيدة عن منطقة أرض سبأ، مثل ماجاء فى «معجم ياقوت» من أن عرش بلقيس اسم لمكان على مسيرة يوم من «ذمار»، حيث تقوم فيه ستة أعمدة من الرخام، ومن المرجح أنه يشير هنا إلى أحد المعابد التى كانت فى مدينة ظفار، عاصمة الحميريين.

وهناك على مبعدة ٤ كيلا جنوب شرق مأرب، تقع خرائب معبد الإله الموقاة (المقة) رب أوام، والمعروف هناك بحرم أو محرم بلقيس، ويرى بعض الباحثين أن هذا المعبد - مثله فى ذلك مثل معبد الموقاة فى صرواح، ومعبد المساجد فى بلاد مراد (على مبعدة ١٧ كيلا من مأرب) - إنما قد تم بناؤه فى القرن الثامن قبل الميلاد.

وعلى أية حال، فطبقاً لأقدم نقوش الجدار للمعبد، فإن «يدع إيل ذريح» بن «سمه على»، ثانى مكاربة سبأ، هو الذى بنى سور هذا المعبد المسمى «معبد أوام»، وأنه قد كرسه لإله القمر 'الموقاة'، هذا ويسجل نقش آخر فى الناحية الغربية من السور أن «إيل شريح» بن «سمه على ذريح» ملك سبأ (حكم حوالى عام ٧٥٠

ق.م) و «يتع أمر بين» بن «يكرب ملك وتارة» (حكم حوالي عام ٥٢٠ ق.م)، قد أتما بناء المعبد، هذا وهناك نقوش أخرى من عصور أحدث للملوك قاموا بأعمال خاصة في ذلك المعبد.

على أن النقوش التي كشفت عنها البعثة الأمريكية في عام ١٩٥٢ م، على مقربة من باب المعبد، إنما ترجع إلى عصور متأخرة، وبعضها يرجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد، أي أن معبد الإله الموقاة، رب أوام هذا، إنما ظل يؤدي وظيفته في عبادة الموقاة في مأرب قرابة ألف عام.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن بقايا المعابد التي عثر عليها في روديسيا وأوغندة في أفريقيا، إنما هي من المعابد المتأثرة بطراز معبد أوام (محرم بلقيس)، فإن بين هذه المعابد جميعاً شبيهاً كبيراً في طراز البناء، وفي المساحة، وفي الأبعاد كذلك.

وهناك على مسبعة ١٤٠٠ متراً، إلى الشمال الغربي من محرم بلقيس، وفي المنطقة المعروفة باسم «العماييد»، نرى خمسة أعمدة قائمة، ارتفاع الواحد منها خمسة أمتار عن سطح الأرض، ومقاييس كل منها ٨٢ × ٦٣ سم، وقد أحاطت بها الخرائب من كل جانب، وطبقاً لما جاء في حجر مكتوب رآه «أرنو» في عام ١٨٤٣ م، نعرف أن اسم معبد العماييد هو «باران» وأنه طبقاً لما جاء في نقش (جلازير ٤٧٩)، فإن المعبد قد شيد للإله «الموقاة» وإن كانت الأعمدة الباقية - وكذا ما حولها من نقوش - لاتساعدنا على معرفة اسم الملك الذي قام ببناء المعبد، أو حتى تحديد عصره بوجه عام، وليس أمامنا سوى الانتظار حتى تجرى حفريات جديدة، قد نعرف منها ما هو في ضمير الغيب الآن.

ولعل من الأهمية بمكان أن نتحدث الآن عن أهم آثار مأرب - من الناحية الاقتصادية - وأعني به «سد مأرب» المشهور^(١).

(١) أحمد فكري : المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٧٥، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٩٦ - ٣٠٠، جواد علي ٤٣/٨ - ٤٤، ياقوت ١٨١/٣، ١٠٠/٤ - ١٩١، ٢٤/٥ - ٣٨، محمد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام - بيروت ١٩٧٥ م ص ٣٨٢ - ٣٨٣، الإكليل ٤٥/٨، صفة جزيرة العرب ص ٣٢ وما بعدها.

(٣) سد مأرب :

كان خصب أرض سبأ مضرب الأمثال عند العرب، وكان أهلها يتعمرون بخيرات واديهم، وبما تدره التجارة التي كانوا يسيطرون عليها من أموال، وكان هناك على مقربة من مدينة مأرب فتحة لتنظيم تصريف المياه التي كانت تسيل في القناة اليمنى - إحدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب - وما زالت بقايا جدرانها المشيدة بالحجر، ترى حتى الآن في الجهة الجنوبية من المدينة، وهي الباب الرئيسي في السور الذي كان يواحه معبد أوام (محرم بلقيس)، وطبقاً لنقش على الجدار الشمالي لذلك الأثر، فإن المكرب «ذمار على وثار» (من القرن السابع قبل الميلاد) هو الذي بنى هذه الفتحة أمام هيكل الإله «عشر». غير أن ولده «سمه على ينوف» هو الذي ينسب إليه أنه صاحب ومنفذ أكبر مشروع للرى عرفته بلاد العرب، وذلك على الرغم من أن أهل مأرب كانوا ذوى خبرة بشئون الرى، إلا أن سدودهم إنما كانت بدائية، حتى جاء «سمه على ينوف»، وأحدث تطوراً خطيراً في وسائل الرى، وذلك حين شيد «سد رجب» للسيطرة على مياه الأمطار، والإفادة من السيول، وهكذا بدأ المشروع العظيم، والذي عرف في التاريخ باسم «سد مأرب»، ثم نما على مر الأيام، حتى اكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادى على أيام «شمر يهرعش»، فنظم وسائل الرى، وأضاف مساحات كثيرة إلى الأرض الصالحة للإنتاج، وهكذا يعتبر عهد «سمه على ينوف» من أهم العهود بالنسبة إلى سد مأرب، بل إن أقدم ما لدينا من وثائق عن سد مأرب إنما ترجع إلى عهد هذا المكرب، والتي ترجع إلى حوالى عام ٧٥٠ ق.م، وربما عام ٧٠٠ ق.م. على

-
- = - A. Fakhry, An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols, Cairo, 1952.
- H. Von. Wissman and M. Hofner, Op. cit., P. 27 - 28.
- R. L. Bowen and W. F. Albright Archaeological Discoueries in South Arabia, Baltimore, 1958, P. 215 F.
- P. K. Hitti, Op. cit., P. 54 و W. Phillips, Op. cit., P. 256F.
- Ency. of Islam, III, P. 282 و Pliny, II, P. 467.

أن هناك ما يشير إلى أن ملوك آخرين قد أضافوا أجزاء أخرى إلى السد، فضلاً عن تقوية أجزائه القديمة، ومن أهمهم «كرب إيل بين بن يشع أمر» و«ذمار على ذريح» و«يدع إيل وتار»، وقبل هؤلاء جميعاً «يشع أمر بين» الذي سار على سنة أبيه «سمه على ينوف» في الاهتمام بتحسين وسائل الري في البلاد، فعمل على إدخال بعض التحسينات على «سد رجب»، وإنشاء فروع له، منها فتح ثغرة في منطقة صخرية، حتى تصل المياه إلى أرض «يسرن»، هذا إلى جانب تعلية سد رجب وتقويته، هذا فضلاً عن إقامة «سد هباز»، وهو أكبر من سد رجب، كما أقام سده الجبار المعروف باسم «سد حبابض» الذي مكن كثيراً من الأرضين من الاستفادة بأكبر كمية من المياه التي كانت من قبل عبثاً، فلا تفيد زرعاً أو ضرعاً.

ولعل هذا كله هو الذي دفع بعض الباحثين إلى اعتبار «سمه بن ينوف» وولده «يشع أمر بين»، المؤسسين الأصليين لسد مأرب، والذي يعتبر أكمل عمل هندسي عرفته شبه الجزيرة العربية في تاريخها القديم.

هذا وكان القوم يهدفون من وراء إقامة سد مأرب هذا إلى تحقيق أمرين، الواحد : السيطرة على مياه السيول المتدفقة، فلا تخرب ما يعترضها، إذا ما جاءت فجأة، وبكثرة غير عادية، والآخر : تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد، وعدم صرف شيء منها، إلا بالمقدار اللازم، وبذلك يضمنون رى وادى مأرب، الذي يرتفع عن مستوى المياه السائلة بخمسة أمتار، فضلاً عن توفير كميات المياه اللازمة للرى، حتى يحين موعد مجئ سيول أخرى من المناطق الممطرة في شرق اليمن، ذلك لأن منطقة مأرب إنما هي من المناطق الجافة قليلة الأمطار، ولا يزرع أهلها اليوم - أى بعد تخريب السد - غير مساحات ضئيلة، على مقربة من مجرى المياه في وادى ذنة، وتضيق أكثر مياه السيول هباءً في الوقت الحاضر، ولا يمكن استخدامها في زراعة أراضي الوادى المرتفعة.

وعلى أية حال، ففكرة السد تتلخص في أن مياه السيول القادمة من شرق اليمن كانت تتجمع في شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب، ومنخفضة من جهة الشرق، حيث تسير جميعها شرقاً في

مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أكبرها (ذنة) وتدخل جميعها فى واد كبير فى جبل «بلق» فتقسمه إلى قسمين - بلق الأيسر، وبلق الأيمن - بينهما فتحة تدعى «الضيق»، اختيرت لتشبيد السد، ومن ثم فقد بنوا جداراً قوياً يعترض الوادى وبوقف مياه السيول المتدفقة، وجعلوا فى الناحيتين فتحتين، إحداهما إلى أقصى اليمين، ثم استغلوا الجبل المرتفع فى هذا الغرض، فلم يبنوا إلا جداراً ضخمًا واحدًا ليكون صدغاً ثانياً للبوابة، وأما البوابة التى فى الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهى أكبر وأعظم، وتنقسم إلى قسمين، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيان بمسافة غير قليلة، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر، نرى فى واجهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحي الوادى الفسيح.

ويطلق الأهالى على البوابة اليمنى «مربط الدم» وكانت تروى الناحية اليمنى التى مازلت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم، وكلها على يمين وادى زنة، ويبدو أن صخرة الجبل تكون إحدى جانبي هذه الفتحة، أما الناحية الأخرى فمشيدة من الحجر، وربما كانت فى صدغى تلك الفتحة المكان الذى كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه، وتسير بعد ذلك فى قناة عادية، ويبدو أنه كان هناك بروزاً مثلثاً فى ذلك الجدار الحجرى، وقد كان ذلك البروز داخلاً فى جدار السد الكبير، وهو الجدار الذى تهدم وسبب ذلك الخراب.

وأما البوابة اليسرى فكان لها عينان، ووراءها قناة مبنية الجوانب، طولها أكثر من كيلومتر، تنتهى بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات، كما يبدو أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخرة الجبل، ثم جعلوا فى مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات، وذلك لتصريف الكميات الزائدة من المياه، حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد إلى حد قد يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها، وتخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج وتنزل إلى باطن الوادى، ثم رأوا فى وقت ما أنه لا حاجة للعينين فسدوا واحدة منها، واكتفوا بالأخرى.

وكان يخرج من الحوض المبنى بالحجر فى آخر القناة الكبرى قنوات متعددة، تبلغ فتحات بعضها حوالى ثلاثة أمتار، وكلها مبنية بالحجر، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلق فى فتحتين فى جاسى كل بوابة.

هذا وتدل دراسة المباني التى مازالت قائمة عند البوابتين على أنه قد استخدمت فى بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وثبتت وتماسك وكأنها قطعة صلبة واحدة، وقد وجد أن بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس ليكون البناء قوياً، وليكون فى إمكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل، أما المادة التى استعملت لربط الأحجار ببعضها فهى من الجبس الممتاز، وقد تصلب هذا الجبس الذى طليت به واجهات السد كذلك، حتى صار كأصلب أنواع الأسمنت.

هذا وقد تعرض السد عدة مرات للتصدع إبان الفترة فيما بين بنائه فى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وبين آخر مرة أصلح فيها السد فى عام ٥٤٣ م، أى خلال مايقرب من ١٢٠٠ سنة، وربما أكثر من ذلك، على رأى من يرون أن السد ظل يؤدي واجبه حتى عام ٥٧٥ م^(١).

-
- (١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٨٧، محمد بيومى مهران : الحضارة العربية القديمة من ٢٤٨ - ٢٦٤، دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الأول ص ٣١١ - ٣٥٢، جواد على ٢٨٠/٢ - ٢٨٢، ٢١٠/٧ - ٢١١، ٤٨٣/٣ - ٤٩١،
 - J. B. Le Museon, 1953, 66, P. 340 1964, 3 - 4, P. 490 - 94
 Philby, Op. cit., P. 118 F.
 - A. James, Sabaeen Inscriptions from Mabram Bilqis, 1961, P. 176, 300, 390 F.
 - H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 38, 113 F.
 - A. Grohmann , Op. cit., P. 23 - 28 وكذا BASOR, 137, 1955, P. 38.
 - Ency. of Islam, III, P. 290 وكذا Handbuch, I, P. 93, 106.

(٣) رجيمت: (نجران؟) :

كانت رجيمت (رجمة) مقر إمارة «مهامر» التي انتحل أمراؤها لقب «ملك»، ربما جاءت أهميتها لوقوعها على طريق القوافل التي تصل معين والعربية الجنوبية من ناحية، ومصر من ناحية أخرى، ويذهب بعض الباحثين إلى أن «رجمت» تقع الآن في أرض نجران، أو في مجاوراتها من ناحية الشمال، وربما كانت واحدة من مدن الشمال، وأن نجران نفسها لم تكن في الأصل مدينة معينة، وإنما هي أرض تضم عدة مدن، ومنها رجمت التي تحول اسمها بمرور الزمن إلى «نجران»، وأن هناك الكثير من الأمثلة على ذلك في العربية الجنوبية.

هذا ويذهب «موردتمان» إلى أن رجمت ربما كانت «رعمة» في التوراة، وهو الابن الرابع لكوش، ثم يذهب بعد ذلك إلى أن المراد «بكوش» هنا، العربية الجنوبية، وأن من أولاد كوش : سبأ وديدان، وأن تجار رعمة قد ذكروا في سفر حزقيال، ويدهى أن «موردتمان» لم يفعل سوى أن ردد ماجاء في توراة يهود، من ادعاء كذوب، يسلب أغلب العرب ساميتهم، فالعربية الجنوبية وبابل وأشور وكنعان ويوس ومصر وغيرها من الشعوب العربية، إنما هم جميعاً - في نظر توراة يهود - حاميون.

وعلى أية حال، فلقد جاء ذكر نجران في نقش النمارة (شرقي جبل الدروز في سورية)، والمؤرخ في ٧ ديسمبر عام ٣٢٨ م، ويمثل أقدم كتابة باللغة العربية، ويخط نبطي، وقد جاء فيه «وجا بزجي في حبيج نجرن مدينت شمير» أي «وجاء بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمير» (شمير يهرعش).

وفي نجران حدثت قصة أصحاب الأخدود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة البروج، وقد زارها «جون فلي»، وعثر هناك على خرائب أثرية قديمة في بلدة «رجمت» ذهب إلى أنها هي آثار الأخدود الذي احتفره ذو نواس.

وعلى أية حال، فلقد أصبحت نجران على أيام الاحتلال الحبشي لليمن

مركزاً رئيسياً لنشر المسيحية واستمرت كذلك حتى ظهور الإسلام، وقد حدثتنا كتب السيرة النبوية الشريفة عن وفد نصارى نجران فى عام الوفود^(١).

(٥) ظفار :

كانت ظفار عاصمة الحميريين، وقد دُعيت فى التوراة «سفار»، وعند الأغارقة والرومان «سيفار» و «سفار» (Saphar)، وهى مدينة داخلية، تقع على مسبعة ١٦٠ كيلاً إلى الشمال الشرقى من «الحاء»، وقد احتلت على أيام الحميريين مكانة مأرب، عاصمة سبأ، و «قرناو» عاصمة معين، وماتزال آثارها ماثلة للعيان على قمة تل مستدير بجوار بلدة «يرم» الحديثة. وكان «نيبور» أول من أشار إلى آثار هذه البلدة القديمة عن طريق نقوش قديمة، عثر عليها عندما أمّ ليمن، لأول مرة، فى عام ١٧٦٣م، ثم كتب عنها فى عام ١٧٧٢م^(٢).

(٦) صنعاء :

لانعرف على وجه اليقين من هو مؤسس مدينة صنعاء، ولا تاريخ تأسيسها، وإن كان اسمها قد بدأ يتردد فى النصوص منذ أيام «الشرح يحصب» و «شمر ذى ريدان»، كما يشير إلى ذلك نقشى (جام ٥٧٧) و (ريكماتز ٥٣٥)، وقد ذكرت تحت اسم «صنعو» (صنعاء).

هذا وتشير الكتابة (CIH 429) إلى أن قصر غندان (غمدان) - بجانب قصر

(١) محمد يتيوى مهتران: تاريخ العرب القديم ص ٣٣٣ - ٣٣٤، ٢٤٩ - ٣٥٠، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٣٥٥/١ - ٣٦٦، تكوين ٦/١٠ - ٢٠، حزقيال ٢٢/٢٧، جواد على ٥٠٧/٢ - ٥٠٩، حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ١٦٥ - ١٦٦، قاموس الكتاب المقدس ٤٠٦/١، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 9 - 11.

- J. B. Philby, Arabian Highland, N. J., 1952, P. 237 F, 257.

(٢) تكوين ٣٠/١٠،

- Pliny, VI, P. 104 وكذا EI, II, P. 310, III, P. 292.

- Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 429, 438 وكذا ZDMG, 31, 1877, P. 69.

- Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenbagen, 1773.

مدحين - إنما كانا قصيرين للملوك، ولعل في هذا إشارة إلى أن «الشرح يحصب» إنما كان أقام في كلا القصرين (أى فى صنعاء ومأرب)، كما يشير إلى أن الهمداني وابن الكلبي، ربما كانا على صواب فيما ذهبوا إليه من أن «الشرح يحصب» هو الذى بنى قصر غمدان، وأن «شعر أوتر» هو الذى بنى سور صنعاء، وإن كانت هناك رواية إلى أنه من بناء سليمان، عليه السلام، وعلى أية حال، فكل هذا يال على أن قصر غمدان من القصور السعيدة القديمة: وأن صنعاء مأثرة تطير بين مدن اليمن منذ تلك الفترة، وأن مكائنها قد زادت على مر الأيام، حتى سارت صاحبة اليمن، ومقر الحكام حتى الآن.

ويدهى أن هذا لا يتفق وروايات المؤرخين من أنها كانت تدعى «أزال»، وأن «وهز» القائل الفارسي، هو الذى أطلق عليها اسم «صنعاء»، حين قال إبان دخولها (حوالى عام ٥٧٥م) «صنعة صنعة»، يريد أن الحبشة قد أحكمت صنعها، أو أن التسمية إنما كانت نسبة إلى بانيها «صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن شالح» على رواية، و«غمدان بن سام بن نوح»، على رواية أخرى، فكانت تعرف تارة «بأزال»، وتارة «بصنعاء»، بل إن بعض الأخباريين لم يقف عند هذا الحد، فزعم أنها واحدة من مدن النار الأربع (أنطاكية والطوانة وقسطنطينية وصنعاء)، فى مقابل مدن الجنة الأربع (مكة والمدينة وإيليا ودمشق).

هذا، وعلى أيام الاحتلال الحبشى لليمن (٥٢٥ - ٥٧٥م) بدأ أبرهة الحبشى فى إنشاء الكنائس فى أنحاء مختلفة من اليمن، لعل أهمها : مأرب ونجران وصنعاء، وفى صنعاء بالذات بنى كنيسة المشهورة «القليس» بغية أن يصرف الحجاج من مكة إلى صنعاء، فيكسب من ذلك فوائد مادية وسياسية وأدبية، وبالتالي فقد كان ذلك سبباً فى حملته المشهورة على مكة المكرمة فى العام المعروف بعام الفيل.

ورغم مبالغة الأخباريين فى وصف كنيسة القليس (وهى محرفة عن كلمة أكليسيا بمعنى كنيسة) وأنه كتب إلى النجاشي يقول له «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست يمتته حتى أصرف إليها حج العرب»، فالذى لاشك أن القليس إنما كانت كنيسة كبيرة ضخمة، وأن العصر

نفسه كان عصر بناء الكنائس الضخمة، ومثال ذلك : كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينية، وكنيسة المهد في بيت لحم.

وتذهب الروايات العربية إلى أن «القليس» إنما بنيت بجوار قصر غمدان، وبحجارة من قصر بلقيس، وأن أبرهة قد استعمل في بنائها السخرة، فضلاً عن القسوة الشديدة التي كانت تصل إلى حد قطع يد العامل، إن تهاون أو تكاسل في عمله، وهكذا استذل أبرهة أهل اليمن في بناء كنيسته هذه وجشمهم فيها أقسى أنواع السخرة، حتى أنهم كانوا ينقلون أدوات البناء، كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ.

وعندما تحررت اليمن من الحكم الحبشي على يد «سيف بن ذى يزن» (معديكرب بن أبي مرة) ظلت صنعاء عاصمة لليمن، ولكنها سرعان ما وقعت تحت نير الحكم الفارسي - بعد مقتل سيف بن ذى يزن - وإن كان الفرس في أغلب الأمر، إنما كان نفوذهم مقصوراً على العاصمة صنعاء ومجاوراتها، وظل الأمر كذلك حتى دخل الوالى الفارسي «بازان» في الإسلام، في عام ٦٢٨م (٦ هـ)، فاعتنقت صنعاء، ثم بقية أرض اليمن، الإسلام، وبالتالي فقد قضى على اليهودية والنصرانية والوثنية، فضلاً عن الحكم الأجنبي - حبشياً كان أم فارسياً - (١).

(١) محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣١٧ - ٣١٨، ٣٧٩ - ٣٨٢، ٣٨٨ - ٣٩٠، ياقوت ٤٢٦/٣، ٣٩٤/٤ - ٣٩٦، تاريخ الطبري ١٣٠/٢، ٦٥٦ - ٦٥٧، الأزرقى ١٣٨/١ - ١٣٩، ابن الأثير ٤٤٢/١، ٢١٤٣/٢ - ٢١٥، البكرى ٨٤٣/٣، السري ١٨٢/١ - ١٨٣، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 19.

- A. James, Op. cit., P. 390 وكذا P. K. Hitti, Op. cit, P. 57.

- H. Scott, in The High Yemen, London, 1947, P. 212.

الفصل الثالث

في شرق الجزيرة العربية

(١) دلمون :

كانت دلمون عاصمة البحرين، وقد تحدثت عنها النصوص السومرية، كما في قصة الطوفان، وقد دعت لها «أرض العبور» حيث تشرق الشمس، وهناك سكن أنو وأبليل وزيو سدرا بطل القصة، ودلمون في الأساطير السومرية هي مركز الخلق، وهي جنة الخلد، و «أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان مقدس».

هذا وقد اشتهرت دلمون بأنها مركز هام في التجارة الدولية وقت ذاك بين مراكز الحضارة السومرية (في جنوب العراق القديم) وبين بلاد نهر السند في باكستان الحالية، ومن ثم فعندما برزت نتائج التنقيبات عن «دلمون» في جزيرة البحرين، تأكدت مجدداً تلك الأهمية البارزة التي أولتها كتابات السومريين القدماى لهذه المنطقة.

هذا رقا. اختلف العلماء حول موقع «دلمون» السومرية هذه، فذهب فريق إلى أنها في المنطقة البرونزية الغربية من بلاد فارس (أي الجزء الشرقي من ساسانيل الخليج العربي)، على أن هناك رجحاً آخر للنظر يذهب إلى أنها منطقة وادي السند، بينما يذهب وجه ثالث للنظر إلى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب بابل، بل إن هناك وجهاً رابعاً للنظر يذهب إلى أنها في التسمم الشرقي من شبه جزيرة العرب، في المنطقة فيما بين «مجان» و «بيت نسانو».

على أن جمهرة المؤرخين إنما يتفقون - أو يكادون - على أن موقع دلمون، إنما هو جزيرة البحرين الحالية، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها^(١).

(١) محمد بيومي مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المدسة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٨٧

- ٣٩٠، جرن الدر : الأحجار تتكلم ص ٣٠

- J. Finegan, Light from The ancient Past, Princeton, 1969, P.

(٦) «جرها» :

جرها - أو جرعاء كما يقول الهمداني - سوق لبنى نميم فى الإحساء، ومنذ حوالى قرن مضى رأى «شبرنجر» أن (Gerrha) إنما هى «الجرعاء»، وقد كانت قائمة على مقربة من ميناء العقير الحالى، وربما تقع - فيما ترى إليزابيث مونرو - تحت أنقاض مدينة من العصور الوسطى تسمى «تاج» (Thaj) هى الآن فيما وراء «جبيرة» (Jubair) - وربما الأصح الجبيل - وكانت تعرف قديماً باسم «عينان»، والتي كانت تقع على بحيرة أو خليج.

على أن دائرة المعارف البريطانية، إنما تتفق مع «جون فلبى»، على أن «جرها» هى العقير نفسها، وأن هذا الاسم الجديد (العقير) قد احتفظ فى بنيته بالاسم القديم «جرها»، ذلك لأن هناك ثمة تقارب بين اسمى الجرعاء والعقير، والتي تسمى محلياً «عجيز»، وهى قريبة من منطقة «جرعة»، وأما الدكتور سليمان حزين، فالرأى عنده أن جرها هى «القطيف»، وإن كان هناك من يرى أن جرها إنما تقع على مبعدة ٢٤ كيلاً شمال شرق العقير، وقد حدد «ستراوب» الجرعاء على مبعدة ٩٦ كيلاً داخل اليابسة، بينما رأى «بلينى» أنها تقع على الساحل.

وجرها - على أية حال - ميناء تجارى، يقع على طريقين من طرق القوافل، الأول : طريق مأرب - جرها (مأرب - نجران - الفاو - الأفلاج - اليمامة - الهفوف - جرها)، وأما الطريق الثانى فهو طريق : جرها - البتراء

= - P. B. Cornwall, on the Location of Dilmun, in BASOR, 103, 1946, P. 3 - 11.

- S. N. Kramer, Dilmun, The Land of The Living, BASOR, 96, 1944, P. 18 - 28.

- F. Hommel, Grundris, I, P. 250.

- S. N. Kramer, The Indus Civilization and Dilmun, The Sumerian Paradise Land Expedition, Philadelphia, 1964, P. 45.

(جرها - الهفوف - مكان الرياض الحالي - بريدة - حائل - نيماء - البتراء)^(١).

(٣) مجان :

اختلف العلماء فى تحديد موقع مجان هذه، فذهب فريق إلى أنها من الأقسام الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وذهب فريق آخر إلى أنها جرها (جرعاء) على ساحل الاتسعاء، على أن فريقاً ثالثاً إنما يذهب إلى أنها تقع على مقربة من ساحل الخليج العربى فى موضع «مجيمنة» جنوب «سيرين»، وذهب فريق رابع إلى أنها على مقربة من الساحل عند مصب وادى شهبه، وهى البقعة التى نشأت فيها مملكة مجان القديمة.

وهناك بحوث أثرية وتاريخية، يرى البعض أنها تؤكد وجود دلائل واضحة على قيام عمران مدنى، وحضارة مزدهرة، فى تلك المنطقة، اعتمدت على نشاط تجارى فى البر والبحر، بين بلاد السند، وسواحل إيران الجنوبية، وبين بلاد العرب الجنوبية، وبلاد الرافدين.

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٨١، اليزابيث مونرو : الجزيرة العربية بين البخور والبتروى ص ٣٥ - ٣٦، محمد يومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ١٣٥، بيتر كورنول : البحث عن ماضى جزيرة العرب - القاهرة ١٩٥٣م ص ٢٨، أحمد صابون : دراسة تاريخية لمشكلة تحديد موقعى ماجان وملوخوا، وانظر فيصل عبد الله : الخليج العربى ووادى الهندوس فى الأدبيات والحلويات المسارية - ١٩٩٠ ص ١٢

- S. A. Huzayyin, Arabia and The Far East, Cairo, 1942, P. 142.
- A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabien, Berlin, 1875, P. 135.
- G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 250.
- E. Herzfeld, The Persian Empire, 1968, P. 63.
- E. F. Weidner, Das Reich Sargon Von A K Kad, AFO, 16, 1952, P. 52.
- K. Jartiz, Tilmud - Magan - Meluhba, JNES, 27, 1968, P. 209.

وكذا :

- L. Caetani, Studi della Historia Orientale, I, P. 64, 80, 243.

على أن هناك وجهاً خامساً للنظر يذهب إلى أن مجان إنما هي منطقة «عمان» - أي الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، على أن هناك من يرى أنها الساحل الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، والذي يمتد شمالاً حتى جنوب بلاد الرافدين، ومن يرى أنها واقعة على شواطئ عمان، ومن يرى أنها تقع على جانبي خليج عمان، ومن يرى أنها شبه جزيرة «مسندم» التي تمتد إلى شبه جزيرة قطر.

هذا ويرى البعض أنها «مدين»، وكانت في الألف الخامسة قبل الميلاد، كثيفة الأشجار، وكان السومريون والآكديون فيما بعد يأخذون منها الأخشاب والذهب والنحاس.

وأخيراً فلقد حاول بعض المؤرخين أن يحدد موقعها بخط طول ٥٥ شرقاً، وخط عرض ٢٤ شمالاً، وبحوالى ٧٢٠ كيلاً إلى الشمال الغربى من «مسقط»، وأن كلمة «مجان» إنما تتكون من الكلمة السومرية (Ma)، بمعنى ميناء أو أرض السفن، وذلك بسبب شهرة أهلها في ركوب السفن، فضلاً عن أن هناك نصاً يرجع إلى أيام «دوجي» (أحد ملوك أور حوالى عام ٢٤٥٠ ق.م.) يحددنا عن صنع السفن من مجان، وأن النصوص المسمارية قد وصفتها بأنها «جبل النحاس»، كما أطلقت عليها النصوص السومرية «أرض الدؤلوريت»، ومن ثم فإن الإشارة إلى مجان على أنها «جبل النحاس» تدفعنا إلى أن ندخل فى دائرتها منطقة الجبل الأخضر فى عمان، حيث يوجد النحاس، وهكذا يبلو واضحاً أن لدينا من القرائن القوية التى تقربنا من وضع مجان كمترادف صحيح لعمان، لأن كل ما ذكر آنفاً إنما هو موجود فى عمان (١).

(١) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد - القاهرة ١٩٦٦م ص ١٣٣، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢١٦ - ٢١٧

- R. A. Cheesman, In Unkonwn Arabia, London, 1925, P. 266.
- De Lacy O'Leary, Op - cit., P. 47 J. B. Philby, The Empty Quarter, 1933, P. 119 F.
- W. F. Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, P. 21.
- A. Musil, Northern Nejd, New York, 1928, P. 307.

الفصل الرابع

المدن الكبرى فى الممالك والإمارات العربية

فى العراق والشام

(١) تدمر

١ - موقع تدمر الجغرافى وأهميته :

تقع مدينة «تدمر» - عاصمة مملكة تدمر - على مبعدة ١٠٠ كيلا جنوب شرق حمص، وعلى مبعدة ١٥٠ كيلا شمال شرق دمشق، فى منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات^(١)، ومن ثم فقد كانت موقعا هاما على الطريق التجارى بين العراق والشام، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق، وما يتصل بها من أسواق فى إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، وبين تلك التى على البحر المتوسط، وبخاصة فى الشام ومصر، فضلا عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال أفريقية والعربية للجنوبية والهند، وهكذا أصبحت «تدمر» ملتقى جميع القوافل، وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد، وعام ٢٧٣م، ومن ثم فقد وجد فى نقوشها عبارة «زعيم القافلة» و «زعيم السوق»، باعتبار أن المشار إليه من زعماء المواطنين^(٢).

وكان هذا الموقع الجغرافى الهام، مبييا فى مكانة تدمر التجارية، ويقول صاحب كتاب «أسواق العرب»: «وحمل أهل تدمر فى القديم إلى مصر، وجنوب أوروبا، صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النقاش التى يحملها التدمريون من بلاد الشرق أئمن ما يتغالى به الملوك القياصرة»^(٣).

ويقول الدكتور إسرائيل ولفنسون عن مملكة تدمر: قبلة التجار فى الهند والفرس والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوروبا، وكانت روما - التى خضع لنيروها أغلب

(1) EB, 17, p. 161.

(٢) جواد على ٨١/٣، قارن : مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.

وانظر: P.K.Hitti, op.cit, p. 73.

وكذا: G.A.Cooke, op- cit, p. 274 - 279.

(٣) سعيد الأفغانى: أسواق العرب فى الحاهلية والإسلام - دمشق ١٣٧٩ هـ ص ١٧.

العالم القديم - تهاب قبائل تدمر، وتتوحد اليها، وتقدم اليها الهدايا، وتوفد اليها الوفود - قبل أن تحتلها - وقد عرفت تدمر كيف تستثمر - فى ظروف مناسبة - الدولتين - الفارسية والرومية - لمصلحتها التجارية^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى الطريق التى تقع إلى أقصى الشمال فى شبه الجزيرة العربية، وكانت هذه الطريق تشكل فى الواقع امتدادا صحراويا، لطريق تجارية تبدأ من «الرمادى» - وتقع على نهر الفرات شمال غربى بغداد - وتسير بمحاذاة النهر، حتى مدينة «مارى»^(٥) (Mari)، ثم تمتد غربا إلى «تدمر»، ومن تدمر، تمتد غربا بميل طفيف إلى الشمال الغربى، إلى «حمص»، ومن هناك تتفرع إلى عدة فروع، تصل بين حمص من جهة، والموانى الفينيقية ودمشق وفلسطين من الناحية الأخرى.

وفى الواقع، فإن الطريق انما كان حلقة الوصل فيها هى مدينة تدمر، هذه الواحة الغنية بالنخيل التى تقبع فى وسط الصحراء.

واما بقية الطريق الواقعة إلى شرقى تدمر، أو غربيها، فكانت - رغم قصرها - فهى لا تزيد عن ٤٨٠ كيلا - معرضة لغارات القبائل البدوية المتنقلة بالمنطقة المحيطة بها، ومع ذلك، فلقد احتفظت هذه الطريق القديمة بأهميتها، كما احتفظت بالأهمية ذاتها للطرق الأخرى، التى شقت بعد ذلك، واتخذت من تدمر نقطة ارتكاز لها فى الوصل بين طرفى الصحراء عند حدود كل من «أدى الرافدين وسورية».

(٤) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية - القاهرة ١٩٢٧ ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٥) «مارى»: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و «مارتو» أى بلاد الغرب، ومعنى الآن «تل الحيرى»، جنوب مصب نهر الحابور، على مقربة من «دير الرز»، على مسعدة ميل واحد غربى الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (البوكمال) - قرب الحدود العراقية السورية - ، وقد أصبحت مارى والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية، سكانا وحكومة وحضارة - وقد كشف «أندرية بارو» عام ١٩٣٣م حوالى ٢٠ ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسامرى فى قصر الملك «زمرى وليم» ومحفوفة الآن بمتحف اللوفر بباريس، وقد بدأ نشرها وظهر منها حتى الآن ١٦ جزءا (أنظر: محمد بيومى مهران: بلاد الشام ص ٥٠).

وكذا: M.Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, p. 46.

W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period Leiden 1960, p. 102.

وأهمها «طريق دقلديانوس»^(٦) (Strata Diocletiana) التي شُيّدت في عصر
الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)، بين دمشق في الجنوب الغربي، والرصافة
«سرجيوبوليس = Sergiopolis» في الشمال الشرقي، على مقربة من الفرات -
بعد تدمير تدمر عام ٢٧٣ م.

وأهمية هذا الطريق - إلى جانب صفته التجارية - فله صفة سياسية، فالمنطقة
كانت تقطنها - كما أشرنا آنفاً - قبائل بدوية متنقلة، تسبب كثيراً من القلق على
الحدود السورية، أو حدود وادي الرافدين، ومن ثم فقد كان موقع تدمر كنقطة
تأمين للطريق، وبالتالي فإن إقرار الأمور، إنما هو أمر وارد لكلا القوتين - الفارسية
والرومية - في شرقي الصحراء أوفى غربيها.

وهكذا انتهى الأمر دائماً بتأمين الطريق لهذا الهدف السياسي، وتبع ذلك
ازدهار النشاط التجاري عليه، هذا وقد كشف عن بقايا عدد من الحصون التي
أقامها الرومان في أماكن عديدة، على طول هذا الطريق^(٧).

٢ - اسم المدينة وتطورها التاريخ:

اسم «تدمر» اسم «سامي»، يرجع ظهوره للمرة الأولى إلى أيام الملك الآشوري
«تجلات بلاسر» الأول (١١١٦ - ١٠٩٠ ق.م) في صورة «تدمر أمورو»^(٨)، وأما
اسم «تدمر» فهو النطق الآرامي لكلمة «تتمر» العربية، ومعناها المدينة التي يكثر فيها

(٦) كان قد أنشئ في عهد الامبراطور «تراجان» (Trajanus - ٩٨-١١٧ م) طريق
يصل فيما بين مدينتي العقبة وتدمر، ويمر بالبثراء، و«ربة عمان» وفيلالغيا (عمان)، و«بصري»،
ثم ينتهي عند «تدمر» (أنظر الجزء الأول من تاريخ العرب ص ٢٧٧).

(٧) لطفى عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

R.Dussaud. La Penetration des Arabes en syrie avant L'Islam,
Paris, 1955. p. 80 - 81.

G.Roux, Incient Iraq, 1966, p. 29.

(8) D.D Luckenbill, op,cit I, 287, 308

وكذا E.Dhorme, Palmyra dans Les Assyriens, R.B, 1924, p. 106.

وكذا EI, 3, p. 1020. EB, 17, p. 161.

القدس والتمثيل^(٩). وإن كنا على غير يقين من اشتقاق كلمة «تدمر» : ربما كان لها صلة بكلمة «تدمورتا» (Tadmorta) السريانية، ربما أنها «يصب»^(١٠).

وقد ورد اسم «تدمر» في المصادر اليهودية، فكاتب الحوليات العبراني يسجل في التوراة، أن سليمان قد بنى مدينة تدمر في البرية^(١١)، والأمر كذلك بالنسبة للمؤرخ اليهودي «يوسف بن متى»^(١٢)، وليس من شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن المدينة - كما أشرنا آنفاً - إنما ذكرت في الوثائق الآشورية قبل أن يولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق مادون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون^(١٣).

ومن هنا فقد رأى العلماء أن الرواية التي تذهب إلى أن سليمان هو الذي بنى تدمر، إما أنها أرادت تعظيم شأن مملكة سليمان كمعادة الروايات اليهودية - وكأن مكانة النبي الكريم لا تأتي إلا ببناء المدن واتساع مملكته، وليست برسالته السماوية - ومن ثم فقد نسبت إليه بناء هذه المدينة، التي تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل^(١٤)، وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «ثامار» التي أسسها الملك سليمان، وهي موضع جاء ذكره في سفر حزقيال^(١٥)، ويقع إلى جنوب الشرق من «يهودا» : وإن كنا لاندرى موقعه الآن على وجه التحقيق^(١٦)، وربما كانت الشهادة التي اكتسبتها «تدمر» على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم، فحينئذ، ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان، ليست هي «ثامار»، وإنما «تدمر» والتي

(٩) حسن ظاهراً: المرجع السابق ص ١١٥.

(١٠) فيليب متى: المرجع السابق ص ٤٢٣.

(١١) ملوك أول ٩: ١٨، أخبار أيام ٨: ٤.

(١٢) F Hommel, ZDMG, XIV, 547 وكذا EI, III, p. 1020.

E.Dhorme, op.cit, p. 106.

وكذا

(١٣) أسطر عن تاريخ: كتابة أسفار التوراة كتابنا «إسرائيل» ١٨/٣ - ٩٦، وأطر طبعة ١٩٩٩ م

(١٤) جرارد على ٧٧/٣، فيليب متى: المرجع السابق ص ٤٣٢.

وكذا EB, P. 4886 وكذا J.Hastings, op.cit, p. 889.

(١٥) حزقيال ٤٧: ١٩.

(١٦) جرارد على ٧٧/٣، قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١.

كانت مدينة عامرة بسكانها، وذات شهرة في مجاراتها فيما بين عامي ٣٠٠ - ٢٠٠ ق.م. (١٧).

وأما الاسم اليوناني للمدينة فهو «بالميرا» Palmyra وهي ترجمة لكلمة «ثامار» العبرية، وتعني مدينة النخيل، وإن كان هناك من يرى أن كلمة (Palmyra) من كلمة (Palma) بمعنى النخل حتى الآن في بعض اللغات الأوروبية، وأن الاسكندر المقدوني هو الذي أطلق عليها اسم "Palmyra" بعد أن استولى عليها بسبب مايكتنفها من غابات النخيل، ومن ثم فقد عرفت عند اليونان واللاتين بهذا الاسم، وهو رأى ما يزال بعد في مرحلة التخمين ويحتاج إلى ما يدعمه من أدلة وبراهين (١٨).

وهناك ما يشير إلى وجود نفوذ سلوقي في تدمر، وربما كانت من نصيب السلوقيين بعد وفاة الاسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.م.، وتقسيم امبراطوريته بين قواده، وعلى أي حال، فهناك حصن سلوقي في المدينة، وربما أقيم في عام ٢٨٠ ق.م، كواحد من سلسلة الحصون التي أقامها القوم في المناطق الاستراتيجية التي خضعت لهم (١٩).

أما الروايات العربية فلا تفيد علماء، ولا تصلح أن تكون دليلاً، فهي روايات متأخرة دخلت إلى المسلمين من أهل الكتاب، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق (٢٠)، فضلاً عن أن ضخامة آثار المدينة وعظمتها، ربما أدهشتهم ومن ثم فقد نسبوا بناءها إلى الجن بأمر من سليمان عليه السلام (٢١)، على أن «ياقوت الحموي» إنما (١٧) جواد على ٧٨/٣.

F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 344.

وكذا

J.Hastings, op.cit, p. 889.

(١٨) عباس العقاد: الثقافة العربية لسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٢٢، وكذا EI, III, p. 1020.

(١٩) جواد على ٨٥/٣.

وكذا Freya Sterk, Rome on The Euphrates, 1967, . 242.

(٢٠) جواد على ٨٧/٣.

(٢١) فيليب حتى المرجع السابق ص ٤٣٣، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، ياقوت ١٧/٢ - ١٩،

البكري ٣٠٦/٢ - ٣٠٧، صحيح الأخبار ٦/٢ - ٧، قارن: مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.

يستبعد نسبة تدمير إلى سليمان، مدعلا ذلك بأن أهلها إنما يزعجون أنبيا ترجع إلى ما قبل عهد سليمان، لفترة تقارب مائتينا وبينه، وأن الناس اذا ساروا بناء عجيبا جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى الجن (٢٢).

ومع ذلك فهناك من يقدم لنا أبياتا من شعر «النايفة الذيباني»، يذهب فيه إلى أن المدينة من بناء جن سليمان، وفات أصحاب هذا الزعم أن النايفة لم يكن عالما من علماء التاريخ والآثار، حتى يكون شجرة حجة في بناء مدنة يرجع فلهيرشا في التاريخ إلى أخريات القرن الثاني عشر، أو الحادي عشر قبل الميلاد، من أدرانا أن هذا الشعر للنايفة الذيباني متقاء فمن من نسبوا شعرا إلى آدم وشايل وقاييل، وإلى الجن وإيليس، أليسوا بقادرين على وضع شعر على لسان النايفة الذيباني (٢٣)، وأما قصة بناء المدينة بأمر من امرأة تدعى «تدمر بنت حسان بن أدنية»، فليست إلا من هذا النوع من الكتابات التي ملأ الاخباريون بها صفحات كتبهم (٢٤).

ولعل «بليني» (٢٣/٢٤ - ٧٩م) أول الكتاب الكلاسيكيين الذين أشاروا إلى تدمر، فوصفها بأنها مدينة شهيرة ذات مرقع ممتاز، وأرض خصبة وأن بها عيونا وينابيع، وتحيط بحدائقها الرمال، وأنها تقع بين الإمبراطورية الرومانية والفارسية، ومن ثم فقد اضطر أهلها - ضمنا لاستقلالهم - أن يقفوا موقف الحياد بين هاتين القوتين المتصارعتين، ثم تابع «بليني» من جاء بعده من الكتاب، مما يدل على أن شهرة المدينة كانت في ازدياد (٢٥).

وأما أقدم كتابة عثر عليها في المدينة، فإنما ترجع إلى شهر نوفمبر من السنة التاسعة قبل الميلاد (٢٦)، وإن كان عثر في مدينة «دورا» - وتقع في مكانها

(٢٢) ياقوت ١٧/٢، قارن: الأخبار الطوال ص ٢٠.

(٢٣) جواد على ٧٩/٣، صحيح الأخبار ٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، المشرق، العدد ١١، عام ١٨٩٨م ص ٤٩٦، ياقوت ١٧/٢.

(٢٤) البكري ٣٠٧/١، ياقوت ١٧/٢.

(25) W.Wright, an Accoun of Palmyra and Zenibia With Travels and Adventures in Bashan and The Desert, p. 110

وكذا Pliny, V, XXI, 83, و EB, p. 4386

(٢٦) - ياد على ٨١/٣، حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥

وكذا G.A. Cooke. op- cit, p. 141

الصالحية الحالية - على الفرات الأوسط تجاه تدمر، على نقش يعتبر من أقدم النقوش التدمرية التي كشف عنها حتى الآن - ويرجع إلى عام ٣٣ ق.م^(٢٧)، وفي هذا الوقت كانت تدمر مركزا تجاريا خصبيا بين دولتي الروم والفرس، ومع ذلك فإن أكثر ما نعرفه عنها إنما يرجع إلى ما بعد الميلاد، حيث لدينا نصوص ترجع إلى عام ٢٧١ م^(٢٨).

(٣) سكان تدمر:

لا ريب أن أهل تدمر، إنما كانوا عربيا - شأنهم في ذلك شأن الأنباط في البتراء - بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصلية في كتاباتهم، كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التي أخذت تستولي على المنطقة الخصبة في شرق الأردن، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثة، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق.م، ثم أخذت تستعمل الآرامية - وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقت ذلك - لغة لها، ومع هذا فإن لغتهم هذه، ليست إلا لهجة من اللهجات الآرامية العربية، وأنها لا تختلف كثيرا عن لغة الأنباط، وعن الآرامية المصرية^(٢٩).

ومع ذلك فإن اللهجة الآرامية التدمرية لها مميزات بررت أن يختصها بعض الباحثين بدراسة لغوية متفصلة، ومن أشهر هذه الدراسات كتابات المستشرق الفرنسي «كانتينيو»^(٣٠)، وقد طور التدمريون الكتابة الآرامية وعندهم انتقلت إلى

(27) CAX, IX, p. 559

(٢٨) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥.

(٢٩) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

وكنّا P.K.Hitti, op.cit, p. 76.

وكنّا R.Ghirshman, Iran, 1945, p. 131 - 132 و EB, 17 p. 161.

وكنّا A.T.Olmstead, History of The Peresian Empire, Chicago, 1970, p. 50-51.

(٣٠) حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ١١٥.

وكنّا J.Cantineau, Grammaire du Plamyrenien Epigraphique, Le Caire, 1935

السمرتيان في الرها، فتظهر منبها العنقا السمرتياني أنفسهم المسرف باسم «الضبط السمرنجيلي» الذي ظهر بعد الإنشقاق المذهبي بين سرمان الرها في عام ٤٨٩م، ثم ظهر لهجة غربية تسمى اليحقوية، وشرقية تسمى النسطورية^(٣١).

وأما الثقافة التدمرية، فكانت مزيجاً من الثقافات العربية والآرامية واليونانية واللاتينية، ذلك لأن تدمر - كما كانت البتراء من قبل - قد نمت في ظل حضارة الآراميين، واتخذت لغتهم، فضلاً عن المبادئ الأساسية في تفكيرهم الثقافي والديني، هذا في الوقت الذي أخذت فيه كذلك كثيراً عن دنيا اليونان والرومان^(٣٢).

هذا، وقد قامت كذلك في تدمر جالية يهودية، منذ وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين، فربما كان ذلك قبل سقوط القدس في أيدي الرومان على أيام الامبراطور «فسباسيان» (٦٩ - ٩٧م)، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهويد بعض السكان، وأن فريقاً من هؤلاء اليهود، ربما رجعوا إلى القدس قبل تدميرها - المشار إليه آنفاً - على يد «تيتوس» في عام ٧٠م^(٣٣).

(٤) تدمر والروم:

وعلى أي حال، فلقد بدأت تدمر تزداد قوة وشهرة منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتي الفرس والروم المتنافستين، ثم ساعد موقعها الجغرافي على إعدام تمكن أي من الفريقين المتنازعين من سهولة الاستيلاء عليها^(٣٤)، وقد جاول «مارك أنطونيوس» عام ٤١ ق.م، الاستيلاء على خزائن المدينة ففشل، وإن أصابها منه ضرر كبير^(٣٥)، غير أن مدينة مهمة كتدمر، لها مال وثروة، وليس لها جيش قوى ضخم، ولا مجال

(٣١) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥ - ١٢١.

(٣٢) موسكاني: المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٣٣) جواد على ٨٤/٣، وكذا UJE, 8, 381.

(٣٤) فيليب متي: المرجع السابق ص ٤٢٣.

(٣٥) W.Wright, op cit, p. 110 و EB, 17, p. 162 وكذا

لتكوين هذا الجيش فيها، لا يمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من مطامع الغزاة، ولو كانت في بقعة منعزلة، أو في بادية بعيدة^(٣٦).

ومن هنا، فإن تدمير - على الأرجح - قد اعترفت بنوع من السيادة عليها للرومان، منذ أوائل العصور المسيحية، ودلينا على ذلك المراسيم الإمبراطورية التي ترجع إلى عهد «تيريوس»^(٣٧)، والتي تتعلق بالرسوم الجمركية، وقد عثر في تدمير على قوائم ترجع إلى عام ١٧م، وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدميرية^(٣٨)، هذا ويدعو أن تدمير قد أصبحت على أيام «فساميان» تحت الإشراف الروماني، وأن كان هذا لا يعنى الخضوع لروما، أو أن للإشراف على الشؤون الدينية بالمدينة كان بأيدي الرومان، وإنما كان هناك إشراف رومي عام على المدينة، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحاميتها Militia في خارج تدمر^(٣٩).

وقد بذل «تراجان» (٩٨-١١٧م) جهده لضم تدمر إلى المقاطعة العربية، التي أنشأها في عام ١٠٦م، واتخذ من «بصرى» مقراً لها، وفي عام ١٣٠م، زار «هديان» (١١٧ - ١٣٨م) تدمر وجعلها تابعة لروما، ثم منحها لقب «هدريانا بالميرا» (Hadriana Palmyra) و«هدريانوبوليس» (Hadrianopolis)، كما أصبحت المدن التابعة لتدمر، تابعة لروما^(٤٠)، وفي الواقع لقد نالت تدمر عناية كبيرة من «هدريان»، حتى قيل أنه «الموسس الثاني» لها، فاهتم بحماية الطرق البرية التي توصلها إلى نهر الفرات، والتي كانت شرياناً هاماً للتجارة العالمية وقت ذاك، ثم كانت العلاقة الطيبة بين الفرس والروم في عهده سبباً في رخاء تدمر، فوصلت الحاميات الرومية إلى شواطئ الفرات الغربية، وأقام التجار في مدينة

(٣٦) جواد على ٨٤/٣.

(٣٧) بدأ السيد المسيح عليه السلام، وكان قد ناهز الثلاثين من عمره يبشر بدعوته في يهوذا في عهد هذا الإمبراطور، وكان قد ولد على أيام سلفه أول قيصرية روما «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤م)، ويرى بعض الباحثين أنه ولد فيما بين عامي ٦، ٢ ق.م، بينما يرى آخرون أنه ولد في عام ٤م ورفع إلى السماء عام ٢٧م وربما، في ٢٣ مارس ٢٩م (أنظر: هـ.ج. ويلز موجز تاريخ العالم ص ١٧٢، ٤١٦، فليب متى: المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢، ٣٦٣).

(38) G.A. Cooke, op.cit, p. 313 - 332.

(٣٩) جواد على ٨٦/٣، وكذا J.Starcky, Palmyre, p. 27.

(٤٠) فليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٥، وهذا EB, 17p. 162.

(Voologasia)، كما بنوا لهم معبدا هناك^(٤١)، ولدنيا كتابة ترجع إلى عام ١٣٧م، أصدرها مجلس شيوخ المدينة لتنظيم التجارة وتثبيت الضرائب، وكيفية جبايتها^(٤٢).

وفي أوائل القرن الثالث الميلادي منح «سبتيميوس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١م) تدمير حقوق المستعمرة، واستمرت كذلك حتى على أيام «كراكلا» (٢١١ - ٢١٧م)، وهكذا اكتسبت تدمير حق الملكية والإعفاء من الخراج، فضلا عن الحرية التامة في إدارة شئونها، وبدأ كبار القوم يضيفون إلى أسمائهم العربية أو الآرامية، أسماء رومية، بل وقد أضافت إحدى الأسر اسم «سبتيميوس» أمام اسمها السامي، مما يدل على نوالها حق الرعاية في عهد «سيفيروس»، وربما كان ذلك بسبب الخدمات التي قدمتها في الصراع ضد الفرس، إلا أن ذلك لا يعني أن تدمير، إنما أصبحت مقاطعة رومية تماما، وإنما كانت حكومة شبه مستقلة، تدير شئونها الإدارية بنفسها، ولكنها تخضع لإشراف روما عليها^(٤٣).

وانتهزت تدمير فرصة انشغال روما بغزوات الجرمان التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية، وأخذت توسع رقعتها، وإن ظلت وفية للروم، وهكذا أصبحت دولة تدمير تشمل عددا من المدن الصغيرة التابعة لها، مثل «دورا» و«الرصافة»^(٤٤)، وقد استخدمت «دورا» كمعقل لحماية تجارة تدمير الناشئة، وقد وجدت فيها بقايا أبنية ذات زخارف نافرة تمثل جنودا تدمريين، وأما «الرصافة» فقد اُعيدت في كتابة أثرية

(٤١) جواد على ٨٧/٢.

وكذا M.Rostoutzeff, Caravan Cities, p. 144.

وكذا F.Stark, op.cit, p. 253.

وكذا Mommsen, Provinces of The Roman Empire, 2, p. 236.

(٤٢) جواد على ٨٧/٢، المشرق، الجزء ١٢، عام ١٨٩٨، ص ٥٣٨.

وكذا EB, 17 p. 162.

وكذا W.Wright, op.cit, p. III.

وكذا G.A. Cooke, op.cit, p. 322.

(٤٣) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

وكذا G.A. Cooke, op.cit, p. 250 - 312.

وكذا CAH, XI, p. 139, XII, p. 18.

(٤٤) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٢٤٩.

أشورية تعود إلى أخريات القرن التاسع قبل الميلاد باسم «رصاصا Rasappa»، وهي نفس المدينة التي جاءت في التوراة^(٤٥) تحت اسم «رصف» بمعنى «الجمر المتوهج» وهدمها «منحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) في أوائل القرن السابع ق.م، وقد عرفت فيما بعد باسم «سرجيوس بولس» نسبة إلى قديسها المحلي «سرجيوس» الذي استشهد في عهد «دقلديانوس» (٢٨٤ - ٣٠٥ م)^(٤٦).

(٤٥) ملوك ثان: ١٩: ١٢، أشعيا ٢٧: ١٢.

(٤٦) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٦، وكنا. EB, 17, 162.

(٢) الجابية - جلق

كانت العاصمة السياسية للغساسنة - في أول الأمر - مخيماً متنقلاً، ثم استقرت بعد ذلك في «الجابية» في منطقة الجولان جنوب غربي دمشق، كما كانت في بعض الوقت في «جلق» في جنوب حوران^(١) - والتي ربما كانت «الكسوة» الحالية، على مبعده ١٦ كيلاً جنوبي دمشق - وأما ديارهم، فكانت - طبقاً لبعض الروايات العربية - في اليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها، وأن منهم من نزل الأردن من أرض الشام^(٢)، وعلى أي حال فلقد امتدت دولتهم حتى شملت الجولان وحوران والبلقاء، وأحياناً فينيقيا، فضلاً عن أعراب سورية وفلسطين^(٣).

وعلى أي حال، فليس هناك من دليل على أن الغساسنة، قد ملكوا المدن الكبيرة في الشام كتدمر وبصرى ودمشق، إذ أن هذه كانت محصنة، تتمركز فيها الحامية البيزنطية، ولكنهم كانوا يعتمدون على الصحراء، إذا داهمهم الخطر، فكانت تغنيهم عن المدن المحصنة، ومن ثم فقد كانت معظم حروبهم تدور على أطراف البادية، وإليها التجأوا عندما خلعوا سلطان الإمبراطور وثاروا عليه في عهد «النعمان بن المنذر»، ولهذا فقد كان الروم يقيمون عمالاً صغاراً بجانب ملوك غسان، حفاظاً على التوازن السياسي، وإبقاء لسلطان الدولة في الأوقات العصيبة، طبقاً لسياسة «فرق تسد»^(٤).

(١) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٤٩، ياقوت ٩١/٢، ١٥٥، البكري ٣٥/٢، ٣٩٠، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩، بلاشيسر: المرجع السابق ص ٥٩، دائرة المعارف الإسلامية، مادة جابية ومادة جلق، عبد اللطيف الطيباوي: المرجع السابق ص ١٢، محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص ١١٦.

وكدًا R.Dussaud, Topographie Historique de La Syrie Antique et Mé-dievale, p. 317 - 18, 332 - 3.

وكدًا Leone Caetani, Anndai Dell'Islam; II, p. 928.

(٢) المسمودي: مروج الذهب ٨٥/٢.

(٣) عبد اللطيف الطيباوي: المرجع السابق ص ١٢.

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢.

(٣) الحيرة

كان العرب منذ قديم الزمان يهاجرون إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الشرقية، حتى إذا ما وصلوا إلى وادي الفرات أقاموا في ربوعه، وفي أوائل القرن الثالث الميلادي، وإبان الاضطرابات التي أعقبت سقوط الأسرة البارثية وقيام الأسرة الساسانية في حوالي عام ٢٢٦ م، تحت زعامة «أردشير بن بابك بن ساسان» وفدت طلائع عربية جديدة من قبائل تنوخ اليمنية، وسكنت في المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات، وما أن يمضي حين من الدهر حتى تحولت الخيام إلى مدينة عرفت «بالحيرة»، تحولت بمرور الأيام إلى إمارة الحيرة - وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة، واقتربه منه على مبعده خمسين كيلو مترا - التي أصبحت بمثابة حصن للممالك الفارسية حيال العرب الرحل^(١).

على أن هناك من يرجع بتاريخ المدينة إلى أيام الملك البابلي «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) - طبقا لرواية سبق لنا مناقشتها في هذه الدراسة^(٢) - بينما يرى آخرون أن مؤسس الحيرة إنما هو «الأردوان» ملك الأنباط^(٣)، بينما يذهب فريق ثالث إلى أنها من بناء «تبع أب كرب»^(٤)، وأخيرا هناك من يرى أنها مدينة بارثية^(٥).

وليس هناك من شك في أن «الحيرة» مدينة قديمة، وأن كنا لانعرف تاريخها على وجه التحقيق، ولعل أقدم ما وصلنا عنها إنما هي كتابة ترجع إلى عام ١٣٢ م، ذكرت فيها المدينة تحت اسم «حيرتا»، فإذا كانت «حيرتا» هذه، إنما هي «الحيرة» حقا، فإن أقدم ما نعرفه عنها إنما يرجع إلى عام ١٣٢ م^(٦)، ولعل مما تجدر ملاحظته

(١) آرثر كريستنس: المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٥٥٨/١ - ٥٦٠، ياقوت ٣٢٩/٢.

(٣) ياقوت ٣٢٩/٢.

(٤) ياقوت ٣٢٩/٢ - ٣٣٠، البكري ٤٧٨/٣ - ٤٧٩.

(٥) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣١٨.

وكذا A.Musil, The Middle Euphrates, p. 102.

(٦) جراد على ١٥٧/٣، وكذا CIS, II, p. 156, III, p. 3073.

هنا أن الحفريات لم تقدم لنا شيئا يمكن الاعتماد عليه فيما يتصل بموقع المدينة وتاريخها، وأن كل ما وصلنا لا يعدو نقوشا من الجبرس مما تكسى به الجدران، فضلا عن مجموعة من الجرار وآثار صغيرة، بعضها يرجع إلى ما قبل الإسلام، ويرجع بعضها الآخر إلى العصر الإسلامي^(٧).

وقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم «الحيرة» ومصدر اشتقاقه، فهناك رواية تذهب إلى أن «تبان أسعد أب كرب» كان قد خرج من اليمن يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة ليلا تخير، فأقام مكانه، ومن ثم فقد سمي ذلك الموضع «الحيرة»^(٨)، وتذهب رواية أخرى إلى أن «تبعنا الأكبر» قد ترك ضعاف جنوده في ذلك الموقع، وقال لهم «حيروا به» أي أقيموا به^(٩). هذا ويذهب العلماء المحدثون إلى أن كلمة «الحيرة» إنما هي كلمة «أرامية» وأنها «حرتا» (حرتوا) السريانية الأصل، بمعنى «الخيم أو المعسكر»، وأنها تقابل «المعسكر» عند المسلمين، و«حاصير» عند العبرانيين^(١٠).

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية، والحير العربي، إنما هما من أصل سامي واحد، ذلك أن الخيم والمعسكر والحمى، إنما هي ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد^(١١)، ويميل أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم إلى هذا الرأي، معتمدا في ذلك على وصف «اليقوي» على خطط «سر من رأى» والحير الذي أقيم بها،

(٧) جواد على ١٦٠/٣. وكذا D.Talbot Rice, The Oxford Excavation at Hira, in ARS. Islamica I, Part I, p. 51.

(٨) ابن الأثير ٢٧٦/١ - ٢٧٧، تاريخ الطبري ٥٦٦/١ - ٥٦٧، ملوك حمير وأقبال اليمن ص ١٣٢، ياقوت ٣٢٩/٢ البكري ٤٧٩/٢، جواد على ١٦٢/٣.

(٩) البكري ٤٧٨/٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣٢٩/٢.

(١٠) ريجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٨٥.

وكذا A.Musil, Palmyrena, p. 289.

وكذا F.Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, p. 130.

G.Rothstien, Die Dynastie der Lakhmiden, in Hira, Berlin, 1899, p. 12.

وكذا EI, II, p. 314.

وكذا ZDMG, 32, p. 753.

(١١) يوسف رزق الله غنيمه: الحيرة المدينة والمملكة العربية ص ١١

وجمل حظيرة للوحش من الظباء والحمير الوحشى والأيايل والأرانب والأنعام (١٢).

وتقع الحيرة قريبا من مدينة بابل القديمة، وعلى مبعدة ٥ كيلا إلى الجنوب من الكوفة (١٣)، وفى نهاية طريق يحتاز شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافى هذا، مركزا هاما جدا للقوافل لم يسع الساسانيون إهماله، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلاسل عرية حتى يضعوها تحت حمايتهم (١٤).

هذا وقد اشتهرت المدينة باسم «حيرة النعمان» عند المؤرخين العرب، و«الحيرة مدينة العرب» عند المؤرخين السريان، و«حيرته» فى المجتمع الكسى الذى عقد فى عام ٤١٠ م، كما سميت كذلك باسم «حيرة النعمان التى فى بلاد الفرس» (١٥) فى تاريخ يوحنا الأفسوسى - من القرن السادس الميلادى - وأما «التلمود» فقد أطلق عليها إسم «حيرة دى طيبة» أى «معسكر العرب وحيرة العرب» (١٦)، وقد أطنبت المؤلفات العربية مى وصف هوائها النقى، وصفاء جوها، وعذوبة مائها، حتى قيل «يوم ليلة بالحيرة خير من دواء سنة»، وقيل «إنها منزل يرى مرىء صحيح من الأدواء والأسقام» وأن هواءها وتربتها أصبح من الكوفة، ولعل كل هذه الأوصاف ربما كانت السبب فى أن تقول العرب «لبينة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربه»، بل أن حمزة الأصفهاني، ليزعم أنه لم يمت بالحيرة بسبب هوائها النقى أحد من الملوك إلا قابوس بن المنذر (١٧).

(١٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٢٠، كتاب البلدان ص ٢٦٣.

(١٣) P.K. Hitti, op.cit, p. 81.

(١٤) ريجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٥٨.

(١٥) جواد على ١٥٦/٣.

كدا: ZDMG, 43, p. 388.

وكدا: A.Musil, op.cit, p. 20.

وكدا: Johan of Ephesus, 10, 13, 352.

وكدا: J.obermeyer, Die Landschaft Babylonien, p. 234.

وكدا: F.Altheim and R.Stiehl, op.cit, p. 275, II, p. 225.

(١٦) جواد على ١٥٦/٣ - ١٥٧.

(١٧) حمزة الأصفهاني: المرجع السابق ص ٧٥، البكرى ٤٧٩/٢، الميداني ١٣٧/٢ - ١٣٩، حواد

على ١٥٨/٣.

هذا وقد كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يتحدثون بها فى حياتهم العادية، وأما فى الكتابة فقد كانوا يستعملون السريانية، ولعلمهم فى هذا يشبهون الأنباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية، هذا وهناك من يذهب إلى أن دخول النصرانية إلى اليمن إنما كان بجهود رجال الكنيسة السورية فى الحيرة، فضلاً عن انتقال الكتابة من الحيرة إلى الحجاز، وعلى أى حال، فقد أصبحت الحيرة فى القرن السادس الميلادى، وعلى أثر اتساع نفوذ سلالة اللخميّين نقطة التقاء للتيارات الإيرانية والآرامية على حدود المحيط العربى الفاصلة، حتى لقد ظهرت المدينة بمظهر العاصمة الفكرية^(١٩).

(١٨) أنظر: الزهر ٣٤٩/٢، صبح الأعشى ١٠/٣، مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩، الجيهنباوى، كتاب الوزراء والكتاب ص ٢ ومابعدها، كتاب المصاحف للسجستاني ٤/١ - ٥، الأعلام النفسية لابن رسته ص ١٩٢، ٢١٧ (طبعة ليدن ١٨٩٢م) قارن: المعارف ص ٢٤٧ ومابعدها، ثم انظر:

F.Altheim and R.Stiehl, op,cit, I, p. 198.

P.K.Hitti, op.cit, p. 84.

(١٩) رجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٦٢.

(٤) الحضر

الحضر: إمارة عربية، تقع في وادي «الثرثار»^(١)، على مبعدة ١١٥ جنوب غربى الموصل، وقد اشتهرت هذه الامارة العربية فى معظم كتب التاريخ، بأنها فرثية، وذلك لأن معظم قوتها، وصيتها الواسع، إنما عرف إبان حقبة التسلط الفرثى على العراق، أى على أيام «الفرس الفرثيين» (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)^(٢).

هذا وقد اختلف الباحثون فى أصل تسميتها، فذهب فريق إلى أنها من أصل آرامى، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أنها من أصل عبرانى آرامى، وهناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أنها من أصل عربى، وأنها بمعنى «الحيرة» أى «المعسكر».

وأياً ما كان الأمر، فلقد عرفت «الحضر» فى الكتابات اليونانية باسم «أترا» (Atrai, Atra) وفى اللاتينية باسم «هترا» (Hatra)، بينما عرفت فى كتابات الحضر نفسها باسم «حطرا»^(٣).

هذا وقد عثرت مديرية الآثار العراقية على نص (رقم ٧٩) جاء فيه وإسم المدينة - ولأول مرة - باسم «حطرا»، على نحو ما ينطق به فى الآرامية، كما وردت كذلك فى جملة «وبالخطوط العائدة إلى العرب»، وهى جملة ذات دلالة تشير إلى العرب، فضلاً عن ورودهم فى هذه المنطقة، كما ذكرت فى النص أيضاً «عربايا» (عربوار)، هذا وتسمية الاقليم باسم «عربايا» شأن كبير لأنه نسبة إلى العرب، وفى هذا الاقليم تقع مدينة الحضر^(٤).

هذا وكانت الحضر من مدن الصحراء الشهيرة، ومن ثم فقد كانت، شأنها فى

(١) الثرثار: واد بين سنجار وتكريت، كان فى القديم منازل لبكر بن وائل ويسمى بمدينة «الحضر» ثم يصب فى دجلة أسفل تكريت (تاريخ الطبرى ٥٠/٢).

(٢) مؤيد سعيد: العراق فى التاريخ ص. ٢٥٨.

(٣) جواد على: المفضل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٠٩/٢.

وكندا، F.Althein and R. Rthl, Die Araber in der Slten Welt, I, Berlin, 1964, p. 274 - 275, II, 1968, p. 225.

(٤) حواد على ٦١٠/٢ - ٦١١، وكذا: مجلة سومر: العدد ١٧ لعام ١٩٦١ م ص ١٢، ١٥، ١٧، العدد ٢١ لعام ١٩٦٥ ص ٢٢.

ذلك شأن البتراء وتدمر، كما كانت قصتها - نموا واضطرابا، وتدهورا ودمارا - لا تختلف كثيرا عن قصص مدن الصحراء الأخريات، فلقد جهد سكانها كثيرا في مقاومة السلطتين الرومية والفارسية، أمدا طويلا، ولكن الروم والفرس نجحوا آخر الأمر في تدمير هذه المدن جميعا، الواحدة تلو الأخرى، وكان من نصيب الحضر أن يدمرها الفرّس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧ م) في عام ٢٤١ م، بعد أن حاصرها «سابور» عاما كاملا، من نيسان ٢٤٠ م إلى نيسان ٢٤١ م.^(٥)

هذا ويذهب «هرتسفلد» إلى أن القبائل العربية إنما هي التي أسست مدينة الحضر، إبان القرن الأول قبل الميلاد، حصنا منيعا، أقام سادتها فيه، مستغلين فرصة الخلاف الذي كان قائما بين الروم والفرّس، بذكاء وحكمة، وقد حصلوا على أموال الفريقين المتنافسين، وذلك رغبة من كلا الفريقين في أن يستغل موقع الحضر - الإقتصادى والسياسى والعسكرى - لمصلحته الخاصة.

وهكذا بدأت الحضر تنمو، وسرعان ما ازدادت المدينة توسعا وبهاء وعمرا، حتى صارت مدينة كبيرة ذات شأن، سكنتها كذلك جاليات أجنبية، تولت الوساطة فى البيع والشراء، ونقل تجارة آسيا إلى تجار أوروبا، وتجارة أوروبا وحاصلاتها إلى تجار آسيا^(٦).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد عثر فى الحضر عام ١٩٤١ م على كتابات آرامية، تؤكد وجهة النظر القائلة بأن من أسسوا المدينة إنما هم قبائل عربية، وذلك بسبب ورود أسماء عربية - بجانب أسماء إيرانية وأرامية، بل أن نسبة الأسماء العربية هنا - فى الحضر - إنما تزيد كثيرا على نسبة الأسماء العربية فى الكتابات

(٥) مؤيد سعيد: العراق خلال عصور الاحتلال - كتاب العراق فى التاريخ من ٢٥٨ (بغداد ١٩٨٣)، أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ ط السادسة - دمشق ٢١٩.

(6) E.Herzfeld, Hatra, in ZDM, 98, 1914, p. 663.

وكذا Die Araber, p. 275 - 276

وكذا U.Kalirstedt, Aratabanss, III, 67.

وكذا Th. Noldeke, Geschichte der Perser und Araber, 1878, p. 33

F.Altheim, Die Krise der Althen Welt, I, 1943, p. 132, 206

التدمرية، وقد كتبت بلغة آرامية، وكل ذلك إنما يدل على وجود جالية عربية في الحضر (٧).

هذا وقد لقب رئيس معبد الحضر الكبير باسم «سادن العرب»، كما لقب ملوك الحضر أنفسهم بلقب «ملوك العرب» (٨).

بقيت الإشارة إلى أن اطلال مدينة الحضر، إنما تتكون الآن من سور خارجي، وسور داخلي دائري، به حوالى مائتى برج، وأربع بوابات، ويقع فى وسط المدينة حى المعابد، يحيط به سور كبير من الحجر المستطيل الشكل، ويضم فى داخله قرابة أحد عشر معبدا، لعل من أهمها معبد مبنى من الحجارة المتهدمة للاله «أشور بل»، وهو أحد المعابد التى شيدها كبير الكهنة «نصرومريا» الذى انحدرت منه الأسرة العربية، الحاكمة فى «الحضر» - على مبعده ١١٥ كيلا جنوب غربى الموصل -.

هذا ويرجع تاريخ هذه الأبنية - التى ماتزال اطلالها باقية، بما فى ذلك الأسوار والأبراج والقصور والمعابد - إلى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، وإلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد.

وأما تاريخ تأسيس مدينة الحضر نفسها، فأغلب الظن - فيما يرجح الباحثون - أنها كانت قرية - وربما مدينة صغيرة - لسكنى عرب البادية فى الفترة فيما بين أخريات أيام الآشوريين (٩)، وحتى أخريات العصر الفرتى (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م) (١٠).

(٧) حواد على ٦١٠/٢ وكذا F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 276.

(٨) محمد ييوى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٤٩٨، فيليب حتى المرجع السابق ص ٨١.

(٩) أنظر نهاية الامبراطورية الآشورية، وسقوط آخر معاقلها فى عام ٦٠٩ ق.م، على يد «سوخذ نصر»

البابلى (محمد ييوى مهران: العراق القديم ص ٤١٩ - ٤٣٢ - الإسكندرية ١٩٩٠)

وكذا M.Nothe, The History of Israel, London, 1965, p. 273 - 274

وكذا C.J. Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٠) أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ - دمشق ص ٢٩٧ - ٢٩٨، مجلة سومر، العدد ٢٦

لعام ١٩٨٠ ص ٢١٠ ومابعدها

(٥) الرها

الرها: هي إديسا عند الروم - أورفا الحالية، إسم لمدينة وإمارة عربية، تقع على مبعدة ٣٢ كيلا شمالي حران (حاران)، في جنوب شرق تركيا، قريبا من الحدود السورية، وماتزال معارفنا عنها من ناحية صلتها بالعرب ضئيلة، وقد ازدهرت قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقد ظهرت حيثشذ عدة مدن في تلك المنطقة، مثل «تبني» و«نصيبين» و«سنجار» (سنجارا - Singara)^(١).

هذا وقد أدخل «يليني» الأكبر (٢٤/٢٣ - ٧٩م) الرها - فضلا عن «كاليرهو» Callirhoe في جملة المدن العربية، هذا وقد عرفت الرها في السريانية باسم «أورهة» (Orrhae - Orhai)^(٢).

وهي في تاريخ بلييني الأكبر (Orroei)، من جملة الأرضين الداخلة في العربية، ثم هي من المدن التي جدها «سلوقس الأول» (ت ٢٨٠ ق.م)، وقد عرفت كذلك باسم «أنطوخية» نسبة إلى «أنطيوخس الرابع» (١٧٥ - ١٦٣ ق.م)^(٣).

هذا وقد قامت في القرن قبل الميلاد في هذه المقاطعة (مقاطعة Orroei - Os - rhoene) إمارة أو مملكة صغيرة، اعتبر الكتاب اليونان والرومان ملوكها من العرب، كما عدوا سكانها من العرب أيضا

ويذهب «بروكوبيوس» - المؤرخ البيزنطي، المتوفى حوالي عام ٥٦٢م - إلى أن هذه المقاطعة، إنما دعيّت (Osroes) نسبة إلى ملك يُدعى Oseroes، كان يحكم هذه الأرض في الأيام الغابرة، وكان حليفا للفرس^(٤).

(١) جواد على ٦١٩ / ٢، مجلة سومر: المجلد الثامن، ٢٨ / ١ لعام ١٩٥٢م.

(٢) المشرق - السنة ١٥ - ٢٠١ / ٣ وما بعدها (عام ١٩٥٢)، وكذا.

Ency., III, p. 993.

(٣) جواد على ٦١٩ / ٢، وكذا:

Pliny, V, XX, 85, VI, 25, 129, VI, IX, 25, II, p. 285, 355, 437.

وكذا: Ency., III, p. 993, Hill, p. XGIV.

(4) M. Rostovzeff, The Social and Economic History of The Hellenistic World, Oxford, 1941, II, p. 842.

وقد عثر في «حولية الرها» (Edessenc Chronicle) - والمؤرخة بحوالى عام ٥٤٠م - وكذا في حولية أخرى ترجع إلى عام ٧٧٥م، وعلى نفوذ ضربت في الرها - عثر على أسماء ملوك الرها مرتبة زمنياً، وتشير دراسة أسمائهم إلى أن من بينها أسماء «عربية نبطية» مثل «معنو» (معن) و«بكرو» (بكر)، و«عبدرو» (عبد)، و«سهرور» أو «سحرو»، أى «سهر» أو «سحر» وغيرهم^(٥).

هذا ويذهب العلماء إلى أن سكان الرها وحكامها، إنما كانوا عرباً، إعتقاداً على عدة أمور، منها (أولاً) أن أسماء ملوك الرها - ولاسيما الملوك الأولين منهم - أسماء عربية، ومنها (ثانياً) نص «بلينى» على أن كورة Osroboene إنما هى كورة عربية، ومنها (ثالثاً) أن الوضع السياسى العام فى «ميزوبوتاميا» (Mesopotamia) فى القرن الثانى قبل الميلاد، وفيما بعده، إنما يشير إلى أن القبائل العربية قد توغلت فى هذه المنطقة^(٦).

ولعل من الجدير بالإشارة أن الاخباريين إنما ينسبون بناء الرها إلى رجل دعوة: «الرهاء بن البلندى بن مالك بن دعر» أو إلى «الرهاء بن سبند بن مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم»^(٧).

ويرى «ياقوت الحموى» - عن يحيى بن جرير النصرانى - أن اسم الرها فى الرومية «أذاسا» وقد بنيت المدينة فى السنة السادسة من موت الإسكندر، بناها الملك «سلوقس»^(٨)، وأن المسلمين قد انتزعوها من أيدي الروم فى عام ٦٣٩م^(٩).

وأما معبودات الرها، فهما: عزيزوس (Azizus = Azizos) و «مونيموس» (Monimos)، وهما معبودان عربيان، الأول اسمه «عزيز» والآخر «منعم»، وقد وردا فى الكتابات اليونانية التى عثر عليها فى «الكورة العربية» (Provinica Arabia) -

(5) Procopius, I, XVII, 24.

(٦) رينيه ديمو: العرب فى سورية قبل الإسلام، ص ١١.

(٧) جواد على ١٢ / ٦٢٠، وكذا:

F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, p. 312.

(٨) ياقوت ١٤ / ٣٤٠، البكر ١ / ٤٢٥، الاصلطخرى: كتاب المسالك والممالك، ص ٧٦ (ط ليدن

١٩٢٧)، ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص ١٥٤ (بيروت ١٩٦٣).

(٩) معجم البلدان ١٤ / ٣٤٠.

وإن إضافتهما بعض الكتاب إلى السريان الوثنيين، وعلى أية حال، فهناك كذلك المعبودات «بعل» و«نبو»^(١٠).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أهمية الرها في الأدب السرياني، ذلك أن اللغة السريانية نفسها، إنما هي لهجة آرامية، نشأت في إقليم الرها، وقد بدأت لغة الرها الأرامية هذه تسمى «السريانية» بعد انتشار المسيحية - تمييزاً لها عن الأراميات الوثنية أو اليهودية - لاسيما أن لفظ «أرامي» كان قد اتخذ في أذهان العامة من القوم في هذا الإقليم مدلولاً يشبه لفظ «جاهلي» عند المسلمين - أي أنه ما يزال لا يؤمن، وإنما يعبد الأصنام -^(١١).

هذا ومن المعروف أن مملكة أو إمارة الرها (١٣٢ ق.م - ٢١٦ م)، إنما قامت في عام ١٣٢ قبل الميلاد، على يد الملك «أريو» (١٧٣٢ - ١٢٧ ق.م) - بمعنى الأسد - ثم جاء من بعده في الفترة (١٢٧ - ٦٩ ق.م) ستة ملوك هم (عبدو بن مزعور - إيرادشت - يكرو الثاني - أبجر الأول - معنو، ثم أبجر الأول - مرة ثانية) وحكم في الفترة (٦٨ ق.م - ٢١٦ م) ١٧ ملكاً.

(10) Ency., III, p. 996.

(١١) جواد على ٢ / ٦٢١، وكذا:

Hill, op. cit., p. XGV

Mordtmann, Mythologische Miscellen, in ZDMG, 32, 1978, p. 664.

٦- إمارة حمص

يشبه تاريخ «حمص» (Emesa = Homesa = Hemesa) - من بعض الوجوه - تاريخ مدينة تدمر، فقد حكمتها أسرة عربية، كما ازدهر تاريخها في الحقبة التي ازدهرت فيها حكومات المدن الأخرى، التي ظهرت على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين.

وتقع حمص في السهل الخصب الذي يرويه نهر العاصي (الأورنت = Or- notes)، وعلى مبعده ميل منه، هذا وقد عرفت حمص عند اليونان والرومان باسم "Emesa"، وفي أيام «بومبي» (١٠٦ - ٤٨ ق. م) كانت مدينة «الريستن» (Arethusa) - وتقع على نهر الميماس (العاصي حالياً) في مجاورات حمص - كانت مقر أسرة عربية حاكمة^(١)، وفي هذه المدينة ولد القيصر «الأجابالوس» (Elagabalus) (٢١٨ - ٢٢٢ م).

هذا وقد بلغت حمص أوج ازدهارها على أيام «سبتيميوس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١ م) وفي أيام «الأجابالوس» (٢١٨ - ٢٢٢ م) و«سيفيروس الإسكندر» (٢٢٢ - ٢٣٥ م)^(٢)، كما كانت أسقفية على أيام البيزنطيين^(٣).

هذا ويذهب العلماء إلى أن ملوك حمص إنما ينتمون إلى أصول عربية، وذلك اعتماداً على أن الأسماء إنما تحمل طابعاً عربياً خالصاً، وهي أسماء إنما ترد في نصوص صنفوية، وفي نصوص عربية أخرى، مما يدل على عروبة ملوك حمص^(٤).

(١) جواد على ٦٢٢ / ٢، ياقوت: معجم البلدان ٤ / ٢٤٩، وكنا:

Ency., II, p. 309.

(٢) اعتمدنا في التاريخ للأباطرة على (ادوارد جيبون. اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو ريدة، القاهرة ١٩٦٩، الجزء الأول، ص ٦٦٧ - ٦٧٤).

(٣) جواد على ٦٢٢ / ٢.

(٤) رينيه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١، وكنا

R. Dussaud, Les Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1907, p. 10.

وكنا:

F. Althcim and R. Stiehl, op. cit., III, 1968, p. 126.

٨- مديسن

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم «مدين»، وهي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط، وكانت أرض مدين تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء، ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المدنسين إنما تقع إلى الشرق من العبرانيين، والظاهر أنهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، وسرعان ما اتخذوا لهم هناك مواطن جديدة، عاشوا فيها أمدا طويلا، حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة.

هذا وقد ذكر بطليموس الجغرافي موضعا يقال له «مودينا» (modiana) على ساحل البحر الأحمر يرى العلماء أنه موضع «مدين»، وهو يتفق وحدود أرض مدين في الكتب العربية، ويذهب المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» (٣٧- ٩٨ أو ١٠٠م) أن موسى عليه السلام، قد فر إلى المدينة (modiana) المواجهة للبحر الأحمر، وهذا كله إنما يشير إلى أن مدينة «مدين» إنما كانت معروفة بصفة عامة في أوائل التاريخ المسيحي.

هذا ويذكر «يوسبيوس» (٢٦٤ - ٣٤٩م) مدينة «مديم» (madiam) ويقول إنها سميت باسم أحد أولاد إبراهيم عليه السلام، من زوجته قطورة، وهي تقع وراء المقاطعة العربية (Arabia) في الجنوب، في بادية العرب الرحل (Sardcems) إلى الشرق من البحر الأحمر، وهكذا فإن «يوسبيوس» - وكذا «سلن جيروم» (٣٤٥ - ٤٢٠م) - إنما يضعان مدينة «مدين» فيما وراء حدود المقاطعة العربية التي كانت حدودها الثابتة من ناحية الجنوب تطابق تماما الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة، عند السفح الجنوبي لجبل الشراة.

ويذهب «ألويس موسل» إلى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقي من موقع مدينة العقبة الحالية، المعروفة قديما باسم «إيلات»، فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجاري، وكانت تحرس هذه الطرق حاميات من أهل الجنوب من بلاد العرب، وكان المركز الرئيسي لهذه الحاميات في العلا (ديدان) وفي معان (معون)^(١).

(١) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٩٧/١ - ٣٠١ (بيروت ١٩٨٨)، ألويس موسل: شمال الحجاز ترجمة عبد المحسن الحسيني - الاسكندرية ١٩٥٢ ص ٦٩ - ٨٤، Josephus, Archaeologia, II, 257 وكذلك Ptolemy, Geography, II, 7, 27، Encyclopadia of Islam III, p.104 .
A. musul, the Noithern of Hegas, n.y, 1926, P.287.

الباب الثاني

العراق القديم

الفصل الأول

المدن والمراكز الأثرية فيما قبل العصر التاريخي

تقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العراق القديم (ميزوبوتاميا^(١)) إنما قد مرّ - شأنه في ذلك شأن غيره من بلاد الشرق الأدنى القديم - بالعصور الحجرية المختلفة، فهناك العصر: الحجري القديم، وأشهر مواقعه: بردة بالكه: على مبعده $2\frac{1}{4}$ كيلا شمال شرق جمجمال، فضلاً عن «كهف هزارمرد» على مقربة من السليمانية، و «كهف شايندر» جنوب غرب بحيرة أرومية.

وهناك العصر الحجري الوسيط، وأهم مواقعه: «كهف شايندر» (طB)، وقرية «زاوى سمن» على مبعده ٤ كيلا من كهف شايندر، وهناك «كريم شاهر» على مقربة من «كر كوك» (أرابخا القديمة) و «ملفعات» فيما بين الموصل وأربيل، ثم موقع «جرد شاي».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قرية «زاوى سمن» رغم أنها تمثل استقراراً، بل إنها إنما تعد من أقدم مناطق الإستقرار في العراق القديم، وتؤرخ بحوالى الألف التاسعة قبل الميلاد، ويشير إنتاجها الحضارى إلى الاتجاه نحو الزراعة والإستقرار، وهى أهم سمات العصر الحجري الأوسط، ومن ثم فهى تمثل هذا

(١) ميزوبوتاميا: (mesopotamia) لفظ إغريقى ترجمه المؤرخون العرب بمعنى «بلاد ما بين النهرين» أو «بين النهرين»، ورغم دقة الترجمة، فإنها قاصرة غير شاملة، ذلك لأن حصارة العراق القديم لم تكن مقصورة على ما بين النهرين، وإنما امتدت إلى ما حول السهول أيضاً، بل إن طائفة من أقدم المواقع الأثرية كالعبيد، وأريدو، وأور، ومارى، قامت غرب الفرات، وليس فيما بينه وبين دجلة، كما قامت إشتونا وتل أسمر ونوزى شرق الدجلة، وقد فطن الأغارقة أنفسهم إلى قصور لفظ «ميزوبوتاميا» فأضاف إليه بعض «بارابوتاميا» (Parapotamia)، أى ما وراء السهول وما حولهما، وهنا يحسن القول «بلاد النهرين»، هذا إلى أن تعبير «بلاد الرافدين» أو «حضارة الرافدين» لا يؤدى المعنى كاملاً ذلك لأن روافد النهر إنما تختلف عن تعبير النهر ذاته، كما هو معروف (عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - مصر والعراق - القاهرة، ص ٣٧١).

العصر. وأما بقية مواقع هذا العصر فقد تميز بالمناجل الحادة المصنوعة من الظران، مما يرجح استخدامها في زراعة برية، هذا ويؤرخ موقع «ملفعات» بنهاية الألف السادسة قبل الميلاد، وقد كشف فيها عن بقايا حيطان حجرية غير منتظمة الشكل لمساكن بيضاوية^(١).

وأما العصر الحجري الحديث وأهم مواقع:

أولاً: في شمال العراق:

(١) تل الصوان: ويقع على الضفة الشرقية للدجلة، قريباً من سامراء، وعلى مسبعة ١١٠ كيلاً شمالي بغداد، وقد كشفت الحفريات في أسفل مباني الطبقة (أ) عن جبانة ضخمة تضم أكثر من ١٣٠ قبراً، حفرت أسفل أرضيات الحجرات فوق الأرض البكر مباشرة، وزودت جميعها تقريباً بالكثير من الآنية المرمية المتعددة الأشكال والأحجام من الجرار والأكواب والأطباق، فضلاً عن مجموعة كبيرة من التماثيل الصغيرة الجيدة الصنع، والتي في معظمها لآلهة الأمومة التي تمثل هنا غالباً واقفة.

هذا وقد تميز موقع تل الصوان بالعثور على بعض القطع النحاسية الصغيرة، وإن لم تكن إنتاجاً محلياً، كما تشير مباني تل الصوان إلى تقدم ملحوظ في تشييد المباني، فقد شيدت من قطع الآجر الكبيرة المستطيلة الشكل وطلبت الجدران من الداخل باللبن، ودفن القوم موتاهم أسفل أرضيات المنازل، كما عملوا على

(1) J. mellaart, Earliest Civilizations of the East, London, 1974
P. 19 - 21.

J. mellaart, in CAH, I, Part, I, Cambridge, 1970, P. 254 - 256.

R. S. Solecki, in Sumer, 8, 1952, P. 127 - 130, 137, 9, 1953,
P. 230 - 231, 13, 1957, P. 59 - 60, 14, 1958, P. 106 - 107.

وانظر: محمد بيومي مهران: مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء العاشر، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٥ - ٨.

مخصصين الموقع، وذلك بحفرة ذات أضلاع ثلاثية، شيد بداخلها حائط ضخيم مزود بركائز، وهي مثال فريد للتحصين في بلاد النهرين في هذا التاريخ المبكر^(١).

(٢) تل حسونة: يقع تال حسونة على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبى الموصل، ٨ كيلا شرقى قرية الشورة، وهو موقع صغير (٢٠٠ × ١٥٠ متراً) ويرتفع عن السهل المجاور بنحو سبعة أمتار، ويعد أقدم المواقع الحضارية فى صميم السهل الميزوبوتامى، ويعبر عن انتقال مركز الثقل الحضارى من المنطقة الشرقية، وقد كشف فى تل حسونة عن ١٧٠ طبقة أثرية، أقدمها تلك التى تعلو الأرض البكر مباشرة، وتمثل حضارة حسونة، وأما أحدثها فهو الطبقة (XV) من عصر حضارة العبيد، وعلى أية حال فتل حسونة إنما يمثل قرية مستقرة فى العصر الحجري الحديث، وإن لم يعثر فيها على أى معدن، ولكنهم توصلوا إلى الزراعة، وخاصة القمح، كما استأنسوا بعض الحيوانات كالأغنام والماعز والخنازير، وبنو مساكنهم من الطمى، وتمثل الطبقة الرابعة معالم واضحة للأقسام التى يتكون منها المنزل، والذى يتكون غالباً من بعض الحجرات التى كانت تتجمع حول أو إلى جانب فناء مكشوف يقع فيه غالباً فرن وحرار لتخزين الطعام وصوامع الغلال.

وقد دفن القوم موتاهم أسفل أرضيات المنازل، وقد عثر بين موقدين من المرحلة الأولى فى الطبقة (Ia) على هيكل عظمى لإنسان، وبجواره جرة كبيرة، ربما احتوت طعامه أو شرابه، كما وجد قرب رأسه فأسان من الطران، الأمر الذى قد يشير إلى اعتقاد المقوم فى حياة أخرى^(٢).

(١) محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦ - ١٩، وانظر Sumer, 21, 1965, P. 18 - 21, 24, 1968, p. 58, 26, 1970, Pigs, 39 - 42, 27, 1971, P. 5, 28, 29, 1973, P. 6 - 9.

(٢) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ١٤ - ٢٠، طه باقر: مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ٦٠ / ١ (بغداد ١٩٥٥).

S. Lloyd and F. Safar, Tell-Hassuna, JNES, 4, 1945, P. 272 - 286.

(٣) تل حلف: ويقع في مرتفع يطل على نهر الخابور، قرب قرية رأس العين، على مقربة من الحدود السورية التركية، وعلى مبعده ١٤٠ كيلاً شمال غربي نينوى، ويتميز بتوصله إلى استخدام النحاس، حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد، وتشغل حضارة حلف الفترة من أخريات الألف السادسة، وحتى أخريات الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد انتشرت هذه الحضارة فى الشمال خاصة، وفى مساحات واسعة تمتد من الزاب الأعلى وسفوح جبال زاغروس شرقاً، إلى ما وراء الفرات غرباً، وإلى الحدود التركية وسفوح جبال طوروس شمال، وامتدت جنوباً، وجنوب شرق إلى سامراء، وإلى تل الصوان وإقليم مندلى. وتتميز حضارة حلف باستخدام النحاس، ومظاهر حضارية جديدة فى العمارة والفخار والنحت على الحجر، وكانوا يدفنون موتاهم فى أرضية المساكن، حيث يرقد الميت على جنبه الأيمن، وفى وضع مقرفص، بينما تتجه رأسه نحو الغرب، كما احتوت مقابرهم على بعض أمتعة المتوفى الشخصية، كالأنية الحجرية والأواني الفخارية والأكواب وحبات العقود المرمرية وغيرها^(١).

(٤) جرمو: تقع جرمو على مبعده ٣٥ كيلاً شرقى كركوك، على حافة وادٍ عميق فى سهل جمجمال فى لواء كركوك (فوق وادى طلق جاي، أحد روافد دجلة)، أى خارج السهل الميزوبوتامى شرقاً، وتبلغ مساحة قرية جرمو، ما بين ثلاثة وأربعة أفدنة، وقد كشف فيها عن ١٦ طبقة أثرية متتالية؛ يؤرخ أقدمها بحوالى عام ٦٧٥٠ ق.م، وإن ذهب «كول» إلى أنها ترجع إلى ما بين ٧٠٠٠، ٦٠٠٠ ق.م، وتضم ما بين ٢٠، ٢٥ منزلاً، ويقدر سكانها بحوالى ١٥٠٠ فرداً، وإن قدرها «طه باقر» بحوالى ٥٠٠ بيتاً، تضم حوالى ٣٠٠ فرداً.

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٢٠ - ٢٣، وكذا:

J. Mellaart, op.cit.; P. 276 - 278.

وكذا:

Sumer, 22, 1966, P. 56, 25, 1969, P. 134, 27, 1971, P. 20 - 31, 29, 1973, P. 10 - 14

وكذا:

A. parrot, Sumer, London, 1960, P. 43F.

وقد ذهب البعض إلى أن «جرمو» إنما تمثل أقدم قرية زراعية في العراق القديم، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن «تل حسونة» تمثل أول موقع زراعي، وأن «جرمو» لا تعدو أن تكون مجرد قرية متخلفة، ترجع إلى أخريات العصور الحجرية أو ما بعدها، وعلى أية حال، فلقد كشفت الحفريات عن معرفتها للزراعة والاستقرار، واستئناس الماعز والكلاب، وربما الأغنام والخنازير، وقد بنى القوم مساكنهم من كتل طينية أقيمت في بعض الأحايين على أسس من حجر، وكان المنزل يتكون من عدد من الحجرات الصغيرة، عثر فيها على موافد، احتوى كثير منها على بعض الأواني، وعلى أنواع من الرحي البسيطة قوامها حجران بسيطان، وأطباق فخارية استعملت لفرك الحبوب، وأحياناً للعجن، فضلاً عن المحارث البسيطة، والمناجل المكونة من أسنان الصوان، والأدوات الصوانية، كما عرف القوم الغزل والحياكة، كما تشير إلى ذلك أقراص المغازل الفخارية.

وقد شاع في جرمو استخدام الأسلحة القزمية، التي صنع بعضها من حجر الأوبسيديون (الزجاج البركاني)، كما تزين القوم بالأساور والأقراص المشقوقة والخواتم، كما نسب إليهم صناعة تماثيل طينية بدائية لحيوانات ورجال ونساء جالسات ذوات أرداف غلاظ، فضلاً عن تماثيل صغيرة لآلهة الأمومة، كما كشفت الحفريات على ما يشبه عضو الذكر، مما دفع إلى الظن بقيام لون من عبادة الجنس والرمز للخصوبة، فضلاً عن وجود لون من ألوان التفكير الديني نشأ بقيام عبادة الشمس التي قدست على هيئة معبودة^(١).

(٥) سامراء: تقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر الدجلة، وعلى مبعده ١٠٠ كيلاً شمالي بغداد، وقد عثر بها على الفخار المزين بالأشكال الحيوانية

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ١١ - ١٤، رشيد الناصوري: جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ١ / ١٣١ - ١٣٢، وكذا:

P. Mortensen, in Sumer, 18, 1962, P. 74 - 76.

J. Mellaart, op. cit., P. 257 - 259.

وكذا:

S. Cole, The Neolithic Revolution, London, 1961, P. 48

وكذا:

والخطوط المتموجة، وقد أطلق عليه «فخار سامراء»، والذي كان يظن أنه يمثل
عصراً حضارياً مستقلاً، غير أنه الآن إنما يعتبر ضمن عصر حضارة حسونة.

بقيت الإشارة إلى أنه قد بنى الخليفة العباسي «المعتصم» (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) عاصمته «سامراء» في نفس الموقع في عام ٢٢١ هـ، ثم انتقل
إليها من بغداد، بجيشه وكبار رجال دولته، ثم ظل الخلفاء العباسيون يقيمون
في سامراء، حتى نهاية عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ثم عادوا بعد ذلك إلى
بغداد، وحتى نهاية الدولة العباسية في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م^(١).

ثانياً: في جنوب العراق:

(١) أريدو: تقع «أريدو» (أبو شهرين الحالية) في أقصى جنوب السهل
الميزوبوتامي، وعلى مبعدة ٢٥ كيلاً جنوب غرب مدينة أور، وعلى مبعدة ٢٤٠
كيلاً شمال الخليج العربي، وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن أريدو إنما هي أول المدن
الخمس قبل الطوفان، وأول مقر للملكية، كما أن هناك من يرجح أنها كانت
ميناء على إحدى البحيرات الواسعة، وكان لها اتصال بالخليج العربي عن طريق
عدد من البحيرات، ومن ثم فقد احترق أهلها الصيد، وقدموه كقربان للمعبد،
كما أن كثيراً من مساكنها إنما كانت أكواخاً من بوص، كما كان بعضها من
آجر، وأما المباني الدينية فكانت بقايا - كما في أول الطبقات - أربعة حيطان من
آجر، شيدت فوق كتيب من رمل، لعله أول تعبير عن المنصة المرتفعة التي يعلوها
المعبد (الزاقورة)، والتي سوف تصبح مظهر العبادة في العراق القديم منذ أيام العبيد
وما بعدها.

وأما فخارها فيتنمى إلى عصور أربع حضارات (أريدو - الحاج محمد -

(١) صالح أحمد العلي: العراق في التاريخ ص ٣٨٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ١٢ / ٣٨٠ -
٣٨٢ (القاهرة ١٩٦٤)، محمد يومي مهران: المرجع السابق، ص ١٨، وكذا:

S. Liloyd and F. Safar, op. cit., P. 262 - 266 278 - 286.

العبيد - الوركاء)، وأن أشكاله السائدة إنما هي الأكواب والسلاطين، وأحياناً الأطباق الكبيرة، وقد تعددت ألوانها وزينت بتصميمات هندسية تكثر فيها الخطوط المستقيمة والمتعرجة والمثلثات والنقاط، بينما يندر وجود الأشكال الطبيعية الحية^(١).

(٢) الوركاء: (أرورك)، وتقع في منطقة صحراوية شرقي الفرات، في منتصف المسافة بين بغداد والبصرة تقريباً، وعلى مقربة من المدينة العربية «السماء» (٦٠ كيلاً) ومبعدة ١٢٨ كيلاً شمال غربي أور، واسمها في الأكادية «أرورك»، وفي التوراة التي نسبت بناءها إلى «نمرود» دعيت «أرك»، وقد نسبت إليها حضارة انتشرت في عدة مواقع أثرية في جنوب العراق مثل أريدو ولجش وتل العقير (٨٠ كيلاً جنوبي بغداد، كما انتشرت في مراحلها المبكرة في شمال العراق في ثبة جاورا، ونيوى، وتل جرای رش بمنطقة سنجار، وهي على أية حال، الحضارة التالية لحضارة العبيد في العراق القديم، وتعتبر ملحمة جلجاميش الوركاء الموطن الأصلي لجلجاميش، وهو أحد ملوك أسرة الوركاء الأولى.

هذا ويعدّ الفخار أهم إنتاج الوركاء المبكر، وهو من أنواع مختلفة شكلاً ولوناً، كما تميزت هذه المرحلة المبكرة بإنتاج عدد أوفر من الأدوات النحاسية في جنوب العراق، على أن القسم الشمالي من حضارة الوركاء إنما قد تفوق بدرجة كبيرة في إنتاج المصنوعات المعدنية التي لم تقتصر على النحاس، وإنما تضمنت أيضاً الذهب والأحجار الكريمة وشبه الكريمة وغيرها، والتي استخدمت في أدوات الزينة، كما يرجع إلى تلك المرحلة أقدم ما عثر عليه من طبقات طينية لأختام الطبع في الجنوب، وإن لم تعبر عن أى مدلول كتابي.

وفي المرحلة الثانية من حضارة الوركاء بدأ التوصل إلى بداية التعبير الكتابي،

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩، وكذا:

S. N. Kramer, The Delyge, in ANET, 1966, p. 43.

وكذا: M. Mallowan, CAH, I, Part, I, Cambridge, 1971, P. 331 - 341.

A. Jowad, in Sumer, 30, 1974, p. وكذا: A. Parrot, op. cit., p. 52.

31 - 33.

الذى انفرد بتقديمه جنوب العراق، مما أدى بالتالى إلى بداية العصر التاريخى، كما شهدت هذه المرحلة تطورات هامة فى مجال العمارة الدينية، التى تميزت بالمعابد الضخمة، التى أقيمت فوق مساطب صناعية من عدة طبقات هى أصل «الزاقورات» .

هذا وقد بدأ المجتمع الزراعى منذ أواخر عصر الوركاء (أو منذ بواكير العصر الكتابى الجديد) يصيغ بصبغة مدنية، فنشأت البلدان أو المدن الصغيرة، التى تطورت عن القرى الكبيرة، وامتازت عما يحيط بها من أرضين زراعية، وقرى عادية، باتساع عمراتها اتساعاً نسبياً، وبأهمية معبدها، وقصور حكامها، وكفاية صناعها وفنانيتها، وباتساع مجالات الإنتاج وفرص التشجيع فيها، وإن ظل ذلك كله فى حدود نسبية^(١).

(٣) جمدة نصر: وتقع على مقربة من «كيش»، بين بابل وبغداد، حيث عثر على نماذج لحضارة جمدة نصر فى الوركاء والعقير وتل أسمر وأور وشورباك وتل العبيد وتوبلياس، وتتميز بتطور فن البناء والنحت والكتابة، فضلاً عن أن الشطر الثانى منها إنما هو أقرب إلى العصر التاريخى منه إلى عهد ما قبل الأسرات، كما أن العمارة الدينية إنما تتمثل فى «المعبد الأبيض» الذى أقيم للمعبود «آن» (آنو) إله السجاء، فوق تل صناعى يرتفع نحو ١٢ متراً عن مستوى السهل الممتد حوله. هذا ويتميز فخار جمدة نصر بأنه مصنوع على عجلة الفخار، وهو جيد الإحراق والصقل، ومن أحجام مختلفة، كما قدم عصر جمدة نصر كثيراً من نماذج النحت على الحجر، مثل «الإناء النذرى» و«صلاية الأسود»، وهى من حجر الجرانيت الأسود، كما تميزت حضارة جمدة نصر بازدياد مجالات الصلات

(١) محمد يومى مهران: المرجع السابق، ص ٣٨ - ٤٣، وكذا:

S. Lloyd, in Sumer, 4, 1948, P. 44 - 49.

وكذا:

A. M. Mallowan, وكذا: B. Abu - AL-Soof, in Sumer, 29, 1973.

op. cit., p. 355 - 361.

الخارجية، والتي امتدت حتى مصر وبلاد السند، والتي بدأت مع مصر منذ عصر التأسيس وأثنائه، وقد أشار كثير من الباحثين إلى هذه الصلات، اعتماداً على مجموعة الأوراني الفخارية ذات الصنابير المائلة، وكذا ذات الأذان المثلثة في المستجدة والبدارى - بمحافظة أسيوط - هذا فضلاً عن الأختام الإسطوانية الأربعة التي عثر عليها في «جزرة» بمحافظة الجيزة، وفي نجع الدير بمحافظة سوهاج، والتي تنتمي إلى حضارة الوركاء وجمدة نصر في العراق القديم^(١).

(٤) سيار: وهي أبوجبة الحالية، على مقربة من الفرات، وعلى مبعده ٣٢ كيلاً جنوب غربى بغداد، وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن «سيار» كانت واحدة من المدن الخمس فيما قبل الطوفان، هذا وكانت «سيار» فى أكد، مع «الرساء» فى سومر، المركزين الأساسيين لعبادة إله الشمس (وهو «أنتو» فى السومرية، وشمش فى الأكديّة) وزوجه «إيا» منذ أقدم العصور، وهناك من يرجع - بسبب صورة إله الشمس التى تعلو المسلة التى نقشّت عليها شريعة حمورابى - أن هذه النسخة إنما هى نسخة مدينة سيار (سبر)، وهو المكان المفضل عند حمورابى، والتي ربما كان يقيم بها^(٢).

(٥) الحاج محمد: وتقع على ضفاف الفرات، على مبعده ١٨ كيلاً جنوب غرب الوركاء، وتتميز حضارة الحاج محمد بأدواتها الفخارية العميقة ذات الجوانب المقوسة، وقد زينت بخطوط مائلة ومتعرجة ومربعة وتمثل تطوراً لفخار حضارة أريدو، وقد لون بنفس ألوانه، وإن تأثر بفخار حلف أكثر من فخار أريدو، كما يبدو واضحاً فى أوانى «رأس العمياء»^(٣).

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٩، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص

٣٧٩ - ٣٨٢، وكذا: H. Frankfort, in CAH, Part, 2, p. 81 - 88, 101.

وكذا: I. E. S. Edwards, CAH, I, Part, 2, p. 42 - 42. وكذا:

H. Kantor, in JNES, Xi, p. 239 F.

(٢) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ١٠٠ - ١٠١، ٢٣٩، وكذا:

S. N. Kramer, The Sumerians, 1970, p. 328 - 331.

(3) M. Mallowan, op. cit., p. 341 - 342, 366 - 367.

(٦) العبيد: وتقع على مبعدة بضعة كيلو مترات إلى الغرب من الناصرة، ٦
كيلا من أور، وتتميز حضارة العبيد بانتشارها في جنوب العراق وشماله، وهي أول
حضارة تنتشر في الشمال والجنوب - رغم كونها جنوبية الأصل - وقد ظهر
إنتاجها في كثير من المجالات، مثل صناعة الأواني الفخارية الملونة والمزينة.
هذا وقد كشف في شمال الجزيرة شرق العربية عن أكثر من ثلاثين موقعاً
ينتمي إلى حضارة العبيد، مما جعل البعض يفترض وجود علاقة بين سكان شرق
شبه الجزيرة العربية وسكان جنوب العراق، وأن مجموعات بشرية قد هاجرت من
شرق بلاد العرب إلى السهل الفيضي القريب منهم، هذا إلى أن الفترة التي بدأت
تتكون فيها المدن في العراق، قد توافقت زمنياً مع اختفاء حضارة العبيد في
الجزيرة العربية، مما يحمل على الظن بأن هجرة كبيرة نزحت إلى العراق في نهاية
الألف الرابعة قبل الميلاد، وهذا يتفق مع ما افترضه العلماء من أن تدفق السكان
على سهول العراق إنما كان حاسماً في قيام المراكز المدنية هناك^(١).

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣٨، وكذا:

A. H. Masry, Prehistory in Northeastern Arabia, Miami, 1974, p.

1 - 20.

وكذا: A. Parrot, op. cit., p. 54 - وكذا: M. Mallowan, op. cit., p. 335, 337, 352, 398.

الفصل الثانى

المدن والمراكز الأثرية منذ العصر السومرى وحتى قيام الدولة البابلية الأولى أولاً: العصر السومرى

تقديم :

لعل من الجدير بالإشارة إلى أن المدينة السومرية إنما كانت تتكون من مدينة (وهى «أور - Ur» فى السومرية، و«ألر - Alu» فى الأكديّة) ومجاورتها من الأرضين التى قام سكان المدينة بزراعتها، وأحياناً كانت حكومة المدينة تضم أكثر من مدينة، فضلاً عن عدد من القرى التى كانت تتبع المدينة الرئيسية، مثل حكومة مدينة لجش، التى كانت تضم أرض «جرسو» و«لجش» و«نينا».

هذا وكانت المدينة السومرية تتكون من قسمين، الأول: وهو المدينة الخاصة التى أطلق عليها فى الأكديّة (لبى ألى Libli Ali) أو «قابلتى ألى» (Qabalti Ali)، وهى مصطلحات تدل على القسم القديم للمدينة فحسب، وتمثل فى هذا الجزء الأقسام المسورة التى تحتوى على المعابد والقصر ومكاتب الموظفين وبيوت المواطنين، وأما القسم الثانى فهو «الضاحية» وتقرأ فى السومرية «أور - بار - را» (Ur - Bar - Ra) بمعنى «خارج المدينة» أى «الضاحية» التى تتجمع فيها البيوت والمزارع وحظائر الماشية.

هذا وتقع المدينة الرئيسية فى وسط حكومة المدينة، ويتوسطها معبد إله المدينة الرئيسى، والذى كان يمثل نواة الحياة السياسية والاجتماعية، كما كان صاحب الأرضين فى المدينة، ويجواره معابد المعبودات الأخرى، ذات الصلة بمعبود المدينة، وكانت لها أملاكها الخاصة، الأمر الذى يشير إلى أن معظم أراضي حكومات المدن إنما كانت فى مطلع العصر التاريخى ملكاً للإله، أسوة بما كان عليه الحال

فى عصور ما قبل التاريخ، وخاصة فى مرحلة ما قبل الكتلابة^(١)، وأما أهم مدن العصر السومرى فهى:

(١) لجش: وهى الخبة الحالية، على مبعده ٢٠ كيلا شمال شرق «تللو»، وقامت فيها أول أسرة حاكمة فى الفترة (٢٥٢٠ - ٢٣٧١ ق.م)، ولم ترد هذه الأسرة فى قائمة الملوك السومرية، غير أن الحفريات الحديثة قد كشفت عما خلفه ملوكها من تسجيلات كتابية عن تاريخها فى عصر الأسرات السومرية المبكرة، هذا وقد بدأت «لجش» تاريخها مع فجر الحضارة السومرية، وظلت طوال تاريخها مدينة سومرية، حتى انتهت فى فترة لا تبعد كثيراً عن قيام الأسرة البابلية الأولى (حوالى عام ١٨٩٤ قبل الميلاد)، وقد ظلت منذ ذلك التاريخ مهجورة يخيم عليها النسيان، حتى شغلها «البارثيون» فى القرن الثانى الميلادى.

وكان «أورنانشه» (Urnanshe) أول ملك ارتقى عرش لجش، وإن أشارت النقوش إلى إثنين سبقاه إلى العرش، غير أنهما لم يتجاوزا مرتبة الحكام المحليين، وعلى أية حال، فلقد كان «أكورجال» وولده «إياناتوم» من أعظم ملوك لجش، بعد «أورنانشه».

وأما أسرة لجش الثانية (٢٢٣٠ - ٢١١٣ ق.م) فقد غاصرت أخريات أيام الجوتيين، وقد حقق حكامها الوطنيون كياناً مستقلاً لمدينتهم، غير أن استعمالهم لقب «إيشاج»، بدلاً من لقب «ملك»، مما يوحى بلون من ألوان التبعية، وبأن لجش لم تمارس استقلالاً فعلياً، حتى عهد «جوديا» - وربما مارست لونا من ألوان الإستقلال الذاتى النسبى، وعلى أية حال، فإن أسرة لجش الثانية هذه لم ترد فى قائمة الملوك السومرية، أسوة بأسرة لجش الأولى، وإن كان «جوديا» - أشهر ملوكها - إنما تزين تماثيله بعض المتاحف العالمية، كالمتحف العراقى والمتحف

(١) محمد بيومى مهران - المرجع السابق، ص ٩٤ - ١٠٣، وكذا:

H. Frankfort, Before Philosophy, 1954, p. 201 - 204.

T. Jacobson, JNES, II, 1943, p. 165 - 169, 172, Sumer. 25, وكذا:

1969, p. 104 - 106.

البريطاني ومتحف اللوفر، فضلاً عن إقامته لمعبد لجش الرئيسي، وتزويده باحتياجاته^(١).

(٢) أورما: وهي «تل جوخة» الحالية، وتقع على مبعده ٣٠ كيلا شمال غرب لجش، وطبقاً للوحة العقيان، فلقد قام «ايانانوم» ملك لجش بحملة على مدينة «أورما» على أيام ملكها «أوش» فأوقع بها هزيمة منكرة، وذلك بسبب الخلاف على الحدود بينهما، غير أن «أورما» في عهد ملكها «لرجال زاحيزي» نجحت في القيام بهجوم خاطف على لجش، فاضرمت النار فيها، ونهبت ثرواتها، واستولت على معابدها وحطمت أصنامها، ثم سرعان ما أسس «لرجال زاحيزي» دولة كبيرة، وإن كان عمرها قصيراً، لم يتجاوز ربع القرن، طبقاً لقائمة الملوك السومرية، وإن كان هناك من جعلها ٢٩ عاماً (٢٤٠٠ - ٢٣٧١ ق.م)، ومن جعلها ٢٤ عاماً (٢٣٤٠ - ٢٣١٦ ق.م)، وأياً كان الصحيح من هذه الأرقام، فإن «لرجال زاحيزي» قد نقل عاصمته من «أورما» إلى «الوركاء» واعتبر نفسه ملكاً على سومر (لرجال كالاما)^(٢).

(٣) نيبور: تقع نيبور - وهي نقر الحالية - على مبعده ١٦٠ كيلا جنوبي بغداد، وفي منتصف المسافة تقريباً بين «كيش» و «شورباك»، وتعتبر نيبور من أهم المراكز الثقافية السومرية في العراق القديم، ورغم أنها لم تكن أبداً مقراً لأية سلطة سياسية، فقد كانت أكبر مدينة مقدسة عند القوم، وربما أكبر مركز ديني في بابل، كما أن إنليل، معبود المدينة إنما كان رئيس مجمع الآلهة البابلي، هذا وقد أمدتنا الحفريات التي أجراها عدد من المعاهد الأمريكية منذ عام ١٨٨٩م، بالآف

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٣ - ١٠٦، ١٦٣ - ١٦٧، وكذا:

J. Bottero, The, C. J. Gadd, CAH, I, Part, 2, p. 457 - 460 وكذا:

S. N. Kramer, op. cit., P. 303 - Near East, 1967, p. 120 - 124 وكذا:

Roux. Ancient Iraq, (Penguin Boots), 1980, p. 125 وكذا 310

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٦ - ١٠٨، ١١٢ - ١١٤، وكذا:

S. N. Kramer, op. cit., p. 310 وكذا: G. Roux, op. cit., p. 137 - 139

- 313, 323 - 324

اللوحات المكتوبة والجذاذات التي صنفت في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، والتي تدل بوضوح على مدى انتشار الثقافة السومرية، كما تغطي مراحل تاريخ المدينة حتى العصر الفرقي .

هذا وقد كشفت حفريات جامعة بنسلفانيا الأمريكية في نيبور عن واحدة أخرى من روايات قصة الطوفان دوت على كسرة من الفخار غير المحترق، ذهب «هلبيرخت» أنها لم تدون إلا بعد عام ٢١٠٠ قبل الميلاد^(١).

(٤) كيش: وتمثلها الآن مجموعة من التلال، على مبعده ١٦ كيلا شرقي بابل، وعلى مقربة من «أكد» عاصمة سرجون الأول، وأشهرها تل الأحيمر، وتل أنجارها، وتقدم لنا «كيش» صورة عن التنظيم السياسي المبكر لحكومة المدينة السومرية، والذي يشهد مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني، فهو يشهد بتواجد «التفكير الديمقراطي» في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتي كانت تضم جميع الرجال الأحرار في المدينة، وربما اشترك النساء فيها أيضاً، وكان من حقها إصدار القرارات الهامة - خاصة قرارات الحرب - وأن تمنح السلطة العليا في البلاد (الملكية) لواحد من أعضائها.

هذا وتشير قصة الصراع بين لجش وأوما، على أيام أسرة لجش الأولى (٢٥٢٠ - ٢٣٧١ ق.م) على موارد المياه ومنطقة الحدود، على أن «كيش» إنما

(١) ليو أوتنهام: بلاد ما بين النهرين ص ٥٠٠ - ٥٠١، محمد يومي مهران: المرجع السابق، ص ٥٩، ٨٠، وكذا: T. Jacobsen, AS, II, p. 58 - 59 وكذا:

A. Poebel, in PBS, V, 1914

وكذا: KFTS, p. 277 وكذا: S. N. Kramer, The Deluge, ANET, 1966, p. 42 - 44

وكذا:

J. P. Peters, Nippur, in Excavations on the Euphrates, 2 Vols, 1897.

كانت تمارس سلطانا واضحا على «سومر» في عهد مليكها «مسليم» الذي دانت له لجش وغيرها من المدن في جنوب العراق^(١).

ثانياً: في العهد الأكدي

(٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م.)

(١) أكد: هي المدينة التي أسسها «سرجون الأكدي» (٢٢٧٠ - ٢٣١٥ ق.م.) لتكون عاصمة لدولته، وإن لم ينتقل إليها، إلا بعد أن فرض نفوذه على البلاد، في أعقاب انتصاره على «لوجال زاحيزي» ملك الوركاء (على مبعده ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غربي مدينة أور)، ثم القضاء على مقاومة المدن السومرية المناوئة.

وكانت تسمى في الأكديّة «أكده» أو «أكادو» (Akkadu)، وفي السومرية «أجاد» أو «أجادة» (Agade)، وهو الاسم القديم للمدينة، وقد جاء اسم «أكده» في سفر التكوين (١٠ / ١٠). وتقع «أكده» على مقربة من «كيش» في جنوب العراق، في مكان غير محدد بعينه على وجه اليقين حتى الآن، وإن رأى «أندريه بارو» أنها ربما كانت قرية «الدير»، وتقع على مقربة من ناحية اليوسفية، وعلى مبعده ١٨ كيلا غربي بغداد، فيما يرى آخرون، وقد ظلت «أكده» عاصمة للدولة التي عرفت باسم (الدولة الأكديّة ٢٢٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م.) حتى قضى عليها الجوتيون، ثم حكموا البلاد في أعقابها.

هذا وتعرف منطقة (Mat Akkadi)، والممتدة حول مدينة «أكده» باسم عاصمتها، ومنطقة أكد هي الجزء الشمالي من أرض بابل، وسومر هي الجزء الجنوبي، وفي العصر الكلداني (العصر البابلي الأخير) أطلق إسم «أكده» على بلاد أكد وسومر معاً.

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٩، ١٠٥، وكنا: Jacobsen, JNES,

C. J. Gadd, op. cit., p. 118 وكنا: II, 1943, p. 165 - 166, 172

وكنا: T. Jacobsen, Sumer, 25, 1969, p. 103 - 104.

وعلى أية حال، فإن تجمع العناصر السامية إنما كان في جنوب العراق، وذلك مجاورة هذه المنطقة لمنطقة الفرات الأوسط التي وفدت إليها الهجرات السامية منذ مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، ومن ثم فقد أطلق على هذه المنطقة - وتضم بابل وكيش وأكد - «أرض أكد»، بينما أطلق على القسم الجنوبي - ويعتمد من نيبور شمالاً، وحتى أريدو جنوباً - «أرض سومر».

واللغة الأكديّة إسم جامع أطلقه البابليون على لغتهم البابليّة، وعلى لغة إخوانهم الآشوريين كذلك، كما أن العلماء المحدثين إنما يطلقون إسم «اللغة الأكديّة» على اللهجات البابليّة والآشوريّة المختلفة، فإذا أرادوا التمييز قالوا: البابليّة القديمة والآشوريّة الوسطى، واللغة الأكديّة القديمة هي لغة دولة أكد الأولى (٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م) خاصة (١).

ثالثاً: في عهد أسرة أور الثالثة

(٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م)

(١) أور: كشف عنها «تايلور» (J. E. Taylor) - القنصل البريطاني في البصرة - عام ١٨٥٤م، والذي كان يعمل لحساب المتحف البريطاني في لندن، وذلك في مكان «تل المقير» - وتقع على مبعده ١٩٠ كيلاً إلى الشمال من مدينة «البصرة» الحالية، ١٦ كيلاً شرقي نهر الفرات حالياً في منتصف المسافة تقريباً بين بغداد والخليج العربي، وتدل الحفريات على أن «أور» إنما كانت في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، مدينة عظيمة يسكنها كثير من الأغنياء الذين ابتنوا لأنفسهم منازل من الآجر المحروق.

هذا وقد أوضحت الحفائر البريطانية أيضاً في «أور» فيما بين عام ١٩٢٢،

(١) محمد يوسفي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٨٧، ٩٢١، ١٢٤، سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٥١، فاضل عبد الواحد: السومريون والأكديون، ص ٧٤، وكذا:

E. Weidner, in AFO, 16, 1952, P. 1 - 24.

S. N. Kramer, in ANET, 1969, p. 43.

وكذا:

وانظر: أندريه بارو: المرجع السابق، ص ٣٣١.

١٩٣٤م، فضلاً عن الوثائق السامرية التي اكتشفت في مواقع أخرى، على أن أور، إنما كانت تعيش في أوفر درجات الرخاء في الفترة ٢٠٠٦ - ١٩٥٠ ق.م)، عندما دمرها العيلاميون.

وهناك ما يشير إلى أن «أور - نامو»، مؤسس أسرة أور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م) إنما كان شديد الاهتمام بعاصمته «أور» ذات الهيئة البيضاوية، فأعيد تسوير هذه المدينة التي كانت تطل على الفرات بميناء ذى أرصفة واسعة، وقد حماها الماء من ثلاث جهات، وبلغت مساحتها نيفاً ونصف ميل طولاً، وربع ميل عرضاً، والتي امتدت حولها ضواحيها، وشغلت معها مساحة قدرها نحو أربعة أميال طولاً، وميل ونصف الميل عرضاً، وقد أطل سور المدينة من داخله على مساحة متسعة (مساحتها ٤٠٠ × ٢٠٠ ياردة) قامت فيها معابد الآلهة الكبرى «نانا» (ننار) وزوجه «نينجال» وحاشيتهما، هذا ونظراً لأهمية سور المدينة فقد سمي «أور - نامو» العام الذى أقام فيه السور باسم «العام الذى بنى فيه سور أور». هذا وقد أهتم بأور الملك «شولجى» (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق.م) وقد وصفها بأنها «المدينة التى على شاطئ البحر»، ويمثل «إيسى - سين» (٢٠٢٩ - ٢٠٠٦ ق.م) آخر الأسرات السومرية فى التاريخ، وإن ظلت «أور» محتفظة بأهميتها إلى القرن السابع قبل الميلاد، ولكن تراكم الرمل فى مصب الفرات قضى نهائياً على المدينة، وإن ظلت مسكونة حتى العصر الفارسى.

هذا وكانت «أور» مركز عبادة إله القمر «سين» وزوجة «نينجال» (ننجل) وولدهما «نسكو»، وزوجة «سدرننا»، ثم انتقلت عبادة هذا المعبودات إلى «حران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعده ٩٦ كيلاً من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفا - ثم انتشرت عبادة إله القمر من أور إلى كل أرجاء بابل، ومن حران إلى سورية وفينيقيا.

بقيت الإشارة إلى أى مدينة «أور» التى ذكرت التوراة أن إبراهيم عليه السلام

قد قدم منها، هناك من يرى أن «أور» هذه ليست في بابل، ولا تقع على الخليج العربي، وإنما هي من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات (١).

رابعاً: إيسين ولارسا

(١) إيسين: وتعد كبرى عراصم الآموريين، وهي الآن «إيشان بحريات»، جنوب عفك الحالية، على مبعدة ٣٠ كيلاً جنوب «نيبور» (نفر)، وقد اصطنع ملوك أسرة إيسين (٢٠١٧ - ١٧٩٤ ق.م) لقب «ملوك سومر وأكد»، كما اصطنعوا الصفات الإلهية، وقاموا بأعمال عمرانية في أنحاء البلاد، كما رموا كثيراً مما خرب على أثر سقوط أسرة أور الثالثة في عام ٢٠٠٦ ق.م، هذا فضلاً عن تأثيرهم كثيراً بالثقافة السومرية - رغم أنهم من أصل أموري سامي - ومن ثم فقد استخدموا اللغة السومرية في تدوين مكاتباتهم الرسمية، وعلى أية حال، فلقد حكم في هذه الأسرة ١٥ ملكاً، كان أولهم «إيشي أرا» (٢٠١٧ - ١٩٨٥ ق.م)، وآخرهم «دمق إيليشو» (١٨١٦ - ١٧٩٤ ق.م)، وإن كان من أشهرهم «لبت عشتار» (١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م) صاحب التشريعات المشهورة، وترجع إلى عام (١٩٢٤ ق.م)، ولم يبق منها سوى ٣٨ مادة، باللغة السومرية، حفظت لنا في

(١) محمد ييوى مهران: إسرائيل ١ / ٦١ - ٧٢، تاريخ العراق القديم، ص ١٦٩ - ١٩٠، موسكاتي: المرجع السابق، ص ٢٥٥، تكوين ١١ / ٢٨، ٣١، ٧ / ١٥، وكذا:

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 42 - 44.

وكذا: W. F. Albright, The Biblical Period, from Abraham to Ezra, 1963, p. 4.

وكذا: E. Dhorme, Langues ecrites semitiques, Paris, 1930, p. 54 - 60, 83 - 86.

وكذا:

L. Woolley, Excavations at un, 1963, p. 11 F, ur of the chaldees, 1929.

وكذا: J. Finegan, Light from the Ancient Past, I, 1969, p. 70 - 74.

سبعة ألواح، عشر على ستة منها في نيبور، ومحفوطة الآن بمتحف الجامعة في لندن، والسابعة في متحف اللوفر، ومصدرها غير معروف^(١).

(٢) لارسا: وهي تل سنكرة الحالية، على مبعدة ٣٠ كيلا شمال غرب الناصرية، ٤٨ كيلا شمال شرق الديوانية، وقد قامت فيها أسرة لارسا (٢٠٢٥ - ١٧٦٣ ق.م)، حكم فيها ١٤ ملكاً، كان أولهم «نابلانوم» (٢٠٢٥ - ٢٠٠٥ ق.م)، وآخرهم «ريم سن» (١٨٢٢ - ١٧٦٣ ق.م)، الذي قضى عليه «حمورابي» ملك بابل في عام ١٧٦٣ ق.م، وبذا انتهت أسرة لارسا إلى الأبد^(٢).

خامساً: مملكة أشنونا

(١) أشنونا: ومكانها الآن «تل أسمر» الحالية، وتقع بين نهر دجلة وجبال زاغروس، وعلى مبعدة ١٦ كيلا شرق نهر ديبالي، وتقع أراضيها الآن ضمن محافظتي بغداد وديالي، وقد كان يتبع مملكة أشنونا هذه عدة مدن، يمثلها الآن: تل حرمل وخفاجي وتل الصنباغي وشجالي، وكان تل حرمل - ويقع على مبعدة ٩ كيلا شرقي بغداد - يمثل ضاحية من ضواحي أشنونا تسمى «شادوبم»، ومركزاً إدارياً للمملكة أشنونا بعد استقلالهما في أخريات أسرة أور الثالثة، وقد عثر فيها على مجموعة من الألواح تتضمن نصوصاً تمثل نواحي المعرفة، فضلاً عن قانون لا تعرف مشرعه، ونسبه «طه باقر» و «جوتزة» إلى ملك دعواه «بلالاما»، ثم عدل الأخير عن رأيه هذا، واكتفى بنسبة التشريع إلى مدينة أشنونا، بقيت منه ٦١ مادة، عالجت أهم جوانب الحياة في عصرها.

(١) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٩٣ - ٢٠٢، وكذا:

S. N. Kramer, ANET, 1966, p. 159 - 161

وكذا: G. Raux, op. cit., p. 171-174 وCAH, I, Part, 2, 1971, p. 1000

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٤، ل. ديلايورت: بلاد ما بين النهرين ص

٤٢ - ٤٤، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٥٤، وكذا:

C. J. Gadd, op. cit., p. 636 - 637

هذا وقد كان لأشنونا - حتى سقوطها في أيدي حمورابي البابلي عام ١٧٦١ ق.م - دور كبير في عصرها، ربما بسبب ثرائها الذي كان نتيجة امتلاكها أرضين خصبة، تغذيها شبكة من القنوات وفروع الأنهار، فضلاً عن موقعها الجغرافي المتوسط، الأمر الذي كان له كبير الأثر في تجارتها^(١).

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢١٠، وضاجراد الهاشمي، حضارة العراق ٢ / ٧٥ - ٧٦، وكذا:

Taha Baqir, Tell - Harmal, Sumer, II, 1946, p. 23 - 30, IV, 1948, p. 137 - 138, 153 - 173.

وكذا:

A. Gactze, in ANET, 1966, p. 161 - 163, Sumer, 4, 1948, p. 63 - 102.

G. Roux, op. cit., p. 173 - 175

وكذا:

A. Pohl, Orientalia, 8, 1949, p. 124 - 128

الفصل الثالث

المدن والمراكز الأثرية منذ قيام الدولة البابلية وحتى قيام الدولة الآشورية

(١) بابل: كبرى عواصم العراق القديم

بابل: مدينة قديمة تقع على نهر الفرات، على مبعدة ٩٠ كيلا جنوبى بغداد، ويقع على أطلالها حالياً: تل بابل والقصر وعمران بن على والمركس، فضلاً عن عدة قرى أخرى مثل: عنابة وكويرش وجمجمة واندسار، هذا ورغم أن التنقيبات فى بابل لم تتقدم بسبب إرتفاع مستوى المياه الجوفية إلى أكثر من طبقة العصر البابلى القديم، غير أنه يجوز أن تفترض أن المدينة كانت قبل وصول الأموريين - أو الساميين الغربيين - إليها، مجرد بلدة عادية، عرفها السومريون باسم «كدنجيرا»، فأحالها الآموريون إلى حاضرة كبيرة، وأحسنوا استغلال موقعها التجارى والزراعى فى أضيق منطقة خصبة، يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات.

ثم أطلق الآموريون عليها إسم «بابل»، وهو أسم ليس هناك مايمكن تأكيده عن معناه، وإن كان الشائع هو ترجمته بمعنى «باب إيلو» أى «باب الإله»، ويذهب أصحاب هذه الترجمة إلى أنها قرية مما تدل عليه التسمية السومرية «كدنجيرا» التى أستمريت تستخدم إلى جانبها، مع مترادفات أخرى مستحدثة^(١).

وأما معنى إسم بابل فى التوراة، فيقدمه لنا سفر التكوين فى قصة - أوقل أسطورة طريفة - تقولك إن الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - قد رأى سلالة الناجين من الطوفان ينون برجا بغية الوصول إليه - سبحانه وتعالى - فى علياء سمائه، وكانوا يحسبون السماء أشبه بلوح زجاجى، يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار، فخشى شراً، واحتاط لنفسه، فهبط الأرض، وبلبل ألسنتهم، ففترقوا

(١) محمد بيومى مهران: بلاد الشام من ٦٦ - ٧٦، عبد العزيز صالح، المرجع السابق ص ٤٥٨،

قاموس الكتاب المقدس ١٥٢/١.

وكذا - M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 115 - 118.

شذر مذر، ومن ثم فقد كفروا عن بينان المدينة، لذلك دعى أسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل ألسنتهم، ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض كلها^(١).

وعلى أية حال، فإن «برج بابل» هذا، ربما كان هو «زاقورة بابل»، وقد شاهده الكتاب الأغارقة، بعد أن خرب، وطبقاً لرواية «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) فقد كان يتكون من ثماني طبقات^(٢) يمكن الوصول إليها عن طريق درج خارجي، وبذهب «ديودور الصقلي» (٨٠ - ٣٠ ق.م) و«سترابو» (٦٣ - ٢١ ق.م) إلى أن برج بابل إنما كان على شكل هرم مربع القاعدة، وهو على أية حال، إنما يشكل جزءاً من معبد «مردوك» - معبود بابل - ويدعى في النصوص المسمارية «اي - تمين - إن - كي» (E-Temen-an-ti) بمعنى «البيت الذي أسسه السماء والأرض»، ويتكون من صحن كبير في داخله، وعلى مقربة من النهر «زاقورة» (Ziqquratu) (برج بابل، والتي يبلغ ارتفاعها ٩٠ متراً ومساحة قاعدتها ٩١×٩١ متراً مربعاً)، وقد هدم برج بابل في عام ٤٧٩ ق.م، على يد الملك الفارسي «أكركسيس الأول» (٤٨٤ - ٤٦٥ ق.م)^(٣).

هذا ورغم أن هناك من يرجح أن بابل قد أنشأها الأكديون، غير أن ذلك أمراً لم يثبت بعد، وعلى أية حال، فلقد ذكرت منذ العصر الأكدي، غير أن دورها السياسي لم يبرز إلا في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن اختارها الأموريون الساميون عاصمة لهم (أسرة بابل الأولى)، وإن كتاب العهد القديم (التوراة) والمؤرخون الإغريق لم يتطرقوا إلى ذكرها، إلا منذ عهد «نبوخذ نصر الثاني»

(١) محمد. يومي مهران: إسرائيل ٢٩٠/٣، تكوين ١/١١-٩

وكذا: M.Gray, Near Eastern Mythology, London, 1969, p. 104 - 105.

(٢) يفترض أن الزاقورة من سبع طبقات، وليس ثمان، تعلوها غرفة الإله، وكان يتم ارتقاء الزاقورة عن طريق ثلاثة سلالم متعامدة، ثتان منها تلاصق الضلع الجنوبية للزاقورة، والثالث عمودي عليها (مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٨٠/٣، موسكاتي: المرجع السابق: ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٣) هنري عسودي: معجم الحضارات السامية - بيروت ١٩٨٨ ص ١٩٤ - ١٩٣، مؤيد سعيد:

المرجع السابق ص ١٧٩، محمد يومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٦.

(٦٠٥-٥٦٢ ق.م)، وكانت وقت ذالك فى أوج عظمتها، وإلى هذا الملك الكلدانى تنسب «حدائق بابل المعلقة» لزوجه المبدية «إمبثيس» - والتي دعتها المصادر الكلاسيكية «أموهين» - فى الزاوية الشمالية الشرقية من القلعة الجنوبية - فيما يرى العلماء الألمان - فضلا عن قصره الكبير، والمكون من ١٧٢ غرفة وزاقورة من اللبن - كما سنشير فيما بعد -.

وتشير النصوص القديمة إلى أنه كان فى بابل ٥٣ معبداً رئيسياً، ٣٦٠ محراباً ثانوياً، أشهرها دونما أى ريب، إنما كان «معبد مردوك»، كما كان للمدينة ثمانية أبواب رئيسية، أحدها باب «عشتار» إلهة الخصب، ويقع فى الجهة الشمالية، يليه رواق طوله ٣٠ متراً، يقضى إلى صالة الاحتفالات ومعبد مردوك. (مردوخ)^(١).

وليس هناك من ريب فى أن اختيار الآموريين مدينة «بابل» عاصمة لدولتهم، إنما كان اختياراً موفقاً، لأسباب كثيرة، منها أنها تقع وسط العراق بصفة عامة، فضلا عن وقوعها وسط المناطق التى يتركز فيها العمران والسكان، هذا إلى جانب منعنتها الطبيعية، ومنها طريقة الرى الفعالة للأرضين الصالحة للزراعة فى بابل ومجاواتها، ومنها أنها تقع على الفرات، وهو نهر صالح للملاحة، الأمر الذى عاد بفائدة كبيرة على التجارة والملاحة فى آن واحد.

وقد أدى ذلك كله إلى ازدهار المدينة فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، خاصة على أيام أسرة بابل الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م) التى شهدت فيها البلاد نهضة تاريخية شاملة، سبب توحيد البلاد، ومركزية الحكومة، وعنايتها بنشر الأمن والعدل.

وقد أثبتت الحفريات أنه كانت توجد منذ ذلك العهد قواعد لتخطيط مدينة

(١) أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٣٤، مؤيد سعيد : المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٩، محمد

بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٥ - ٢١٦.

وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 115 - 116.

بابل، وقد اتبعت هذه القواعد حتى نهاية عصر الإمبراطورية البابلية الحديثة، ولعل أهم ما يميز هذا التخطيط أن الطرق الكبيرة كانت موازية جميعها للطريق المقدس، وتتقاطع متعامدة مع الطرق الأخرى، ففى حين أن بيوت المدن السومرية القديمة إنما كانت مجمعة دونما أى نظام، كما لم يكن للطرق إتجاه ثابت^(١).

وكان معبد «مردوك» (Marduk) فى بابل - ويدعى «إسجتل» (E.Sag-il) بمعين البيت العالى الرأسى - مركزاً تشعب منه علوم الدين والسحر، وفى الواقع قلقد ارتبط «مردوك» ببابل، حتى أن النبى العبرانى «إرميا» (٦٢٦ - ٥٨٠ ق.م) إنما يقول عند سقوط بابل فى أيدي الفرس فى عام ٥٣٩ ق.م، «قولوا: أخذت بابل، خزى بابل (لقب مردوك بمعنى السيد أو البعل)، إنسحق مردوخ، مما يشير إلى أن مردوك إنما قد شارك بابل مصيرها التعس.

وتصف لنا مقدمة قانون حمورابى كيف أصبح مردوك صاحب المكانة العليا فى امبراطورية بيل، وذلك حين قرر «أنو» و«إنليل» السيادة لمردوك على الناس، ثم جعلاً لمدينة بابل السيادة فى العالم، وأقاماً لمردوك فيها ملكاً دائماً، له أسس راسخة رسوخ السماء والأرض، وقد أسبغا عليه من الصفات ما جعل الآلهة الأخرى، مجرد جوانب من شخصه، فمثلاً أصبح «نرجل» هو مردوك إله الحرب، و«إنليل» هو مردوك إله السيادة والفصل فى الأمور، و«نبو» هو مردوك إله الحظ، و«سين» هو مردوك منير الليل، و«شمش» هو مردوك إله العدل، و«أدد» هو مردوك إله المطر، وهكذا - كما تركزت فى عشتار الإلهات جميعاً - استوعب مردوك فى ذاته الآلهة جميعاً.

وأما زوجة مردوك فهى «زريانتيم» أو «صربانتيم» (Sarpanitum) بمعنى «الفضية»، أو «اللامعة كالفضة»، فقد ارتبطت مكانتها أيضاً بمدينة بابل، كما ظلاً

(١) محمد عبد القادر: الساميون فى المصور القديمة ص ٩٦ - ١٠٧، مؤيد سعيد: العراق فى التاريخ ص ١٠١ - ١٠٢، محمد بيومى مهراڤ: المرجع السابق ص ٢١٧ - ٢١٨.

مبجلين على أيام الآشوريين والكلدانيين والفرس والسلوقيين^(١).

هذا وقد اهتم «حمورابي» (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م) بإعادة تخطيط عاصمته بابل، على نحو لم يسبق له مثيل، حتى أنشأت أمام بهائها وفخامتها كل العواصم الأخرى في غربى آسيا، وأصبحت فى كل منطقة الشرق الأدنى القديم حديث الأمم والشعوب، وموضع إعجابهم، بل تسربت عظمتها إلى الأساطير.

وظلت بابل العاصمة - بعد الأسرة البابلية الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م) - على أيام الكاشيين (أسرة بابل الثالثة ١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م)، وعلى أيام أسرة بابل الرابعة (أسرة إيسين الثانية ١١٥٦ - ١٠٢٥ ق.م).

وقد وقعت بابل فى أيدي الحيثيين على أيام ملكهم «مورسيليس الأول» (١٦٢٠ - ١٥٩٠ ق.م)، ثم حاولوا التوسع جنوباً، ولكن وقفت فى سبيل ذلك دولة البحر الناشئة وكسرت شوكتهم، ثم سرعان ما عاد «مورسيليس» إلى عاصمته «بوغازكوى»، وقد حمل معه تمثالى الإله مردوك وزوجته اللذين تركهما عند مدينة «عانة» على الفرات، وترك بابل فريسة سهلة للكاشيين الذين سرعان ما احتلوها فى عام ١٥٩٥ ق.م.

وفى عام ١١٦٠ قبل الميلاد، إحتل العيلاميون - بقيادة ملكهم شترك نخنته - بابل ولمدة سنوات، ثم طردهم زعيم وطنى من مدينة إيسين، يدعى «مردوك كابت - أهيشو» (١١٥٦ - ١١٣٨ ق.م) وحكم لمدة ثلاث سنوات (١١٥٩ - ١١٥٧ ق.م)، ثم جاءت بعد ذلك عدة أسر بابلية (١٠٢٤ - ٥٣٩ ق.م) لاشك

(١) محمد بيرومى مهران: المرجع السابق ص ٢٣٥ - ٢٢٨، موسكاتى: المرجع السابق: ص ٢٦٠-٢٦٣ لإرميا ١/٥٠ - ٤٦.

وكذا S.Lloyd, Foundation in The Dust, (Penguin Books, 1955, p. 214 - 215)

وكذا A.Heidel, The Balylonian Genesis, Chicago, 1915, p. 60.

وكذا E.Dhorme, op.cit, p. 139 - 156, 168 - 170.

فى أن أشهرها الأسرة الكلدانية (٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م) (١).

وفى عهد أشهر ملوك الأسرة الكلدانية «نبوخذ نصر الثانى» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) نشطت حركة العمران فى بابل، كما لم تنشط من قبل، وبلغ محيط عمرانها ١٨ كيلا، وروى المؤرخون الأغارقة أن أسوارها كانت دائرية، وقد أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية ضخمة.

ولعل من أهم مباني «نبوخذ نصر» فى بابل قصره الجنوبى (قلعة نبوخذ نصر)، وهو قصر كبير تكاد مساحته تبلغ ٥٢ ألف متر مربع، وقد توسط الجدار الشمالى للمدينة، وبنى داخل حصن كبير، على عادة القصور الملكية هناك، ومدخله من الشرق من الساحلة الكبيرة المكشوفة، الواقعة بين القصر وشارع المركب، وفى القصر أكثر من ١٧٢ غرفة، فضلا عن عدة بيوت سكنية للحاشية وخدم القصر، ويطل جناح الملكة غربا على نهر الفرات، ويعزله عن النهر بناء كبير، يبلغ طوله حوالى ٢٥٠ م وسمك جداره ٢٥ مترا، وفى وسطه ساحة مستطيلة تحتوى على بقايا غرف كثيرة، ويعتقد - أنه إن كانت هناك حقا حدائق معلقة فى بابل - فلا بد أن تكون فى هذا البناء، مما يتيح إنشاء حديقة مدرجة على النهر.

وأما قصة حدائق بابل المعلقة هذه، فتذهب المصادر الكلاسيكية إلى أن الملك البابلى «نبوخذ نصر» الثانى (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) قد تزوج من ابنة الملك الميذى «كى أنخسار» (كياكسارس) والتي دعوها «أموهين» (أريتان أو أميتان) ومن عجب أن يذهب المؤرخون اليونان والرومان إلى أن «نبوخذ نصر» قد شيد لزوجه

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٢٢١-٢٨٨-٢٨٩، ٣١٣-٣١٤، ليو أوننهايم: المرجع السابق ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

وكذا O.R.Gurney, The Hittites, و G.Roux, op- cit, p. 225 - 226 وكذا J.J.Finterlstein, in RA, LXIII, 1969, p. ٦٤٠ - ٦٤١.

الميدية «الحدائق المعلقة في بابل» كى تذكرها ببشتها الجبلية بل إن أمر الحدائق المعلقة هذه إنما قد ذكرتها المراجع القديمة والحديثة، رغم عدم وجود أى دليل تأريخي عليها، حتى آن الآثاريين الألمان ظنوا فى بداية هذا القرن العشرين أنهم اكتشفوا تلك الحدائق، عند عثورهم على بشر عميقة فى منطقة من القصر الجنوبي غطيت بغرف ثلاثية، ظنوا أنها حوت جهازاً يسحب الماء إلى هذه الحدائق المعلقة، ثم أظهرت حفريات هيئة الآثار العراقية أن هذه المنطقة بالذات عبارة عن حجرات خزن تحت الأرض ذات عقادات قوية، هذا وقد روت المصادر الكلاسيكية أن الملك «نبوخدنصر» قد زود قصره ببرندات (بالكونات) زرع فيها شتى الأشجار التى جلبها من أقطار شتى، وربما كانت هذه «البالكونات» التى وضعت بها الأشجار هى التى أسماها الكتاب الكلاسيكيون «الحدائق المعلقة»^(١).

وأيا ماكان الأمر، فلقد ظلت بابل مزدهرة على أيام الدولة الكلدانية، وإن تعرضت مكانتها السياسية لهزة عندما تركها «نبونيد» (٥٥٦-٥٣٩ ق.م) واتخذ من «تيماء»، ولمدة عشر سنوات، عاصمة له، حتى غدت وكأنها خليفة لبابل^(٢).

غير أن الخطر الأكبر إنما تعرضت له بابل إنما كان عندما قاد «كيروش» ملك فارس (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) معركة فى «أوبيس» على الدجلة، على مقربة من المدائن، وأحرق أهل «أكد» بالنار، وبهذه الطريقة الهمجية من العرب البغيض، أفقد «كيروش الثانى» خصومة شجاعتهم، وفى ١١ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، نجح كيروش فى الاستيلاء على «سبيبار»، وفى ١٢ أو ١٣ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، دخل «جويرياس» بابل، ومعه قوات كيروش، دون معركة، وفى ٢٩

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٤٣٨ - ٤٣٩، ٤٥٠ - ٤٥١، سعيد الأحمد - العراق فى التاريخ ص ١٦٥ - ١٦٩، مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٧٨/٣، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٥٥٥ - ٥٥٦.

(2) G.Roux, op.cit, p. 35

وكذا C.J.Gadd, op.cit و A.Musil, Nothorn Nejd, N.Y, 1928, p. 225

p. 35
وكذا R.P.Douglerty, Nobonidus and Belshazzar, New Haven, 1932, p. 106.

أكتوبر، بدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الفاسي «كيروش ملك العالم»، وفي نفس اليوم دخل بابل نفسها، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين، ثم اعترفت سورية وفلسطين بالغازي الجديد^(١).

١- كوث: وقد ذكرت في التوراة، حيث يروي سفر الملوك الثاني وعزرا، أن «سرجون الثاني» (٧٢٢٠ - ٧٠٥ ق.م) قد أتى بقوم من بابل وكوث وسفروايم، وتقع كوث: في مكان تل إبراهيم، على مبعدة ٢٤ كيلا شمال شرق بابل، وقد عثر على اسمها على أثر من عهد «نبوخذنصر» الثاني، كما أتى من مدرسة الملك «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م) على ألواح كتب بها تاريخ الخليقة حسب التقاليد البابلية كما ذكرت أيضا مع بابل وبورسيبا - وهي برس نمرود، على مبعدة ١٦ كيلا جنوبي بابل - ومعبودها نرجل^(٢).

٢- سفر وايم: وهما بلدتان على ضفتي الفرات، وعلى مبعدة ٢٥ كيلا جنوب غرب بغداد، هذا ويذهب «رسام» أنها أبو حبة الحالية، بينما يذهب آخرون إلى أنهما «شومورية» شرقي بحيرة حمص، وكانتا مركزا هاما لعبادة «شمش» وعشتار وأنونيت^(٣).

٢- الدولة الكاشية (أسرة بابل الثالثة):

١- دوركوريجالزو: ينسب تأسيس مدينة «دوركوريجالزو» إلى الملك الكاشي «كوزيجالزو الثاني» (١٣٤٥ - ١٣٢٤ ق.م)، وتقع في مكان «عقرقوف» الحالية، على مبعدة ٣٢ كيلا غربي بغداد، ومن المعروف أن الكاشيين إنما بدأوا حكمهم من بابل، ولكنهم في منتصف عهدهم، أسسوا مدينة «دوركوريجالزو» (بمعنى مدينة أو حصن كوريجالزو).

وقد أتام «كوريجالزو» في عاصمته الجديدة قصراً يشبه قصر «زمرى ليم»
(١) محمد يومي مهران: المرجع السابق ص ٤٦٤ - ٤٦٨، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

وكذا A.L.Oppenheim, ANET, p. 315- 316 وكذا G.Roux, op.cit, p. 357
358

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٧٩٥/٢، ملوك ثان ٢٤/١٧، ٣٠.
(٣) قاموس الكتاب المقدس ٤٦٩/١، محمد يومي مهران: إسرائيل ٩٤٩/٢.

حاكم «مارى» (نل الحريرى) ورغم أن مابقى من هذا القصر قد لا يكفي لإعطاء صورة كاملة عنه، ولكنه يشير إلى أنه كان يتكون من عدة أجنحة متلاصقة، لكل منها مساحة كبيرة فى الوسط، وقد تتجاوز مساحة القصر بضعة مئات من الأمتار فى كل ضلع من أضلاعها، ومن أهم ماعثر عليه فى القصر هو الجزء المتبقى فى الزاوية الشمالية حيث الممرات المسقوفة الطويلة التى تحيط بالساحة، والتى يحمل سقفها ركائز مربعة، كما تشير بقايا الغرف إلى وجود قاعات طويلة وعريضة، يبلغ طول المتبقى منها ٤٠ متراً، مما يشير إلى أنها كانت قاعات استقبال، وربما كانت إحدى قاعات العرش، أما فى الزاوية الشرقية من البناء فقد عثر على ثلاث ممرات طويلة متوازية، تخترق أرضها قنوات مياه، وعلى جانبى الممر «كوى» مرتفعة عن الأرض ذات سقف معقوفة، كما كانت الممرات معقوفة السقف أيضاً، وربما كان ذلك لخزن الرقم الطينية فى جو رطب يناسب الغرض.

وأما زاقورة عقرقوف (دور كوريجالزو) فكانت تتكون من خمس طبقات من اللبن، تغطيها من الخارج طبقة من الآجر، ومساحتها (٦٧×٦٩م) وتبدأ سلالمها الجانبية مع نهاية الضلع الجانبى، ثم تدور بزاوية قائمة حول جسم الزاقورة لترتقى إلى السلم الجانبى، وهناك سلم فى الوسط يتلقى بالسلم الجانبى فى مركز الضلع، وقد شيدت أمام سلم الزاقورة الوسطى مصطبة من اللبن مساحتها (٣٥×٣٥م) تحيط بها مساحات عديدة لمعبد لم يكتمل اكتشافه كله بعد، وهذه المساحات متصلة ببعضها وتحيط بكل مساحة مجموعة من الغرف المستطيلة.

هذا وقد استمرت «دور كوريجالزو» عاصمة للكاشيين، حتى سقطت - هى وبابل وأريس - فى يد العاهل العيلامى «شترك نختته» فى عام ١١٦٠ ق.م^(١).

(١) مؤيد سعيد : المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٦-١٦٥.

وكذا N.Kramer, ANET, p. 57-59 وكذا G.Roux, op.cit, p. 229 - 230. T.BAQIR, Excavationa at Aqar Quf, Iraq, 1944, and Iraq, 8, 1946, p. 73 - 92.

وأنظر: محمد يوسى مهران: تاريخ العراق القديم ص ٣٠٥ - ٣٠٧ (١٩٩٠).

الفصل الرابع

الدولة الآشورية (٢١٠٠ - ٦٠٩ ق.م)

تقديم: لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن كلمة «أشور» إنما تعنى فى الواقع، الإقليم الذى سكنه هؤلاء القوم، والمعروف باسم آشور، كما تعنى المدينة التى تحمل هذا الإسم، والمعبود الذى كان يعبد هناك، وربما كانت هذه التسمية - أى آشور - نسبة إلى أول عواصم القوم، وهى مدينة «أشور»، ومن ثم فقد أطلق إسم آشور على الإله القومى للآشوريين، وظلت هذه التسمية حتى القرون الأخيرة من الألف الأولى قبل الميلاد، أى حتى بعد زوال كيان الآشوريين السياسى.

وأما معنى كلمة «أشور» فغامض، فقد يكون من معانى الصغية «أشُر» (الرحمن)، وربما كان اللفظ سومرى الأصل، وعلى أية حال، فقد وردت كلمة «أشور» فى المصادر الآرامية والعربية تحت إسم «أثور»، وأما فى المصادر السامرية فقد عرفت بلاد الآشوريين باسم «مات آشور» أى بلاد الآشوريين، كما وردت كلمة «آشور» فى هذه المصادر من القرن الثالث عشر قبل الميلاد تحت إسم «أش شُر»، كما وردت فى صورة «آ - شو - ار» وأما فى المصادر المصرية، فلقد ذكرت، لأول مرة باسم «أسور» على أيام «تختمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، كما ذكر اسم «آشور» فى التوراة على أنه من أبناء «سام بن نوح»، كما ذكره الجغرافى «بطليموس»، فى كتابه «جغرافية بطليموس» فى عام ١٥٠ م.

وأما أصل الآشوريون فهم من شعبة سامية هاجرت من شبه الجزيرة العربية - الموطن الأصلى للساميين - وتشير لغة الآشوريين إلى أصولها السامية، وقد تحدث القوم بلهجة من لهجات اللغة الأكديّة، واستخدموا الخط المسمارى، وقد تميزت العواصم الآشورية بعدم الثبات، ومن ثم فهناك ستة عواصم آشورية هى: آشور وكالح و«كار - توكلتى - نورتا» و«دورشاروكين» و«نيتوى وحران (حاران)»^(١).

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٣ - ٣٢٦، اندرية بارو: المرجع السابق ص ١٧ - ١٨، عبد العزيز صالح، المرجع ص ٤٩٨ - ٤٩٩، طه باقر: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٧، عامر سليمان: العراق فى التاريخ ص ١١٩ - ١٢٠.

وكنّا 167, 182, 167 - 177 G.Roux, op- cit, وكنّا M.F.Unger, op.cit, p. 100-101

وكنّا J.Laessoe, People of Ancient Assyria, London, 1963, p. 37.

(١) آشور: كانت مدينة آشور هي أولى عواصم الآشوريين، وقد أقيمت فوق ربوة صخرية، تحف بها مياه نهر دجلة التي أصبحت حماية طبيعية لها، ربما منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وتعرف خرائبها اليوم باسم «القلعة» أو «قلعة شرقا»، وتقع على مسافة ٩٦ كيلا جنوبي مدينة الموصل الحالية، وقد استمرت مدينة آشور مركزا سياسيا للبلاد على مدى فترة طويلة من التاريخ العراقي القديم.

هذا وقد عثر في خرائبها على أسس لمعابد بعض المعبودات، مثل آشور وأنو وأدد، وكان «آشور» هو الإله القومي للآشوريين، وكبير معبوداتهم حتى نهاية - إمبراطوريتهم، وفي النسخة الآشورية من قصيدة الخلق، التي عثر عليها في مدينة آشور، نجده يحل محل المعبود البابلي «مردوك»، لأن القوم أرادوا أن يكون معبودهم - وليس معبود البابليين - هو خالق الكون، وهكذا كان الدين عوناً لنسباسة، وصدى لمطامح الملوك والشعوب والمدن.

وهكذا كان معبد آشور في مدينة آشور - ويدعى إشرا (E.Shar - Ra) يقيم فيه مع زوجه «ننليل» ملكة إشرا - أشهر معابد المدينة، وقد بنى على أيام الملك «شمشئ أداد» الأول (١٨١٣ - ١٧٨١ ق.م)، ويعتبر من النماذج الأساسية في تفسير عمارة المعابد الآشورية، ودليلاً لطرز المعابد الآشورية في العصر الأحداث، وقد جمع بين الطرز المعروفة في جنوب العراق، والتي بنيت على هيئة بيوت ذات فناء في الوسط، ومنها مبعد «شوسن» في تل أسمر، وبين الطرز التي عرفت في فجر الأمرات ذات الغرف المقدسة الطويلة، هذا وكان للمعبود آشور معبد آخر خارج المدينة يسمى «أكيتو» (Akitu).

وهذا وقد عثر في آشور كذلك على تماثيل لبعض الملوك، فضلاً عن عدد من المسلات، وقد وجد على أحدهم إسم «سمورامات» (سميرايس) زوج الملك «شمشئ أداد» الخامس (٨٢٣ - ٨١١ ق.م) والتي أصبحت وصية على العرش سنوات خمس، بل إن هناك من الآثار التي وجدت في آشور - وترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد - من ذلك النوع السومري، هذا وقد عثرت البعثة الألمانية في حفرياتها في مدينة آشور في الفترة (١٩٠٣ - ١٩١٤م) على لوحات تشريعية نسخت على الطين (Clay Tablets)، وليس على لوحة حجرية (Steld)، وإن ردها

البحر إلى ما قبل عهده بزمان طويل، وربما إلى أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، وربما إلى ما بين عامي ١٤٥٠ - ١٢٥٠ ق.م، ومن ثم فهي تعود إلى العهد الآشوري الوسيط^(١).

(٢) كالح: كانت مدينة «كالح» (Kalah) (كالحو - كالخو)، والمعروف حاليا باسم «نمرود» (Numrud)، هي العاصمة الآشورية الثانية، وتقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، عند ملتقاء بنهر الزاب الأعلى، وعلى مبعدة ٣٠ كيلا جنوبي «نينوى»، وعلى مبعدة ٣٥ كيلا جنوب شرقي الموصل.

هذا وقد أسس «كالح» الملك «شلمنصر الأول» (١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق.م)، وسكنها البابليون الذين قام بتهجيرهم «توكلتي نينورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، وإن كانت التوراة قد نسبت تأسيسها إلى من دعت «نمرود»، هذا وقد شيد فيها الملك «أشور ناصر يال» الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) قصراً، ثم اتخذها عاصمة للملك.

هذا وقد قام بالحفر فيها «سير أوستن ليارد» (Sir A.H.Layard) في الفترة (١٨٤٥ - ١٨٥١ م) وكذا «مالوان» (M.Mailouan) في عام ١٩٤٩ م، وكشفت الحفريات عن مبدد للإله «نينورتا» يتكىء على زاقورة مربعة (طول ضلعها ٥١ م، وارتفاعها ٤٥ م)، كما عثر على مسلة نقش عليها إسم «أشور ناصر يال الثاني»، هذه فضلا عن قصر يعده الآثاريون أول القصور الكبيرة لمملكة آشور الجديدة، وبه كثير من النقوش التي تصف لنا عمال «أشور ناصر يال الثاني»، وتصف البناء وظروف تشييده، وحفر قناة لرى المنطقة.

وهناك قصر «أداد نيرارى الثالث» (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) - إلى الجنوب من قصر «أشور ناصر يال الثاني» - وقد سكنه أيضا «تجلات بلاسر» الثالث (٨٤٥ - ٧٢٧ ق.م)، وإلى الجنوب منه قصر «إسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م)، وغير ذلك من المباني السكنية والدينية، هذا وقد دمرت المدينة على أيدي الميديين في عام ٦١٢ قبل الميلاد.

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٢٦ - ٣٢٧، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٣٣، هنري عبودي: المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١.

وكذا: J.Laessoe, op.cit, p. 18, 37F, 42, 79F وكذا: M.Funger, op.cit, p. 101 - 103

هذا وقد كشفت «أوستن ليارد» في عام ١٨٤٦م في قصر «شلعنصر الثالث» (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) في مدينة «كالح» عن «المسلة السوداء» (Black Obelisk) ، والمحفوفة الآن في المتحف البريطاني، وتتحدث عن انتصارات الملك، وقد تمثل على وجهها الثاني من أعلى حاملي الجزية الإسرائيليين وموظفيهم في ملابس مشغولة، ذات أكمام قصيرة، وعمامة تشبه غطاء الرأس.

هذا وتسجل حوليات «أشورناصر بال الثاني» الكثير من المعابد التي أنشأها في عاصمته «كالح» فهناك معابد للأرباب : إنليل ونيورتا وأداد، وشالا (Shala) وجولا (Guld) وسين ونابو وعشتار وسبتى (Sibitti) و«أشتار - كشمورى» (Ashtar - Kitmuri) وغير ذلك من المعابد التي كرسّت للمعبودات الكبار.

وعلى أية حالة، فإن الآثار المكتشفة في «كالح» (نمرود) إنما تعد من أروع الآثار الآشورية، وتعكس المدى الذي وصله الفن والعمارة في القرن التاسع قبل الميلاد، وقد كشف - بجانب القصور والمعابد والأسوار والبوابات - عن مئات من ألواح الجدران التي كانت تغلف جدران قاعات القصور الداخلية وهي منحوتة نحتاً بارزاً دقيقاً بمناظر مختلفة من الحياة اليومية والملكية والمعارك العسكرية، وقد لون بعضها بالوان زاهية ظلت تحتفظ بها إلى يوم الناس هذا.

هذا وقد زينت مداخل القصور والقاعات الرئيسية بتمائيل ضخمة لحيوانات مركبة، عرفت «بالشيران المجنحة» تعبّر عن قوة الآشوريين وصلابة قوادهم وحكمتهم، فضلاً عن إشعار الزائر، ولأول وهلة، بقوة الدولة وملكها، كما كشف في «نمرود» عن أعداد كبيرة من النصوص المسمارية، وعلى مجموعة من القطع العاجية، أبرزها تلك التي تمثل قناعاً لرأس فتاة، عرفت عند الباحثين باسم «مونليزه النمرود» أو «فتاة البشر»، حيث عثر عليها في أحد آبار المدينة^(١).

(١) تكوين ١١/١٠-١٢، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٤٣، ليو أوبنهايم: بلاد آشور ص ٣٨١، هنري عبودي المرجع السابق ص ٧٠٤ - ٧٠٧، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

وكذا J.Laessoe, op.cit.p.99,103- 106 وكذا J.Finegan, op.cit, p. 264 وكذا 265

M.E.L.Mallowan, Twenty- - Five Years of Mesopotamian Discovery, London 1956, p. 50 - 64.

(٣) كار- توكلتى - نئورتا: أسس هذه المدينة الملك «توكلتى نئورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، واتخذها عاصمة لدولته، وأضفى عليها اسمه «كار- توكلتى - نئورتا»، وإن كان هناك من يذهب إلى أن مؤسسها هو «أشور - نادين - إيلى» (١٢٠٧ - ١٢٠٤ ق.م) وإن نسبت إلى أبيه، وعلى أية حال فهي تقع على مبعده ٣ كيلا من مدينة أشور، على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وهي «تكل أكبر» الحالية.

هذا وقد شيد بها «أشور - نادين - إيلى» قصراً فى عاصمته بقيت منه أطلال طفيفة، يفهم منها أنهم زخرفوا بعض جدرانه بقطع من القاشانى المزخرف، فضلاً عن لوحات مرسومة، اقتبسوا عناصرها من عالم الحيوان والنبات ومن الخطوط الهندسية، وقد نجحوا فى تحقيق التناسب والحيوية فيها إلى حد معقول، وصوروا فيها الملك يقاتل بعربته الحربية، منفرداً حيناً، ومشاركاً فى الحرب إلى جوار حوذه، حيناً آخر^(١).

(٤) دورشاروكين: كانت «دورشاروكين» (Dur - Sharrukin) هى العاصمة الآشورية الرابعة، وقد أسسها «سرجون الثانى» (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) فى عام ٧١٧ ق.م، وأتم بناءها فى سنوات سبع (٧١٣ - ٧٠٦ ق.م)، وتقع أطلالها الآن أو على مقربة من «خورسباد» (Khorsabad) الحالية (وكلمة «خورسباد» محرفة من «خسروا أبادة») جنوب الزاب الأعلى، وعلى مبعده ١٦ كيلا شمال شرق الموصل، ٢٤ كيلا شمال شرق نينوى.

هذا وقد بنيت هذه المدينة على هيئة مربع طول ضلعه ١٧٦٠ متراً، وكان يؤدى إلى المدينة طريق مبلط عرضه ١٢ متراً، ويحيط بالمدينة سور وأبراج، يزيد عددها عن ١٥٠ برجاً، وكان للمدينة سبعة أبواب محصنة، ويحيط سورها

- وكذا. M.F.Unger, op.cit, p. 161 - 162.

M.E.L.Mallow, Nimrud and its Remains, 2 Vols, London, 1966.

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٨، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٥٠١ -

٥٠٢، جورج رو: العراق القديم ص ٦١٤

وكذا. W.Bachmann, MDOG, 53, p. 41 - 57.

وكذا. W.Andrde, Das Wiederertandene - Assur, p. 121 - 125.

الداخلي، بمعقل كائن في قسمها الشمالي، اشتمل على القصر الملكي ومعبد الإله «بنو» وبيوت فخمة خصصت لكبار الموظفين مثل «سن - آح - آصر» (Sin- ah - usur) وهو الوزير، شقيق الملك، هذا وقد زينت أبواب المدينة بشيران مجنحة لها رؤوس بشرية، تعتبر عند الآشوريين بمثابة الملاك الحارس الذي يقى المدينة من الشرور والمخاطر، كما كانت شوارع المدينة مستقيمة ومتعامدة.

ولم يبق من المدينة الآن غير أطلال قصر «سرجون الثاني» وبعض الأقسام المجاورة له، وتدل الآثار التي عثر عليها بقصر سرجون هذا، على مدى ماوصل إليه فن البناء والنحت وسبك المعادن وصناعة الزجاج، كما عثر بالقصر على عدد كبير من التماثيل البارزة والثيران المجنحة، ونماذج من الزخارف المنقوشة تمثل ثيراناً وأسوداً، كما عثر في المخازن على أدوات وآلات من الحديد تبلغ زنتها ٢٠٠ طناً.

هذا وقد تم إكتشاف المدينة في عام ١٨٤٣ م، وقد ظن - في بادئ الأمر - أنها أنقاض «نينوى» ولكن تبين بعد ذلك أنها «دور - شاروكين» (حصن سرجون) وأجريت الحفائر تحت إشراف القنصل الفرنسي «بوتا» الذي أرسل اكتشافاته إلى فرنسا عام ١٨٤٧ م، حيث شكلت الجناح الآشوري في متحف اللوفر بباريس، ثم قام «فيكتور بلاس» و«توماس» بإتمام التنقيبات في الفترة (١٨٥٢ - ١٨٥٥ م)، ثم جدد المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو الحفريات في الفترة (١٩٢٨ - ١٩٣٥ م)، وكشفت الحفريات عن قصر سرجون الضخم، والذي يحتوي على أكثر من مائتي غرفة، وثلاثين فناء، فضلاً عن أجنحة خاصة، وستة معابد، وزاقورة من سبع طبقات، وقد دهنت بألوان مختلفة، وتتصل ببعضها بسلم حلزوني، وأكبر الظن أن سرجون قد استخدم الآلاف من أسرى الحرب والمئات من الفنانين والحرفيين الذين أسهموا في بناء المدينة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن «سرجون الثاني» لم يستقر في عاصمة واحدة، فقد اتخذ في أول أيام حكمه مدينة آشور عاصمة له، ثم انتقل منها إلى «كالح» (نمرود)، وفي منتصف أيام حكمه اتخذ «نينوى» عاصمة له، وأخيراً وفي السنة التاسعة من الحكم، حوالي عام ٧١٣ ق.م، (وربما في عام ٧١٧ ق.م) بدأ في بناء عاصمته الجديدة «دو - شاروكين» (مدينة أو حصن سرجون)، وقد استمر بناء المدينة سبع سنين (٧١٣ - ٧٠٦ ق.م)، (وربما عشرين سنين)، ولكنه لم

يتمتع بها طويلا فلقد مات في العام التالي (٧٠٥ ق.م) وقد ترك بعض أجزائها غير كاملة.

هذا ولم يكتف خلفاؤه بهجرها والإنتقال إلى «نينوى»، وإنما شوهوا كثيرا من منحوتاتها، ونقلوا بعضها إلى قصورهم فطمست معالمها، وإن كان هناك من يذهب إلى أنها ظلت مقراً للحاكم (ربما حاكم المنطقة) قرابة قرن من الزمان، وعلى أية حال، فلقد ظل اسمها في ذاكرة الأجيال المتأخرة، فلقد عرف العرب اسم «سرجون» وشوه الساسانيون اسم المدينة وأطلقوا عليها اسم «خسرو - أباده» أو مدينة خسرو، ومن هنا جاء اسمها الحالي محرفاً إلى «خرمباد أو خورمباد»^(١).

(٥) نينوى: كانت «نينوى» (Nineveh) العاصمة الآشورية الخامسة، وتقع الآن تحت تلى «قوينجق» و«النبي يونس»^(٢)، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر» (الخور)، على مسافة ٤٠ كيلاً من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى، قبالة الموصل، وكان العيرانيون يعممون اسم «نينوى» ليشمل كل المنطقة حول التقاء الزاب الأعلى بالدجلة.

هذا وقد اتخذ «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) «نينوى» عاصمة له، وإن لم تعمّر طويلا حيث سقطت في أيدي الميديين في عام ٦١٢ ق.م، وبعد ذلك تم نهبها في صورة كاملة، وإن كان هناك من يرى أن المدينة قد سقطت في أغسطس من عام ٦١٣ ق.م، بعد معركة دموية بدأت في يونيو ٦١٣ ق.م.

وهناك ما يشير إلى أن «سنحريب» قد أهتم بها كثيراً، ومن ثم فقد عمل على توصيل المياه العذبة إليها، وهكذا قام بتنفيذ مشروع رى ماتزال آثاره باقية حتى يوم الناس هذا، فلقد أتى بالمياه العذبة إلى نينوى من مكان قريب من نهر «الكومل» - على مسافة ٨٠ كيلاً من نينوى - أو «الجومل» (Gomel) من مجرى جبلى في

(١) طه باقر: المرجع السابق ص ١٩١ - ١٩٢، محمد ييومي مهران: المرجع السابق ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ٤٠٠، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٤٠، ليو أبونهايم: المرجع السابق ص ٤٨٦، هنري عبودي، المرجع السابق ص ٤٠١ - ٤٠٢.

وكذا: G.Roux, op.cit, p. 291 - 292.

(٢) من المعروف - دينيا وتاريخيا - أن سيدنا يونس عليه السلام، إنما أرسل إلى أهل نينوى، أنظر: سيرة ابن هشام ٢٢٦/٢، وانظر القصة بالتفصيل: محمد ييومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - في العراق - بيروت ١٩٨٨ ص ١٧٥ - ١٩٢.

«بافيان»، وذلك عن طريق قناة شيدت بحجر الكلس، ونظر لمرورها في مناطق فيها الوديان وفيها المرتفعات، فقد شيدت لها قناطر على بعض الوديان، بلغ طول إحدهما ٣٠٠ ياردة، وعرضها ٢٤ ياردة، وقد نحت عند صدر القناة - عند القرية المعروفة الآن باسم «خنس» - على وجه صخرة شاهقة صورة كبيرة للمعبودات، وقد سجل عليها موجزا بأخبار تشييد المشروع، وقد كشف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو في عام ١٩٣٣ م عن المشروع.

هذا وقد ظلت «نينوى» مجهولة حتى كشفت عنها الحفريات التي بدأت منذ عام ١٨٤٧ م، حيث عثر في هذا العام على أطلال معبد سنحريب، والذي كان يحتوي على أكثر من ألفي نقش، وحوالي ثمانين غرفة، من بينها مكتبة الملك الأشوري «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) والتي احتوت الآف اللوحات المسمارية، ثم عادت التنقيبات مرة أخرى في عام ١٨٥٢ م، حيث عثر على قصر الملك «أشوربانيبال»، والذي زينه بنقوش تمثل المعارك التي دارت بينه وبين العرب، والتي يندر منها أن عرب الشمال إنما كانوا رجالا متوسطي الطول، يرتدون ملابس صيفية، بينما تركوا رؤوسهم عارية، وشعورهم تتدلى على أكتافهم، كما كانوا ملتحمين بلحي مديية قصيرة، وتصورهم المناظر وهم يركبون الجمال، وعلى الجمل الواحد منها رجلان، الواحد لقيادة البعير، والآخر لضرب القوس.

هذا وقد كشف أيضا في نينوى عن عدة معابد، وعلى رأس من البرونز، ربما تمثل الملك سرجون الأكدي، كما عثر في «تل النبي يونس»، على قصر يرجع إلى أيام الملك «إسرحدون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) (١).

(٦) حران: كانت «حران» (Harran) هي العاصمة السادسة والأخيرة للآشوريين، وتقع على نهر «بلخ»، على مبعده ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى

(١) محمد بيومي مهرانك تاريخ العراق القديم ص ٣٣٠ - ٣٣١، ٣٧٦، ٤٠١، ٤٢٦، طه باقر: المرجع السابق ص ١٩٣، عامر سليمان: العراق في التاريخ ص ١٥٥ - ١٥٧، ليو أوبنهايم: المرجع السابق ص ٥٠١، تكوين ٨/١٠ - ١٢، يرنان ٢/١، ٧٠٢/٣

A.H.Layard, Nineveh and its Remains, London, 1849

وكنذا J.Laessoe, op.cit, p. 114 - 115 وكنذا G.Roux, op.cit, p. 343 - 344 وكنذا M.F. Unger, op.cit وكنذا B.Meissner, in Oslamica, II, 1926, p. 392 وكنذا M.F. Unger, op.cit, p. 795- 796

الغرب من «تل حلفا» وعلى مبعدة ٤٤٨ كيلا شمال شرق دمشق.

وقد أصبحت «حران» عاصمة للآشوريين بعد سقوط «نينوى» في عام ٦١٢ ق.م، على أيدي البابليين والميديين، ومن ثم فقد اضطر الملك الآشوري «أشور أوباط» الثاني (٦١١ - ٦٠٩ ق.م) أن يتخذ من «حران» عاصمة له، غير أن «نبوخذنصر» الثاني (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) نجح في أن يستولي عليها، وأن يقضى على الجيش الآشوري في عام ٦٠٩ ق.م (وربما في عام ٦٠٨ ق.م). وأن يقضى بالتالي على الدولة الآشورية نهائيا.

هذا وقد تردد اسم «حران» في التوراة باعتبارها موطننا لأقرباء إبراهيم الخليل وولده، وقد تزوج منها إسحاق ويعقود، عليهم السلام، وأن يوسف الصديق عليه السلام قد ولد هناك، كما كانت أحد مراكز عادة إله القمر، الذي عبد في «أور» تحت اسم «ننار» (Nannar) بمعنى «المنير» ورمز إليه أحيانا بالهلال، ثم انتقل منها إلى «حران»، تحت اسم «تارح»، ثم انتقلت عباده إله القمر من حران إلى سورية وفينيقيا^(١).

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٦٢/١، ٧١، ٩٨١/٢، تاريخ العراق القديم من ٣٣١ - ٤٣٩، تكوين ١/٢٤ - ١/٢٩، ٦٦ - ١/٣٥، ٣٠ - ١/٢٦.

وكدنا M.Nothe, The History of Isrdel, London, 1965, p. 273

وكدنا M.F.Jnger, op.cit, p. 455. وكدنا G.Roux, op.cit, p. 347.

L.Woolley, Aberaham, Recent Discoveries and Hebrew origins, London, 1965, p. 27 117

L.Woolley, The Beginings of Civilization, N.Y, 1956, p. 492 - 514.

الفصل الخامس

المدن والمراكز الأثرية منذ العصر الإخميني وحتى الفتح الاسلامي

١- الإخمينيون (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م)

بابل: دخل «كيروس الثاني» (٥٥٨٠ - ٥٣٠ ق.م) مدينة بابل في ٢٩ أكتوبر من عام ٥٣٩ ق.م، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين، وبدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الفارسي «كيروش ملك العالم» وعين «جوبرياس» الخائن جاكما (ستراب - Satrap) من قبل الفرس، وهنا انتهت سيادة العناصر السامية في العراق القديم، وبدأت سيادة العناصر «الهندو - أوربية»، ولمدة تقرب من اثني عشر قرناً (٥٣٩ ق.م - ٦٣٧ ق.م)، بدأت بالفرس الإخمينيين (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م) ثم الإغريق - بما في ذلك عصر الاسكندر الأكبر والسلوقيين (٣٣١ - ١٣٥ ق.م) ثم الفرس الفريثيون أو البارثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ ق.م)، ثم الفرس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧ ق.م).

هذا وقد ظلت «بابل» إبان عهد الإخمينيين عاصمة للعراق القديم، غير أنها لم تكن عاصمة سياسية، وإنما إدارية، منذ ولي «جوبرياس» واليا عليها من قبل الفرس، وربما كانت كذلك على أيام الإسكندر الأكبر منذ انتصاره على «دار الثالث» - آخر ملوك الإخمينيين - عام ٣٣١ ق.م، عند «كوليلة» - وهي تل كومل على مبعدة ٣٥ كيلا شرقي الموصل، وعلى مقربة من نهر الزاب الأعلى - والتي عرفت بمعركة «أربيلو»، وحتى وفاته في بابل في ١٣ يونيو عام ٣٢٣ ق.م

٢- السلوقيون (٣١٢ - ١٣٥ ق.م)

سلوقية: ورث «سلوقس الأول» (نيكاتور ٣١٢ - ٣٠٥ ق.م) - أحد قواد الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) المناطق الشرقية من الأرضين التي غزاها الإسكندر، ثم أعلن نفسه في عام ٣١٢ ق.م (وربما في ٣١١ ق.م) ملكاً في «بابل» مؤسساً أسرة جديدة ظلت تحكم العراق حتى عام ١٣٥ ق.م، غير أنه لم يجعل من بابل عاصمة له، وإنما أسس عاصمة جديدة على نهر دجلة هي «سلوقية» (تل عمر)، على مبعدة ٩٠ كيلا شمالي بابل، في مقابل «طيسفون»

(Ctesiphon)، وربما فى موقع «أوبا» (Upa) أثناء العصر البابلى، وقد احتفظت «سلوقية» بطابعها الهلينستى حتى زوالها، رغم أن معظم سكانها إنما كانوا من البابليين، الذين أدخلوا إليها تقاليدهم وعاداتهم.

هذا وقد بدأ سلوقس فى بناء عاصمته «سلوقية» فى عام ٣٠٧ ق.م، ثم أصبحت العاصمة السلوقية الرسمية على أيام «أنطيوخس» الأول (٢٨١ - ٢٦١ ق.م) فى عام ٢٧٤ ق.م، حيث أصدر أوامره إلى السكان بالانتقال إليها، ويقدر بعض الباحثين عددهم بحوالى ٦٠٠ ألف شخص، من بينهم عدد كبير من سكان بابل ممن هجروا إليها، وفى نفس الوقت صدرت التعليمات بإعادة بناء «الإيزاكلا» لتكون فقرا وحيدا ومركزاً دينياً للبابليين.

هذا وقد تم تخطيط «سلوقية» على النمط الإغريقى، فشقت شوارع مستقيمة، تتقاطع بزوايا قائمة، ثم سرعان ما أصبحت سلوقية من أوسع وأغنى مدن العراق القديم، كما أصبحت مقراً لجالية أجنبية - شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الإغريقية فى الشرق القديم - ومن ثم كما أنشأوا «الأجورا» (وهى سوق المدينة، حيث تجرى عمليات البيع والشراء، وتعقد الاجتماعات العامة، وتسمى عند الرومان «الפורوم» (Forum) وعند اليونان (Agora) (وربما تشبه الساحة أو «الرحبة» أو «البطحاء» عند العرب، خاصة فى تونس). هذا وقد كشفت الحفريات فى سلوقية عن مبان مكشوفة، تحيط بهما ممرات من جنوبها الأربعة، وربما قد أحيطت هذه البيانات بأعمدة، كما عثر أيضاً على شارع ذى أعمدة، فضلاً عن مبنى لحفظ سجلات معبد «أبولو» يتكون من وحدتين، كل واحدة منهما تحتوى على سبع غرف، يها أعمدة فى الوسط، وأبواب على الأضلاع القصيرة، وأما القصر فكان يتكون من عدد من المباني المتشابهة، تتألف الواحدة منها من غرف تحيط بساحة مكشوفة، وكذا قاعات (megaron) مفتوحة من الجانب الجنوبي، يمكن الوصول إليها عن طريق سقيفة تحتوى على عمودين فى مدخلها، وهكذا يعكس قصر سلوقية - وكذا قصر نمر - اندماج فكرتين معماريتين - إغريقية وبابلية - فالقاعدة (megaron) إغريقية، والساحة المكشوفة بابلية.

وعلى أية حال، فإن «سلوقس نيكاتور» سرعان ما يؤسس مدينة أخرى تحمل نفس الاسم (سلوقية) في عام ٣٠٠ ق.م، على نهر العاصي، وعلى مبعده ٢٤ كيلا من ساحل البحر المتوسط، دعاها «أنطاكية» نسبة إلى أبيه «أنطيوخس»، وجعلها مقر إقامته المفضل ثم سرعان ما أصبحت عاصمة الدولة السلوقية، ومن ثم فقد أصبحت الدولة السلوقية سورية أكثر منها عراقية، وبالتالي فقد انتقل المركز السياسي والحضاري والاقتصادي لغربي آسيا من ضفاف الفرات إلى ساحل البحر المتوسط^(١).

٣- البارثيون أو الفريثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦ م)

١- بابل: خلف البارثيون أو الفريثيون السلوقيين في حكم العراق القديم، وأكبر الظن أن مركزهم كان في بابل، وقد اهتموا بالسيطرة على الطرق المؤدية إلى شمال العراق والحوضر الآشورية القديمة، فأقاموا حيناً من الدهر في آشور، حيث أقاموا فيها قصراً كبيراً، قلده الملوك الساسانيون في بناء قصرهم في المدائن فيما بعد.

هذا وقد تدهورت بابل كثيراً على أيام البارثيين، حتى أن الإمبراطور الروماني «تراجان» (٩٨ - ١١٧ م) عندما احتل بابل في عام ١١٥ م، وجدها خالية من سكانها الذين هربوا منها، الأمر الذي تكرر على أيام الإمبراطور الروماني «سبتيميوس سينبروس» (١٩٣ - ٢١١ م) عندما دخلها بجيوشه، ورغم أن الفريثيين ظلوا فترة يسيطرون على المنطقة - بما فيها مدينة بابل - غير أن الضعف سرعان ما أصابها بسبب الحروب المستمرة مع الرومان، مما أدى إلى قيام الثورات الداخلية، وبالتالي سقوط دولتهم على أيدي الساسانيين في عام ٢٢٦ م، وفي نفس الوقت قامت دولة عربية هي الحضر، والتي كانت عاصمتها مدينة

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١١٣٧ / ٢ (الإسكندرية ١٩٧٨)، المغرب القديم من ١٩٣

(الإسكندرية ١٩٩٠)، واثق الصالحى: حضارة العراق ١٨٧ / ٣ - ١٩٦.

C. Hopkins, Topography and History of Seleucia on the Tigris, 1973.

C. Hopkins, A bird's eye view of Opis and Seleucid, Antiquity, XIII, 1939, p. 440 - 448.

L. Waterman, Preliminary Report on The Excavations at tell uman, 1933.

الحضر، وقد أسهم الساسانيون في القضاء على بابل وتدميرها نهائياً، قبل أن ينتهى القرن الخامس الميلادى^(١).

٤- الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧ م)

(١) المدائن: وتقع على بعد ٢٥٠ كيلا جنوب شرق بغداد، وقد عرفت عند الرومان باسم «طيسفون» (Ctesiphon)، وفي نقش (شرف الدين ٤٢) - وربما يرجع إلى عهد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢ م)، وأثناء حصار «أذنيه» ملك تدمر، (حوالى عام ٢٦٥ م) للمدينة - دعيت «قط واصف»، وظلت عاصمة الدولة الساسانية طوال عهدها (٢٢٦ - ٦٣٧ م)، منذ أن استولى عليها الملك «أردشير بابل»، وقتل آخر ملوك الفريشيين «أرطبان الخامس» فى عام ٢٢٦ م، هذا وقد اتبع فى تخطيط «طيسفون» نفس التخطيط شبه الدائرى، الذى كان سائداً وقت ذلك، وكانت من قبل قرية عسكرية صغيرة، فى مقابل سلوقية على الدجلة، وتشير آثار الفترة اللاحقة أن المدينة كانت دائرية الشكل تقريبا، وأن هناك علاقة واضحة بين التخطيط الدائرى لمدينة «طيسفون» وبين المعسكر الحربى الآشورى، والذى يظهر على المنحوتات الآشورية على شكل دائرى ولعل هذا إنما يفسر لنا التخطيط الدائرى لمدينة «طيسفون» التى أقامها الفريشيون فى الأصل بمشابة معسكر لجنودهم، وكان لهذا النوع من التخطيط عدة فوائد منها: سهولة الدفاع عن مدينتهم المدورة، ولأنها بالتالى إنما تحتوى على أسوار أقل من أسوار الشكل المستطيل بحوالى ١١٪ وتلك فائدة اقتصادية درنما ريب.

ولعل الهدف من توسيع «طيسفون» وجعلها مدينة هامة، ثم إحدى عواصم الفريشيين، إنما يرجع إلى أمرين، الواحد دفاعى، وذلك لتكون فى مواجهة سلوقية، المدينة الهامة والمحصنة التى أعلنت الثورة لسنوات سبع، ثم استسلمت تلقائياً، والآخر منافسة سلوقية فى تجارتها النهرية بل إن الفريشيين لم يكتفوا بذلك، وإنما قام «ولجش الأول» (٥١ - ٨٠ م) بتأسيس «ولجاشية» على مقربة من سلوقية لتنافسها فى أهميتها، وإن كان موقع «ولجاشية» لم يحدد حتى الآن على وجه اليقين هذا وقد شكلت «طيسفون» (المدائن) أهم مدن العراق فى العصر الساسانى (٢٢٦ - ٦٣٧ م) ولعل من أهم مبانيها إنما كان «إيوان كسرى» (طاق

(١) مويد سعيد: العراق فى التاريخ، ص ٢٥٤ - ٢٥٩.

كسرى - أو القصر الأبيض)، وقد نسب بناؤه إلى «كسرى أنوشروان» (٥٣١ - ٥٧٩م)، أو «كسرى أبرويز» (٥٩٠ - ٦٢٨م)، وذلك لاحتوائه على عناصر معمارية مختلفة تشبه تلك التي سادت إبان القرن السادس الميلادي في العمارة البيزنطية، وإن ذهب فريق من العلماء إلى أن بناءه من عصر «أردشير»، أو عصر «سابور الأول» (٢٤١ - ٢٧٢م) استناداً على بعض من إشارات تاريخية من مصادر مكتوبة، وأن «كسرى أنوشروان» إنما قد جددّه وأضاف إليه.

وأياً ما كان الأمر فإن «إيوان كسرى» هذا، إنما يواجه الشرق، وأن ارتفاعه ٣٥ متراً، وعرض فتحته ٢٥ متراً، وامتداده الطولي ٥٠ متراً، وقد بنيت أسسه من الآجر والجص، ورصفت بشكل عمودي - على طراز بعض جدران أبنيه آشور، وأراده أصحابه قويا متينا، ومن ثم فقد زيد في سمك الجدران، حتى تتحمل القبو، الذي كان يرتفع حوالى المتر، وقد يصل إلى أربعة، ولم تزين جدرانه بكوات أوحنيات - كما فى غيره من القصور - إعتقاداً من المعمارين أن الشكل السبسط هو الأصلح إنشائياً، كما وضعوا بعضاً من خشب فى داخل الواجهة لزيادة قوة الجدران، كما احتوى جداره الخلفى على دعائم خشبية، ومن المعروف أن استعمال الخشب فى تقوية الجدران، إنما كان من التقاليد المعمارية فى العراق، الأمر الذى شاع فى العمائر العربية الإسلامية.

هذا وكان لجدار الإيوان الخلفى مدخل يقع على المحور الطولى، ويفضى إلى مجموعة من الغرف الصغيرة المتصلة ببعضها عبر فتحات الأبواب، ثم منها إلى قاعة واسعة مغلقة بعرض الإيوان، يبدو - كما تشير الدلائل الأثرية - أنها سقفت بقبو، وهناك إلى جانبي الإيوان، غرفة على كل جانب أصغر من القاعة المغلقة الخلفية، يفصلها عن الإيوان دهليز ضيق، وقد أثبتت الحفريات أن القصر أو الإيوان إنما كان يتكون من وحدتين معماريتين، تتكون كل منهما من ثلاثة غرف واسعة تمتد على محور واحد، وتكون الوسطى فى كل منهما أوسع، وقد شكلت القاعة الوسطى فى الوحدة الأمامية الإيوان المفتوح نحو الشرق، الأمر الذى يشير إلى مبدأ التقسيم الثلاثى للمباني فى عمارة العراق القديم، وكان للغرف الصغيرة بين الودعتين - وقد بنيت على محور مغاير - أهمية خاصة، ذلك لأنها تفصل بينهما، كما أنها إنما تكون حلقة الوصل بين القاعات الكبيرة.

هذا وتشير بعض المصادر إلى أن بعضاً من جدران الإيوان الداخلية إنما كانت مغلقة بالوواح من المرمر الملون، والمنقولة من كنيسة في أنطاكية، وأن بعضاً آخر إنما قد احتوى على مشاهد حرية عملت بالفسيفساء تمثل حصار كسرى لتلك المدينة، وأكبر الظن أن أسرى أنطاكية قد أجبروا على عملها، وتتكون قطع الفسيفساء - كما تشير الحفريات - من أحجار ملونة ومذهبه كانت تشكل وحدات فنية زخرفية معينة، اتصفت بها جدران الإيوان، وطبقاً لما جاء في بعض المصادر، فقد عملت الأرضيات من ألواح مرمرية سميكة، ثم غطيت بسجاد، نقش عليها مناظر أشجار وحدائق وقنوات مياه، ويروى أن كسرى عندما كان يستقبل زائرية إنما كان يجلس على وسادة ذهبية، وضعت فوق عرشه عن نهاية الإيوان، وأنه كان يرتدى ملابس مزخرفة ذات نسيج ذهبي، وكان يضع فوق رأسه تاجاً عظيماً من الذهب والفضة، وقد طعم باللؤلؤ والأحجار الكريمة، وأن وزن هذا التاج إنما كان يقدر بأكثر من ٩٠ كيلو جرام، ومن ثم فقد كان يعلق في السقف بسلاسل طويلة من ذهب.

هذا وقد ظلت طيسفون (المدائن) - كما أشرنا آنفاً - أهم مدن العراق طوال العهد الساساني، وحتى الاستيلاء عليها عام ١٦ هـ بيد المسلمين بعد حصاد دام شهرين، وقد تعرضت أثناء العصر الساساني لعدة غزوات، وكما حدث في عام ١١٦ م على أيدي «تراجان» (٩٨ - ١١٧ م)، وفي عام ١٩٧ م على أيام «سبتميموس سفيروس» (١٩٣ - ٢١١ م)، وفي عام ٢٢٨ م، على أيام «هرقل» (٦١٠ - ٦٤١) - وأما الاسم «المدائن» فكان يعنى مدينتي «طيسفون» و «سلوقية» الواقعتين على ضفتي نهر الدجلة المتقابلتين.

بقيت الإشارة إلى مدينتين أخريين ترجعان إلى العهد الساساني، وهما:

١- كوخة: تشير المصادر العربية إلى مدينة سميت «وه - أردشير» (Weh-Ardashir) والتي أسسها الملك «أردشير» (٢٢٦ - ٢٤٠ م) وأطلق عليها اسم «كوخدة» (Coche) أو «سلوقية» الجديدة، ويذهب الإمام الطبري (٢٤٤-٣١٠ هـ) إلى أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص إنما قد بقى فيها بعد انتصاره في «القادسية» (١٥ هـ) وقبل عبوره نهر الدجلة، وأن اسمها كان «بهرسير»، وقد أثبتت الحفريات أنها شيدت فوق مقبرة ترجع إلى العصر الفرثي،

وأن سورها وبعض جدرانها وأسلوب تخطيطها إنما يرجع إلى عصر «أردشير الأول»، وأنها كانت مدورة الشكل، وشوارعها غير منتظمة، وبها ساحات تطل عليها مجموعة من الحوانيت والمخازن، مما يشير إلى أهميتها التجارية، كما أن بها «إيوانا» مما يشير إلى العمارة العراقية التي تمثلت في الحضر.

٢- مدينة كسرى أنطاكية: هناك ما يشير إلى أن كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) عندما استولى على أنطاكية في عام ٥٤٠م، بنى مدينة جديدة على مقربة من «طيفسون» لسكنى أسراه، وقد أسماه «مدينة كسرى أنطاكية»، وقد شيدت على طراز مدينة أنطاكية، وطبقا لرواية الإمام الطبري، (٢٢٤ - ٣١٠هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣م) فلقد شيدت بيوت السكان طبقا للتخطيط السوري، وكان بالمدينة ساحة لسباق الخيل، ومرافق عامة لا توجد في المدن الشرقية عادة، وقد أطلق عليها الكتاب العرب اسم «الرومية»، وماتزال آثارها باقية، على مقربة من «طيفسون»، وتسمى «بستان كسرى»، وتقع على مبعدة حوالي ٢٠ كيلا، جنوب شرق إيوان كسرى، وقد كشفت الحفريات عن سورها الضخم، ذي الأبراج المستطيلة، هذا وتجدر الإشارة إلى أن مدينة «أنطاكية» نفسها، إنما قد اشتملت على أبراج مربعة ومن ثم فإن تحصينات المدينة إنما قد اتبعت التخطيط الروماني المتأخر، وربما البيزنطي. ويستدل من الحفريات في «بستان كسرى» على أن للمدينة سورا، ربما كان مستطيلا، أو مربعا، طبقا للتخطيط الروماني كذلك.

وهناك أيضا «أسبانير» أو «أسفابور»، وطبقا لما جاء في المصادر العربية، فلقد كان بها «إيوان»، فضلا عن أنها إحدى المدائن السبع، التي سميت بها «المدائن»^(١).

(١) فرج بصره حي: نبذة تاريخية عن طيفسون - بغداد ١٩٦٤، وائق الصالحى: حضارة العراق ٢٤٥/٣-٣٥٩، صالح أحمد العلى، المدائن في المصادر العربية، سumer ١٩٦٧ ص ٤٧ - ٦٥، طارق «مظلم»، المدائن سumer ١٩٧١/٢٧ ص ١٢٩ - ١٤٢.

وكذا J.Fiey. 'Topography of Al-Mada' in Sumer, 23, p. 3 - 38.

وكذا Antonio Invernizzi, Ten Years Research in The Al-Mada'in Area, Seleucia and Ctesiphon, Sumer, 32, 1967, p 167 - 175.

الفصل السادس العواصم الإسلامية

١- البصرة:

هي أول مدينة إسلامية أسست في العراق، أسسها القائد العربي «عتبة بن غزوان» في عام ١٦ هـ / ٦٣٧ م^(١)، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه وأرضاه (١٣- ٢٣ هـ / ٦٣٤-٦٤٤ م)، وذلك لأن المقام لم يطب للعرب في المدائن، قاعدة الفرس، لعدم تعودهم على حياة المدن الكبيرة، كما أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أراد أن لا يحول بينه وبين المسلمين بحر، إذ أراد أن يمدهم بالجند، ومن ثم فقد شرع العرب في بناء البصرة، ثم الكوفة.

وكانت البصرة- وتقع على مبعدة ٢٢ كيلا من «الأبله على الخليج العربي» - في بادئ أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة فأنشئ بها أولا المسجد، ثم دار الإمارة بجواره، وحولها خطط، لكل قبيلة منها حطة ومسجد ومقبرة، وقد بنيت في البداية بالقصب ثم الطين، ثم بالآجر والحجارة.

وكانت مقائلة البصرة في أوائل سني تأسيسها أقل عددا من مقائلة الكوفة، ومواردها قليلة، وقد أنشئت في بقعة بعيدة عن الأنهار، فكان الماء فيها قليلا مجا، وبمرور الأيام تم علاج هذه الأمور، فحفرت لها ترع تصلها بشط العرب وبالبطيحة، وتزود أهلها بالماء العذب، وبأسباب المواصلات، ثم إن قيام مقاتلتها بفتح أقاليم شرقي وجنوبي شرق الهضبة الإيرانية جلب لها موارد كبيرة في جباية

(١) اختلف المؤرخون في تحديد تمصير البصرة، فمن يجعله في عام ١٤ هـ (ابن الأثير ٣١٩/٢، البلاذري: فتوح البلدان ص ٣١٤، المسعودي: مروج الذهب ٣١٩/٢)، ومن يجعله عام ١٥ هـ (المقدسي: أحسن التقاديم ص ١١٧) ومن يجعله عام ١٦ هـ (المسعودي: مروج الذهب ٣٢٠/٢، تاريخ بن خلدون ١٠٣/٢)، ولعل سبب هذا الاختلاف إنما يرجع إلى نزول «عتبة بن غزوان» بها عام ١٤ هـ، وإقامة المسلمين في ثكنات من القصب، ثم بناء المدينة من اللبن والأحجار بعد ذلك، هذا ويذهب «جرجي زيدان» (التمدن الإسلامي ١٦١/١) إلى أن البصرة كانت خمسة أقسام، نزل في كل منها قبيلة من العرب الفاتحين (أحمد الشامي: الخلفاء الراشدون ص ١٧٤).

هذه الأقاليم، هذا فضلا عن أن قرب البصرة من البحر، إلى جانب صلتها الوثيقة بخرسان والسند، إنما قد ساعد كثيرا على ازدهار تجارتها.

وهكذا لم يمتض على تأسيس البصرة عقدان من الزمان، حتى أصبحت واحدة من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي، وخاصة في التجارة بين الهند والصين، ومن ثم فقد حلت محل «الأبله» على الخليج العربي، ثم سرعان ما أصبحت مقصد القوافل، ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن معظم سكان البصرة، إنما كانوا من ربيعة ومضر، ثم سرعان ما وفدت إليها جاليات من الهند والسند والصين، كما تردد عليها كثير من العرب للتجارة، الأمر الذي أدى إلى ظهور حياة أدبية جديدة فيها، فضلا عن تأثير الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة^(١).

٢ - الكوفة:

أدرك الصحابي الجليل «سعد بن أبي وقاص» رضى الله عنه، أن المدائن - العاصمة الفارسية - لم تكن ملائمة لاتخاذها - بعد أن فتحها في عام ١٦ هـ، بعد حصار دام شهرين - مقراً له، ومقاما لجيوش الإسلام وذلك لأن المدائن عدداً كبيراً من أنصار الفرس ومؤيديهم، ولأن أهلها قد تعودوا حياة الترف، هذا فضلا عن انفصالها عن الصحراء بأرضين قد غطيت بالمزارع وأشجار التخييل والترع، هذا إلى أن مناخها رطب، كما أنها في منطقة موبوءة بالملازيا

ومن ثم فقد كتب سعد إلى الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه بكل هذا، وسرعان ما جاءه الرد بالبحث عن مكان آخر له ولجيشه، على أن يكون على طرف الريف، وعلى ألا يفصله عن بلاد العرب حاجز مائي، وعلى أن يكون مناخه جافاً، ملائماً لرعى الإبل.

وهكذا بعث سعد الصحابييين الجليلين «سلمان الفارسي» و «حذيفة بن اليمان» رضى الله عنهما - بأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - يرتادان له «وضعا تتوافر فيه الشروط التي أشار إليها الخليفة، وتند وقع بإختيارهما على مكان

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٥١٧/١، صالح أحمد العلي: العراق في التاريخ من ٣٣٤ -

غربى الفرات، ويقع على مبعدة ٤٠ كيلا جنوبى بغداد، ٥ كيلا شمال الحيرة. وأقر الخليفة هذا الإختيار، ونزال «سعد بن أبى وقاص» بجنده فى مكان الكوفة، فى المحرم عام ١٧هـ - يناير ٦٣٨م، بعد أن خلف فى المدائن بعض المسلمين الذين رغبوا فى البقاء بها، وكان معظمهم من «عبس» وعسكر المسلمون من جنود العرب - وعددهم أربعون ألفا - فى الخيام أولا، ثم بنوا بيوتا من القصب، وسرعان ما أنت عليها النار، فأمر الخليفة الراشد أن تبنى الدور باللبن، فاختر «أبو الهياج بن مالك الأسدى» شوارعها وأزقتها، ثم اختار القوم موقعا وسطا لبناء الجامع، وخصص له رقعة واسعة تكفى لاجتماع خمسين ألفا، وأحاطوه بسياج من القصب، وأقاموا فى طرفه الجنوبى الغربى المتجه نحو الكعبة المشرفة، ظلة مقامة على أعمدة من خشب، وقد سقفت بالقصب، لتقى المصلين حر الصيف، وبلل الأمطار، ثم أبدلوا القصب بالطين.

وأقام القوم - بجوار الجامع من ناحية الظلة - بيتا للوالى، وآخر لحفظ السجلات والحسابات، وقد سموه الأول «دار الإمارة»، والثانى «الديوان»، وقد شيدت هذه المباني بالطين و«قصب»، وظلت كذلك حتى عهد «معاوية بن أبى سفيان» (٤٠ - ٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠م) فأعاد واليه «زباد» بناءها بالطابوق، وجعل سوارى المسجد من الحجارة.

هذا وقد أحيطت هذه المباني (الجامع ودار الإمارة والديوان) من كافة أطرافها بساحة واسعة عرضها ٥٠ مترا، تخرج منها عدة سكك، عرض كل منها ٥٠ ذراعا (حوالى ٣٥ مترا)، وتتشعب من كل سكة طرق فرعية، عرض كل منها حوالى ١٧ مترا.

ومن المعروف أن المسلمين إنما كانوا يبدأون فى بناء المدن بالمسجد، إتباعا لسنة سيدنا ومولانا محمد رسول الله (ﷺ)، عندما بدأ ببناء المسجد النبوى الشريف، عندما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى عام ٦٢٢م، ذلك لأن المسجد، إنما كان المقر الرسمى للدولة، فيه تقام الصلوات، التى تربط المسلم بالله، رب العالمين وتنقى الإنسان من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا، ومنه تصدر القوانين، وفيه تناقش الأمور، ومنه تذاع البلاغات، وفيه يفصل فى الخصومات، وفيه تقام حلقات الدرس حيث يتعلم المسلمون أمور دينهم.

وعلى أية حال، فلقد كان الجامع ودار الإمارة وبيت الديوان، هى الأبنية

العامة الوحيدة في المدينة، وهي أبنية بسيطة في عمارتها، متوسطة في موقعها، تربطها السكك بكل أرجاء المدينة وأطرافها، ومن ثم فقد أصبحت هذه المنطقة قلب المدينة، وأكبر مركز حيوي بها.

وسرعان ما ازدادت أهمية الكوفة حتى أصبحت من أعظم مراكز العلم والسياسة والحروب في البلاد الإسلامية، وغدت الكوفة، قصبة العراق الأعلى، فكان والي الكوفة يمين من قبله الولاة على الباب وأذربيجان وهمدان والري وأصبهان والموصل وقرقيسيا، وكان أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن.

ولما ولي سيدنا الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم الله وجهه في الجنة - الخلافة (٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م)، اتخذ الكوفة حاضرة لخلافته، لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها، ووقعها في مكان متوسط، سهل الاتصال بأجزاء الدولة الإسلامية، هذا إلى أن الإمام علي إنما كان يستعد لحرب معاوية بن أبي سفيان، بعد أن امتنع عن البيعة، بل وحشد جنده لحرب الإمام^(١) عليه السلام.

وكانت الكوفة أيضا حاضرة الخلافة على أيام خامس الراشدين، الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧ رمضان ٤٠ هـ - ربيع الأول ٤١ هـ)، والدليل على أن الإمام الحسن بن علي، هو خامس الراشدين، فلقد روى الأئمة: أحمد بن حنبل وأبو يعلى وابن حبان، من طريق سفينة مولى سيدنا رسول الله (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا، وإنما كملت الثلاثون سنة بخلافة الإمام الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت سيدنا رسول الله (ﷺ)، فإنه توفي في ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة^(٢).

(١) حسن إبراهيم: المرجع السابق ٥١٧ - ٥١٩، صالح أحمد العلي: العراق في التاريخ ص ٣٣٠ - ٣٣٣، محمد يوسى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١٩/٢ - ٢٠ (بيروت ١٩٩٠ م).

(٢) أنظر: محمد يوسى مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - الجزء السابع - الإمام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠ ص ٤٣ - ٦٦.

٣- واسط:

فى أواسط العصر الأموى (٤١- ١٣٢هـ / ٦٦١- ٧٥٠م) شهد العراق تأسيس ثالث مدنه الإسلامية - بعد الكوفة والبصرة - وذلك حين طلب الحجاج بن يوسف الثقفى (٦٦٠ - ٧١٤م) - والى العراق، فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ / ٦٨٥- ٧٠٥م) من الخليفة، السماح له بتأسيس مدينة جديدة تتوسط العراق، على الضفة الغربية للدجلة.

وهكذا بدأ بناء المدينة الجديدة، وأمر الحجاج أن تتوسط دار الإمارة المكان المختار، وأن يكون المسجد الجامع ملاصقا لها، وأن يكون بينهما وبين خطط الناس خلاء، وأن يكون المسجد مربعا (طول ضلعه ٢٠٠ ذراعا)، وكذلك دار الإمارة (طول ضلعها ٤٠٠ ذراعا)، والتى يجب أن تكون هى القلب الذى تتقاطع عندها الشوارع الرئيسية الأربعة، وأما خطط الناس فكانت مهنية من جهة - أى أن يكون أهل كل مهنة فى مكان - وقبلية من جهة أخرى، وهكذا كان لأهل الشام والبصرة والكوفة مكان خاص لكل منهم، وقسمت المدينة أربعة أرباع، ثم سورت بخندق وسورين، على رأى، وسورين وخندق، على رأى آخر، وكانت أبواب السورين تغلق ليلا، ولا يسمح لغير أهل واسط بالمبيت فيها.

وعلى أية حال، فلقد احتفظت «واسط» بمركزها الإدارى فى العهد الأموى، ثم أخذت فى التوسع فى العصر العباسى، ومن ثم فقد امتد البناء خارج السور فى الجهة الغربية حتى الجانب الشرقى منه، مما أدى إلى بناء جسر يربط بين الجانبين، وازدهرت الحياة الاقتصادية والعلمية فى واسط، حتى دخلتها جيوش «هولاكو» (١٢١٧- ١٢٦٥م) فى عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، ثم جيوش «تيمورلنك» (١٣٣٦- ١٤٠٥م) بعد ذلك بقرن ونصف، فعانت كل منهما فسادا وقتلا وحرقا وهدما وتخريبا فى المدينة، ثم كان تغيير نهر الدجلة مجراه بمشابة الفصل الأخير فى حياة «واسط»^(١).

٤- بغداد:

عندما استولى أبو العباس السفاح (١٣٢- ١٣٦هـ / ٧٥٠- ٧٥٤م) على الكوفة، شيد فى طرفها الغربى مدينة سماها «الهاشمية»، وانتقل إليها مع حاشيته

(١) صالح أحمد العلى: المرجع السابق ص ٣٣٦ - ٣٣٨.

وأنصاره، ثم سرعان ما قرر الإبتعاد عن الكوفة، فنقل مقامه إلى مدينة شيدها قرب «ابن هبيرة» - على مبدعة ٤٨ كيلا شمال شرقي الكوفة، وسماها أيضا «الهاشمية»، غير أن القوم ظلوا يطلقون عليها الإسم القيم (مدينة ابن هبيرة)، فلم يرضه ذلك، وربما كانت هناك أسباب أخرى زادت من استيائه من عاصمته الجديدة، ومن ثم فقد انتقل إلى «الأنبار» وشيد على مقربة منها مدينة سماها كذلك - وللمرة الثالثة - «الهاشمية»، فأقام فيها، حتى توفي في عام ١٣٦هـ، كما أقام بها كذلك خليفته «أبو جعفر المنصور» (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) في أول ولايته للخلافة.

غير أن المنصور سرعان ما أدرك أن الهاشمية (نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ) وكذا بني العباس) أو «هاشمية الأنبار» لا تصلح مقرا للخلافة، ومن ثم فقد أخذ يبحث عن مكان آخر، يقع وسط أرضين خصبة، يرويها ماء دجلة، والجداول التي تأخذ مياهها من الفرات، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته، وتتوافر فيه سبل المعيشة، وفي مكان وسط العراق، حيث العواصم القديمة الكبرى - مثل «أكّد» عاصمة سرجون الأكدي، و«بابل» العاصمة العتيدة للآشوريين والكلدانيين، بل والإخمينيين، فضلا عن الإسكندر المقدوني، و«سلوقية» عاصمة السلوقيين، و«طيفسون» عاصمة الفريثيين والساسانيين - ، وفي أطراف هذه المنطقة كانت الحيرة عاصمة المناذرة، والكوفة المركز الرئيسي الأول للعرب المسلمين -.

وهكذا بعث المنصور روادا يختارون له مكانا لحاضرتة الجديدة، فدلوه على مكان يقع على مقربة من «بارما» جنوبى الموصل، فخرج إليها في جمع من رجاله بلاطه وبنات فيه، ولما أصبح سأل رجاله عنه، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه، فقال: ولكن لا مرفق فيه للرعية، ودلهم على مكان تجلب إليها المون من البر والبحر، كان قد مر به، فعاد إليه وأقام فيه يوما وليلة، وكان الوقت صيفا، فأعجبه هوائه، ووجد فيه مايفى بفرضه، ثم حبيه إليه أهل النواحي المجاورة، وهكذا اختار المنصور موقع عاصمته الجديدة في رقعة مرتفعة من الأرض على الجانب الغربى لنهر دجلة، عند مصب نهر الرافيل فيه.

وهكذا اختار المنصور موقع «بغداد» في منطقة بها بضع قرى، ودير للنصارى،

وجسر على دجلة وسوق تقام في بعض أيام الأسبوع، فالأرضين التي حول المنطقة المختارة سهلة فسيحة، فيها مزارع تسقيها ترع تخرج من مياه نهر «الرفيل» الواسع الذي يأخذ ماءه من الفرات، ومن نهر «دجيل» الذي يأخذ ماءه من دجلة، هذا إلى أن الأرضيين المزروعة كانت واسعة تنتج محاصيل زراعية بمقادير كبيرة، هذا فضلا عن أرضين منبسطة تقابلها في شرق دجلة، تروى مزارعها عدة أنها وترع أكبرها «بوق».

وبدا المنصور في بناء عاصمته الجديدة في عام ١٤٥ هـ، وتم بناؤها في عام ١٤٧ هـ، وأطلق عليها إسم «مدينة السلام»، غير أن الناس إنما كانوا يسمونها في الغالب «مدينة المنصور» - نسبة للخليفة المنصور الذي شيدها - كما أطلقوا عليها، وعلى ما شملته من مبان، عند توسعها «بغداد»، وهو الإسم الذي كان يطلق على المنطقة منذ أيام البابليين، و«بغداد» - فيما يرى البعض - مكونة من كلمتين، «باغ» وهي بالفارسية بمعنى «بستان»، و«داد» وهو إسم لرجل كان يملك هناك بستانا، على أن هناك من يرى أن «بغ» إسم صنم، و«داد» وهو إسم لرجل كان يملك هناك بستانا، وهناك من يرى أن «بغ» إسم صنم، و«داد» بمعنى أعطى أو منح، روى أن كسرى أقطع هذه الناحية عبدا من المشرق من عبدة الأصنام، فقال العبد: بغ دادى، أى أن الصنم أعطاني، وروى الإمام النسائي أن رجلا قدم على «عبد العزيز بن أبي رواد»، فقال له: من أين أتيت؟ فقال: من بغداد، فقال: لا تقل بغداد، فإن «بغ» صنم، و«داد» أعطى، ولكن قل: «مدينة السلام».

وأيا ما كان الأمر، فإن المنصور جعل مدينته مدورة، وأحاطها بخندق وسورين، بينهما فسحة واسعة، وكان السور الداخلى أعرض سمكا، وأعلى ارتفاعا، وأحكم بناء، وعليه شرفات كالأبراج، كما جعل للمدينة أبوابا أربعة (باب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان)، وفوق كل باب قبة، وحصن كل مدخل بباب ضخمة من حديد يمكن إقفاله، ورسم في داخلها سككا مستقيمة تمتد إلى رحبة واسعة في وسط المدينة المدورة.

هذا وقد شيد الخليفة في وسط الرحبة قصرا كبيرا مربع الشكل (طول كل ضلع منه ٢٤٠ مترا)، وبني في طرف القصر «إيوانا» ضخما، تعلوه قبة سامقة

الإرتفاع، خضراء اللون، ترى من مسافات بعيدة، وجعل سقفه من الساج، وزخرفه بماء الذهب، ومن فقد سمي «قصر الذهب» - حيث كان مقام الخليفة ومقر عمله - ثم بنى شرق القصر جامعاً واسعاً مربع الشكل (طول كل ضلع فيه ١٢٠ متراً).

وظللت بغداد عاصمة الخلافة العباسية، حتى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢م)، فبنى عاصمته «سامراء» (سر من رأى) - على مسبعة حوالى ١٠٠ كيلاً شمالى بغداد، على الضفة اليسرى للندجلة - وذلك فى عام ٢٢١هـ، ثم انتقل إليها مع جيشه وكبار رجال دولته، غير أن بغداد لم تتأثر كثيراً بانتقالهم، وإنما ظلت عامرة مزدهرة، وظل الخلفاء العباسيون يقيمون فى «سامراء» قرابة السبعين عاماً، حتى نهاية عهد «المعتضد» (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)، ثم عادوا بعدها إلى بغداد، فبقوا بها حتى نهاية الدولة العباسية فى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م على أيدي المغول، بقيادة «هولاكو».

وسرعان ما سارع الخراب إلى «سامراء»، ولم يبق فيها إلا قبر مولانا الإمام على الهادى (الإمام العاشر)، والسرداب الذى اختفى فيه محمد المنتظر - الإمام الثانى عشر عند الإمامية الإثنى عشرية - هذا فضلاً عن قبور الخلفاء العباسيين: الواصل والمعتز والمعتز والمعتز والمعتز والمعتز والمعتز والمعتز.

هذا وقد ذكر لنا «ياقوت الحموى» سبعة عشر قصراً، بناها «المعتصم» و«المعتز» (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) فى «سامراء»، وقد أصبحت هذه القصور نموذجاً للقصور التى بنيت فيما بعد فى البلاد الواقعة فى بخارى شرقاً، وقرطبة غرباً^(١).

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٠/٩ - ٢٤١، الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ٢١/١ - ٨٢. ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٢ - ١١٧، اليعقوبى: كتاب البلدان ص ٢٣٩ - ٢٥٤، صالح أحمد العلى: المرجع السابق ص ٣٧٣ - ٣٨٦، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٣٦٠/٢ - ٣٨٢. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٥٥٧/٥ - ٥٦٠، ٥٧٣ - ٥٧٥، ابن كثير: البداية والنهاية ٩٦/١٠ - ١٠٣، محمد الخضرى: تاريخ الأم الإسلامية، الدولة العباسية ص ٧٧ - ٧٩، عبد العزيز سالم: العصر العباسى الأول ص ٦٣ - ٦٥.

وكذا - LeStrange, (Guy), Baghdad During The Abbasid Caliphate, Oxford, 1924, p. 9-18.

الباب الثالث

بلاد الشام

الفصل الأول فلسطين

القدس الشريف:

تقع القدس علي خط عرض $31^{\circ} 46' 45''$ شمال خط الاستواء، وعلى خط طول $35^{\circ} 13' 25''$ شرق جرينتش، وعلى مبعده ٢٤ كيلا إلى الغرب من البحر الميت، و٥٣ كيلا إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط، وثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من «بيت لحم»^(١)، وهي هضبة غير متسوية تماماً، يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠، ٢٤٦٩ قدماً، وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير، فالحرارة فيها قد تتجاوز 30° صيفاً، وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء، كما أن التفاوت في الحرارة كبير بين الليل والنهار، ومطرها شتوى متوسط، ورطوبتها متوسطة أيضاً، ويندر بها الثلج وليس بها أنهار، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة الماء وصلاحيته للشرب وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة عند هطول الأمطار، وكانت المدينة إلى عهد ليس ببعيد تعتمد أساساً على جميع مياه الأمطار في صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض^(٢).

وأعلى مرتفعات المدينة يوجد في حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ومن ثم فقد اعتبرت منذ القدم موقعاً استراتيجياً قوياً جداً، واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعيد، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها، وهم مايزالون على مسافة طويلة^(٣).

وهذا وقد اشتهرت المدينة بعدة جبال، أولها: جبل الزيتون (جبل الطور) ويقع إلى الشرق من القدس، مواجهاً لأسوار الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، ويفصله عنه واد عميق سريع الانحدار، هو وادى «قدرون» ويسميه التلمود «جبل المسح» أى جبل التتويج، لأن القوم إنما كانوا يستخدمون زيتونة القدس في تتويج

(1) M.F.Unger, op.cit., p. 576.

(٢) حسن ظاظا، القدس، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ١١.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١١ - ١٢. وانظر محمد يوسى مهران: إسرائيل ٨١٢/٢ - ٨٦٦ (الاسكندرية ١٩٧٨) وانظر طبعة ١٩٦٩ ص ٧٣١ - ٧٧٠.

ملوكهم من بنى إسرائيل، وعليه كانت تحرق بقرة حمراء قرباناً ليهوه رب إسرائيل، ثم يستخدمون رمادها فى تطهير الهيكل، وإعادة تكريسه إذا دنس، وهى عادة وثنية كانت منتشرة فى هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية.

وأما ثانى الجبال فهو «جبل بطن الهراء»، وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس عنها «وادي سلوان» الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادى قدرون، ويسميه اليهود «الجبل الفاضح» (هارها مشحيت)، ويزعمون أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبية وأنه المقصود فى رواية التوراة فى سفر الملوك الأول (١٩ : ١-٨)، وأما ثالث الجبال، فهو «جبل صهيون» والذى سماه داود بعد أن احتل المدينة «جبل داود» ويقع فى الجنوب الغربى للقدس القديمة، وهناك «جبل موريا» أو «جبل بيت المقدس»، ويقوم عليه مسجد الصخرة والمسجد الأقصى.

ثم هناك «جبل أكرا» حيث توجد كنيسة القيامة، ثم جبل رأس المشارف (سكوبوس)، والذى يسميه التلمود «جبل المراقبين» ويقع شمال شرقى المدينة وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقى إلى الشمال، ويفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة العمران» ثم هناك «جبل رأس أبو عمار» ويقع إلى الغرب من قرية «بتير» وهناك «جبل السناسين»، ويقع إلى الجنوب الغربى من «وادي فوكين» ثم «جبل النبی صموئيل» ويقع شمال غربى المدينة، على بعد قريب من غربى قرية «بيت حنينا»، وشمال قرية «بيت أكسا»

هذا، ويبدو أن هناك جبلا كان فى قديم الزمان، يقوّم بين جبل سكوبولس وبين هضبة الحرم الشريف (جبل موريا)، ذكره «يوسف بن متى» فى كتابه «حرب اليهود الجزء الأول - الباب الخامس»، وسماه «بيزيتا» (أى بيت الزيتون أو «منبت الزيتون»)، ولما تولى أجريبا الأول، (٤١ - ٤٤ م) من أسرة هيرودس الكبير فردم ما بين الجبلين - جبل موريا، وجبل بيزيتا - ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة» (٤).

(٤) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٢ - ١٥؛ عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة

١٩٧٤، ص ١٣ - ١٥

هذا ومحاط القدس بعدة تلال، لعل أهمها «تل الفول» ويقع على مبعدة ستة كيلو مترات إلى الشمال من القدس، حيث كانت مدينة جبعة القديمة، والتي كشف «وليم ألبرايت» فيها عن بقايا قلعة شاول، فيما بين ١٩٢٢، ١٩٣٣ م، والتي لم يبق منها في الواقع إلا جزء صغير، يتكون من برج في أحد الأركان وجزء من الاستحكام المسقوف المجاور له^(٥)، ثم هناك تل الكابوس على مبعدة ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من المدينة المقدسة، وتل النصبه على مبعدة اثنين من الكيلو مترات جنوبي «البيرة» في قضاء القدس، وهناك كانت تقع مدينة المصفاة الكنعانية - حيث نودى يشاؤل ملكا على إسرائيل^(٦) ثم هناك «تل القرين» ويقع شمال شرق المدينة بين «وداي الصوينت» شمالا، وقارة جنوباً، وتل صرعة (تل صروع بالعبرية)، ويقع غربي جبال القدس، حيث توجد قرية تسمى باسمه، وإلى الشرق من قرية «دير رافات»، وإلى غرب «عرطوف» وأخيراً فهناك «تل شلتا» (تل شيلات) ويقع في جبال القدس غربي قرية «بلعين» وعلى مقربة من قرية «شلتا»^(٧).

وأما الوديان المحيطة بمدينة القدس، فأهمها وادي قدرون: وهو اسم جدول الماء الذي يجري في قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «يهو شافط»، وطوله نحو كيلو مترين، ويفصل السور الشرقي للقدس عن جبل الزيتون ويعتقد كثير من الطوائف اليهودية والمسيحية أن الحشر يوم القيامة إنما سوف يكون في هذا الوادي، اعتماداً على روايتين في التوراة، تقول الأولى: «احمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهو شافط، لأنني هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية»^(٨).

(5) W.F.Albright, The Archaeology of Palastine, (penguin Books), 1949, p. 120 - 121.

(٦) صموئيل أول ١١: ١٠ - ١١: ٢٧.

(٧) عبد الحميد زايد، المرجع السابق ص ١٥.

(٨) يروئيل ٢: ٣، ١٣؛ حسن ظاظا، المرجع السابق ص ١٥ - ١٦.

وهناك وادى سلوان: ويمتد على طول جنوب القدس، حتى الطرف الجنوبي الشرقي من جبل صهيون، وقد أطلق عليه العرب باسم «حقل الدماء»، وكان يسمى قبل مجئ العبرانيين «وادى هنم» نسبة إلى قبيلة «هنم» (بتشديد النون) وقد جاءت كلمة الوادى فى بعض اللغات السامية القديمة تحت اسم «جى» فكان يقال «جيهنم» - أى هذا الوادى - وكانت قبيلة «هنم» تقدم الضحايا البشرية لإلهها «مولك» بذبحها والقائها فى النار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنم» على مكان العذاب فى الآخرة، للشبه القائم بينها.

ثم هناك وادى الجبانة أو «التيرويون»، ويفصل جبال صهيون عن غرب القدس، حيث ينتهى وادى سلوان، وكان يسمى فى الجزء الجنوبي الغربى من القدس «وادى الزبالة» أو «وادى الدمن» أو «وادى القمامات»، وهناك كذلك وادى الأرواح (رفائيم، أو العفاريت)، ويدور حول غرب جبل صهيون، وأقصى الجنوب، هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الوديان، مثل وادى زيتا ووادى التعمارة ووادى النار ووادى مكلك والودى الكبير^(٩).

(٢) مكانة القدس الدينية:

تحتل القدس مكانة دينية فريدة بين مدن العالم، القديم منها والحديث، فهى المدينة الوحيدة فى العالم أجمع، التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت وماتزال - وستظل أبداً إن شاء الله - رمزاً للبشرية المتدينة على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، وهكذا رأينا اليهود يقدسونها، لأن لهم فيها «كبريات دينية وسياسية، فقيها كان هيكلمهم المشهور، كما أنها كانت عاصمة لدولتهم حيناً من الدهر.

ويقدسها المسيحيون لأنها موطن المسيح ومبعث هدايته، ومن ثم فقد اتخذوا عادة الحج إليها كما يفعل اليهود، وربما الأرجح لأن المسيح، عليه السلام - طبقاً لرواية إنجيل لوقا - قد حج إليها فى صباه مع أبويه (مريم العذراء ويوسف خضيبها)، ولما كان فى الثانية عشرة من عمره، بقى فيها حيناً من الدهر يتعلم، ^(١٠) ثم زاد الحجيج من المسيحيين إلى القدس، بعد أن بنت

(٩) عبد الحميد رايد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧، حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥-١٧.

(١٠) لوقا، ٢: ٤١-٥٢.

«هيلانة» أم الإمبراطور الروماني قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م) - الذي لم يعترف بالمسيحية كما يانة فحسب، بل إنه هو نفسه قد اعتنق المسيحية في عام ٣١٢م، على رأى جماعة من المؤرخين، وإن رأت جماعة أخرى أنه بقى وثنياً طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض - بنت فى عام ٣٢٦ م كنيسة القيامة، فسمى إليها الحجاج من كل حذب وصوب، لأنهم يعتقدون أن جثمانه الطاهر دفن فى مكان هذه الكنيسة، ثم رفع إلى السماء^(١١).

ويقدسها المسلمون^(١٢) لأن الله تعالى شاءت إرادته أن يخصها بالعديد من الأنبياء ابتداءً من أبيهم إبراهيم، وحتى عيسى ابن مريم، عليهم السلام - ولأن فيها أولى القبلتين^(١٣)، وثالث الحرمين الشريفين^(١٤)، ولأن بها مسرى جدها النبى الأعظم مولانا وسيدنا رسول الله - ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله﴾^(١٥).

(١١) عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٩، فليب حتى، المرجع السابق، ص ٣٨٧، ثم قارن Eusebius, BK, I.Ch. 4; Sozomenus, BK, I.Ch. 4; Eusebius, BK, IK, IX, Ch. 9, 2

(١٢) انظر التفصيلات: محمد ييوى مهران، القدس حتى عصر داور، مؤتمر قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية عن «القدس - التاريخ والحضارة» فى الفترة (٢-٥ نوفمبر ١٩٩٦م).

(١٣) انظر: سورة البقرة: آية: ١٤٢ - ١٤٤ ك وكذا: تفسير الطبرى ١٢٩/٣ - ١٨٤ تفسير ابن كثير ٣٧٢/١ - ٣٨٠ تفسير القرطبي، ص ٥٣١ - ٥٥٠ تفسير المنار ١٢/٧، ١٢-١٣ صحيح البخارى ٢٥/٦ - ٢٧، (دار الشعب ١٣٧٨هـ)؛ صحيح مسلم ١٦٠/٢ - ١٦٢، (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠)؛ مسند الإمام أحمد ٢٤٦/٥ - ٢٤٧، (القاهرة، طبعة الحلبي)؛ الهيثمى، مجمع الزوائد ١٢/٢؛ السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٤٣/١، ١٤٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٣٧٢/٢ - ٣٧٧؛ ابن هشام، سيرة النبى ﷺ، ٥٥٠، طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥.

(١٤) أنظر: صحيح مسلم، ٤١/٢، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢، الزركشى، كتاب إعلام الساجد، ص ٢٨٧؛ عبد اللطيف مشتهرى، المسجد الأقصى، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٣ - ٣٧.

(١٥) سورة الإسراء، آية. ١، وانظر: تفسير ابن كثير ١٣١/٥ - ١٢٧؛ تفسير القرطبي، ص ٣٨١٩ - ٢٨٢٨؛ عبد الله محمود شحاتة، تفسير سورة الإسراء، ص ٢١ - ٤٧، (القاهرة ١٩٧٥)؛ ابن هشام، سيرة النبى ﷺ، ٣٩٦/١ - ٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٩٣/١ - ١٠٨؛ صحيح البخارى ٦٩/٥، ١٠٤/٦؛ صحيح مسلم ٣٧٧/١ - ٤٠٢؛ فتح البارى بشرح صحيح

ويروى أبو الدرداء - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ - قال: «فضلت الصلاة في المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفي مسجدى بألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة»^(١٦)، وعن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا^(١٧).

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: «البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء مافيه موضع شبر، إلا قد صلى فيه نبي، أو قام ملك»^(١٨).

(٣) أسماء مدينة القدس:

عرفت مدينة القدس الشريف بأسماء كثيرة، غير أن الاشتقاق الأصلى لاسم المدينة غير مؤكدة على وجه التحقيق، وإن كان من الواضح أنه من أصل سامى، وأقدم النقوش التى ورد فيها اسم المدينة المقدسة، هو نقش مصرى يرجع إلى آخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد^(١٩)، على رأى، حيث ذكرت تحت اسم «أورساليوم» Ursalimum^(٢٠)، وإلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦ - ١٦٥٠ ق.م)^(٢١) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» Aushamum، على رأى آخر^(٢٢).

=البخارى ١٥٩/٧ - ١٧٢، محمد الفزالى، فقه السيرة، ص ١٣٤ - ١٤٧، (القاهرة ١٩٦٥)؛ محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ٤٢١/١ - ٤٤٥؛ عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة، ص ١١٠ - ١٢٤ وانظر عن «الإسراء» (محمد يومى مهران: السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول ص ٢٥٣ - ٢٤٨، بيروت ١٩٩٠).

(١٦) - أبو اليمن مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول، ص ٢٢٩؛ محمد محمود الفحام، المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٢.

(١٧) صحيح البخارى ٧٦/٢ - ٧٧، (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨ هـ)، تفسير القرطبي، ص ٣٨٢٧ - ٣٨٢٨، (القاهرة ١٩٧٠).

(١٨) مجير الدين الحنبلى، المرجع السابق، ص ٢١١.

(١٩) هناك من يرى أن النقش إنما يرجع إلى أيام سنوسرت الثالث (١٩٧٨ - ١٨٤٠ ق.م) أو بعده بقليل وربما قبله بقليل.

(20) M.F.Unger, op.cit., p. 576.

(٢١) نظر: محمد يومى مهران: «حركات التحرير فى مصر القديمة»، ص ١٠٤، ١١٦.

(٢٢) أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ٢٣٥، وكذا:

J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 329; W.Ward, Egypt and The East Mediterranean, in The Second Millennium B.C. Orientalia, Vol. 30, Rome, 1961, p. 32.

ونقرأ فى رسائل العمارنة من عهد الملكين «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) وولده إختاتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) فى رسالة من «عبد خيبا» أمير القدس - وكانت تدعى، على مايدرو، أوروسالم - من قبل فرعون، يقول فيها «الأبى والأبى وضاعنى فى هذا المكان، بل يد الملك القوية وضعتنى فى بيت آبائى»^(٢٣). وبقيت المدينة كذلك تحت الحكم المصرى، وإن استقل بها «اليبوسيون» بعد فترة الضعف التى انتابت الإمبراطورية المصرية، وسموها «يوس»^(٢٤)، حتى جاء داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)، وأخذها منهم، وأطلق عليها اسم «مدينة داود»^(٢٥)، وربما لأن اسمها القديم، إنما كان غريباً على آذان العبريين، وربما لأن فيه تخليداً للالهوت أجنبي. وربما - وهو الأرجح - لأن داود إنما أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على المدينة القديمة، أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة كذلك اسم «يورشاليم» أو «أورشالم»، بإضافة لاحقة عبرية، كى تصبح عبرية النطق.

وأياً ماكان الأمر، وسواء أكان داود قد أطلق عليه المدينة اسماً عبرياً أو أنه أراد أن يخلد اسمه، فهو فى ذلك إنما كان مقلداً لغيره من الحكام الذين كانوا - ومايزالون - يطلقون أسماء جديدة على أماكن قديمة، كما أن الاسم الجديد الذى أطلقه داود على المدينة (مدينة داود) لم يحل محل الاسم القديم، ويفسر بعض العلماء ذلك على أنها حالة من حالات كثيرة فى التاريخ القديم والحديث أخفقت فيها الأسماء الجديدة التى فرضتها السلطات الحاكمة فى القضاء على الأسماء القديمة التى لها جذور عميقة فى الوعي الشعبى^(٢٦).

وعلى أى حال، فلقد دعت المدينة فى النقوش الآشورية باسم «أورساليوم»^(٢٧) Ursalumum، وفى النقوش اليونانية الرومانية تحت اسم «هيروسوليم» Hiero-solyma، هذا وقد أطلق على المدينة أسماء أخرى كثيرة - شأنها فى ذلك

(23) S.A.B.Mercer, op.cit., II, L. 286 - 289; W.F.Albright, ANET, p. 487 - 489.

(٢٤) قضاة ١٩: ١٠ - ١١.

(٢٥) صموئيل ثان ٩: ٥.

(26) S.Yeivin, JNES, 7, 1947, p. 40.

(27) M.F. Unger, op.cit.p. 576.

شأن غيرها من المدن الهامة في تاريخ العالم - ومن الأسماء التي أطلقتها التوراة اسم «أريئيل» (إشعيا ٢٩: ١) ومدينة العدل (إشعيا ١: ٢٦) والمدينة (مزمو ٧٢ : ١٦) ومدينة الله (مزمو ١٨: ١) ومدينة الحق (زكريا ٨: ٢) ومدينة القدس (إشعيا ٢: ٨؛ نحميا ١: ١١) وجبل القدس (إشعيا ١: ٢٧) والمدينة المقدسة (متى ٥: ٤)، وأما أسماؤها العربية فهي بيت المقدس والقدس الشريف، أما الاسم الغالب فهو «القدس»، والذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها.

هذا ولم يذكر المؤرخ اليوناني «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) في تاريخه اسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام، وسماها «قديتس» مرتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي «سالمون مولك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الاسم على الأرجح هو «القدس»، محرفاً في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا» (٢٨).

وأما معنى أورشليم فقد اختلف فيه، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أور» بمعنى موضع أو مدينة، ومن «شالم» وهو إله وثني لسكان فلسطين الأصليين، هو إله السلام، فالمدينة إذن كانت مكرسة لإله السلام، حتى وصل العبرانيون، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث»، فتكون أورشليم، بمعنى «ميراث السلام»، أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أي السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأه» وهي بمعنى الخوف باللغة العبرية، فقرر الله أن يسميها بالإسمين جميعاً (يرأه - شلم) أي (أورشليم) بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفلولوجورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضاً أن (يرو) يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «إله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «إله السلام» (٢٩).

وأياً ما كان الأمر، فما أن يأتي الرومان وتحدث منذبحة هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) الرهيبة في عام ١٣٥ م، حتى تكن ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان اسم المدينة إلى «إيليا كابيتولينا».

(٢٨) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٨، قاموس الكتاب المقدس، ١٣٩/١.

(٢٩) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٩.

أو «إيليا» فقط، وأصبح لفظ أورشلیم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي.

وفي العام الخامس عشر من هجرة المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة نفسه، وأن يمنحهم الآمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه (١٣ - ٢٢هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) ذلك، ويأتى إلى القدس في عام ١٥هـ / ٦٣٦م فيدخل المدينة التي يسلمها له البطريك اليوناني «صفر نيوس» ويمنح أهلها النصارى الآمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شىء في أمره، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود^(٣٠)، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريق أدركته الصلاة، فطلب إليه أن يصلى بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كيستهم وخالقوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، وإنما صلى في مكان قريب، عند الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذي عرف باسمه^(٣١).

(٣٠) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفاروق عمر بن الخطاب رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شىء يسمح بهذا، ولكنه تعهد لى نصارى القدس ألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حارتهم (حسن طاعا، المرجع السابق، ص ٣٠).

(٣١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ٦٠٧/٣ - ٦١٣، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨)؛ الواقدي، فتوح البلدان، ٢٦٢، ٢٤٤، ٣٥٧، ٣٦٧؛ محمد الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية ٥/٣ - ٧، (القاهرة ١٣٧٠هـ)؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ١/١٨٨، (القاهرة ١٩٦٧)؛ محمد حسين هيكل، الفاروق عمر ٢٤٦/١ - ٢٦٣، (القاهرة ١٩٦٢)؛ على محمد على، ملف وثائق القضية الفلسطينية، ٤/١ - ١٢، (القاهرة ١٩٧٠)؛ حسن طاعا، المرجع السابق، ص ٣٠؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٧٣ - ١٧٥.

الفصل الثانى

المسجد الأقصى

المسجد الأقصى أو بيت المقدس، موطن العديد من الأنبياء والمرسلين، ابتداءً من أبيهم إبراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، وثانى مسجد وضع فى الأرض بعد الكعبة البيت الحرام^(١) وأولى القبلتين^(٢)، وثالث الحرمين الشريفين^(٣)، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(٤)، وليس هناك من شك فى أن هذا الإسرائء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام فى مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى فى القدس الشريف إنما هى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة المباركة إعلان ورائة النسي الخاتم محمد ﷺ لمقدسات الرسل قبله، واشتغال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، ولهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأهمهم فى محلهم ودارهم، فدل هذا على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن ثم فقد كانت رحلة الإسرائء ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معانى أكبر من المعانى القرية التى تتكشف عنها للنظرة الأولى^(٥).

(١) صحيح البخارى ١/ ١٧٧، صحيح مسلم ١/ ٣٧٠، ٢/ ١٥٣ - ١٥٤، مسند الإمام أحمد ٥/

١٥٠، ١٦٧، تفسير القرطبي ص ١٣٧٩، تفسير المنار ٤/ ٦-٧.

(٢) انظر: سورة البقرة: آية ١٤٢ - ١٤٤، صحيح البخارى ٦/ ٢٥ - ٢٧، صحيح مسلم ٢/ ١٦٠ -

١٦٢، مسند الإمام ٥/ ٢٤٦ - ٢٤٧، مجمع الزوائد للهيثمى ٢/ ١٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم ١/ ٥٤١ (القاهرة ١٩٨١)، الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٨٧.

(٤) سورة الإسرائء: آية ١ وانظر: تفسير القرطبي ص ٣٨١٩ - ٣٨٢٨، تفسير ابن كثير ٣/ ٥ -

٤١، فتح البارى ٧/ ١٥٩ - ١٧٣، صحيح البخارى ٥/ ٦٦ - ٦٩.

(٥) فى ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٥.

ولعل سائلاً يتساءل: من هذا الذى نال شرف بناء المسجد الأقصى؟

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنسائي (واللفظ له) بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلافاً ثلاثة، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ملكاً لا يتبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرج من خطيبته كيوم ولدته أمه^(١).

وروى البخارى ومسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد الحرام، قلت ثم أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما، قال أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعده فصله، فإن الفضل فيه^(٢)، وفى رواية عن أبي ذر أيضاً قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد ثم قلت أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما، قال أربعون سنة، ثم حينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد^(٣). وفى رواية البخارى: ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله هذا وقد أثار هذان الحديثان الشريفان جدلاً بين العلماء، على أساس أن إبراهيم عليه السلام وهو باني البيت الحرام، وأن سليمان عليه السلام هو باني المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام^(٤)، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوى بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بنائهما، فيحتمل أن يكون واضح المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد

(١) منن النسائي ٤٣ / ٢، منن ابن ماجه ١ / ٤٥١، انظر: جامع الأصول ج ٩ حديث ٦٣٠٧،

صحيح الجامع الصغير: حديث ٢٠٨٦، البداية والنهاية ٢ / ٢٦، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٨

(٢) صحيح البخارى ٤ / ١٧٧، صحيح مسلم ٣ / ٥.

(٣) صحيح مسلم ٢ / ١٥٣ - ١٥٤ (القاهرة ١٩٨١ / ٢ / ٥)، وانظر طبعة بيروت ٢ / ٥ مسد الإمام

أحمد ١٥٠ / ٥، ١٦٧، تفسير الطبرى ٧ / ٢٢، تفسير ابن كثير ٢ / ٦٣، تفسير القرطبي ص

١٣٧٩، تفسير المنار ٤ / ٦ - ٧.

(٤) الواقع أن الفترة بين وفاة إبراهيم وولادة سليمان عليهما السلام، لا تصل أبداً إلى ألف عام،

فإبراهيم عاش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م) وسليمان عاش فى الفترة (٩٧٣ -

٩٢٢ ق. م).

ذلك^(١)، ولعل قريباً من هذا ما ذهب إليه ابن الجوزى والقرطبي بأنه ليس المراد أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أسس بناء الكعبة المشرفة^(٢)، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بناء بيت المقدس، وإنما هما جدداً ما كان قد أسسه غيرهما^(٣)، كما ذهب برهان الدين الزركشى إلى أن سليمان عليه السلام، إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لتأسيسه^(٤) على أن الأستاذ رشيد رضا يذهب إلى أن هذا التفسير ضعيف لأنه سماه بيتاً، ولو جعل المكان مسجداً ولم يبين فيه لما سمي بيتاً، بل مسجد أو قبلة، ثم إن ذلك مبنى على القول بأن إبراهيم هو الذى بنى أول مسجد للعبادة فى أرض بيت المقدس، وذلك معقول، وإن لم يكن عندنا نص صريح^(٥).

هذا ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن الذى أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام، وأن سليمان كان مجدداً له، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضاً، حيث يقول: وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى^(٦)، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله، وهذا متجه ويشهد له ما

(١) صحيح مسلم ١٥٣ / ٢ (هامش / ٢).

(٢) رأى عندى أن الكعبة المشرفة ترجع فى بنائها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجرى فى خبر صحيح عن المعصوم عليه السلام أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك فى هذا بقوله مكان البيت فليس يناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر فى عظم الله المقرر فى قدرته، المعظم عند الأنبياء موضع من لدن آدم إلى زمن إبراهيم (ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٦٣، ٢ / ٢٩٨، تفسير المنار ١ / ٤٦٦ - ٤٦٧، الكشاف ١ / ٤٤٦، تفسير الطبرى ٣ / ٧٠، محمد يوسى مهران: دراسات تاريخية فى القرآن الكريم ١ / ١٨٣ - ١٨٥).

(٣) فتح البارى ٦ / ٤٠٨، تفسير القرطبي ٤ / ١٣٨.

(٤) الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٣٠.

(٥) تفسير المنار ٤ / ٧ (القاهرة ١٩٧٣).

(٦) يذهب أهل الكتاب، كما جاء فى العهد القديم، إلى أن داود عليه السلام، كان أول من فكر فى بناء المسجد الأقصى، بل وقد اشترى مكانه من رجل يوسى يدعى «أرنان» (أروبا أو أرونة) كان قد اتخذه جبرناً أو بيدراً، وكان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل، فرفض داود واشتراه منه، بحمسين شاقلاً من الفضة، وتذهب الرواية إلى أن داود قد منع من بناء البيت، لأن ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان، ولكنها قد سجلت معارضة داود الفعالة لولده سليمان فى إقامة البيت، وذلك بتجهيز المواد اللازمة للبناء، فصلاً عن كميات الذهب والفضة والسحاس

ذكرناه من الحديث (يعنى حديث أبى ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء^(١) كما ذهب إلى نفس رأى الزركشى فى إعلام الساجد^(٢)، والحميرى فى الروض المعمار^(٣)، وأخيراً فلقد ربط البعض بناء المسجد الأقصى، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل، بالملائكة، وربطه آخرون بآدم عليه السلام، بل إن فريقاً رابعاً ربطه بسام بن نوح عليه السلام^(٤)، وجاء فى تفسير القرطبى أن آدم هو الذى بنى المسجد الأقصى، بعد بناءه للبيت العتيق بأربعين عاماً، وأن يعقوب قد أقام قواعده وجدده فقط، بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق^(٥).

ويذهب الدكتور عويد المطرفى إلى أن أقرب الروايات إلى المعقول أن الذى بنى المسجد الأقصى تأسيساً، إنما هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة، ورجوعه إلى مستقره بالشام^(٦)، كما استظهر ذلك أبو حيان فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٧)، من أن إبراهيم عليه السلام، كما وضع الكعبة، وضع بيت المقدس^(٨).

وفى الواقع فإن كثيراً من المفسرين والمؤرخين إنما يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام هو الذى بنى بيت المقدس، ففى تفسير أبى السعود أن سليمان لما أتم

=/= والجديد وغيرها (مصرئيل ثان ٢٤ / ١٦ - ٢٥، أخبار أيام ثان ٢٢ / ١ - ١٩، محمد يومى مهران: إسرائيل ٢ / ٨٤٣ - ٨٤٤، تاريخ ابن خلدون ٢ / ١١١ - ١١٢) ثم قارن: تفسير ابن كثير ٤ / ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١ / ١٦٣، ٢ / ٢٩٨.

(٢) الزركشى: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) الحميرى: الروض المعمار فى حبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥، ص ٥٥٦.

(٤) سجير الدين الحنبلى: الأئمة الجليل بتاريخ القدس والخليل الجف ١٢٨٨هـ، الجزء الأول، ص ٨، فتح البارى ٦ / ٤٠٩، الزركشى: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٥) تفسير القرطبى ٤ / ١٣٨، فتح البارى ٦ / ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٦) عويد المطرفى: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٧) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٨) تفسير البحر المحيط ٣ / ٦.

بناء بيت المقدس تجهز للحج، وهناك فى مكة كان يذبح كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاه^(١)، ويقول الحافظ السهيلي: وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتداءً مبناه فأكماله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه إيلياء، وتفسيره العربية: بيت الله^(٢)، ذكره البكرى، وفى الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضاً فى زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيعة كان على عهد سليمان عليه السلام^(٣)، ويقول الطبرى فى التاريخ: وأصاب بنى إسرائيل فى زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فأتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان ذلك فيما قيل، لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفى قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان باستتمامه، وقتل القائد الذى قتل أخاه (يعنى يوباب الذى قتل أبشالوم) فلما دفنه سليمان نفذ لأمره فى القائد وقتله واستتم بناء المسجد، ثم يتحدث الإمام الطبرى بعد ذلك عن التعداد الذى قام به داود فى بنى إسرائيل، والبلايا التى حاقت بالقوم بسببه، من قبل، وأن داود استغفر ربه وطلب العفو عن بنى إسرائيل، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم يغمدونها، يرتقون فى سلم من ذهب على الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان يتبغى أن يبنى فيه مسجد، فأراد داود أن يأخذ فى بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، وأنت قد صبغت يديك فى الدماء، فلست بباينة، ولكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان أسلمه من الدماء، فلما ملك سليمان بناءه وشرفه^(٤): ويتفق ابن الأثير فى روايته مع الطبرى تماماً^(٥).

(١) تفسير أبى السعود ٦/ ٢٧٨، وانظر تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٣.

(٢) قارن: (محمد بيومى مهران: إسرائيل، الجزء الثانى، ص ١١٥٥ - ١١٥٨، الإسكندرية ١٩٧٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٤، هامش ١/.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٤٨٤ - ٤٨٥، ثم قارن: صموئيل ثان ١٧/ ١ - ١٧، ٢٤ / ١٦ - ٢٤.

(٥) انكامل لابن الأثير ١/ ١٢٧ - ١٢٨.

ويقول المسعودى: «ابتدأ سليمان بينان بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، الذى بارك الله عز وجل حوله»^(١)، ويقول اليعقوبى: «ابتدأ سليمان فى بيت المقدس وقال: إن الله أمر أبى داود أن يبنى بيتاً، وإن داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمى، فأرسل سليمان فى حمل خشب الصنوبر وخشب السرو، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة، فأحكمه ولبسه الخشب من الداخل، وجعل الخشب منقوشاً، وجعل له هيكلًا مذهباً، وفيه آلة الذهب ثم أصعد تابوت السكينة فجعله فى الهيكل، وكان فى التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى»^(٢)، ويقول ابن خلدون: «لأربع سنين من ملكه (أى سليمان) شرع فى بناء بيت المقدس يعهد أبيه إليه بذلك، وقد تم بناء الهيكل فى سبع سنين»^(٣).

هذا وقد أشرنا من قبل إلى الحديث الشريف الذى يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ: «إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خللاً ثلاثاً، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكاً لا يتبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»^(٤)، وعن رافع بن عمير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لى بيتاً فى الأرض، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتى، قال يارب هكذا قضيت من ملك استأثر، ثم أخذ فى بناء المسجد فلما تم السور فسقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً قال ولم يارب، قال لما جرى على يدك من الدماء، قال يارب أو ما كان ذلك فى هواك ومحبتك، قال بلى ولكنهم عبادى وأنا أرحمهم، فشق ذلك عليه فأوحى الله إليه لا تحزن فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان، فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه، ولما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى إسرائيل، فأوحى

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٧٠، وانظر ١/ ٦٩.

(٢) تاريخ اليعقوبى، ١/ ٥٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١١ - ١١٣، ثم قارن ملوك أول ٦/ ١ - ٢٥/ ٢٥.

(٤) سنن النسائي ٢/ ٤٣، سنن ابن ماجة ١/ ٤٥١، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨.

الله إليه قد رأى سرورك بينيان بيتي، فسلني أعطك، قال أسألك ثلاث: خصال، حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينفي لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال رسول الله ﷺ: أما الشتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة،^(١).

وانطلاقاً من كل هذا، فإنني أميل، حدساً عن غير يقين، إلى أن إبراهيم عليه السلام، هو الذى وضع الأسس للمسجد الأقصى، على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهى العقبة التى احتج بها صاحب تفسير المنار، وعلى أساس ما جاء فى الأحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذى بنى المقدس، وعلى أساس ما ذهب إليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الأقصى بعهد أبيه إليه بذلك، وعلى أساس أن إبراهيم عليه السلام، طبقاً لرواية العهد القديم^(٢)، إنما قد زار القدس، وأنه قد أقام المحارب لله فى فلسطين، وخاصة فى شكيم وبيت إيل وبلوطات ممرا، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الأنبياء قد فعل الشئ نفسه فى القدس، هذا فضلاً عن أنه إذا ما كان صحيحاً ما ذهبنا إليه فى هذه الدراسة وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م) وأنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالى عام ١٨٢٤ قبل الميلاد^(٣)، ومن ثم فإن بناءه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاماً، أى حوالى عام ١٧٨٤ قبل الميلاد، يكون أمراً مقبولاً، وأن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لأنه طبقاً لما جاء فى هذه الدراسة، وكما أشار العهد القديم^(٤)، فإن الخليل عليه السلام قد رزق بولده إسحاق عليه السلام، وقد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق بإسماعيل وهو فى السادسة والثمانين من عمره) وقد عاش إسحاق ١٨٠ عاماً، ومن ثم فهو كان يعيش فى الفترة (١٨٤٠ - ١٦٦٠ ق.م)، وأن يعقوب كان يعيش فى الفترة (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق.م).

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(٢) تكوين ١٢/ ٦ - ١٤، ٩ - ٢٠.

(٣) انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد يومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٨٣ -

١٩٧) نخبة العربية القديمة ص ٤٨٥ - ٥١٢.

(٤) تكوين ١٧/ ١٧، ٢٥، ٢٦، ٣٥، ٢٨، ٤٧، ٩، ٢٨.

على أساس أنه ولد لأبيه إسحاق، وهو في الستين من عمره، وأنه عاش ١٤٧ سنة، وأن بني إسرائيل قد دخلوا مصر حوالي عام ١٦٥٠ قبل الميلاد، حين كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره^(١)، وأما سليمان فهو الذي بدأ بناء المسجد الأقصى، الذي وضع إبراهيم أسسه، في عام حكمه الرابع، حوالي عام ٩٥٧ قبل الميلاد^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز إلى رواية العهد القديم عن بناء المسجد الأقصى، والذي تدعوه بيت الرب، حيث تذهب إلى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا في بيدر أرונה اليبوسى، فاشتره منه داود ومعه بقر للقرايين بخمسين شاقلاً من الفضة^(٣)، هذا وتشير الرواية بوضوح إلى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر في إقامة بيت للرب، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولاً حسناً من رب إسرائيل، الذي كان يدخر هذا العمل لولده سليمان^(٤)، ومع ذلك فإن داود عليه السلام، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه، أراد أن يسجل معارنته الفعالة لولده سليمان في إقامة بيت الرب، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، وكان قومه في عصره ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسرى أن الاعتماد على الفنيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب، ونقرأ في التوراة أن داود قد وأمر بجميع الأجانب الذين في أرض إسرائيل فاتخذ نحائين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، وهياً دلو حديد كثيراً للمسامير لمصاريح الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلا وزن، وخشب أرز لم يحدد له عدده،

(١) انظر: محمد يرمى مهران: إسرائيل ٨٠ / ٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١ / ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) انظر: محمد يرمى مهران: إسرائيل ٢ / ٨٤٠ - ٨٦٠.

(٣) من عجب أن بعض الروايات العربية التي تسب إلى أبي بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي، وليس يوسيا كنعانياً، وأن داود أراد أن يقتضيه منه، فنهاه ربه عن ذلك، ومن ثم فقد اشتره بتسعة قناطير من الذهب (السمهودى: وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى ١ / ٣٤٣ ط القاهرة ١٣٢٠ هـ) والتمن جد مقالاً فيه، بل إن رواية التوراة جعلت ثمنه هو البقر، خمسن شاقلاً من الفضة صموئيل ثان ٢٤ / ٢٤.

(٤) صموئيل ثان ١ / ٧ - ١٧، ٢٤ / ٢٦ - ٢٤، ملوك جول ٢ / ٢ وانظر: تفسير ابن كثير ١ / ٥٨، تاريخ يعقوبى ١ / ٥٨، تاريخ ابن خلدون ١ / ١١١، ابن الأثير ١ / ١٢٧ - ١٢٨.

هذا فضلاً عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب^(١).

وهكذا، وفي ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالي عام ٩٥٧ ق.م) وضع الحجر الأساسى لبناء بيت المقدس الذى استمر العمل فيه قائماً على قدم وساق سبعة أعوام، ثم واصل مهرة الصناعة والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه^(٢).

هذا ولم يقدم لنا موقع المعبد أى دليل الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، ومن هنا فإن أية محاولة فى هذه المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد^(٣)، غير أن المعلومات التى يوفرها سفر حزقيال (٤٠ - ٤٤) للمعبد الجديد، ربما تجعل فى الإمكان استعادة تخطيطه، كما يمكن قول شئ عن شكله الخارجى وتنظيمه الداخلى^(٤)، ومن ناحية أخرى فإن المعلومات التى جاءت فى سفر الملوك الأولى (١/٦ - ٣٨) إنما تشير بوضوح إلى التأثير المصرى والعراقى، رغم الإشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية وبضخامة الإنفاق^(٥).

ونقرأ فى التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الأقصى، دعا إليه شيوخ إسرائيل وكل رؤوس الأسباط لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، وأن الجميع، وعلى رأسهم سليمان، قد اجتمعوا أمام التابوت «يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت، فى قدس الأقداس، وهنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن ادخنة، ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، ويعلن سليمان أن الرب إنما يسكن فى الضباب^(٦)»، ونقرأ فى سفر الملوك

(١) أخبار أيام أول ٢/٢٢ - ١٦، أخبار أيام ثان ١٧/٢ - ١٨.

(٢) ملوك أول ١/٦ - ٢، ٣٧ - ٣٨، ٢/٧، وانظر: تاريخ ابن خلدون ١١٢/٢ - ١١٣.

(٣) J. L. Myres, Reconstructing Solomon's Temple and other Buildings and works of Art, PEQ, 80, 1948, p. 14 F.

P. L., Garlier, Reconstructing Solomon's Temple, BA, 14, 1951, P. 2 F.

(4) O. Eissfeldt, op. cit., p. 598.

(٥) اندريه إيمار وحانين أو يوايه: المرحع السابق، ص ٢٦٧.

(٦) ملوك أول ١/٨ - ١٣.

الأول (٨ / ٢٢ - ٥٣) دعوات سليمان الحارة إلى الله تعالى، ثم ينهض من أمام المذبح، ويداه مبسوطتان إلى السماء، ليعلن أمام خراف بين إسرائيل الضالة «ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر، فليكن قلبكم كاملاً لدى الرب إلهنا، إذ تسبروه في فرائضه، وتحفظون وصاياه»^(١)، ثم يشكر الرب على أنعمته التي أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل، سائلاً إياه سبحانه وتعالى أن يجيب دعوات بني إسرائيل حين يدعونه في هذا البيت، وأن يغفر لهم خطاياهم^(٢)، ثم تنتهي الاحتفالات بتقديم الذبائح لرب إسرائيل، والتي بلغت عدداً كبيراً جداً، وصل إلى «اثنين وعشرين ألفاً من البقر، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف، فدشن الملك وجميع بني إسرائيل بيت الرب»^(٣).

وعلى أية حال، فإن المسجد الذي بناه سليمان إنما قد دمر تماماً أثناء غزو «نبوخذ نصر» للقدس عام ٥٨٧ ق.م ونهب الغزاة القدس وأشعلوا فيها الحيران وأحرقوا القصر الملكي والمسجد، وهكذا ضاع كل أثر للمسجد، ومعه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات عن ذكره بعد نقله لمعبد سليمان^(٤)، ولم يستطع القوم إعادة البناء إلا عام ٥١٥ ق.م.، على أيام الملك الفارسي «دارا الأول»^(٥)، ثم دمر المعبد الثاني هذا عام ٧٠ م على يد القائد الروماني تيتوس، وأضرمت النيران في المدينة، وهدم المعبد وضارعت آثاره تماماً، حتى أن الناس قد

(١) ملوك أول ٨ / ٦٠ - ٦١.

(٢) ملوك أول ٨ / ٢٥ - ٣٤.

(٣) ملوك أول ٨ / ٦٢ - ٦٥، وانظر: تاريخ ابن خلدون ٢ / ١١٣.

(٤) محمد ييومي مهران: إسرائيل ٢ / ٩٩٧ - ١٠٠٤، وكذا:

K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, p. 291.

M. Noth, the History of Israel, London, 1965, p. 287. وكذا:

(٥) محمد ييومي مهران: إسرائيل ٢ / ١٠٣٦ - ١٠٤٩، وكذا: عزرا ٣ / ٧، ٦ / ١٥، قاموس

الكتاب المقدس ٢ / ١٠١٤، وكذا:

C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969,

M. Noth, op. cit., S. A. Cook, op. cit., p. 409، وكذا: p. 54 - 55

p. 314.

نسوا فيما بعد، إذا كان هذا المعبد على التل الشرقي أو الغربي من المدينة المقدسة^(١).

وفي عام ١٣٥ م استولى الروم على القدس، ثم أمر الإمبراطور «هديران» (١١٧ - ١٣٨ م) بتدمير المدينة تماماً وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «إيليا كابيتولينا» (Aelia Capitolina) وأبدل المعبد القديم بمعبد آخر كرس للإله الوثني «جوبتر كابيتولينس» (Jupiter Capitolinus) ثم قام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين، كدولة وكقومية، وانتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً ودينياً^(٢).

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١١٥٠ - ١٥٥، وكذا:

C. Roth, op. cit., p. 103 - 107

W. Keller, the Bible as History, 1967, p. 388.

وكذا:

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١١٥٥ - ١١٥٨، وكذا:

H. Strathmann, P JB, 23, 1927. p. 92 F

وكذا:

A. Schulten, ZDPV, 56, 1933, p. 180 F

وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 453 - 454.

(٢) السامرة:

كان «عمري» ملك إسرائيل (٨٧٦ - ٨٦٩ ق.م) يحكم من «ترزه» (ترصه)، ولكنه في عام حكمه السادس اشترى تلاً في قلب الهضبة السامرية ممن يدعى «شامر» يوزنتين من فضة، وأقام عليه عاصمته الجديدة وسماها «السامرة» - وهي سبسطية الحالية على مبعده ١٠ كيلاً شمال غرب شكيم - نسبة إلى «شامر» صاحب التل، وإن كان هناك من يرى أن الاسم بمعنى «مركز المراقبة» أو «جبل المراقبة أو الحراسة».

هذا وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات في السامرة، أثبتت أن موقع المدينة إنما قد كشف عن خبرة من اختاره بالاعتبارات الاستراتيجية، فالسامرة تقع على تل منعزل يقرب ارتفاعه من ٥٠٣ قدم، ويرتفع تدريجياً من وادٍ متسع حصب، وتحيط به شبه دائرة من الجبال العالية، كما أن هناك ينبوعاً محلياً يجعل المكان مثالياً في حالة الدفاع.

هذا فضلاً عن أن السامرة إنما كانت تقع على الطريق الرئيسي من الشمال إلى الجنوب، وفي حماية من أى هجوم يقع عليها من ناحية يهوذا - الدولة اليهودية الأخرى المعادية لها - وعلى اتصال بسهل فينيقيا، في وقت كان فيه عمري راغباً في إقامة علاقات مع مدن فينيقيا، حتى أنه زوج ولده «أخاب» من «إيزابيل» ابنة أمير صور، كما كانت أيضاً على اتصال بالجزء الغربي من دولته، حيث تقع أغنى أراضيها، هذا إلى جانب أن السامر إنما كانت - شأنها في ذلك شأن أورشليم عاصمة يهوذا - تتحكم في الطريق الرئيسي، من الشمال إلى الجنوب، على امتداد خط تقسيم المياه، وأخيراً فهناك ممرات صالحة بدرجة مقبولة تؤدي إلى الأردن من ناحية الشرق، وأخرى تؤدي إلى الساحل والبحر المتوسط من ناحية الغرب.

هذا وقد تم تخطيط السامرة على أن تكون الحى الملكى - وهي سنة جديدة في تخطيط المدن الفلسطينية، وجد لها مثيل دون شك في تخطيط أورشليم على أيام سليمان عليه السلام، غير أن الدليل الأول والمؤكد على ذلك إنما جاء إلينا من السامرة - ويبدو أن الحى الملكى في مدينة عمري هذه، إنما كان منطقة يمكن الدفاع عنها بسهولة، ذلك لأنها إما قد أحيطت في المرحلة الثانية على

الأقل بسور قوى، كما أن تخطيط الحي لا يجعل منه مركزاً لتجمعات مدنية، بقدر ما يجعل منه منطقة ملكية مقصورة على الملك وحاشيته.

وعلى أية حال، فلقد ظلت السامرة عاصمة لدولة إسرائيل، حتى سقطت في أيدي الآشوريين في أخريات عام ٧٢٢ ق.م، ونقرأ في حوليات العاهل الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) قوله «في بداية حكمي، وفي السنة الأولى حاصرت السامرة واستوليت عليها، ونفيت من أهلها ٢٧, ٢٩٠ مواطناً، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكي، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان بها، فأحللت بها مواطنين جدداً من بلاد كنت قد استوليت عليها، وعينت حاكماً عليها، وفرضت عليها الجزية والضرائب، كما يفعل الآشوريون. وهكذا سقطت السامرة في أوائل السنة الأولى من عهد «سرجون الثاني»، وأن ذلك ربما قد حدث بعد فترة ما من ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م، بل إن هناك من يذهب إلى أنها سقطت في عام ٧١٥ ق.م، ومن يذهب إلى أنها سقطت في عام ٧١١ ق.م.

وأياً ما كان الأمر، فإن الآشوريين قد أعادوا تنظيم مملكة السامرة، على أساس أنها إقليم آشوري، يخضع لإمرة حاكم آشوري، وعززوا الحاميات العسكرية الآشورية بجنود مستوطنين، أثوابهم من بلاد بعيدة، حدث لها ما حدث لفلسطين من غزو آشوري، غير أن هؤلاء المستوطنين الجدد سرعان ما تزاوجوا مع السكان الأصليين، وهجروا عاداتهم وتقاليدهم إلى حد ما، ثم سرعان ما ظهر جنس جديد، عرف في التاريخ اليهودي باسم «السامريين» نسبة إلى السامرة هذه، وهو جنس قريب الشبه بجيرانه «اليهوديين». دما وثقافة، وإن اختلفوا عنهم في ميولهم السياسية.

وهكذا بدأت السامرة تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً، غير أن «هيرودوس» (٣٧ - ٤ ق.م) حاكم اليهودية من قبل الرومان، إنما بدأ يهتم بالسامرة، بل وجعلها مقره الخصب، ومن ثم فقد زينها بالأبنية وأعاد تسميتها باسم «سيبسطية» (Sebaste) أى «مدينة أغسطس» تكريماً لأوغسطس قيصر (٢٧ ق.م - ١٤ م)، ذلك لأن كلمة «سيباستوس» (Sebastos) اليونانية، تعنى «أوغسطس» (Aguustus) في اللاتينية^(١).

(١) محمد يسوى مهراڤ - إسرائيل ٩٠٠/٢ - ٩٠٣، ٩٤٥ - ٩٤٨، ٩٤٤، ملوك أول
٢٣/١٦ - ٢٤، ملوك ثان ٢٤/١٧.

(٣) أريحا:

أريحا، ومعناها مدينة القمر - أو مكان الروائع العطرية - وهي مدينة هامة تقع على مبعده ٨ كيلا غربى نهر الأردن، ٢٧ كيلا شمال شرقى القدس، أما أريحا التى جاء ذكرها فى التوراة (يشوع ٢-٤) فموضعها «تل السلطان»، على مبعده كيلو ونصف من أريحا الحديثة، والتى تدعى «الريحا»، وتلطل أبو العليق على مبعده كيلو ونصف غربى أريحا الحديثة.

وقد أثبتت الحفريات الحديثة التى أجريت فى تل السلطان أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، فلقد عثر فى أريحا (جريكو - Jericho) على آثار للحضارة النطوفية - نسبة إلى وادى النطوف شمال غربى القدس - بصورة متصلة تؤكد صفة الانتقال الفعلى نحو مرحلة الإستقرار وإنتاج الطعام، ويمكن استخدام اصطلاح «ماقبل النيوليتيه» (Proto- Neolithic) بالنسبة لتلك المرحلة السابقة للعصر الحجرى الحديث.

ولعل من أهم آثار تلك الفترة فى أريحا مبنى محاط بحيطان حجرية تختلف العلماء فى تفسيره، وأغلب الظن أنه يمثل معبداً يقع بجوار نبع أريحا (جريكو)، ومن ثم فقد حاول البعض الربط بين هذا المعبد النطوفى وبين موضوع تقديس الماء، هذا ونظراً لوجود آثار حريق فى ذلك المعبد، فقد استخدمت بعض الآثار

W.F. Albright, BAŞOR, 150, 1958, p. 21- 25.

= ركنا

J.Finegan op, cit, p. 185, 210, 285

وكنا

K.M.Kenyon, Archdeology in The Holy Lond, London, 1970, p. 260-263.

G.E. Wright , Samaria, BA, 27, 1959, وکنا ANET, 1966, p. 284 وکنا p. 65- 67.

A G.Lie, The Inscriptions of Sergon, II, Part, I, The Annalas, 1929, p. 5

G.A.Reisner, C.S.Fisher and D.G. Lyon, Havard Excavations at Samaria, 1908- 1910 , 2 Vols, 1924

M.Nothe, op.cit, p. 230 وکنا

M.F.Unger, op.cit, p. 470- 474 وکنا

Pliny, V, 14. وکنا

Strab, XVI, 2, 27 وکنا

المتفحمة المتخلفة عن الحريق في التاريخ عن طريق الكربون المشع، وقد نتج عنها التقويم الزمني (٢١٠ ± ٧٨٠٠ ق.م) وإن كان العلماء لا يعتمدون هذا التاريخ بصفة نهائية.

هذا وقد كشف في أريحا عن فخار مزين برسوم، ربما يمكن تأريخه بأواسط الألف الخامسة قبل الميلاد، وهو على أية حال يعتبر أقدم فخار في فلسطين، وطبقا لرواية التوراة، فلقد كانت أريحا أول المدن الكنعانية التي انجذبت صوبها أنظار يهود - بقيادة يوشع بن نون - وأول مدينة وقعت تحت أيديهم^(١).

هذا وكان أول من قام بالحفر في أريحا: «إرنست سيلين» و«كارل فترزجر» في الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩ م) ثم «جون جارستانج» في الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦ م) ثم «مس كانلين كنيون» منذ عام ١٩٥٢ م^(٢).

(٤) أشدود:

أشدود إحدى مدن الفلسطينيين (برست - بلستي) الخمس، والتي سمح الفرعون «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) لهم بالإقامة فيها بعد هزيمتهم - مع شعوب البحر - هزيمة منكرة في معركتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، وتقع أشدود - وهي أشدود الحالية - على مبعدة ٢٥ كيلا شمال شرق غزة، وفي منتصف المسافة تقريبا بين غزة ويافا.

وأما بقية المدن الخمس فهي «عقرون»، على مبعدة ١٨ كيلا جنوب يافا

(١) رشيد الناضوري: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا - بيروت ١٩٦٨ ص ١١٧ - ١١٩، ١٤٠، ١٤١ - قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١.

K.M.Kenyon, op.cit, p. 31-41.

وكذا

K.M.Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108-177, 1956, p. 67- 82.

(2) E.Sellin and C.Watzinger, Jericho, 1931.

J. and J B.E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K.M.Kenyon, Archdeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K.M.Kenyon in PEQ, 1952- 82, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45- 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82.

وأما «جت» فأغلب الظن أنها «تل عراق المنشية» الحالية، على مبعده ١٠ كيلا غرب بيت جبرين، و«عسقلان» (أشقلون)، على مبعده ١٠ كيلا شمال غزة، وأخيرا مدينة «غزة» المشهورة، والتي كانت تمثل التخم الجنوبي لكتعان^(١).

(٥) أفيق:

تقع أفيق الآن في مكان «تل الخيصر» الحديثة، قرب رأس العين عند منبع نهر العوجة، وعلى مبعده ١٥ كيلا شرقي حيفا، وقد عرفت فيما بعد «أنتيائريس»، وفيها كانت أولى المعارك الكبرى بين الفلسطينيين والإسرائيليين، والتي انتصر فيها الفلسطينيون ودمروا معبد شيلوه، وأخذوا تابوت العهد، وكانت هزيمة بني إسرائيل مروعة، حتى أن النبي إرميا يقول - بعد أربعة قرون من حدوث المعركة - «إن معبد شيلوه الذي كان مقر التابوت قد دمر، وأنه حتى عصره (٦٢٦ - ٥٨٠ ق.م) كان يمكن رؤية خرائب المعبد»^(٢).

(٦) أدام المدينة:

وتقع الآن في مكان «تل الدامية»، على مبعده ١/٢ كيلا جنوبي اتصال نهر يسوق بالأردن، وطبقا لرواية التوراة في يشوع (١٦/٣) عبر يشوع الأردن ببني إسرائيل «حيث قامت المياه المنحدرة من فوق، وقامت ندا واحدا، بعيدا جدا عن أدام المدينة»، وإن كان هناك من يذهب إلى وجود جرف من الحجر الجيري، يكون عند الزلزال شقا في النهر يسده تماما لفترة من الوقت، الأمر الذي يمنع تدفق الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، وقد حدث ذلك في عام ١٩٣٧ م^(٣).

(٧) قرصة:

تقع قرصة (ترزة) في مكان «تل الفارعة» الحالية، على مبعده ١١ كيلا

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٥٧٨. ٢، ٥٩٣ - ٥٩٤.

(٢) إرميا ١٢/٧ - ١٤، ٩. ٦/٢٦.

وكتا: W.F.Albright, Archaeology and The Religion of Israel, Baltimore, 1963, p. 103, F. 202.

(3) J.Garstang, Joshud, Judges, The Foundations of Bible History, 1931, p. 136F.

وكتا: J.Finegan, op.cit, p. 155.

شمال شرق شكيم، وكان «يربعام الأول» (٩٢٢ - ٩٠١ ق.م) قد اتخذها عاصمة له، بدلاً من «قنوثيل» (تلول الذهب) - بعد انفصال إسرائيل عن يهوذا في أعقاب موت سليمان عليه السلام - ثم ظلت «ترصة» عاصمة لإسرائيل، حتى السنة السادسة من حكم «عمرى» (حوالي عام ٧٨٠ ق.م) (١).

(٨) تعنك:

تعنك (تاعاناخ - تاعاناقا) مدينة هامة، تقع على مبعده ٨ كيلا، جنوب شرق مجدو، على الطرق الجنوبي من سهل يزرعيل.

(٩) بئر سبع:

مدينة تقع في صحراء النقب جنوبى فلسطين، وينسب تأسيسها إلى الكنعانيين، وطبقاً لرواية التوراة فهي تكون الحد الجنوبي لمملكة إسرائيل، حيث كانت تمتد في أقصى اتساع لها «من دان إلى بئر سبع»، كما جاء في أسفار القضاة (١/٢٠) وصموئيل أول (٢٠/٣)، وأخبار أيام أول (٢/٢١).

(١٠) بيت إيل:

اسم عبرى معناه «بيت الله»، ومكانها الآن «برج بيتين» على مقربة من بيتين الحالية، على مبعده ١٦ كيلا شمالى أورشليم القدس، وطبقاً لرواية التوراة، فقد كان اسمها «لوز»، ثم سماها يعقوب «بيت إيل»، وقد بقى فيها تابوت العهد حيناً من الدهر، وبعد إنقسام المملكة أقام فيها «يربعام الأول» أحد «العجلين الذهبيين»، والثانى فى دان، والأرجح أن هذا السبب هو الذى حمل النبى هو شع على أن يسميها «بيت أون» أى بيت الأصنام (تكوين ١٩/٢٨، هوشع ٥/١٠، ٨).

(١١) بيت شان:

وتقع الآن فى «تل الحصن» فى مجاورات «بيسان»، على مبعده ٨ كيلا

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٧٥٥/٢، ٨٩٣.

وكنّا M.F.Unger, H.Kee and L.Toomlis, BA, 1957, p. 82 - 105
op.cit, p. 843, 1102.

غربي نهر الأردن، وقد عثر فيها على كثير من الآثار المصرية، وخاصة من عهد الدولة الحديثة، (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) كما كانت على أيام سليمان عليه السلام إحدى المدن التي أقام فيها حضائر الخيل، شأنها في ذلك شأن مجدو وحاصور وتعنك وأورشليم^(١).

(١٢) بيت لحم:

وتقع على مسبعة ٨ كيلا جنوبى القدس، وكانت مدفن راحيل أم يوسف عليه السلام، وهى مسقط رأس داود عليه السلام، ومدفن آل يؤاب، وفيها ولد المسيح عليه السلام، لأن أمه مريم العذراء، والمولودة فى الناصرة، إنما كانت هناك للإكتتاب، فحان وقت ولادتها هناك، وقد بنت الإمبراطورة «هيلانة» حوالى عام ٣٣٠ م كنيسة هناك، فوق المغارة التى يظن أن المسيح قد ولد فيها - وهى أقدم كنيسة فى العالم - كما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، من أمثال المؤرخ أوسيبوس، والقديس جيروم (٣٤٥ - ٤٢٠ م). غير أن القصة - كما جاءت فى إنجيل لوقا (٧/٢) - إنما تشير صراحة إلى أنه ولد فى «المذود»، كما أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أنه ولد عند جذع نخلة (مريم: آية ٢٣)، ومن ثم فالصحيح أنه عليه السلام ولد عند جذع نخلة، ربما عند بيت لحم، وليس فى مغارة^(٢). قال تعالى: «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت: ياليتنين مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا»^(٣).

(١) قاموس الكتاب المقدس ١/٣٠٣، وكنا: J.W.Crowfoot, in PEQ, 1940, p. 143 - 147

W.F.Albright, The Archaeology of Palestine, London, 1949, p. 124.

(٢) محمد يوسى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثالث - فى بلاد الشام - بيروت ١٩٨٨ ص ٢٨٥ - ٣٠٦ تكهن ١٩/٣٥، صموئيل أول ١٢/١٧، متى ١٢-١/٢، لوقا ٤/٢-٣٥، قاموس الكتاب المقدس ١/٢٠٥ - ٢٠٦، صموئيل ثان ٢٢/٢ وكنا: M.F.Unger, op.cit, p. 140 - 141

(٣) سورة مريم: آية ٢٣، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/١٨٧ - ١٨٩، تفسير القرطبي ص ٤١٢٨ - ٤١٣٧، فى ظلال القرآن ٤/٢٣٠٤ - ٢٣٠٨، صورة التفاسير ٢/٤١٢، تفسير الطبرى ١/١٦٦ - ٧٦-٧٧، التفسير الكبير ٢١/٢٠٧ - ٢٠٨، تفسير النسفى ٣/٣١٣-٣٥.

(١٣) جبع:

تقع جبع على مبعدة ٣ كيلا شرقى الرامة، وقد أصبحت منذ عهد «بعشا» (٨٧٧-٩٠٠) حداً ثابتاً بين دويلتى إسرائيل (إسرائيل ويهوذا)، ومن ثم نرى على أيام «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا، أن جبع مازال مدينة الحدود الشمالية، حيث نقرأ فى التوراة عن حدود يهوذا أنها «من جبع إلى يشر سبع» (ملوك ثان ٨/٢٣)^(١).

(١٤) جبعون:

تعرف جبعون الآن باسم «الجيب»، وتقع على مبعدة ١٢ كيلا شمال غرب القدس، وقد بدأت فيها جامعة ينسلفانيا والمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية، حفريات منذ عام ١٩٥٦م، وهناك فى الجنوب الشرقى من قرية الجيب نبع ماء يتصل بخزان صناعى، سعى فى التوراة «بركة جبعون»، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد حدثت فى بركة جبعون قصة وقوف الشمس عن المغيب، والقمر على وادى أيلون من أجل يشوع^(٢).

(١٥) جازر:

وهى تل الجزر الحالية، على مبعدة ٢٨ كيلا شمال غرب القدس، ٨ كيلا شرقى عقرون، ٢٦ كيلا جنوب شرق حيفا، ونقرأ فى التوراة أن فرعون قد أخذ جازر وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان ومن ثم فقد أصبحت الأميرة المصرية السيدة الأولى فى مملكة سليمان، أو الزوجة الرئيسية، كما كانوا يسمونها، على أن المؤرخين إنما يتشككون كثيراً فى قصة التوراة هذه، وذلك لأننا لانتفى بما يؤكدنا من الجانب المصرى، وأما الشك من الناحية التاريخية، فإنه - حتى وإن حصر فى حدود ضيقة نسبياً - إلا أنه يكفى للتشكيك فى أى الفراعين هو المقصود هنا، هذا وقد قام جدل طويل حول الفرعون الذى صاهر سليمان، عليه

(١) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٨٩٧/٢ - ٨٩٨، وكذا - M.Noeth, op.cit, p. 235 - 236.

(٢) يشوع ١٢/١٠-١٤، صموئيل ثان ١٣/٢، وكذا J.Finegan, op.cit, p. 160.
J.B.Pritchard, BA, 19, 1956, p. - 75, UMB, 21, 1957, p. 3 - 26,
1958, p. 12 - 24.

السلام، وأعطاه مدينة جازو، مهرأ لابنته، فمن قائل إنه «بسوسينس الثاني»، ومن قائل إنه شيشنق الأول، هذا إلى أن اسم «تجنيس» لا يستطاع مطابقتها على نظير له بالهيريوغليفية، وغازر، على أية حال، هي القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الأدنى القديم^(١).

(١٦) حبرون:

تقع حبرون على مبعده ٣٠ كيلا جنوب غرب القدس، ١٩ كيلا جنوب غرب بيت لحم، وحبرون هي الآن «مدينة الخليل»، وفيها قبر إبراهيم الخليل والسيدة سارة وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وقد أقيمت كنيسة في عصر «جستينان» (٥٢٧ - ٥٦٥ م)، وفي ذلك المكان يقوم اليوم مسجد كبير، هو «الحرم الإبراهيمي» وحبرون تعتبر من أقدم مدن العالم التي ماتزال أهلة بالسكان^(٢).

(١٧) حاصور:

تقع حاصور - وهي تل القدح الحالية - على مبعده ٥ كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة، وقد كشفت الحفائر فيها عن بقايا لمباني سليمان عليه السلام، لم تشر إليها التوراة، فضلا عن حظائر الخيل، وهي على أية حال، مدينة كنعانية هامة^(٣).

(١٨) دان:

تقع دان - وهي تل القاضي الحالية - على مبعده ٤ كيلا غرب بانياس، عند سفح جبل حرمون، حيث منابع الأردن، وهي تكون الحد الشمالي لإسرائيل، كما تكون «بشر سبع» الحد الجنوبي، وذلك طبقا لرواية التوراة عن أقصى ماوصلت إليه مملكة إسرائيل على أيام داود وسليمان، عليهما السلام^(٤).

(١) كذا M.F.Unger, op.cit, p. 401, 601 وكذا A.Gardiner, Egypt of THE Pharaohs, p. 329

وكذا O.Eissfeldt, op.cit, p. 595 وكذا C.Roth, op.cit, p. 21

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٢٨٦/١ - ٢٨٧، وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 465- 466

(٣) ملوك أول ١٥/٩، وكذا O.Eissfeldt, op.cit, p. 595

(٤) قضاة ١/٢٠، صموئيل أول ٢٠/٣، قاموس الكتاب المقدس ٣٥٦/١ - ٣٥٧، وكذا محمد

بيومي مهران: إسرائيل ٧١٨/٢، ٨٠٨، وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 236

(١٩) الناصرة:

إسم عبرى، ربما بمعنى القضيبي أو الحارسة أو المحروسة أو المحبوسة، وقد ذكرت في أناجيل: متى (٢٣/٢) ولوقا (٢٦/١) وهى مدينة فى الجليل (مرقس ٩/١) - أى فى النجرء الشمالى من فلسطين - وهى تقوم على جبل مرتفع يمكن أن نرى منه جبل الشيخ والكرمل وطابور ومرج ابن عامر.

وتقع على مبعدة حوالى ٢٣. كيلا غربى بحيرة طبرية، وحوالى ٣١. كيلا شرقى عكا، وحوالى ١٣٦ كيلا شمالى القدس.

وفى الناصرة ولد يوسف ومريم (لوقا ٣٩/٢) وفيها ظهر الملاك لمريم يشهرها بأنها ستكون أم المسيح (لوقا ٢٦/١-٣٣)، وعاش أكثر عمره فيها، ومن ثم فقد لقب «يسوع الناصرى» (متى ١١/٢١، مرقس ٢٤/١).

هذا وقد سُمى أتباع المسيح عليه السلام «بالنصارى»، وهو إسم أطلقه عليهم اليهود، نسبة إلى «الناصرة» - بلد المسيح عليه السلام - وربما كان للكلمة صلة «بالنصرين»، وهى فرقة يهودية قديمة منتصرة.

وبهذا المعنى وردت الكلمة فى القرآن الكريم^(١)، ومن فقد أصبحت «النصرانية». علما على ديانة المسيح عند المسلمين^(٢)، وهنا حاول بعض علماء اللغة تفسير الكلمة على أنها نسبة للناصرة التى ينتسب إليها السيد المسيح عليه السلام^(٣)، بينما ذهب آخرون إلى أنها نسبة إلى قرية يقال لها «نصران»، وهكذا قيل نصرانى، وجمعه نصارى^(٤).

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١١٣، ١٢٠، ١٣٥، ١٤٠، المائدة: آية ١٤، ١٨، ٥١، ٦٩، ٨٣، التوبة: آية ٣٠، الحج: آية ١٧، وأنظر: تفسير الطبرى ١٤٣/٢-١٤٥، ١٥٠/١٠-١٥٤، ٣٩٥-٤٠٣، ٤٩٨-٥٠٦، تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢-٥٣٠، ٦١٣-٦٢٣، تفسير الكشاف ٦٠٢/١-٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٧-٦٣٨، تفسير القطر ٢١١٧-٢١١٨، ٢٢١٣، ٢٢٤٣-٢٢٤٤، ٢٢٥٢-٢٢٥٥، تفسير روح المعانى ٢٠٠/٦-٢٠٦، ٢٠٧-٥ تفسير المنار ٢٥٣/٦-٢٦٤، ٣٥٠-٣٥٤، ٣٩٤-٣٩٦، تفسير أبى السعود ٣٥/٢-٣٦، ٤٦-٤٧.

(٢) جواد على ٥٨٣/٦.

(٣) اللسان ٦٨/٦، جواد على ٥٨٣/٦.

(4) J.Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, p. 192.

وهناك من يرى أنهم سموه «نصارى»، وأحدهم «نصران» لنصرة بعضهم البعض، وتناصرهم فيما بينهم، بينما يذهب آخرون إلى أن السبب في التسمية أنهم نزلوا أرضاً يقال لها «ناصر»، ويسمى أصحابها الناصريون بينما يسمى عيسى الناصري (أنظر تفسير الطبري ١٤٣/٢ - ١٤٥، تفسير القرطبي ص ٣٦٩، تفسير النسفي ٥٢/١).

(٢٠) يابيش جلعاد:

تقع على جبال جلعاد، على مبعدة ١٦ كيلاً جنوب شرق «بيت شان» (بيسان)، ويظن أنها «تل أبوخرز» شمال وادي ييش (أنظر: قضاة ٨/٢١، صموئيل أول ١١، عدد ١٤).

(٢١) يافا:

إسم كنعاني معناه «جمال»، وتقع على شاطئ البحر المتوسط، على مبعدة ٥٦ كيلاً شمال غرب القدس، وهي من أقدم مدن العالم، وقد تعرضت للإحتلال على مر العصور، وأحتلها المصريون والفلسطينيون من شعوب البحر، والآشوريون والآغاقة والمكاييون والرومان وغيرهم.

(٢٢) شعليم - أوسعليتيم:

مدينة فلسطينية سكنها الأموريون، وربما هي الآن «سليط» على مبعدة ٥ كيلاً شمال غربي عجلون، وقد جاء عنها في التوراة «وحصر الأموريون بني دان في الجبل لأنه لم يدعوهم ينزلون إلى الوادي، فعزم الأموريون على السكن في جبل حارس في أيلون، وفي شعليم، وقويت يد بيت يوسف فكانوا تحت الجزية وكان تخم الأموريين من عقبة عقرسيم من سالع فصاعداً» (أنظر: قضاة ٣٤/١ - ٣٦، قاموس الكتاب المقدس ٥١١/١).

(٢٣) لخيش:

لخيش: أو لاختيش أو لاكيش: وكان يظن أنها «تل الحصى» (تل الحسى) على مبعدة ٢٥ كيلاً إلى الشمال الشرقي من غزة ١٦ كيلاً إلى الجنوب الغربي من مدينة جبرين، ويرجح الآن أنها «تل الدوير» على مبعدة ٨ كيلاً غرب بيت جبرين (أنظر: W.M.F.Petrie, Tell el - Hesi (Lachish), London, 1891. وكذا M.F.Albright, in ZAW, 6, 1929, p. 3).

الفصل الثاني

لبنان

المدن الفينيقية

تقديم:

تعد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم، وهي تشغل من الناحية الجغرافية شريطا ساحليا ضيقا كان يمتد من جبل الاقرع (كاسيوس) شمالا، إلى جبل الكرمل جنوبا، ومن أرواد (وتسمى خرائبها اليوم طرطوس شمال عمريت) إلى عكا (عكو بمعنى الرمال الحارة) ولا يزيد طوله على ٣٢٠ كيلا، كما لا يزيد عرضه على ٥٦ كيلا، وهو غنى بالخلجان، وبه عدد من الشغور، وترتفع إلى جانبه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الأرز والصنوبر والسرو، وتفصل الخلجان الرؤوس البارزة في البحر عن بعضها البعض.

وتظهر بالقرب من الشاطئ بعض الجزر التي كان لها كذلك شأن في تاريخ هذه البقعة، ذلك لأنها كانت عامرة بالقرى والمدائن، شأنها في ذلك شأن الساحل نفسه، بل إن أهميتها تفوق الساحل في أحيان كثيرة^(١).

وعلى أية حالة، فلقد كان الفينيقيون محصورين في شريط من الأرض على شيء كثير من الضيق، ذلك لأن جبال لبنان لا تبعد عن البحر أكثر من ٥٠ كيلا، بل يقترب الجبل من البحر في بعض المواضع فيصير على بعد ما بين ١٩، ٢٤ كيلا، وفي بعض المواضع يلاصق الجبل البحر.

هذا فضلا عن أن هذا الشريط الضيق من الأرض مقسم طولا إلى عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناتئة من جبل لبنان، ورواصلة إلى ساحل البحر، وهذا الامتداد الفاصل حاجز حقيقى تنشأ عنه أقاليم مختلفة، ثم أكثر هذه الامتدادات الناتئة عند الجبل تنتهى عند البحر بانحدار عمودى لا يدع مكانا لطريق يوصل بين جانبيها، وهكذا كان الحال قديما، أو كان ما وجد على أكثر تقدير، طريق ضيق منحوت في جنب التواء.

(١) نجيب ميخائيل - مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الثالث - سورية - الإسكندرية ١٩٦٦، ص

ولعل من خير الأمثلة على ذلك، رأس الكلب، وهو رأس يقع شمال بيروت (وهى بمرورنا فى رسائل العمارة، بمعنى الأبار)، ويوجد قرب قمته آثار طريق ضيق، وفى أسفله الطريق الذى سلكه الفاتحون المصريون والاشوريون والروم؛ وكل منهم قد ترك على الطريق نقوشا تخلد ذكره. وكان البحر أسهل طريق للمواصلات بين كل بلد وآخر، وهذا الإنقسام انما كان أحد الاسباب التى جعلت فينيقيا لاتصلح أن تكون دولة حقيقية، فصارت عبارة عن دويلات صغيرة، يسود بعضها البعض الآخر، طبقا للزمان والظروف السياسية والاقتصادية.

هذا وتعتبر فينيقيا بمثابة ممر ضيق بين أفريقيا واسيا، لأن صحراء سورية الكبرى الواقعة وراء جبال لبنان إقليم لايمكن اجتيازه عمليا، وعكس ذلك من ناحية فلسطين فى الجنوب، إذ تتصل فينيقيا بشبه جزيرة سيناء ثم إلى داخل مصر نفسها، أما فى الشمال فالإتصال ممكن بأعلى وادى دجلة والفرات.

ومن هذا الوضع ندرك كيف كانت فينيقيا غير قادرة على أن تبقى منعزلة محايدة إزاء المنافسات التى تجاذبت العالم القديم، وكان عليها أن تصطلى بها، أو أن تنحاز إلى فريق منها، وكان ضمها ضرورة من الضرورات التى تفرص على تأمينها كل إمبراطورية كبيرة، لعظم الموارد التى تنتج من تجارتها، ولمنفعة الأسطول الذى يجده الفاتح بها.

وكان انحيازها إلى فريق من الفريقين المتحاربين ذا فائدة حربية أيضا، فهى لمن ملكها باب مفتوح على أفريقية وعلى أسيا على السواء، وهى تفرح يحتفى من وراءه به، ويتخذ فى نفس الوقت قاعدة لما يقدر من الغزو والتوسع^(٢).

وهكذا تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التى عاشوا بها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ذلك لأن الوطن الفينيقي الممتد على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب، والصحراء من الشرق، أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الآسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادى النيل، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادى تتعقب الغزاة، وهم فى طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر.

(٢) ج. كوتنور: الحضارة الفينيقية - ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيبة، ومراجعة د. طه حسين - القاهرة - ص ٢٨ - ٢٩، ٣٤.

وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار، محاصريهم وتدنك قلاعهم، وتحملهم أسرى إلى مصر يسخرهم فرعون فى الأعمال التى يريد، وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا ومصر، وما كادت الشعوب السامية النازلة فى وادى الدجلة والفرات تفيق وتتطلع إلى السيادة على الشرق الأدنى حتى اتجهت صوب فلسطين، وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه القنطرة الساحلية، وتفعل بها مثل ما فعله المصريون من قبل.

وهكذا أصبح الوطن الكنعانى الفينيقي فى مهب التيارات العالمية، بين قوى عالمية كبرى، قامت فى وادى النيل، وفى وادى الدجلة والفرات، وفى آسيا الصغرى، وترتب على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر، إذ لم يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة، تعتمد هذه التيارات وتضع حدا لهذا النفوذ الاجنبى^(٣).

وهكذا حددت خصائص المنطقة الجغرافية مصيرها التاريخي، فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات فى هذا القطاع الضيق من الأرض إنما كان يعنى أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات، دون أية فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية، فقد كانت فينيقيا أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى والتى كانت تقع بينها، وكانت الشعوب المهاجرة تندفق عليها مرة بعد أخرى، لأنها كانت منطقة جذابة فى حد ذاتها لخصبها، ويمكن دخولها من كل جانب، وكانت مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط، فضلا عن الصحراء التى جاء منها البدو الساميون^(٤).

وانطلاقا من كل هذا، وتخريجا عليه، لم يستطع الفينيقيون، بل لم يستطع السوريون جميعا، أن يشكلوا وحدة سياسية واحدة، كمصر، وإنما وحدات صغيرة تعيش فى مدن محصنة ذات أسوار عالية، وأبراج كبيرة، يلجأ إليها السكان وقت الخطر، ويحتمون بأسوارها، ويتخذونها وقت السلم أسواقا لتجاريتهم.

على أن قيام هذه المدن المحصنة، وإن كان أحسن وسيلة للتجأ إليها الفينيقيون

(٣) حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم - القاهرة من ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٤) مستير موسكاتى: الحصارات السامية القديمة - ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨ من ١٢٢.

لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين، إلا أن تقسيم البلاد إلى مدن صغيرة يحارب بعضها البعض الآخر، ولا يسود بينها أى نوع من الاستقرار، جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة، وخاصة الكبرى منها.

هذا ونظراً لأن الفينيقيين لا يميلون بطبيعتهم إلى النواحي السياسية، بقدر اهتمامهم بالشؤون الاقتصادية، فإنهم إنما كانوا يفضلون الأمان، والاستقرار السياسى، حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح فى المجالات التجارية بصفة عامة^(٥).

وقد أدت هذه الأوضاع مجتمعة إلى ظهور ما يسمى بدويلات المدن حيث كان لكل مدينة حكومتها الخاصة بها، وعلى رأسها حاكم بالوراثة، قد يتقل الملك منه إلى أسرة أخرى، أو تنتزع الإمارة وتسلب، نتيجة ثورة من عناصر تصبح لها الغلبة، ولم يكن سلطان الأمير أو الحاكم أو الملك استبدادياً مطلقاً، ذلك لأن التجارة تتطلب المغامرة والوثاق من النشاط لا يتفق وهذا اللون من الحكم.

وكانت تقوم، إلى جانب الحاكم، هيئة من المشرعين، كما كانت تعقد أحياناً مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول فى الشؤون العامة المشتركة، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العام للمدن الثلاث الرئيسية. وكان للدين نصيبه فى الإدارة، فهو يحدد سلطة الحاكم، وللكهنة نفوذ يلى نفوذ الحاكم، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة، وإن كنا لاندى على وجه التحقيق، أكان بيت المال يعتمد على المكوس أو على الاحتكار أو على الأمرين معاً^(٦).

وهكذا انتظم الفينيقيون فى جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك، ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها، وكانت هذه المدن هى العواصم التى يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر.

على أن النزاع كثيراً ما كان يحدث بين هذه المدن، وكانت أكثرها تفوقاً

(٥) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق - بيروت ١٩٥٨ ص ٨٨، محمد يوسى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم - القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٣، حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٨٩.
(٦) نجيب مخيايل: المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١.

تلك التى كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، هذا إلى أن بعضاً من تلك المدن إنما كان يشغل موقعين، الواحد: على الساحل، والآخر: يمثل جزراً صغيرة فى مواجهته يلجأ إليها القوم عند اشتداد الخطر، وقد أدى هذا الوضع إلى أن يهيم لكل مدينة مرفأين، أحدهما شمالى، والآخر جنوبى، فتلجأ السفن لهذا المرفأ وذلك بحسب الفصول واتجاه الرياح، ومثال ذلك صيدا وصور، فكانت المسافة بينهما ملاحه يوم واحد^(٧).

وبدهى أن المدن المنيعه كانت أقدر من غيرها على البقاء والإزدهار، كما أن هذه المدن الفينيقيه المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة لم تترك الأمر هكذا، وإنما حاولت جاهده وإيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها، ويجمع كلمتها، وبخاصة فى وقت الأخطار الخارجيه، ومن ثم فقد عمدت إلى إنشاء تحالف قوى بين عدة مدن، بزعماء أوفرها قوه، تحالف كان دائماً يعمله الخطر المشترك، وأحيانا المصالح المشتركة.

وكانت مدينة «أوجاريت» فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، و«جبيل» فى القرن الرابع عشر، و«صور» بعد هذا القرن الأخير، ثم «طرابلس» فى القرن الخامس قبل الميلاد، تتزعم هذه الاحلاف^(٨).

ولعل من أخطر هذه المحالفات، ذلك الحلف المشهور الذى قضى عليه فرعون العظيم تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) فى «مجدو» حوالى عام ١٤٦٨ ق.م، وقد تجمع هذا الحلف، الذى كان يتزعمه أمير قادش^(٩)، عند مدينة «مجدو» (وهى تل المتسلم الحالية غربى بحيرة طبرية، وعلى مبعده ٣٢ كيلا جنوب شرقى حيفا) حيث جمع هذا الامير حوله «ثلاثمائة وثلاثين أميراً،

(٧) كوتتنو: المرحع السابق ص ٢٩، محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٥٩.

(٨) فيليب حتى: المراجع السابق ص ٩٢.

(٩) قادش: وقع مكان تل نى مند، على الشاطئ الايسر لنهر العاصى عند اتصاله بنهر الموقاديه، وعلى مبعده ٧ كيلا جنوبى بحيرة حمص، وإن رأى البعض أنها «قادش» التى تقع شمال فلسطين، على مبعده ٧ كيلا شمال بحيرة الحولة. انظر:

J.H.Breasted, The Battle of Kadesh p. 13 وكذا
A H.Gardiner, Onom, I.P. 137 - 141.

كل منهم معه جيشه الخاص» ، لكى يوقفوا تقدم فرعون عند «مجدو» ، ويدهى أن عدد الأمراء (٣٣٠ أميراً) إنما يشير بوضوح إلى أن سورية وفلسطين وفينيقيا، إنما كانت مجزأة بصورة غريبة، فهؤلاء الأمراء لم يكونوا فى الواقع إلا زعماء لدويلات صغيرة جدا، كما كانوا على درجة من الاستقلال، تحول دون تكوين جيش موحد، بحال من الاحوال.

هذا ويبدو واضحا من رسائل العمارنة، من عصر الملك أمنحتب الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م) وأمنحتب الرابع (إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) أن القوم لم يفقدوا العمل المشترك بينهم فحسب، وإنما حاول الملوك الفينيقيون جميعا الحصول على الفوائد من سيدهم المصرى، بعضهم على حساب بعض، وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم بصفة شخصية^(١١)، ولعل السبب فى ذلك طغيان إحدى المدن، أو حتى إحدى الوحدات، على جاراتها التى تتزعمهن، الأمر الذى كان يؤدى أحيانا إلى خروجها عليها، والانضمام إلى أعدائها، كما حدث حين ثارت صيدا وباليتروس وعكا ضد صور، وأعلنت خضوعها لأشور، بل ووجهت جميعا ضدها أسطولا يستهدف تدميرها فباء بالهزيمة.

وانطلاقا من كل هذا نستطيع أن نقرر أن نوعاً من الإتحاد قام بين الولايات الفينيقية أحيانا، تزعمته صور، وفينيقيا فى أوج مجدها، وأما حين دانت بالسيادة لأشور وفارس إنحلت عرى الرابطة التى ألقت بين الولايات^(١٢).

وأما أهم المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية فكانت مدن: جبيل: وكانت مركزا مقدسا للعبادة، ثم «صيدا» وقد لقبت «بالمدينة الأم فى كنعان»، ثم «صور»، وكان لها إلى جانب ازدهارها التجارى دور عظيم فى تأسيس العقائد

(١٠) أنظر عن معركة مجدو، والمراجع الخاصة بها (محمد بيومى مهران: مصر - الكتاب الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠٣ - ٢١٥ وأنظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومى مهران: إخناتون: عصره ودعوته - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥ وكذا -

J.A.Kundtzom, Die El-Amarna Tafeln, 2 Vols., Leizzig, 1908, 1915.

S.A.B.Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, Toronto, 1939.

(١١) فيلب حتى: المرجع السابق ص ٩٢.

(١٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠.

فى الدين الفينيقى، ثم «أوجاريت»، وكانت مع انضمامها فى بعض الأوقات إلى «بيروت» تعيش بسبب بعدها عيشة أكثر استقلال من مدن فينيقيا الوسطى (١٣).

وكانت تتوسط هذه الثغور والمدن الكبيرة، قرى أقل شأنًا، تنتشر بينها، ولها شهرتها الخاصة فى بعض نواحي الصناعة والفنون.

وقد تحكمت الطبيعة فى تحديد مواقع هذه المدن، إذ كان العامل فى اختيارها وقوعها على نهر، أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها، وكانت بعض هذه المدن تقام على البر، وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل، ويتعاون البر والجزيرة فى حماية المدينة والدفاع عنها، ولنشر الآن إلى بعض هذه المدن:

(١) أوجاريت:

كان موقع أوجاريت أهلا بالسكان قبل ابتداء التاريخ بزمان طويل، ودليل ذلك أن الاستاذ «شيفر» كشف على مبعدة ٧ كيلا شمالى أوجاريت على الشاطئ الأيمن لنهر العرب عن آثار عمران من العصر الحجري القديم، مع أدوات شيليه، أو أدوات من العصر الشيلى الأول (١٤).

ويشير تاريخ الأبحاث الأثرية إلى أنه فى أبريل من عام ١٩٢٨م، وعلى مقربة من ميناء البيضاء (الميناء الأبيض) على مبعدة ١٦ كيلا إلى الشمال من ميناء اللاذقية، كان أحد الفلاحين يحرق حقله فاصطدم حد الحراث بشيء صلب فى باطن الأرض، فنظر الرجل فرأى جزءا من قبر خرب، وأخطرت الآثار فى بيروت، وعلم أن مخلفات أثرية مختلفة كشفت من قبل، وبدأت الحفائر فى بداية عام ١٩٢٩م، واكتشف الباحثون أن تلا يعد نحو نصف ميل عن الشاطئ ويقوم بين فرعى نهر القد اللذين يلتقيان بعد ذلك ويصبان فى البحر، أن هذا التل يغطى بقايا مدينة قديمة، واسمه العربى «رأس الشمرة» (ربما لكثرة ماينمو عليه من نبات الشمر = الشمار).

ثم لم يلبث علماء الآثار أن اكتشفوا أن هذا التل إنما يغطى خرائب «أوجاريت»، وهى مدينة قديمة ذكرتها وثائق مصر وأرض الرفدين والحيشيين،

(١٣) ج. كوتشو: المرجع السابق، ص ٣٣.

(١٤) ح. كوتشو: المرجع السابق، ص ٤٤.

وباستمرار الحفائر كشفت قبور وأوان فخارية وتمائيل صغيرة وحلى وعظام حيوانية، ثم ألواح عليها نقوش مسمارية، وكانت التوفيق عظيما إلى حد دعا إلى تنظيم بعثة للحفر عاما بعد عام تحت إدارة الأثرى الفرنسى «شيفر»، وقد توقف العمل عام ١٩٣٩ م لإندلاع الحرب العالمية الثانية، ولكنه استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠ م.

هذا وقد كشف فى رأس الشمرة عن نصوص مكتوبة بلغات عدة: الأكديّة والمصريّة والحيتية والحرورية ثم لغات أخرى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت، ومن ثم نشأت مشكلة حل رموز هذه اللغة، وقد تم ذلك فى خلال عام واحد، وعلى يد ثلاثة علماء عملوا مستقلين هم: «هانز باور» الألماني، و«ادوارد دورم» و«شارل فيرولو» الفرنسيين، وقد شغل ثالثهم بنشر النصوص وترجمتها وشرحها منذ عام ١٩٢٩ م.

وقد كشفت فى رأس الشمرة عدة مئآت من الألواح والكسر، أحدثت ثورة فى معلوماتنا عن الأدب الكنعانى، والمجموعة الأساسية فيها هى مجموعة الملاحم وشعر الاساطير، وإن وصلت إلينا للأسف فى حالة بعيدة عن الكمال، ولهذا كانت فى ترجمتها عدة فجوات، هذا إلى أن ترتيب الألواح ليس أكيدا فى كثير من الأحيان، وكذا ترتيب الأحداث فى دورات الملاحم.

وفى عام ١٩٥٣ م كشفت وثائق ملوك أوجازيت، وهى تشمل على رسائلهم إلى ملوك الحيثيين وغيرهم من الدول، ولا بد أن هذه الوثائق كتبت كلها قبل تخريب المدينة حوالى عام ١٣٥٠ ق.م (وإن كان رأى السائد أن المدينة خربت حوالى عام ١٢٠٠ ق.م، على يد شعوب البحر الذين جاءوا من سواحل الأناضول وجزر بحر ايجه، وأغارو على الشرق الأدنى القديم)^(١٥) وترجع هذه الوثائق إلى ما بين عامى ١٥٠٠، ١٤٠٠ ق.م، على وجه التقريب^(١٦)

وعلى أية حال، ففى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث زلزال فى المنطقة أعقبه طغيان البحر، فخربت أوجازيت، ولكنها مع ذلك نهضت من

(١٥) انظر عن «شعوب البحر وغزوهم لمصر وإمبراطوريتها فى غربى آسيا (محمد بيومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩: رسالة دكتوراه).

(١٦) سبتيموسكاتى. المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨، ٢٧٢.

جديد، ثم مالبت أن وقعت سريعا في قبضة الحيثيين في عهد أحد ملوكها ويدعى «نقمان»، وأصبح هذا تابعا للملك الحيثيين «شويلوليوما» (١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق.م)، وعند قيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)، ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، بمحاولة إسترداد الإمبراطورية المصرية فى غرب آسيا، وحدثت بينه وبين ملك الحيثيين «مواتيلا» وحلفائه من ملوك وأمراء سورية وفينيقيا معركة «قادش» انضمت أوجاريت لهؤلاء الأحلاف، راغبة أو كارهة، بحكم تبعيتها للحيثيين^(١٧)

وانتهت معركة قادش (حوالى عام ١٢٨٥ ق.م) بنصر شبه مؤزر للفرعون، وإن اضطر الفرعون حوالى عام ١٢٨٢ ق.م إلى أن يخرج مرة أخرى إلى غربى آسيا، للقضاء على الثورات التى قامت فيها بتحريض من الحيثيين ، وأن يلتقى مرة ثانية بالحيثيين فى «تونب»، حيث أوقع بهم هزيمة ثانية، فضلا عن تلقين ملوكها درسا قاسيا أجبرهم على احترام مصر، وعدم التدخل فى أمر ولايتها الأسيوية^(١٨).

وفى حوالى عام ١٢٦٩ ق.م، أبرمت معاهدة تحالف بين مصر وحاتى^(١٩)،

(١٧) انظر عن معركة قادش (محمد يومى مهران: مصر: الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٣٥٢ - ٣٥٦، وكذا:

A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, p. 5 - 10.

H. goedick, JEA, 52, 1966, p. 72 - 80.

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 196.

A. Gotze, LDZ, 32, 1929, p. 832 - 840.

J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14 F.

(١٨) انظر (محمد يومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٩٠ - ٩٥، وكذا:

K. A. Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 70.

G. Gaballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88.

(١٩) انظر عن معاهدة التحالف بين مصر وحاتى (محمد يومى مهران: مصر، الكتاب الثالث، ص ٣٥٦ - ٣٦٠، وكذا:

S. Langdon and A. H. Gardiner, JEA, 6, 1920, p. 179 - 205.

M. B Rowton, JCS, 13, 1959, p. 1 F.

وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل، وزادت عليهم عناصر جديدة (من أهل مكينى ببلاد اليونان ومن قبرص) لعبت دورا كبيرا فيما بعد، وانتعشت أوجاريت للمرة الأخيرة حيث أنها خربت حوالى عام ١٧٧٤ ق.م، أثناء غزو شعوب البحر لمصر وامبراطوريتها الآسيوية، بعد أن أسقطت دولة الحيثيين، ولكن رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) ثابى ملوك الأسرة العشرين، كتب لها نجحاً بعيد المدى فى هزيمة شعوب البحر فى موقعتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، ومن ثم فقد نجح فى القضاء على الأخطار التى هددت مملكته الآسيوية، فضلا عن مصر نفسها^(٢٠).

وأخيرا فيمكن القول بأن أوجاريت بحكم موقعها، إنما كانت أكثر تأثر بقبرص والحيثيين، فضلا عن الحوريين، أكثر من تأثرها بمصر^(٢١).

(٢) أرواد (أرادوس) :

قامت أرواد فى شمال فينيقيا على إحدى الجزر، وتقابلها على الشاطئ أرواد الداخلية، وقد وصف «إسترابو» هذه الجزيرة التى قامت عليها أرواد بأنها كانت (فى العصر اليونانى الرومانى) مغناة بالمبانى بارتفاعات شاذة ذات طوابق متعددة.

وكانت تسمى أرواد فى العصر الهلينستى «أنترادس» (Antaradus) وقد أطلق عليها الصليبيون (Tortosa) وهى اليوم «طرطوس» شمالي عرمت، حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الفينيقية الهامة، وهى معبد وعدة قبور.

هذا وكان أهل أرواد يتجمعون فى جزيرتهم الصخرية - كما يفعل الأمريكان الآن فى جزيرة منهاتن فى نيويورك - فى ناطحات سحاب مصغرة، وقد ظهرت مراعتهم فى ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم، وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل فى صهاريج، وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر، يحصلون

(٢٠) انظر عن غزوات شعوب البحر (محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٥٧ - ٢٦٤، مصر ٣ / ص ٣٧٣ - ٣٨٥، وكنا:

H. Nelson, JNES, 2, 1943, p. 45 F.

W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramses, III, Chicago, 1936, p. 35 - 55.

عليها بوضع قمع ضخيم مقلوب على الينبوع، بحيث يتصل القمع بأنبوب جلدى، وربما كان هذا أقدم ماسجله التاريخ من وجود نبع مياه عذب تحت البحر (٢٢).

هذا وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد، فقد سجل التاريخ أنها كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة، مثل «سيميرا»، و«مارثوس»، على أننا لانعرف الكثير عن تفاصيل تخطيطها، وربما كانت جباناتها، وكذا ضواحيها، تمتد إلى الأرض الرئيسية، وقد اشتهر أهل أرواد بأنهم ملاحون مهرة، وكانت لهم فرق كبيرة فى الأسطول الفينيقي، وقد رسم على ظهر عملتهم الأولى «سفينة» وهى شعار المدينة (٢٣).

هذا وقد تعرضت أرواد، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الفينيقية الرئيسية، لكثير من أطماع الشعوب المجاورة، وانتهى أمرها بأن دمرها أقوام البحر، كما تشير إلى ذلك مظاهر التخريب التى ترجع إلى القرن الثانى عشر، وإن عادت مرة أخرى إلى الحياة، حيث قاست الكثير من غزوات الآشوريين المتكررة. (٣) جبيل:

تقع جبيل على مبة ٤٠ كيلا إلى الشمال من مدينة بيروت، العاصمة اللبنانية الحالية، ويرجع تخطيطها إلى عصر البرونز، وتقع المدينة على صقع جبل، ومنها طريق يتصل بالمينا، وأمل جبيل يعتبرون مدينتهم أقدم مدن العالم قاطبة، وقد بناها الإله «إيل»، فيما تزعم أساطيرهم، هذا وقد كشفت الحفائر فى جبيل عن آثار ترجع إلى عصر Chalcolithic وربما كانت هناك مخلفات ترجع إلى عصور أقدم، كما أن جبيل ربما كانت كذلك من المراكز الهامة والقديمة لعبادة الإلهة «عشتار» (٢٤).

وعلى أى حال، فلقد ظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية

(٢١) محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، بيروت ١٩٨١، ص ٢٧.

(٢٢) فيلبي حتى: المرجع السابق، وكذا:

Strabo, XVI, 2, 13.

(٢٣) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٤٧.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٢٤٧.

لفينيقياء، وكان البردى من أهم سلعها التجارية، ومن ثم فقد اشتق اليونان، فيما يرى «ول ديورانت» من اسمها اسم الكتاب في لغتهم بيلوس (Biblo)، ومن هذه الكلمة نفسها استقت كلمة (Bible) اسما للكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) (٢٥).

وكان لإسم المدينة عند المصريين القدامى يكتب حتى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ ق.م) «كبن»، ولعله تحريف للإسم الفينيقي «جبيل»، ثم أصبح بعد ذلك يكتب «كبين» (Kepen) بالباء الثقيلة، ثم أطلق اليونان عليها اسم «بيلوس»، ثم أصبحت في العربية «جبيل».

هذا وقد أقام المصريون علاقات مع جبيل منذ عصور ما قبل التاريخ، وتشير دراسة الخشب الموجود في مقابر الأسرة الأولى إلى أنه وارد من سورية ولبنان، وأنهم عملوا على إحضار خشب الأرز من هنا، كما يشير إلى ذلك «حجر بالرمو»، منذ عهد «منفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل في فصل العلاقات الخارجية.

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى أن «جبيل» إنما كانت آهلة بالسكان منذ أقدم العصور، وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجارى هام، فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة، ويذهب كثير من الباحثين إلى أن جبيل إنما قد خضعت للنفوذ المصرى فى أغلب عهودها.

(٤) صيدا:

كانت صيدا شقيقة صور، بل لعل صيدا إنما كانت فى فترة ما ملكة المدائن الفينيقية وتقع صيدا على مبعدة ٤٥ كيلا إلى الجنوب من بيروت، ٤٠ كيلا شمالى صور (أى فى مكان وسط تقريبا بين بيروت وصور) فى سهل ساحلى شديد الخصوبة، وافر المياه، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، يصل اتساعه إلى مايقرب من ميلين (٢٦).

(٢٥) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة محمد بدران، للقاهرة ١٩٦١، ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٢٦) انظر:

F. C. Eislen, a Study in Oriental history, New York, 1907, p. 1.
Dictionnaire de la Bible, Pub. Vigouroux, T. V, Paris, 1928, p. 1704.

هذا وقد أنشئت المدينة، في بادئ أمرها، على رأس جبل، واختاره القوم، في أكبر الظن، بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها ببعض الآخر بأرصفة صناعية، وكان هذا المرفأ يقع إلى جهة الشمال، وكان هناك، من ناحية الجنوب، مرفأ آخر يسمى «المرفأ المصرى» وهو أكبر من الشمالى، وإن كان أقل منه أمنا، كما كان هناك، من ناحية البر، سور لحماية المدينة، وأما قلعة صيدا الحالية، وتسمى «قلعة البحر»، فترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وتقع على أكبر الجزر التى قامت عليها المدينة^(٢٧).

هذا ويذهب «الأب هنرى لامانس» إلى أن مدينة صيدا القديمة إنما كانت جزيرة^(٢٨)، وهو أمر، فيما يرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم، نستبعده اليوم، ذلك لأن كل الآثار القديمة التى تم العثور عليها إنما كشف عنها فى البر^(٢٩).

ونقوم المدينة الحديثة فى نفس مكان صيدا القديمة على وجه التقريب، أى على قلعة البر الذى أقيمت عليه قلعة البر الصليبية، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت فى فترة لاحقة للإسترداد الإسلامى نحو الشمالى الشرقى بحذاء الساحل، وأصبحت لا تتعمق كثيرا فى الداخل^(٣٠).

هذا وقد اشتق إسم «صيدا» من الصيد، أى صيد السمك، وإليها ينتسب الإله الفينيقي الوثنى «صيدون»، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها كانت محلة صغيرة لصائدى الأسماك، على النحو الذى كانت عليه قرية «راقودة» (راكوتيس) التى أقيمت عليها مدينة الإسكندرية، وقد أشار «هومير» إلى أن السمك فى صيدون أوفر من الرمال، كذلك قسر «جستان» فى القرن الأول إسم صيدا بكثرة السمك فيها، على أساس أن الفينيقيين كانوا يسمون السمك

(٢٧) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١، وكذا:

Poidebard et Lauffray, Sidon, Amenagements Antiques du Port de Saida, Beyrouth, 1951, p. 84.

(٢٨) هنرى لامانس: السواحل اللبنانية، مجلة الشرق، السنة السابعة، العدد ٢٠، ص ٩٤٨.

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم: دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى، بيروت ١٩٧٠، ص ١٠.

(٣٠) نفس المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 28.

Schwarz, Encyclopaedia of Islam, p. 422.

«صيدون»، كما أشار الإدريسي إلى عين في صيدا كان ينشأ فيها في الربيع سمكيات على طول الأصبع، منها ذكور وإناث، وأن لها أيد وأرجل صفار، وعلى أية حال، فما زالت صيدا حتى اليوم تشتهر بأسمائها وما زال القوم يعتبرون صيد الأسماك من أهم حرفهم، بل إن ميناءها الحالي، ما يزال في نظر البعض، لا يعدو أن يكون مرسى لزوارق السفن^(٣١).

هذا وقد عرفت صيدا في الآشورية باسم «صيدونا»، وفي اللاتينية «صيدون» أو «صيدونيا» وفي رسائل تل العمارنة المصرية «صيدونو»، وفي العبرية «صيدون» أو حتى «زيدون»، وعند الصليبيين «ساجيتا»^(٣٢).

وأما في العربية فقد عرفت باسم «صيدا»، وكذا باسم «أريل»، يقول ياقوت الحموي في معجمه «أريل إسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام، ولعلها سميت «أريل» عند العرب من الربا أى كثرة الشجر، وقد أشار ابن فضل الله العمري إلى أن كورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار»^(٣٣).

هذا وتنسب التوراة مدينة «صيدا» إلى صيدون الابن الأكبر لكنتان بن حام بن نوح، ومن ثم فهي تربط بين تأسيس صيدا وبين الكنعانيين الذين عرفوا باسم الصيدونيين^(٣٤)، وهكذا تنسب التوراة «الكنعانيين - الفينيقيين»، كما أشرنا من قبل، إلى الحاميين، وليس إلى الساميين، مع أنهم يتكلمون لغة سامية، بل هم أنفسهم ساميون، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلهم التوراة

(٣١) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٧ - ١٨، منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ، بيروت ١٩٦٦، ص ٢٤، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ١٥، وكذا:

F. C. Eislen, op. cit., p. 11.

(٣٢) أنيس فريجة: أسماء المدن والقرى اللبنانية، بيروت ١٩٥٦، ص ٢٠٣، منير الخوري: المرجع السابق، ص ٢٤، وكذا:

F. C. Eislen, op. cit., p. 10.

(٣٣) معجم ياقوت ١/ ١٤٠، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١١١/٤، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٦.

(٣٤) تكوين ١٠/ ١٥، أخبار أيام أول ١٣/ ١، يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ١١/ ١، وكذا:

Schulim Ochser, The Jewish Encyclopaedia, N. Y., 1903, Article, Sidon.

حاميين، تقول التوراة^(٣٥) فى سفر التكوين «بنوحام: كوش ومصرام وفوط وكتعان»^(٣٦) والمصريون ساميون، ما فى ذلك من ريب، وكذا الكنعانيون الفينيقيون.

وهكذا تعتمد العبرانيون فى توراتهم، إقصاء الكنعانيين - الفينيقيين عن الإنتساب إلى سام بن نوح، لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ماينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية، وقد أرجح الإصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبثيين إلى «حام» جد الكوشيين، ذى البشرة السوداء، مع أنهم «أى الفينيقيين والسبثيين» من الساميين، وقد يكون ذلك بسبب وجود جليات فينيقية وسبثية فى أفريقية، فعذ كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين^(٣٧).

ومن عجب أن يأخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بالتفسير التوراتى لنسب الفينيقيين، ومن ثم فقد أجمعوا على نسبة الصيدونيين إلى «صيدون بن صدقاء بن كتعان بن حام بن نوح»^(٣٨).

هذا ويذهب «ابوستاثيوس» إلى أن صيدون القديمة من بناء «يلوس»، وأنها سميت باسم ابنته «صيد»، ولكن الكتاب الإغريق أجروا تعديلا على هذه الأسطورة، فأبدلوا «صيد» بـ «صيدوس بن ايجيببتوس» الذى بنى صيدون وسماهم باسم «صيدوس»، ويذهب «فردريك كارل ايسلين» إلى أن هذا التفسير الأخير إنما يشبه إلى حد ما تفسير التوراة، وأنه يربط المدينة واسمها باسم «صيدون»، ويعترض وهو على حق فى هذا، على الأخذ بهذا التفسير الخيالى^(٣٩).

(٣٥) انظر: عن التوراة، ومدى الشك الذى يحيط بوثاقة نصها وصحة (محمد يومى مهران: إسرائيل، الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١، ٣٧٩).

(٣٦) تكوين ١٠ / ١٥.

(٣٧) حواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٨، الجزء الأول، ص ٢٢٤، وكذا: R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1935, p. XV.

(٣٨) انظر: معجم ياقوت ٣ / ٤٣٧، القلقشندي: المرجع السابق، ١١١ / ٤، ابن شداد: الأعلام انحصرة فى ذكر أمراء دمشق والجزيرة، دمشق ١٩٥٦، ص ١٨.

(39) F. C. Eislen, op. cit., p. 9.

ومن ثم فإن «إيسلين» إنما يرجح أن صيدون القديمة سميت باسم إله يحمل هذا الاسم، ومنه اشتقت التسمية الصليبية «ساجيتا» أو «ساجيت»، وإن كان يميل إلى ربط اسم «ساجيتا» باللفظة اللاتينية Sagitta بمعنى السهم بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيدا في العهد الصليبي، وكانت العملات التي سكّت في صيدا في ذلك العهد تحمل هذا الشعار^(٤٠).

ويذهب الأستاذ أنيس فريحة إلى أن يكون «صيد» هو الجذر الذي استقت منه صيدون، وصيدا، كان الها ساميا قديما يمثل الصيد، ويعلل تسمية أهل صيدا للمزار الواقع في الجنوب الشرقي منها، وإلى أن يسميه الأهالي «مزار النبي صيدون»، بأنه مكان هيكل فينيقي قديم للإله السامي «صيد إله الصيد»^(٤١).

ويعتقد أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن اسم «صيدا» مشتق من الجذر السامي صيد، ويقصد به صيد السمك، وهو الحرفة الرئيسية لسكان هذه المدينة منذ نشأتها، ولا نستبعد تمجيد الأهالي لهذه الحرفة فأطلقوا على مدينتهم إسمها، بحيث أصبح اسم صيدون يعني مدينة صيد الأسماك، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الديني القديم عند سكان صيدون، أو لعله كان يرتبط بالطوطمية التي كان من مظاهرها أن يتسمى بها الأفراد تعبير عن تفاؤلهم بها، كما كان يفعل العربي في العصر الجاهلي عندما كانوا يتغافلون بالطير كالحمامة مثلا، ومن المعروف أن كثيراً من الأسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت ذات صلات وثيقة بأسماء الآلهة، وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التي كان يمارسها القوم كانت مقصورة على صيد السمك، فمن المعروف أن أهل صيدا احترفوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الأصداف كانوا يستخرجون منها الأصباغ الإرجوانية المشهورة، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية^(٤٢).

(٤٠) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٨ - ١٩، وكدا:

F. C. Eislen, op. cit., p. 14.

(٤١) أنيس فريحة: المرجع السابق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٩

(٤٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٩، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، بيروت ١٩٧٠، ص ٤٠٨، وانظر: محمد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت ١٩٦٩، ص ٣٥٩.

(٥) صور :

تقع «صور» (أى الصخرة) على مبعدة ٤٠ كيلا جنوب صيدا، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعا، دونما ريب، وطبقا لرواية «هيرودوت» (عن كهنة ملقارت)، فلقد أسست صور قبل قدوم هيرودوت إليها، حوالى ٤٥٠ ق.م، بألفين وثلاثمائة سنة، ومن ثم تكون قد ظهرت إلى الوجود، حوالى عام ٢٧٥٠ ق.م^(٤٣).

هذا وقد بنيت، فى الأصل، على جزيرة تبعد عدة أميال من البر، وقد كانت ، فيما يرى استرابو^(٤٤)، «مبنية بنفس الشكل الذى بنيت به أرادوس»، هذا وقد كانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل، بناء الإسكندر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٢ ق.م) أثناء حصاره لها عام ٣٣٢ ق.م، والذى دام سبعة أشهر من البر والبحر^(٤٥).

هذا وقد بدأت المدينة تاريخها، فى بادىء الأمر، كحصن، إلا أن ميناءها الآمن، وسلامتها من الغزو، سرعان ماجعلها حاضرة البلاد الفينيقية كلها، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا إليها من جميع بلاد البحر المتوسط^(٤٦)، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد، حتى كانت صور مدينة غنية فى عهد ملكها «حيرام» - ٩٨٠ - ٩٣٦ ق.م) الذى عاصر الملك النبى سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٤٧)، وفى أيام زكريا (حوالى عام ٥٢٠

(٤٣) قاموس الكتاب المقدس ٢ / ٥٥٩، (بيروت ١٩٦٧)، وكذا:

Herodotus, II, 44.

(44) Strabo, XVI, 2, 23.

(٤٥) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٢٥٤، وكذا:

Arrian, II, 18 - 24.

Diodorus, XVII, 41 - 46.

(٤٦) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٤٧) يتفق المؤرخون على أن سليمان عليه السلام قد حكم فى القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنه يختلفون فى تحديد هذه الفترة من هذا القرن العاشر، فهناك من يراها فى الفترة (٩٧٤ - ٩٢٠ ق.م) (فضلو حوراني: المرجع السابق، ص ٣٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٧٣ - ٩٣٦ ق.م (حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ص ٨٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م (فيليب حتى: المرجع السابق، ص ٢٠٥) ومن يراها فى الفترة ٩٦١ - ٩٢٣ ق.م (موسكاتى: المرجع =/

ق.م) (٤٨) كانت الفضة التي تجمعت فيها كأنها التراب، وكان الذهب كأنه «وحل الطرق» (٤٩)، ويقول عنها «استرابو» أن بيوتها من طبقات كثيرة، بل إنها أكثر طبقات من بيوت روما (٥٠)، غير أن هذا الرخاء إنما كان قائما في ذلك العصر، وفي جميع العصور، على التجارة والغنى، وليس على الأراضي والفتح (٥١).

وعلى أية حال، فلقد ظلت صور، نتيجة ثرائها، فضلا عن بسالة أهلها، مستقلة حتى أيام الإسكندر الأكبر والذي رأى في استقلالها تحديا لعظمته وعبقريته الحربية، ومن ثم فقد أخضعها، كما أشرنا آنفا، عام ٣٣٢ ق.م، ثم قضى عليها نهائيا إزدهار مدينة الإسكندرية العظيمة (٥٢).

وأخيرا، فلعل من الجدير بالإشارة أن الحفائر التي أجريت تحت سطح البحر، فضلا عن الخرائط الجوية، قد أثبتت أن حاجز الماء الذي كان يحمي مدينة صور، إنما يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدما، وكان طوله ٧٥٠ مترا، وعرضه ثمانية أمتار، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشامخة، وقد بنيت هذه الحصون في عهد ملك صور «حيرام» (٩٨٠-٩٢٦ ق.م)، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانئ حوض البحر الأبيض الشرقي (٥٣).

السابق، ص ١٤٣، وكذا:

E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, p. 172.

(٣٨) لاوب في أن زكريا هذا، إنما هو غير زكريا الذي جاء في التوراة الكريم، والد النبي يحيى عليهما السلام، واللذين عاصر السيد المسيح عليه السلام (أنظر عن زكريا القرآن: سورة آل عمران: آية ٣٣ - ٥٩، مريم: آية ٢ - ١٥)، وأما زكريا المذكور هنا فهو صاحب سفر زكريا، وهو السفر قبل الأخير في العهد القديم، وقد عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ق.م على الأرجح (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل، ص ٥٩).

(٤٩) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(50) Strabo, XV, 2, 23.

(٥١) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١.

(٥٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٤، ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٥٣) فليب حتى المرجع السابق، ص ٩١، حسن أحمد محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم، ص ٣٩٠، وكذا:

A. Poidebard, un Grand port disparu: Tyr, Paris, 1939, p. 25 -

26.

(٦) بيروت:

بيروت: عاصمة لبنان الحالية، وإحدى مدن البحر المتوسط الهامة، وهي مدينة قديمة كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية، وقد جاء ذكرها في رسائل العمارة (من القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، عدة مرات.

وقد وصفها «ربعدى» - أمير جبيل - بأنها، هي وصور، أعداء الفرعون، رغم أن ربعدى كان قد ذهب إلى بيروت لمساعدة أميرها «خامونيرى» (لهونيرى - Ammuniru)، ولتقعد حلف معه.

هذا وقد ازدهرت بيروت على أيام السلوقيين والرومان والبيزنطيين، وقد فتحها العرب في عام ٦٣٥ م، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م) - رضوان الله عليه - ثم احتلها الصليبيون في ١١١٠ م، وأصبحت جزءاً من مملكة «بيت المقدس» اللاتينية، حتى عام ١٢٩١ (١).

(٧) سميريا:

سميريا مدينة فينيقية، جاء ذكرها عدة مرات في «رسائل العمارة»، ففي أول رسائل «ربعدى» - أمير جبيل - إلى إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) نراه وقد وجد نفسه في مشكلة بسبب هجوم شعب «ساجاز» (Sagaz) لمدينة «سيميريا» وبما أن مدينته «جبيل» كانت على مقربة من «سيميريا»، فإنه قد أصبح في خطر. وفي رسالة من إخناتون - داعية التوحيد - نعرف أن «سيميريا» استولى «عزيرو» - أمير أمور - عليها، ومن ثم فإن الفرعون إنما يصبر على أن يعيد «عزيرو» المدينة.

وفي رسالة ثالثة من «ربعدى» نراه يوجه اتهاماً إلى «خايب» (هائب) - والذي ربما كان أخو عزيرو - فيقول: «أما بالنسبة لخائب، فلقد جعل والده

(١) محمد بيومى مهران: إخناتون، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥٩ - ٢٦٢، وكنا:

S. A. B. Mercer, The Tell - El-Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, No. 136 - 137.

المدن أكثر عداوة لمدينة «جبل»: انظر: لقد وضع هائب (Haibi) يده على «سيميريا»^(١).

(1) S. A. B. Mercçer, op. cit., I, 1939, Nos, 132, 159 - 160.

وانظر عن رسائل العمارة (محمد بيومي مهران: إختاتون، ص ٢٣٣ - ٢٤٥)

الفصل الثالث سورية الإمارات الأرامية

(١) فى شمال سورية:

توغل الأراميون فى شمال سورية، مكونين عدداً من الولايات الصغيرة والتي منها:

١- جرجوم: وعاصمتها «مقاش»، وهى مرعش الحالية.

٢- سمأل: فى كليكيا، وعاصمتها «سنجرلى».

٣- خاتينا: وعاصمتها «كوتالوا».

٤- ياخان: وعاصمتها «أرباد».

٥- يمخند: وعاصمتها «حلب» (حلبو).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الولايات إنما قد تعرضت للضغط الآشورى عدة مرات، حدث ذلك على أيام «أشور ناصر بال الثانى» (٨٨٤ - ٨٥٨ ق.م) الذى قام بحملة مظفرة على «خاتينا» وأجبر ملكها على الخضوع ودفع الجزية^(١)، ولكن سرعان ما انتهزت خاتينا - بالاتفاق مع قرقميش وجرجوم وسمأل وبيت أدنى - فرصة وفاته، وانتقال العرش الآشورى إلى «سلمنصر الثالث»، فقامت بالثورة ضد آشور، إلا أن العاهل الآشورى الجديد تمكن فى عام ٨٥٨ ق.م من القضاء على الثورة واجبار العصاة على دفع الجزية^(٢) ثم كتب له آخر الأمر - وفى عام ٨٣٢ ق.م - نجحاً بعيد المدى فى القضاء نهائياً على الثورة، وتوليه أحد الموالين له عرش «خاتينا»، وسرعان ما إختفت خاتينا من النقوش وضعفت الولاية جداً، واقتصرت على العمق لانطاكية، وأصبحت تسمى «أونقى»^(٣).

(1) E. G. Kraeling, op. cit., p. 66.

(2) Ibid., p. 68 - 71.

(3) Ibid., p. 71 - 72.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد، عادت آشور الهجوم، ففي عام ٧٤٠ ق.م وبعد حصار دام سنوات ثلاث، وقعت في يد «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) مدينة «أرفة»، وتدل النقوش المكتشفة في «سوجين» - وتقع على مبعدة ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من حلب - على أنها كانت مركز المعارضة ضد آشور^(١).

وكانت دويلة «سمأل» آخر الولايات الأمورية التي ظلت تكافح من أجل استقلالها حتى القرن الثامن ق.م، حين نجح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) في القضاء على استقلالها وضمها إلى إمبراطوريته الواسعة ثم أقام «إسرحدون» (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) شاهداً كبيراً عند مدخل المدينة مجد فيها حكمه، وعلى أي حال، فإن ما وجد في «سمأل» من بقايا أثرية لهلاك بالنار، وانقطاع كل ذكر لها في مصادرها، يدلان، فيما يبدو، على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل^(٢).

(٢) في وسط وجنوب سورية:

١ - حران (حاران):

هي عاصمة دويلة أرام النهرين، والتي تسمى في التوراة^(٣) «فدان أرام» أو نهرين في السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام، وكان مركزها مدينة «حران» التي أصبحت من مراكز الحضارة الآرامية^(٤)، وفي هذا الإقليم تقع كذلك مدينتا «نصيبين» و«الرها» اللتين اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية^(٥).

وتعتبر دويلة أرام النهرين أقدم الإمارات الآرامية في سورية وشرق الأردن، وأما اصطلاح «أرام النهرين» فقد ظهر - فيما يرى كريلنج - في القرن الثالث عشر

(١) موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٨. وكذا:

H. Schmokel, op. cit., p. 262.

(٢) موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٧٩، وكذا:

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 68.

(٣) تكوين ٢٤: ١٦.

(٤) فليب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٣.

ق. م، غير أن رواية التوراة^(١)، إنما ترجع به إلى عصر الآباء الأول - عصر إبراهيم وناحور وإسحاق ويعقوب - هذا فضلاً عن أن الإصطلاح إنما استعمل في رسائل العمارة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد^(٢)، وأما النهران فكان المراد بهما من قبل الدجلة والفرات، ولكن الراجح الآن - كما أشرنا من قبل - أنهما الفرات ورافده الخابور - حيث تقع منطقة حاران التي استقر الأراميون فيها في عصر الآباء الأوائل، ومن هنا بدأت القوة الأرامية في الإنتشار، وقد دعا العبرانيون هذه المنطقة «أرام التي في عبر النهر» واستمرت هذه الدولية حتى القرن التاسع قبل الميلاد^(٣).

وكان الأراميون في فدان أرام قد اتخذوا من «حاران» - وتقع على نهر بلخ على مبعده ٦٩ كيلاً - من اتصاله بنهر الفرات، إلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعده ٤٤٨ كيلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق - وكانت المدينة مركزاً تجارياً على طريق القوافل التي تصل نينوى وآشور وبابل بدمشق وصور والمدن المصرية وقد اتخذت القمر إلهاً لها تحت اسم «تارح»^(٤)، ثم اتخذها الآشوريون مركزاً لهم بعد سقوط نينوى في عام ٦١٢ ق. م، تحت أيدي البابليين والميديين ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م) استطاع الإستيلاء عليها في عام ٦٠٩ ق. م، والقضاء على بقية الجيش الآشوري، قبل وصول مجندات ملك مصر «نخاو» الثاني (٦١٠ - ٥٩٥ ق. م) لإنقاذه^(٥).

٢- دمشق:

تقع دمشق - على مبعده ١٠٤ كيلاً شرقي البحر المتوسط، ٢١٢ كيلاً

(١) تكوين ٢٤: ١٠، ٢٨: ٢، ٥: ٢٩، ٤ - ٥.

(2) Samuel A. B. mercer, The Tell-Amarna Tablets, Toronto, 1939, Vol. 2, p. 898.

(3) E. G. Kraeling, op. cit., p. 21.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ١ / ٢٨١. وكذا

M. F. Unger, op. cit., p. 455.

(5) M. F. Unger, op. cit., p. 455.

وكذا.

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, o. 357 - 358.

شمال شرق القدس - فى وسط غوطه يسقيها نهر «بردى»، وهى مركز هام لطرق التجارة، وهى من أقدم مدن الشام، وقد ذكرت على أيام سيدنا إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م)^(١)، وكانت على أيام داود عليه السلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)^(٢) موطناً وعاصمة للأراميين.

هذا وقد تأسست «دويلة أرام دمشق» فى أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد، على رأى^(٣)، وأخريات القرن العاشر على رأى آخر^(٤)، فكانت معاصرة على وجه التقريب لتأسيس مملكة العبرانيين - طبقاً للرأى الأول، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به - ثم سرعان ما تطورت حتى غدت دولة كبرى - بالنسبة إلى جيرانها - تمتد إلى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة لأرض الآشوريين فى الشمال، ولأرض العبرانيين فى الجنوب، وكانت سورية الداخلية شرقى جبل لبنان، وسورية الشمالية وباشان، تحت سلطانها فى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وظل ملوكها يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم أفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لإخضاع سورية لحكمهم^(٥).

وأما علاقة أرام دمشق بالعبرانيين، فكل دارس للتوراة على معرفة بها وهى - على أى حال - قد بدأت أيام «شازل» (١٠٢٠ - ١٠٠٠ ق.م)، وإن كان «داود» (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م) هو الذى استطاع الإستيلاء على المدينة

(١) انظر عن عصر إبراهيم عليه السلام (محمد يومى مهرانك إسرائيل، ط الثالثة، ح ١، ١٩٩٩، ص ٧٥ - ٨٤).

(٢) انظر عن عصر داود عليه السلام (محمد يومى مهران: إسرائيل ح ٢ - ط الثالثة، ١٩٩٩، ص ٦٤٣).

(٣) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٤) مراد كامل: المرجع السابق، ص ٤.

(٥) نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٣٢ - ٣٣، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٨١، مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤، أدى شير: تاريخ كلد وآشور، بيروت، ١٩١٢ - الجزء الأول، ص ٦٦، وكذا:

R. H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, N. Y., 1941, p. 687 JNES, 7, p. 70.

العريقة^(١)، هذا وقد روت التوراة بالتفصيل قصة الصراع بين الأراميين والإسرائيليين على أيام «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق.م)، الأمر الذي وصل إلى أن يحاصر الأراميون «السامرة» عاصمة إسرائيل نفسها، وإن استطاع أخاب أن يصون آخر الأمر حدود إسرائيل الشمالية، وأن يشترك في حلف ضد الآشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق، وأن يشارك معه في حرب ضد آشور في موقعة قرقار في عام ٨٥٣ ق.م^(٢)، الأمر الذي سوف تناقشه بالتفصيل في مكانه من هذه الدراسة.

على أن الصلات بين الأراميين والإسرائيليين لم تكن كلها حربية، وإنما كانت هناك صلات تجارية، وعلى أى حال، فلقد بقيت دويلة (أرام دمشق) تقاوم جبروت الآشوريين - على الرغم من أن طول منافستها مع جيرانها من الأراميين والبدو العبرانيين قد أرهقها كثيراً - إلى أن استطاع (تجلات بلاسر الثالث) (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م)، أن يستولى عليها في عام ٧٣٢ ق.م، وأن يقتل ملكها (رصين) وأن يجعلها ولاية آشورية، ذلك أن العاهل الآشوري كان - وقت مطلب أحاز ملك يهوذا للنجدة ولإنقاذه من قوات دمشق والسامرة - في شمال سورية، وربما كان مع جيشه في مكان ما في مجاورات دمشق، ومن ثم فلم يكن في حاجة إلى توسلات (أحاز) اليهودى ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، وهكذا استطاع العاهل الآشورى أن يجتاح في عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصار دام عامين، ويسقوط دمشق حان الوقت للآشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الأراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الأرامية لآشور^(٣).

(١) صموئيل ثان ٨: ٥ - ٦، أخبار أيام أول ١٨: ٥ - ٦، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٣٧٥، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) ملوك أول ٢٠: ١ - ٤٢، ٢٢: ٢ - ٣٨، وكذا:

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 35.

A. Lods, op. cit., p. 378.

E. G. Kraeling, op. cit., p. 73. 75.

(٣) ملوك ثان ١٦: ٥ - ١٠، بولس عياد المرجع السابق، ص ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 259 F.

=/=

وعلى أية حال، فلقد خضعت دمشق للبابليين بعد ذلك فى عام ٦١٢ ق. م، والفرس فى عام ٥٣٩ ق. م، واليونان فى عام ٣٣٣ ق. م، والأنباط فى عام ٨٥ ق. م، والرومان فى عام ٦٦ ق. م، والساسانيون عام ٦١٤ م، وفتحها العرب عام ٦٣٥ م، غير أن أطول فترة خضعت فيها دمشق، إنما كان ذلك للمصريين على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق. م).

هذا وقد أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية (٤١ - ٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)، وكان أهم أعمالهم فيها بناء مسجدها الكبير (المسجد الأموي)، وكان أول من اختطه الصحابي الجليل «أبو عبيدة بن الجراح»، حين فتح دمشق (١٣ هـ / ٦٣٥ م) ثم بناء «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) فى الفترة (٨٨ - ٩٦ هـ) - فى مكان كنيصة - وقد تأق فى بنائه، حتى قيل إنه أنفق على عمارته خراج دولته لمدة سبع سنين^(١).

(٣) صوبه:

صوبه: عاصمة مملكة آرام صوبه القويه، وتقع عاصمتها (صوبه) فى مكان «صوبه» فى مكان بلده «عنجر» فى البقاع جنوبى «زحله»^(٢)، وإن كنا للأسف - لانعرف شيئاً حتى الآن عن ملوكها الأوائل، فيما قبل عهد «حدد عزر» وأما مدى اتساعها فقد وصل فى عهد ازدهارها إلى حدود حماة فى الشمال الغربى^(٣).

وقد وصلت «صوبه» إلى ذروة قوتها فى عهد «شاؤل» ملك اسرائيل، والذى كانت العداءه بين الدويلات الآرامية واسرائيل فى أيامه على أشدها، ومع ذلك فإن التوراه لم توضح لنا علاقة شاؤل بالدويلات الآرامية، مما دفع «كريلنج» إلى

==/= وكذا.

E. G. Kraeling, op. cit., p. 118 - 119.

(١) المسعودى: مروج الذهب ٢ / ١٥٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ١ / ٥٢٥ - ٥٢٧ هجرى عبودى: معجم الحضارات الساميه، ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

(٢) أحمد فخرى: المرحع السابق، ص ١٠٣.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ١ / ٤٣.

القول بأن علاقة صوبة بالعبرانيين فى عهد شاول كانت مبهمة^(١)، كما ذهب «ديون - سومير» بأن ملوك الآراميين لهذه المنطقة لم يذكروا لأنهم كانوا تابع لصوبة^(٢).

وعلى أى حال، فلقد استمرت صوبة فى عفوان قوتها حتى السنوات الأولى من أيام داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)، الذى نجح فى أن يضمها إليه مؤقتاً، إذ استمر الصراع بين الآراميين والعبرانيين على أيام داود - كما كان على أيام سلفه شاول - وهكذا قامت حروب بين داود و«حدد عزز» ملك صوبة، ساهمت فيها - إلى جانب حدد عزز - معظم الولايات التابعة لصوبة، كما اشترك فيها آراميو مابين النهرين.

هذا وكانت العلاقات بين العمونيين وداود عندما بدأت تسوء إلى الدرجة التى تهدد بدق طبول الحرب بينهما، طلبوا معونة جيرانهم الآراميين فى أرام بيت رحوب، وأرام صوبة ومعكة وطوب، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلى الذى أمر به داود تحت قيادة يوباب، ونجح يوباب فى هزيمة هؤلاء الآراميين، ويعلم «حدد عزز» ملك صوبة بذلك، ويشترك فى حرب مع الإسرائيليين - بقيادة داود - ولكنه ينهزم فيها، ثم سرعان ما بدأت صوبة فى الإضمحلال وأخذت دمشق مكانها بالتدريج، حتى صارت أعظم الإمارات الأرامية^(٣).

(١) بولس عياد: المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:

E. G. Kraeling, op. cit., p. 40.

(2) A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 26.

(٣) موييل ثان: ١٠: ٦ - ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 194 - 195.

(٤) قادش:

هناك أكثر من قادش في بلاد الشام - وقد تحدثنا عن ذلك من قبل - ونعني هنا قادش: التي تقع في مكان «تل نبي مند» على الشاطئ الأيسر لنهر الأورنت (العاصي) داخل الزاوية التي تكونت ناحية الغرب من اتصاله بنهر الموادية، على مبعده بضعة كيلو مترات، جنوبى النهاية الجنوبية لبحيرة حمص.

وفي قادش هذه حدثت واحدة من أهم المعارك الحربية في التاريخ القديم، وأعني بها معركة قادش بين ملك الحيثيين «مواتيل» والفرعون رعمسيس الثانى، حوالى عام ١٢٨٥ ق.م، وقد كتب فيها النصر للفرعون بعد أن تعرض لكمين كاد أن يقضى عليه وعلى جيوشه، ولكنه استطاع بفضل مهارته النادرة أن يحول الهزيمة إلى نصر، وإن كانت النتائج السياسية للمعركة لم تكن فى مستوى النصر العسكرى^(٥).

(٥) قرقيش:

مدينة هامة فى شمال سورية تقع غربى الفرات عند فريضة فى النهر، شمال مكان التقائه بساجور، وعلى مبعده ١٠٠ كيلا شمال شرق حلب، وقد كتبت فى قائمة تحوتمس الثالث «كاركمشا»، ثم حدث تغيير فى الهجاء، فتغيرت إلى «قرقميشا» فى سيرة «أمون ام حاب»، وفى عهد أمنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م).

ولعل أول من وصل إلى قرقميش إنما كان شوشنس الأول (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م)، حيث مرق بجيشه من مصر عبر الشام فى سرعة غريبة، ودون مقاومة كبيرة، حتى بلغ أرض «نهرين»، وحيث أقيمت لوحة تذكارية عند إنحناء الفرات، عند قرقميش.

(١) محمد يوسى مهران: مصر ٣٥٢/٣ - ٣٥٦ (الاسكندرية ١٩٨٨).

A.Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 195.

وكنا

J.H.Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1930, p. 13 - 15.

H.Goedicke, JEA, 52, 1966, p. 72 - 97.

غير أن حفيده العظيم «تختمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) إنما عبر الفرات، ودخل في أرض الميثان وأقام لوحة نصره على الجانب الشرقي للفرات، وذلك في حملته الثامنة (حوالي عام ١٤٥٧ ق.م)، ونقرأ في لوحة نبتة (نباتا) أن جلالته قد أمر بضع السفن في «جبيل»، وأن تنقل برا إلى قرقيش على عربات تجرها ثيران، وهكذا فلكن كان الطريق من جبيل يمر عبر قطنه وتوينب وقرقيش، فإن معنى هذا أن قوات الفرعون قد قطعت ٤٠٠ كيلا، كما أن استخدام عربات تجرها الثيران من دوات الأربع عجالات، ظاهرة غير متوقعة تماما، ولعلها أقدم المرات التي استخدمت فيها السفن الحربية في التاريخ القديم، لعبور جيش كبير على نهر واسع كالفرات.

وقد خضعت قرقيش لآشور على أيام «ناصربال» (٨٨٥ - ٨٦٠ ق.م) ثم استولى عليها الأكديون على أيام «نبرخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م).^(١)

J.H.Breastec, ARE, II, 1906, p. 34 - 35.

(١) وكذا

A.Gardiner, Onom., I, 1947, p. 132,

J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 234, The Culture of Ancient Egypt, 1964, p. 180 - 181.

R.O. Faulstich, JEA, 32, 1946, p. 39F.

(٨) ماري:

لاريب في أن مدينة «ماري»^(١) ذات الموقع الهام في حوض الفرات الأوسط، أهم مركز لتجمع العناصر السامية العربية في وادي الفرات، ولم تفقد هذه الأهمية إلا بعد سقوط مملكة ماري في أواسط القرن الثامن. عشرين قبل الميلاد، رقد سادتها دائماً هذه العناصر السامية الغربية وأن خضعت في كثير من الأحيان لنفوذ حكام السهل الميزوبوتامي المجاور.

هذا وقد قامت مملكة ماري في حوالي عام ١٨٢٠ ق.م، ولم تستمر أكثر من ستين عاماً، حيث انتهت على يد حمورابي البابلي حوالي عام ١٧٦٠ ق.م، وحكم في هذه الفترة أربعة من ملوك ماري هم: (١) ياجيد ليم (١٨٢٠ - ١٨١٠ ق.م) - (٢) ياخذون ليم (١٨١٠ - ١٨٩٦ ق.م) - (٣) سومو يامام (١٧٩٦ - ١٧٩٢ ق.م) (٤) ياسماخ أدد الأشوري (١٧٩٢ - ١٧٨٢ ق.م)، ثم الملك «زمرى ليم» (١٧٨٢ - ١٧٦٠ ق.م)^(٢).

(١) ماري: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أي بلاد الغرب، وهي الآن «تل الحريري» جنوب مصب نهر الخابور، بالقرب من «دير الرز» على مبعده ميل واحد غربي الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (البوكمال) قرب الحدود العراقية السورية، وقد أصبحت ماري والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية في سكانها وحضارتها وحكوماتها (أنظر: قاموس الكتاب المقدس ١/١١٩)، وكذا

M.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 46.

W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, p. 102.

هذا وقد اكتشف «أندريه بارو» في عام ١٩٣٣ م حوالي عشرين ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسماري في قصر الملك «زمرى ليم» آخر ملوك ماري، وهي محفوظة الآن بمتحف اللوفر في باريس، وتنقسم إلى قسمين، الأول: مصوص اقتصادية وإدارية، والثاني رسائل متبادلة بين ملوك ماري وأتباعهم وحلفائهم وقد نشرت هذه الوثائق تحت عنوان Archives Royales de Mari وقد ظهر منها حتى الآن ١٦ جزءاً، وقد شارك في هذا العمل العلمي الضخم كثير من الأمتاذة المتخصصين.

(2) W.W.Hallo and W.K. Simpson, The Ancient Near East, USA 1971, p. 99.

L.Oppenheim, The Archives of The Palace of Mari, JNES, 11, 1925, p. 130.

على أن هناك من يذهب إلى أن «زمرى ليم» إنما قد حكم عامين آخرين تحت السيادة البابلية التي عمل على التخلص منها، الأمر الذي دعا «حمورابي»^(٣) إلى تدمير «مارى» تدميرا نهائيا، ونهب معبد عشتار والقصر الملكي، واضرام النيران في المدينة التي لم تقم لها بعد ذلك قائمة^(٤).

هذا وكانت مملكة «زمرى ليم» تتكون أساسا من وادي الفرات الأوسط، فيما بين مصب نهر بلخ شمالا، و«نوتول» (خيت الحالية) جنوبا. وقد عمل «زمرى ليم» على ضم معظم أملاك «شمسى أدد» الأشوري في الغرب، والتي امتدت حتى الثنية الكبرى للفرات غربا، وشملت الجزء الأكبر من «ميزوبوتاميا العليا». وحوض الخابور وبلخ حتى ثنية الفرات، وربما امتد نفوذه إلى إقليم «ايداماراز» الذي يتاخم أعالي الفرات، كما تشير إلى ذلك نصوص «مارى»^(٥).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن نجاح «زمرى ليم» في توسيع ملكه ومجال نفوذه، حتى غدت مملكة «مارى» في عهده من القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم، إنما يرجع إلى أنه كان رجل حرب^(٦)، كثير التنقل والحركة، وغالبا ماكان في معسكر جنده خارج عاصمته «مارى»^(٧). فضلا عن حشده لأعداد ضخمة من العناصر السامية الغربية وخاصة الخانيين الذين اعتمد عليهم «زمرى

J.R. Kupper, Les Nomades en Mesopotamie au Temps Les Rois de Mari, 1957, p. 33.

(٣) اختلف العلماء في تأريخ عصر حمورابي، ومن ثم فقد قدموا لنا التواريخ التالية: (١٨٤٨ - ١٨٠٦ ق.م)، (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)، (١٧٩١ - ١٧٤٩ ق.م)، (١٧٤٢ - ١٦٨٦ ق.م)، (١٦٨٦ ق.م)، (١٧٣٠-١٦٨٥ ق.م)، (١٧٢٤-١٦٨٢ ق.م) (أنظر: محمد عبد القادر: الساميون في العصور القديمة ص ٢٥١).

(4) J.R. Kupper, in BA, 41, p. 153 - 154.

(5) J.R.Kupper, Archives Royal de Mari, Vil.VI, Paris, 954, No 76.

J.R. Kupper, Northern Mesopotami and Syria, in CAH, II, Part, وكذا I, 1973, p. 9.

(6) Ibid, p. 9.

(٧) محمد عبد اللطيف: مجلات «مارى».

ليم، بصفة أساسية في تكوين قواته المقاتلة، وقد أسفرت هذه الجهود عن مكانة متميزة لمملكة ماري في عهد «زمرى ليم» كقوى ضاربة كبرى في الشرق الأدنى القديم، حتى قضى عليها «حمورابي» في عام ١٧٦٠ قبل الميلاد^(١).

بقيت الإشارة إلى أن الاكتشافات التي قام بها الفرنسيون في ماري في الفترة (١٩٣٣ - ١٩٣٩) والفترة (١٩٥١ - ١٩٥٥) أظهرت أنه كان بهذه المنطقة حضارة تنقسم إلى عصرين، الواحد: سابق لعصر سرجون الأول الاكدي، وهو يمثل حضارة سومرية، والآخر: أموري في الألف الثاني قبل الميلاد.

(٩) مجلدو:

مجدو: تل المتسلم الحالية، ونقع إلى الغرب قليلا من بحيرة طبرية، وعلى مبعده ٣٢ كيلا، جنوبي شرق حيفا، في المنطقة الجنوبية من سلسلة الجبال التي تنتهي بجبل الكرمل في الشمال.

وقد حدثت في مجدو أولى معارك جبار الحروب الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) ضد أمراء الشام في عام ١٤٦٨ ق.م، وكتب له فيها نجحا بعيد المدى، وانتصاراً ساحقاً، هذا وفي «مجدو» أحد الثكنات العسكرية الخاصة لفصائل المعجلات الحربية، التي أقامها سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) وطبقاً لما جاء في سفر الملوك الأول (١٩/٩، ١٠/١٦) فقد كشف في «مجدو» إسطبلات للخيول، وحظائر للعربات، مع بعضها، وكانت تلك التي في «مجدو» تسع ١٥ عربة، ٤٥٠ حصاناً^(٢).

(١) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٧٣ - ٧٤. محمد ييومي مهران: بو إسرائيل ١٢ / ٦٨١ - ٦٨٢ (الطبعة الرابعة عام ١٩٩٩ م).

(2) W.F.Albright, From Stone Age to Christianity, p. 227, Y.Yadin, New Light on Solomon's Megido, BA, 23, 1960, p. 62 F. C.Watzinger, Denk Maler Palastine, I. 1933, p 67G, Fig. 80 - 81.

الفصل الرابع شرق الأردن المملكة الأردنية الهاشمية (١) الادميون

١- البتراء:

كانت البتراء - عاصمة مملكة أدوم - تعرف باسم «سالع»، ثم تغير اسمها إلى «البتراء»، وهي واحدة من أشهر مدن العالم القديم، وقد أصبحت عاصمة للأنباط - بعد أدوم - وتقع إلى الشرق من وادي عربة في منتصف المسافة تقريبا بين رأس خليج العقبة والبحر الميت، أو على مبعدة ٨٠ كيلا إلى الجنوب من البحر الميت^(١)، والبتراء - على أى حال - كلمة يونانية تعني «الصخر»^(٢) ولعلها ترجمة للكلمة العبرية «سلع» التي جاءت في التوراة^(٣)، كما تعنى كذلك «الشق في الصخر» وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين، يعرف اليوم باسم «السيق»، ولعله لفظ نبطي متوارث، حرقه الناس عن «الشق» في السبئية القديمة^(٤)، وأيما ما كان الامر فلقد عرف العرب هذه التسمية كذلك، وقد ذكر «ياقوت الحموي» (١١٧٨-١٢٢٨م) بأن سلع حصن بوادي موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس^(٥).

وأما الإسم العربي للبتراء فهو «الرقيم» وربما كان هو إسم ثان للبتراء، كان الإغريق يعرفونها به، وهو Arke فحرقه العرب إلى الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم «خزانة فرعون» بالذات، وأما اسمها الحديث فوادي موسى^(٦). ونقرأ في التوراة أن «أمصيا» (٨٠٠ - ٧٨٣ ق.م) قد خلف أباه «يهوآش»

(١) قاموس الكتاب المقدس ٤٤٥/١ - ٤٤٦، جواد على ٥١/٣

(2) Pliny, 2,p. 447.

(٣) اشعيا ١٠٠:١٦، ٤٢:١١.

(٤) لانكستر هاردينج: آثار الأردن، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٦٥ ص ١١٧.

(٥) ياقوت - معجم البلدان ٦/٣: ٢ (بيروت ١١٥٥).

(٦) جرجري زيدان: المرحع السابق ص ٧٣، ياقوت ٣٤٦/٥.

(٨٣٧-١٠٠ ق.م) على عرش يهوذا، وأنه حاول أن يسترد أدوم وملك وقد نجح في الاستيلاء على الأخيرة، ومن ثم فقد أطلق عليها إسم «يقتثيل» بمعنى الخاضع لله^(٧).

وعلى أى حال، فلقد استمرت البتراء مدينة هامة حتى سقطت في أيدي الرومان في عام ١٠٥ م أو (١٠٦ م)، وصرعان ما أخذت أهميتها تتضاءل شيئا فشيئا، حتى أصبحت في ذمة التاريخ^(٨)، إلى أن كشف عنها «بوخاردت» (١٨٦٣ - ١٩٣٨ م) في عام ١٨١٢^(٩).

٢- بصره:

ومكانها الآن «بصيرة» الحديثة، على مبعده ٣٢ كيلا إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت.

٣- تيمان:

على مقربة من البتراء. وتيمان: إسم عبري، بمعنى. اليميني أو الجنوبي، وتذهب التوراة إلى أنه إسم بكر «إليفاز بن عيسو»، والإقليم الذي تسكنه، شمالي أدوم، ويدعى أبناء الشرق، أو «تيمن»، وقد اشتهر أهله بالحكمة (تكوين ١١/٣٦، ١٥، ٣٤، إرميا ٧/٤٩، حزقيال ١٣/٢٥).

٤- عصيون جابر:

كان يظن من قبل، أن «عصيون جابر» انما تقع عند «عين الغديان» في قعر وادي العربية، ثم اكتشفها «نلسون جلوك» في موقع تل الخليفة، على مبعده ٥٠٠ قدم من ساحل البحر على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من ميناء «إيلات»^(١٠).

(٧) ملوك ثان ١٤: ١-٧.

وكذا: F.Altheim and Rstichl, op.cit., p. 283.

وكذا: A.B.W. Kennedy, Petra, Its History and Monuments, London, 1925, p. 78.

A.Lods, Israel, From its Beginnings to the middle of the eighth century, London, 1962, p. 385 - 386.

(٨) فليب حتي: المرجع السابق ص ٣٤٢ - ٣٢٤، مكابرون أول ٢٦: ٥ - ٢٨.

(٩) J.L. Burckhardt, Travels in Syria and The Holy Land, London, 1822, p. 418 - 434.

(١٠) قديموس انكشاف المقدس ١٧١/١، حواد على ٦٣٧/١، موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٨٠. وكذا: J Finegan, op.cit. p. 181.

هذا وقد عرفت بلاد أدوم في اليونانية باسم «أدوميا» وأما «برية أدوم» فهي الواقعة جنوب البحر الميت، وقد انتهت حياة الأدوميين في القرن الثاني قبل الميلاد، وذلك حين استولى «يوحنا المكابي» (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) على حبرون وغيرها من المدن التي كان الآدميون قد استولوا عليها، ثم أجبروهم بعد ذلك على الختان واعتناق اليهودية، في عام ١٢٦ ق.م رغبة منه في إزالة الفوارق الدينية بينهم وبين اليهود، وحيا في نشر اليهودية بينهم^(١١).

(٢) المزايسون

١- ديبون:

في عام ١٩٥٠ / ١٩٥١، قامت «المدرسة الامريكية للأبحاث الشرقية في اورشليم» بحفائر في «ديبون» - عاصمة مؤاب - ألت بنتائج كثيرة، وكشفت عن عدد من المباني والفخار الذي يرجع إلى عصر البرونز المبكر، وحتى العصر العربي المبكر، ولكنها في الغالب لم تكشف شيئا يتصل بعصر البرونز المتأخر، وعلى أي حال فلقد كشف عن عدد من اللوحات الصغيرة التي يمكن أن تؤرخ - مثلها في ذلك مثل الحجر المزايبى - بالقرن التاسع قبل الميلاد^(١٢).

هذا وقد كشفت آثار كثيرة في «مملكة مؤاب»، لعل أشهرها ماكان في مدن: ربة مؤاب، وكرك وماديا ومعين وأم رصاص.

(٣) العمونيين

١- ربة عمون (عمان):

كانت «ربة عمون» - أو «ربة» - عاصمة مملكة العمونيين، قد سميت في العصر الاغريقي «فيلاذلفيا»، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلاذلفيوس» (٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م)، وهي في موقع تشغله حاليا عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية «عمان»، حيث يوجد في اسمها جزء من إسم العمونيين^(١٣).

Nelson Glusck, The Other Side of The Jordan, New Haven, 1945, p. 50 - 133.

(١١) إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١٠٥.

(١٢) M. Noth, op cit., p 157 - 158.

هذا وقد استطاع العمونيون أن يكونوا دولة مستقرة منظمة منذ فترة مبكرة، ومن ثم فقد كانوا يحكمون بملك قبل أن تبرز فكرة الملكية في اسرائيل^(١٤)، هذا ويدل التحالف الذي أقاموه مع جيرانهم الشماليين في عام ٨٥٣ ق.م، - حيث اشترك ملك عمون في حلف يضم اثني عشر ملكا على رأسهم بنحدد ملك دمشق، ضد شملنصر الثالث^(١٥)، - يدل هذا التحالف على أنهم كانوا أقوياء.

(١٣) صموئيل ثان ١٠ - ١٢

(14) S.A. Cook, op.cit. p. 363

ركنا 6. - M.Nothe, op.cit., p. 245

ركنا 27. - J.A.Montgomery, op.cit., p. 27

٤- مملكتا الأموريين في شرق الأردن

(١) مملكة سيحون

١- حشبون:

وتعرف «حشبون» الآن باسم «حسبان»، وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون وبيوق، وتقع حشبون على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» وهي عاصمة «مملكة سيحون»، والتي تقع بجانب نهر الأردن، وتمتد حدودها من أرنون (وادي مؤاب) إلى «بيوق»^(١) (وادي الزرقاء)، ومن الأردن إلى الصحراء^(٢)، وكانت «حشبون»^(٣) عاصمة لها.

٢- باشان:

كانت المملكة الثانية «هي مملكة عوج - ملك باشان»^(٤)، وتمتد من «بيوق»، وحتى جبل حرمون (جبل الشيخ)^(٥)، وقد هزم العبرانيون هذين الملكين (سيحون وعوج) واحتلوا أرضهما^(٦)، وذلك عندما كان بنو إسرائيل يتجولون هنا وهناك في شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غربه، محتكين بكل القبائل

(١) بيوق: هو نهر الزرقاء الذي ينبع إلى الغرب من عمان، ثم يسيل شرقاً ثم شمالاً، ماراً بمدينة «الزرقاء» التي حملت اسمه، ثم يصب في الأردن عند نقطة تقع على مبعدة ٧٠ كيلا إلى الشمال من الحجر الميت (قاموس الكتاب المقدس ١٠٥١/٢).

(٢) قضاة ٢٢/١١.

(٣) حشبون: وتعرف الآن باسم «حسبان»، وهي مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون وبيوق، وتقع على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» (قاموس الكتاب المقدس ٣٠٧/١ - ٣٠٨).

(٤) باشان: منطقة في شرق الأردن بين جبلي حرمون وحلماد، وسميت باشان نسبة إلى حل هاك، وتشمل حوران والجولان واللدجة، ويحدها شمالاً أراضي دمشق، وشرقاً بادية سورية، وجنوباً أرض حلماد، وغرباً غور الأردن، ويخترق جانبيها الشرقي جبل الدروز، وهو جبل باشان القديم (قاموس الكتاب المقدس ١٥٩/١).

M.Unger, op.cit., p. 127.

(٥) تثنية ٤/٣، ٩، وأنظر: M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 45 - 46.

(٦) قضاة ١٩/١١ - ٢٣، قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤٩١/١ - ٤٩٢. وانظر طبعة ١٩٩٩ م.

الساکة هناك، والرافضة أبدا استقبالهم، وأخيرا نجحوا في تحدى «سیحون» في «یاهص»^(٧)، كما نجحوا كذلك في تحدى «عرج» ملك باشان في «أذرعى»^(٨)، وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن في مقابل «أریحا»^(٩).

(٧) یاهص: وقع على مبعدة كيلو ونصف جویى زرقاء معین، ١٩ کیلا شرقی البحر الميت، وقيل انها قرية «أم الموالید» أو «خربة اسکندر» (قاموس الكتاب المقدس ١٠٤٩/٢).

(٨) أذرعى: وتسمى الآن «درعة» وقع فی وادی زبد، على مبعدة ٤٧ کیلا شرقی الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، وعلى الحدود بین سورية والأردن (قاموس الكتاب المقدس ٤٢/١).

(٩) عدد ٢١/٢١ - ٣٥، تثنية ٢٦/٢ - ١١/٣.

الباب الرابع

السودان والمغرب القديم

الفصل الأول

السودان (النوبة العليا)

تقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السودان - أو بلاد النوبة - إنما عرفت بعدة أسماء ربما لأن بلاد النوبة لم تكن محددة تماماً، فتاريخها عبارة عن سجل واسع لتحركات الجيوش، ومن ثم فلم تصل النوبة إلى أن تستقل بنفسها، ومع أن سكانها الحاليين لهم جنسية مميزة. فهم يرتبطون ارتباطاً وثيقاً عن طريق الدم والأسلوب الواحد في الحياة، غير أن الوطن النوبى مقسم بين الشمال والجنوب، فالنوبة السفلى تمتد فيما بين الجندل الأول، وبلدة ادندان، وهى جزء من مصر، وأما النوبة العليا، فتتمتد فيما بين أدندان ودنقلة، وهى جزء من السودان.

هذا فضلاً عن أن النوبيين أنفسهم إنما يختلفون فى لغتهم - حتى يوم الناس هذا - ومن ثم فإن الحدود اللغوية لا تتفق مع الحدود الجغرافية للنوبة العليا والسفلى، فبينما يتحدث سكان المنطقة فيما بين أسوان والسبوع حتى اليوم، باللهجة المعروفة باسم «كنوز»، يتحدث سكان المنطقة فيما بين كورسكو، وحتى الجندل الثالث «المحسى»، وفى نفس الوقت يتحدث سكان الجنوب «دنقلى» وإن كانت هذه اللهجة ليست إلا شكلاً آخر للكنوز، وربما أمكن القول أن الدناقلة والكنوز إنما تكون لغتهما مجموعة متشابهة، بينما تكون لغة السكوت والمحس والفديجة مجموعة ثانية متشابهة.

وعلى أية حال، فاللغة النوبية - وهى تنتمى إلى نوع خاص من اللسان الأفريقى - لا تكتب، ومن ثم فهى تعتمد على اللغة العربية فى الكتابة، فالعربية إذن لغة الكتابة فى جميع أنحاء النوبة^(١).

(١) ووالتر امرى: مصر وبلاد النوبة ص ١٠ - ١١، وكذا J.A. Hamilton, The Egyptian Sudan, London, 1965.

هذا ونصف «مرى»^(٢) اللغة النوبية بأنها لا تتفق في مفرداتها اتفاقاً كبيراً، مع أية لغة أخرى، بل أن كثيراً جداً من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير في جميع اللغات التي قررت بها، وأما اللغات التي تشابه اللغة النوبية في مفرداتها، فأكثرها، دونما ريب، لغات حامية، هذا فضلاً عن أن الصبغة الحامية هي الغالبة على اللغة النوبية، سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف، غير أن هناك اختلافاً كبيراً بينها وبين اللغات الحامية في «النظام الصوتي» (phonetic System)، وإن كان له نظير في اللغات النيلية في جنوب السودان كلفة الباري.

وهكذا يذهب العلماء على أن اللغة النوبية إنما تشتمل على عناصر حامية، وأخرى غير حامية، ولعل مصدر هذا العنصر الغريب إنما هو بعض الشعوب الجنوبية، ومن ثم يذهب البعض إلى أن اللغة النوبية إنما هي لغة حامية، بها مؤثرات أجنبية، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أنها لغة نيلية جنوبية مثل «لغة الباري»، ثم تعرضت لمؤثرات حامية على مدى العصور.

هذا وقد تأثرت اللغة النوبية كذلك بلغات أخرى، كالمصرية القديمة والحبشية والعربية، ومن ثم فقد دخلتها مفردات من الحبشة عن طريق مروي، وقبل ذلك وبعده، مفردات اللغة المصرية القديمة، كما استعارت اللغة النوبية كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها^(٣).

وأما أهم الأسماء التي أطلقت على بلاد النوبة (السودان) :

- ١- تا - سیتی ٢- تا - نحسیو ٣- خنت - حن - نفر ٤- كوش
- ٥- النوبة ٦- الأثيوبيون ٧- دود يكاشينوس ٨- بلاد السودان

(2) G.W.Murry, English - Nubian Dictionary, London, 1923, p.X.p. 168.

(٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالي - سكانه وقبائله - القاهرة ١٩٥١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧،
ورالت امرى: المرجع السابق ص ١١.

(٤) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد يوسى مهران. تاريخ السودان القديم ص ١١١ - ١٢٤).

٩- أرض الزنغ^(٤).

وأما أهم سكان النوبة القديمة:

١- المجاي - أو المدجاويو ٢- راوات ٤- ستار ٥- إرثت ٦- يام^(٥).

وأما سكان النوبة الحاليين:

١- الكنوز ٢- العليقات ٣- الفديجة ٤- الكشاف ٥- السكوت

٦- المحسى ٧- الدناقلة^(٦).

ولنتحدث الآن عن المدن الكبرى في السودان - أو النوبة العليا، ولنبدأ

بالعاصمة «نباتا (نبتة)»:

(١) نباتا:

قامت مدينة «نباتا» - أو نبتة - على أنقاض مدينة أو مستعمرة مصرية تنسب في بدايتها إلى عهد «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، على مقربة من الصخرة الضخمة المعروفة باسم «جبل البرقل» (Gebel Barkal) أو «الجبل المقدس» (Holy Mountain) - أو كما يسمى في المصرية القديمة «جو - وعب» أو «دو - واعب» - حيث اعتبرته النصوص المصرية القديمة جبلا طاهرا، وعرشا مقدسا لأمون طيبة، والصخرة، على أية حال، ليست شديدة الارتفاع، ولكنها تلفت النظر بتفرداها في وسط السهل، على مبعده ميل من نهر النيل^(٧).

وتقع «نباتا» (Napata) عند خط عرض ٢٥° ١٨'، وخط طول ٤٦° ٣١'، على

(٥) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد بيومي مهران: تاريخ السودان القديم ص ١٢٥ - ١٢٦).

(٦) أنظر عن سكان النوبة الحاليين (محمد بيومي مهران: تاريخ السودان القديم ص ١٣٦ - ١٤٢).

(7) A.J.Arkell, op.cit, p. 112.

وكنّا A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

R.O.Faulkner, A Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 57, 320.

وكنّا B.G.Trigger, op.cit, p. 140.

(8) R.Engelbuch, Index of Egyptian Sudanese Sites from The Cairo Museum, Cairo, 1931, p. 27.

الضفة الشرقية للنيل^(٨)، وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من الجندل الرابع، عند سفح جبل برقل (بركل)، جنوبى «كريمة» (Kareima)، وعلى مبعدة ١٠٣٥ كيلا جنوبى وادى حلفا، وفى مقابل مدينة «مروى» الحديثة عبر النيل تقريباً (وهى ليست مروى القديمة التى تشغل قرية البحراوية - على مبعدة ٢٣٠ كيلا شمالى الخرطوم - جزءا منها)، وعلى الضفة الأخرى للنيل تقع أهرام «نورى» (٣٥ كيلا شمالى الجندل الثالث) ومجموعة أهرام جبل البرقل.

وكان اختيار «نباتا» (نبته) كعاصمة للدولة (مملكة نباتا) اختيارا موقفا، يقوم على أساس جغرافى سليم، فهناك يتسع السهل الزراعى نسبيا، ويسهل الإتصال ببقية أنحاء السودان القديم، فمدينة نبته تتصل بالجنوب عن طريق النيل، فضلا عن الطريق البرى الذى يبدأ عند «أبودوم»، ويخترق صحراء «بيوضة» حتى يصل إلى «شندى» - على مبعدة ٢١٣ كيلا شمالى الخرطوم - ويربطها بالشمال نهر النيل والطريق البرى المحاذى لـ، هذا فضلا عن وجود صناعة الحديد قريبا منها، كما أنها فى منطقة متشعبة بالحضارة المصرية، وبعبدة عن مكان الغزو، بحيث تستطيع أن تتطور دون أن تتعرض للغزو، وكانت على أيام «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) بمثابة الحد الجنوبى لإمارة «نائب الملك فى كوش»، هذا ولتلقى فى عهد الرعامسة بمخلفات فى هذه المنطقة وإشارات كثيرة فى النصوص المصرية، التى تختفى تماما فى عهد الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين.

ومع ذلك فلنا أن نؤكد أن الثقافة المصرية ظلت قائمة هناك فى حالة ركود، مصحوبة بالعاطفة المتأججة نحو «آمون رع»، رب طيبة، حيث اعتنق القوم هناك فى نباتا ديانتهم منذ زمن طويل، حتى غدت مركزاً لعبادة آمون فى السودان، الذى قدس هناك بصفته «سيد القطرين»، «القائم على جبل نبته المقدس»، وبنى له معبد ضخم فى حوض جبل البرقل، زين على الطريقة المصرية، حتى أن المناظر التى كانت تزين الجدران هناك، لا تختلف فى شئ عن تلك التى تزين جدران معابد آمون فى مصر نفسها^(٩).

(9) D.Dunham and M.F.L. Macadam, Names and Relationships of The Royal Family of Napata, J.EA, 35, 1949, p. 139 - 149.

ولعل أول ذكر لمدينة «ناباتا» فى التاريخ المصرى - كمدينة محصنة تقع فى أقصى الجنوب - إنما كان على أيام «أمنحيب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م.)، وسرعان ما ازدانت بالمعابد والقصور، ولكنها لم تبلغ ذروة مجدها إلا فى القرن الثامن قبل الميلاد، عند أصبحت عاصمة لمملكة كوش، التى استقل بها أبناؤها عن مصر، وظلت كذلك حتى نقلت العاصمة منها إلى «مروى» - على مبعده ٢١٣ كيلا شمالى الخرطوم - وذلك فى عام ٥٩١ قبل الميلاد، وأصبحت نبتة عاصمة دينية فحسب، وظل الملوك يدفنون فى مقابر «نورى» حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد^(١٠).

وهكذا قامت دولة فى ناباتا عرفت عند المؤرخ المصرى «مانيتو» (٣٢٣ - ٢٤٥ ق.م.) باسم «الأسرة الخامسة والعشرين»، وقد سجل لها أسماء ثلاثة من الملوك هم: سبكون (شيكو) و «سبكوس» (شبتكو) و «تراكوس» (طهرقا)^(١١). هذا ولم يدون «مانيتو» إسم أول وأشهر ملك من هذه الأسرة (بغتنخى)، هذا فضلا عن اختياره للملك «سبكون» كمؤسس للأسرة، إنما يعتمد على أسس قوية، ذلك لأنه أول ملوك الأسرة، ولذى حكم دولة تمتد من وراء الجندل الرابع وحتى شمال الدلتا^(١٢)، وعلى أية حال، فإن الآثار إنما تقدم لنا ملوكا آخرين ينسبون

H.Kees, Ancient Egypten, London, 1961, p. 240

وكذا

A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

وكذا

D.M.Dixon, The Origin of The Kingdom of Kush (Napata - Meroe), JEA, 50, 1964, p. 121 - 132.

وكذا W.B.Emery, Nubian Treasure, 1948, p. 24.

J.Leclant, Sur La Nuhle Ancienne, Quelques Publications Recentes exter Revue Hisotrique, 489, 1949, p. 163 - 178.

(١٠) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨، جان لكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨،

G.A.Wainwright, The Date of The Meroe, JEA, 38, 1952, p. 65 - 77.

(11) W.G.Waddell, Menetho, With an English Translation, London, 1940, p. 167 - 169.

(12) J.Leclant et J.Yoyotte, Notes d'histoire de Civilisation Ethiopiennes, BIFAO, 51, 1952, p. 9.

إلى هذه الأسرة هم : ألارا - كاشتا - بعنخي - تانوت أماني، وزاد بعض آخر: أنلانس - سنك أماني سكن - أنل أماني - إسبلا (JEA, 35, 1949, p. 149). وأيا ما كان الأمر، فلقد قامت في نباتا - أثناء غياب السيادة المصرية هناك - أسرة يرئب جمهرة المؤرخين ملوكها: كالتالي: (١) ألارا (٢) كاشتا (٣) بعنخي (٧٥٠ - ٧٣٠ ق.م) (٤) شبكو (٧٠٠ - ٦٩٥ ق.م) (٥) شبكو (٦٩٥ - ٦٩٠ ق.م) (٦) طهرقا (٦٨٩ - ٦٦٤ ق.م) (٧) تانوت أماني (٦٦٤ - ٦٥٦ ق.م).

(٢) مروى:

تقع مدينة «مروى» - وتدعى حاليا البحراوية - شمالي شندى، وعلى مبعدة ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم، وعلى مبعدة ١٠٨٣ كيلا جنوبي وادي حلفا (بطريق النهر)، ٨٦٦ كيلا (بطريق حلفا - أبو حمد) - في المنطقة التي تطابق تقريبا سهل «البطانة» الحالي، والذي يقع بين نهر العظيرة والنيل الأزرق، وهو عبارة عن لسان هضبي عريض منبسطة تمتد من الهضبة الحبشية في اتجاه الشمال الشرقي، ويقع فوق كنتوز ٥٠٠ م، ويحتوى على عدة نقاط مرتفعة، يصل أعلاها إلى ٨٦٠ م، بالقرب من قلعة النحل، جنوب غربى القضايف (١٣).

هذا وقد انتقلت العاصمة من «نباتا» إلى «مروى» فى عام ٥٩١ ق.م، وأما سبب انتقال العاصمة من «نباتا» إلى «مروى»، فلقد ذهب البعض إلى أنها على أيام «بسماتيك الثانى» (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) من الأسرة السادسة والعشرين، ربما فكرت أسرة ملوك نباتا فى استعادة نفوذها فى مصر، ذلك النفوذ الذى كان قد ضاع عقب فرار «تانوت أماني» من طيبة، ومن ثم فقد اضطر «بسماتيك الثانى» تلافيا للخطر، أن يرسل حملة إلى الجنوب، وصلت إلى «دنقلة» على الأقل، ونجحت إلى أبعد الحدود فى سحق الجيوش النوبية فى أرضها، وقد سجلت نتائج هذه الحملة على لوحين عشر عليهما فى الكرنك وتانيس، ولا ريب فى أن هذه الحملة إنما كانت سببا فى نقل العاصمة من نباتا إلى مروى. فى عام ٥٩١ ق.م،

(١٣) حودة حسنين حودة: العالم العربى - دراسة فى الجغرافية الاقليمية - الاسكندرية ١٩٨٦ ص ٦١١، محمد رياض، وكوثر عبد الرسول: أفريقيا - بيروت ١٩٧٣ ص ٣٩٧.

على أيام الملك «إسبلتا» ٥٩٣ - ٥٦٨ ق.م،^(١٤).

على أن هناك سببا آخر لنقل العاصمة إلى مروي، يستند إلى عوامل مناخية واقتصادية، فالسهوب حول مدينة مروي أفسح منها حول مدينة نباتا، التي تخاصرها الصحراء، ومن ثم فقد قامت حول مروي الزراعة وتربية الماشية، حيث يسقط المطر صيفاً، وقد سحفت أحواض ضخمة للرى حول المواقع الرئيسية، ومن المؤكد أن التجارة كانت نشطة، ذلك لأن مروي إما كانت تتمتع بموقع ممتاز على الطريق بين البحر الأحمر وأعالى النيل وتشاد، هذا فضلاً عن توفر الأشجار التي يمكن الاستفادة منها في صهر الحديد الموجود في الصخور الرملية الموجودة في المنطقة، وتشير أكوام نفايات الحديد حول مروي إلى ضخامة إنتاجه، وإن كانت الاتجاهات الحديثة - كما أشرنا من قبل - لا تقر وصف مروي بأنها «برمنجهام أفريقيا» لأنه وصف ينطوي على تبشير من المبالغة^(١٥).

وأما من الناحية الدينية فليست هناك في «وثائق التتويج» ما يشير إلى أن مروي بها معبداً للاله آمون، ولكنها - في نهاية القرن الأول قبل الميلاد - حظيت بأحد

(١٤) محمد يوسى مهران: مصر ٦٥٤/٣، جان للكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨، محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ١٧٣ - ١٧٤.

وكذا W.B.Emery, Egypt in Nubia, 1965.

S.Sauneron et J. Yoyotte, La Campagne Nubienne de psammétique, II et sa Signification Historique, BIFAO, 50, 1952, p. 10

وكذا H.S.K.Bakry, Psammetichus, II, and His Newly-found Stela at Shellae, Oriens Antiques, 6, 1967, p. 225 224.

وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 359.

وكذا Herodotus, II, 161.

(١٥) أنظر G.A.Wainwright, SNR, 26, 1945, p. 5 - 36.

وكذا A.H.Sayce, LAAA, 4, 1911, p. 55.

وكذا A.J.Arkell, CA, 7, 1966, p. 45 F.

وكذا B.G.Trigger, JAHs, II, 1969, p. 23 - 50.

وكذا H.Amborn, op.cit, p. 71 - 95.

وكذا R.F.Tylecote, op.cit, p. 67 - 72.

هذه المعابد، وأقيمت لوحة أمامه عليها نقش طويل بالخط المروى، تشير إلى أن أقدم الأسماء التي وجدت بهذا المعبد، انما ترجع إلى عهد الملك «إمنى خبلى» (Amanithabale) (٦٥ - ٤١ ق.م)، والملكة «إمنى - شختى» (Amanishathate) (٤١ - ١٢ ق.م)، وربما أصبح هذا المعبد فى الفترة الأخيرة المعبد الرئيسى بالمملكة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه ابتداء من هذه الفترة بنيت معابد متشابهة لآمون رع، وإن كانت صغيرة الحجم، وذلك فى «مروى» وغيرها، وقد قام معبد آمون فى مروى، بدور معبد آمون فى نباتا، (فى جبل البرقل) ومن المؤكد أن معبد مروى إنما كان منافسا خطيرا، لنظيره فى نباتا، ينازعه الصدارة فى ميدانه، بل إنه فى النهاية يز معابد آمون جميعا، واحتل مكانها.

هذا وقد عاصرت دولة مروى حكم الفرس والبطالمة والرومان فى مصر، وفى عام ٥٢٤/٥٢٥ ق.م، ظهر الخطر الفارسى فى مروى، ونحن نعرف جواب الملك المروى على رسل الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) فلقد تناول قوسا كبيرا، وأغرق فى نزعته، وناوله إياهم، قائلا «إذا استطعتم أن تنزعوا فى أقواس كهذه، فاقدموا على قتالنا» وعادت البعثة، وقيل أن «قمبيز» عجز عن علاج تلك لقوس، ومع ذلك، فلقد أسرع قمبيز إلى نباتا، على رأس جيش ضخم، عبر كثنان الصحراء، ومنطقة «بطن الحجر» (وتمتد من وادى جلفا جنوبا على مدى ١٤٤ كيلا)، قفتكت العواصف بجيشه، وفشلت الحملة فشلا ذريعا، ومع ذلك، فقد اعتبر الفرس أهل كوش فى عداد الشعوب الخاضعة لهم - كما أشارت إلى ذلك لوحة من سوسة - ومن المؤكد أن جزءا صغيرا من المملكة قد خضع للفرس، وأن فصائل كوشية قد انخرطت فى جيوش «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) و«أكزركسيس الأول» (٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م) (١٦).

(١٦) محمد بيومى مهران: مصر ٦٦٧/٣ - ٦٦٨، جان لكان: المرجع السابق ص ٢٨٨، أحمد محمد على الحاكم وآخرون: حضارة نباتا ومروى - تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثانى ص ٣٢٥.

وكذا A.Rowe, ASAE, 38, 1938, p. 172 - 193

وكذا Herodotus, III, 17 - 21, 114.

وكذا P.Montet, Kemi, 8, 1946, p. 39 - 40.

(٣) الخرطوم:

الخرطوم: عاصمة السودان الحالية، وقد أنشأها المصريون في عام ١٨٢٢م، على أيام «محمد علي باشا» (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند التقائه بالنيل الأبيض، وقد خربت عام ١٨٨٥م على أيام الثورة المهدية (١٨٨١ - ١٨٩٩م) بقيادة زعيمها «محمد أحمد المهدي» (١٨٤٤ - ١٨٨٥م) ثم أعيد تعميرها بعد الثورة، هذا وتتكون العاصمة من الخرطوم، وخرطوم بحرى، وأم درمان، ومن ثم فقد عرفت باسم «العاصمة الثلاثة» ويربطها جسران، الواحد على النيل الأبيض، والآخر على النيل الأزرق، ولكل من المدن الثلاث وظائف مميزة، ففي الخرطوم مركز الحكم والتجارة الحديثة، وفي أم درمان التجارة التقليدية والحرف اليدوية، وفي خرطوم بحرى الورش والصناعة. هذا وقد قام «أركل» في الفترة (١٩٤٤ - ١٩٥٠م) بحفائر في الخرطوم وفي منطقة شهيناب، على مبعده ٤٨ كيلا شمالى أم درمان، حيث عثر على آثار تنتمي إلى العصر الحجري الحديث، وفي القرن السادس الميلادى قامت في منطقة الخرطوم مملكة «علوة» المسيحية، وعاصمتها «سوبا» امتدت في كبوشية إلى جنوب الخرطوم (١٧).

(٤) البحراوية :

البحراوية - أو «البقراوية» - وتقع على ضفة النيل الشرقية على مبعده ٢٣٠ كيلا شمالى الخرطوم، وبها أكبر مجموعة من آثار مروى، وهى مجموعتان، شمالية وعدد أهراماتها ٤٣ هرما، وجنوبية وعدد أهراماتها ٥٠ هرما، وهناك مجموعة ثالثة تقع غرب المجموعتين السابقتين وترجع إلى عصر متأخر عنهما، ربما إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى وإن كانت فى حالة سيئة جدا، وهناك فى البحراوية

G.A.Wainwright, The Date of The Rise of Meroe, JEA, 38, وكذا = 1952, p. 75 - 77.

J.Perrot, Une Statue de Darius Decouverte a Suse, J.A, 1972 p. وكذا 235 - 266.

(١٧) أنظر: A.J.Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, p. 105 وكذا L.P.Kirwan, in SNR, XX, Part, 2, 1937, p. 290.

معبد للإله «أمون رع» يرجع إلى حوالي عام ٣٠٠ ق.م، ومازال صرحه قائماً، وبعض نقوشه محفوظة، ولعل أهم ما فيه العرش الحجري الذي كان يجلس عليه الكاهن الذي كان يتلقى وحى آمون، فيجيب على أسئلة السائلين، فضلاً عن قصر لأحد الملوك، وعلى مقربة منهما بركة ماء، كانت درجاتها مزينة بالتمائيل

(٥) إيكن:

هى المحطة التجارية فى الدولة القديمة والوسطى، وتقع جنوبى بوهن، وعلى مبعده ٤٠ كيلا شمالى حصن سمعة، ٢٠ كيلا شمالى «أورونارتى»، وبها حصن طوله ٩٠٠ متراً، ويحيط بمدينة على الضفة الغربية أمام جزيرة «مايانرتى» عند قمة الجندل الثانى، ومن المعروف أن «إيكن» هى حصن «مرجيسية» (مريسة) (١٨).

وعلى أية حال، فإن حصن «مرجيسية» (مرجيسيا) إنما يشبه كثيراً حصن بوهن فى الشكل والحجم، لأنه - فيما يرى إمرى - من نفس عمل المهندس العسكرى، وهو، على أية حال، حصن مستطيل الشكل، وله جدار واحد من ناحية النهر، أما الناحيتان الشمالية الغربية والجنوبية، فيحيميهما جداران، يليهما خندق جاف، كما أن البوابتين موجودتان فى الناحيتين الشمالية والجنوبية من الحصن، وتتصلان ببعضهما بطريق يخترق المدينة ويصل القلعة بالنهر؛ وهناك تحت الجدار الشرقى طريق مغطى ذو باب مائى، وقد كان البناء محمياً بجدران واقية من طرفى الحصن.

وهناك فى السور الثانى، وفى زاويته الشمالية الغربية، بقايا معبد صغير، بناه «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق.م) وربما أضاف إليه «أمنحت الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)، هذا وتمثل الخرائب القائمة بقايا حجرة متوسطة على جوانب ثلاثة، منها أربع حجرات أخرى توحى بأنها هيكل وحجرات إضافية، وقد

(١٨) انظر

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, 1964, Jush, XII, p. 62)

بطن الهيكل بالحجر، أما بقايا المعبد فقد بنى باللبن^(١٩).

(٦) الكسرو:

تقع الكسرو - جبانة ملوك نباتا - على الجانب الغربى للنيل، جنوبى كريمة، وعلى مبعده ١٦ كيلا جنوبى جبل البرقل، وقد كشف فيها عن أهرام أربعة من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين (بعنجى - شبكو - شبتكو - تانوت أمانى)، وقد بدأ الدفن فيها منذ عام ٨٦٠ ق. م، حيث دفن فيها ستة عشر سلفاً للملك «بى» (بعنجى)، وكانت أقدم المقابر فيها تتكون من حفرة تعلوها كومة طينية مستديرة وترقد الجثة بانحناء على جانبها الأيمن، والرأس فى الشمال، وبعد ذلك غطيت الكوة بالحجر ثم تطورت إلى جزء يعلو سطح الأرض مبنى بالحجر مستطيل الشكل، ينتهى أخيراً إلى شكل الهرم الكوشى، بينما أصبحت المقابر أكثر إتقاناً، وأخذت شكلاً مصرياً، فتغير توجيه الدفنة من شمال جنوبى إلى شرقى غربى، ومع ذلك فقد تخلفت عادة نوبية هى وضع السرير فى المقبرة، يوضع فيه الميت على هيئة النائم، وكانت هذه الطريقة منتشرة فى النوبة العليا والسفلى منذ أقدم العصور، وبقيت حتى العصر المسيحى، غير أن الطبقة الحاكمة منذ عصر الملك كاشتا أصبحت مصرية الدفن والفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس، إذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهالى المنطقة^(٢٠).

ولاريب فى أن مقبرة بعنجى إنما كانت - من الناحية التاريخية - أهم مقابر

(١٩) محمد بيومى مهران: مصر ٢، ٤٠٤، والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٤، جيمس بيكى: الآثار المصرية فى وادى النيل ١٧٥ / ٤، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 57 - 62.

T. Save-Soderbergh, op. cit., p. 76. وكذا:

B. G. Trigger, op. cit., p. 72. وكذا:

J. Vercoutter, Mirgissa, Paris, 1970, p. 187. وكذا:

(٢٠) سليم حسن: مصر القديمة ١٠ / ٤٥٢ - ٤٦٦، والتر امرى: المرجع السابق، ص ٢١٧ - ٢١٨، وكذا:

D. Dunham, El-Kurru, Boston, 1955.

الكرو، غير أن الهيكل وكل مبنى الهرم قد تهدم، وكان مدخل الهرم خلف الهيكل، ويؤدي إلى نفق محفور في الصخر، فيه تسع عشرة درجة تؤدي إلى باب معقود، جزؤه الأسفل محفور في الصخر، وجزؤه الأعلى، وكذا العقد، مبنيان بكتل الحجر، وطول حجرة الدفن ٥,٠٥ م، وعرضها ٣,١٥ سم، وكان سقفها من الطراز المكربل المتراجع Corbelled، وفي منتصفها تقريباً «صفة» مرتفعة من صخرة الحجرة نفسها، وقد نحت في كل ركن منها نقباً لوضع سرير خشبي - طبقاً لعادة القوم - وأكبر الظن أن هذه «الصفة» إنما كانت أشبه بقاعدة يضعون فوقها التابوت الذي كان يوضع فوق السرير الخشبي - كما نشاهد في النقوش المصرية والمناظر الملونة - وبعبارة أخرى، فقد كانت هذه القاعدة الحجرية هي التي تتحمل ثقل وزن المومياء وتابوتها.

وقد أثبتت حفائر «رايزتر» عام ١٩١٨ م، أن حجرة الدفن قد نهبت، غير أن ما عثر عليه بعد ذلك، إنما يدل على فخامة الأثاث الجنائزى الذى كان مع المومياء، حيث عثر على كثير من أوراق الذهب، وعلى قطع من المرمر، وعلى حلقات اللازورد والفيانس Faience المتعدد الألوان الذى ظل مستخدماً فى تطعيم بعض أشياء المقبرة، فضلاً عن أوان من المرمر والفخار، وأخرى من البرونز والفضة، كما عثر على تماثم جيدة الصنع، وعلى كثير من تماثيل «الأوشبتي»، على منضدة فخمة من البرونز، وبعض الأواني التى كانت تستخدم لتقديم الشراب (٢١).

وهناك جباتان فى الكور، الواحدة فى الجنوب عند قرية «زوما» على الضفة الشرقية للنيل، والأخرى عند «تنقاسى»، على الضفة الغربية للنيل أمام «زوما» (٢٢).

(٢١) أحمد فخري: الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٤٨ - ٣٥٠، وانظر:

J. A. Arkell, op. cit., p. 115 - 121.

B. G. Trigger, op. cit., p. 141 - 143.

وكذا:

D. Dunham and O. Bates, Royal Cemeteries of Kush, I, El-Kurru, 1950, p. 2 f.

(٢٢) أحمد فخري: المرجع السابق، ص ٣٥١. وانظر:

L. Kirwan, Kush, V, 1957, p. 37 F.

P. L. Shinnie, Kush, II, 1954, p. 66 F.

هذا وقد عثر في الكور أيضاً على مقابر الخيل الملكية، بلغ عددها ٢٤ مقبرة، وتقع إلى جوار مقابر الملكات مباشرة، وكان يخص «بعنخي» منها ٤ خيول، و «شيكو» ٨ خيول، و «شيكو» ٨ خيول، و «ثانوت أمانى» ٤ خيول وقد عثر على عظام الخيل فى معظمها، كما عثر على زيتنها وسروجها، وكانت تدفن واقفة بعد أن تحفر الأرض من تحت أقدامها، إلى أن تستقر بطونها على الأرض، كما لم يعثر على رأس أى منها، وربما قد فصلت رؤوسها عن أجسادها قبل الدفن لسبب أو لآخر، وأخيراً فلعل مما تجدر الإشارة إليه أنه قد عثر كذلك فى جبانة الكور على قبرين صغيرين لكلبين، رأى صاحبهما أن دفنهما بهذا الوضع تعبيراً عن حبه لهما (٢٢).

هذا وقد دفن «شيكو» فى مقبرته (رقم ١٥) بالكور، وتقع على مبعدة ٢٠ ياردة شمالي مقبرة بعنخي، وقد عثر فيها على مائدة قرابين من الجرانيت الأشهب (بمتحف الخرطوم رقم ١٩٠٤) وعلى قطعة من مائدة قرابين أخرى من الفيشانى، وعلى كل منهما نصوص، كما عثر على مرآة من البرونز، ذات مقبض من خليط من الذهب والفضة على هيئة النخيل، محاط بتمايل للآلهة بمتحف بوسطن برقم ٢١٣١٨) وبقايا أخرى (٢٤).

(٢٣) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥١ - ١٥٤، وكذا:

D. Dunham and O. Bates, op. cit., II, Nuri, p. 85.

(٢٤) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٤٨، محمد ييوى مهران: مصر ٦٠٠ / ٣ - ٦٠٢، وكذا:

J. lecllant, Recherches sur les Monuments The bains de la XXV Dynastie dite Ethiopienne Ede, 36, 1965, p. 160 - 205.

K. A. Kitchen, op. cit., p. 280 - 282.

وكذا:

A. A. Schulman, JARCE, 5, 1966, p. 40.

وكذا:

A. H. Gardiner, op. cit., p. 342.

وكذا:

G. Burguet, Temple d'Amon-re d'kank, p. 90, 310.

وكذا:

J. Vercoutter, Napatan Kings and Apis Worship, Kush, 8, 1960, p. 66, Note, 27.

وكذا:

F. S. A. Addison, Jebel Moya, I, Oxford, 1949, p. 118.

وكذا:

PM, II p. 7, 101, 165, 192. III, p. 220, 226, V, P. 68, 204, VI. p. 68, 204, VI. p. 68, 204, VI.

وكذا:

=/=

وأما مقبرة «شبتكو» فقد كانت كأسلافه في «الكرو»، حيث دفن هو وخيوله في هرم (رقم ١٨ حسب تقسيم رايزنر)، وقد عثر فيها على تماثيل صغيرة، من ذلك النوع الذي يعرف باسم «انجارين» (الأوشيتي) يحمل اسم «شبتكو»، كما عثر في حجرة الدفن على قطع من الأبنوس المطعم بالعاج، وعليها صورة تقليدية لبعض الأجانب (موجودة بمتحف بوسطن برقم ٢١٣٠٨، ٢٤١٠١٨، وفي متحف الخرطوم برقم ١٥٧٥)، وهناك قطعة من الفينانس (بمتحف الخرطوم برقم ٢٧٤٩) تحمل اسم «شبتكو» عثر عليها في الغرفة الغربية بمعبد «كاوا» (A)، وهو المعبد الذي بناه الملك توت خنخ آمون (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) من الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م)، وأضاف إليه «طهرقا»، مما يشير إلى أن «شبتكو» قد ترك أثراً في كاوا - وهي الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى بعد ٤ كيلاً جنوبى دنقلة الحديثة، ٣٢ كيلاً جنوبى أرقو (٢٥).

هذا ولم يعثر حتى الآن على مقبرة واحدة من مقابر الخيول لأصحاب المقابر المبكرة في جبانة الكرو، وأرجح الآراء أن «بعنخي» (بى) (٧٤٧-٧١٦ ق.م) إنما كان أول من دفن خيوله في الجبانة من ملوك الأسرة النبتوية، وأن دفن الخيول في الجبانة إنما ظهر فجأة في الجيل السادس، وربما السابع، من أصحاب هذه الجبانة.

والمعروف أن الآثاريين لم يعثروا حتى الآن على مدافن للخيول في مصر (٢٦)،

==/==
p. 117, VII, 184, 192, 1196, 273, 334 - 335.

وكدنا: A. Fakhry, Bahariya Oasis, II, Cairo, 1942, p. 73 - 80.

وكدنا: A. J. Arkell, A History of The Sudan, from The Earliest Times to 1821, London, 1955, p. 117, 125 - 126

(٢٥) «محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٥، سليم حسن: مصر القديمة ١٠ / ٤٦٠، وكدنا:

P. M, 7, p. 197.

وكدنا: S. Wenig, Africa in Antiquity, II, p. 51.

وكدنا: A. J. Arkell, op. cit., p. 127.

وكدنا: M. F. Laming Macadam, The Temples of Kawa, Oxford, 1949, I, p. 12.

(٢٦) عرف الحصان في وادى النيل، وفي العراق القديم، فيما قبل عصر الهكسوس ويذهب «إمرى» إلى أن ذلك إنما كان منذ الدولة الوسطى حيث عثر عام ١٩٦٢م على هياكل خيول في منطقة «و»، دمت في الدولة الوسطى، وإن ذهب البعض إلى أنها ترجع إلى أيام الدولة الحديثة، كما

حتى يمكن القول أن بعنخى إنما قد نقل هذه العادة إلى النوبة - بعد أن استولى على مصر - بصفته أول ملك تنسب إليه مقابل خيول، وقد عرف عنه حبه للخيول - كما تشير إلى ذلك لوحة نصر، فضلاً عن النص الذى يوجه فيه الملوم للمدعو «نمرات» أمير الأشمونيين، عندما وجد الخيول تكاد تهلك (٢٧) جوعاً، ومن ثم فلا يمكن القول أن حب الخيل ظهر فجأة عند «بعنخى» أو أنه ورثه من أسلافه، وربما كان ذلك صفة شخصية فى الرجل.

(٧) أورو - نارتي:

يقع حصن «أورو - نارتي» على مبعده ٢٠ كيلاً شمالى سمته وقمة، ٥٠ كيلاً جنوبى وادى حلقاً، وقد أقيم هذا الحصن فى جزيرة «أورو - نارتي» (Uronarti) وسمى «القلعة التى تصد الإينو» أو التى تطرد القبائل، ويقع الآن عند قرية الملك الحالية.

وهناك لوحة عشر عليها فى المنطقة عام ١٨٩٩م، تسجل أن «سنوسرت الثالث» هو الذى قام ببناء هذا الحصن، وإن كان بناؤه يشير إلى أنه قد صمم وبدئ فى بنائه فى عهد «سنوسرت الأول»، ويشبه تصميم الحصن بصفة عامة، مثلاً يميل إلى الطول، ذا ذيل طويل، مكوناً من جدار ضخيم يصل إلى الجزء الشمالى من الجزيرة، ويشير وضع الأبراج فى الناحية الغربية إلى أن خطر الهجوم إنما كان من هذه الجهة، وأما السور الخارجى الذى يحيط بالسور المثلث الصغير، ففيه الأبراج المربعة العادية وفى الركن الجنوبى حائط مستطيل تبرز من جوانبه

=/=

عشر «بترى» على دفنات اختلطت فيها هياكل الخيول مع الحمير مع الآدميين فى «تل المعجول» بجنوب فلسطين، غير أنه لم يعثر فى مصر على أية دفنه لحصان واحد، أو حتى لعظام من حصان، والأمر كذلك بالنسبة إلى القوش التى ترجع إلى عصر الهكسوس - محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ١٤١ - ١٤٢، عبد العزيز صالح، وكذا:

T. T. Save Soderbergh, op. cit., p. 59.

W. C. Hayes, op. cit., p.

وكذا:

(27) Urk., III, p. 3.

A. H. Grdiner, op. cit., p. 338.

وكذا:

أبراج مربعة، والمدخل الأساسى على شكل بوابة منزل ضخمة توجد فى وسط الجدار الجنوبى. -

هذا وتنقسم المدينة الصغيرة إلى قسمين بطريق يؤدي بطريقة غير مباشرة إلى سلم طويل ينزل إلى بوابة مائية خارج الحصن، على الضفة الشرقية للجزيرة (٢٧).
(٨) النقعة:

تقع النقعة - أو النجعة - فى سهل البطانة، جنوبى شندى، وإلى الشمال قليلاً من الجندل السادس، وعلى بعد ١١٢ كيلاً شمالى الخرطوم، وقد وصلت إليها حدود مصر على أيام «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) حيث بنى هناك معبدًا، كما وجد له تمثال جاث يحمل آتيتين على يديه، وإن كان من المحتمل كثيراً أن النفوذ المصرى قد وصل إلى أبعد من ذلك، هذا وقد عثر أيضاً بالنقعة على بناء فخم باسم الملكة «شاناكدختى» (١٧٠ - ١٦٠ ق.م) وجدت به نقوش مكتوبة بالهيريوغليفية المروية، وهى من أقدم ما عرف (٢٨).

(٩) بوهن:

تقع بوهن إلى الجنوب قليلاً من وادى حلفا - عبر النهر - وكانت منذ الدولة الوسطى، (٢٠٥٢ - ١٧٨٦ ق.م) أحد مراكز السيادة المصرية فى السودان، ومركز نائب الملك فى كوش، وفى عام ١٩٦١ / ١٩٦٢م عثر فيها على مستوطنة ترجع إلى أيام الدولة القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٨٠ ق.م)، ألحقت بها مجموعة من أفران صهر النحاس، كما أن بها أكبر حطون النوبة فى الدولة الوسطى، وكانت المدينة تتكون من المساكن وثكنات الجيش ومصانع وقصر

(٢٧) والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٤٩ - ١٥٢، وكذا:

D. Dunham, Second Caract Forts, II, Uronarti, Shalfok, Mirgis-si, Boston,

W. C. Hayes, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 507, 1967.

وكذا:

(٢٨) محمد بيومى مهران: مصر ٢٦٢ / ٣، ج. لكلا: تاريخ أفريقيا، ص ٢٩١، وكذا:

B. G. Haycock, The kingship of Kush in the Sudan, 1954, p. 461 - 480.

الحاكم، وقد أظهرت الحفائر تخطيطاً المدينة مستطيلة، ذات طرق معبدة، ونظام للصرف والمجارى، ومن ناحية النيل وجدت بوابتان كبيرتان فى الجدران، توصلان إلى رصيف حجرى لرسو سفن الجزى والمحاصيل التجارية من النوبة، وبوابة ثالثة محصنة فى الجانب الغربى المواجه للصحراء، وقد احتلها الكوشيون على أيام الهكسوس ودمروا بعضاً منها، ثم أصلحها الملك «أحمس الأول»، (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق. م) بعد طرد الهكسوس، وجعلها المدينة الرئيسية فى النوبة، وقد بنت «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق. م) فيها معبداً، على أساسات معبد الدولة الوسطى، وقد أعاد «تحتمس الأول» جدران حصون بوهن ورودم السور السفلى والخندق، وغطاهما بطريق معبد من اللبن، يلتف حول البناء كله، ثم حفر خندقاً (٦ × ٢ م) على شكل محيط طوله ميل، ومن ورائه شيدت الجدران التى شملت المدينة الجديدة (ارتفاعها ١٢ م وسمكها ٥ م) وتتخللها أبراج مستطيلة فى الواجهة الخارجية (٢٩).

ويمثل حصن بوهن - أكبر حصون النوبة العليا فى الدولة الوسطى - أفضل تلك الحصون التى قاومت البلوى، وصمدت للزمن، فقد كانت تلك القلعة الجبارة تتكون من سلسلة متعقدة من تحصينات داخل تحصينات مبنية على شكل مستطيل (١٧٢ × ١٦٠ م)، وتتكون نظامها الدفاعى من سور من الآجر (سمكه ٨، ٤ م، وارتفاعه ١٠ م)، وله أبراج على مسافات منتظمة، وفى أسفل هذا السور الرئيسى متراس مرصوص بالآجر، تحميه سلسلة معازل مستديرة، بها صفوف مزدوجة من فتحات الرمى (المزاغل)، ويحيط بالقلعة كلها خندق جاف محفور فى الأرض الصخرية الصلدة بعمق ٦، ٥ م، وعرض الخندق ٨، ٤ م، وقد تمت تعلية حافته البعيدة عن القلعة بسور من الآجر.

(٢٩) محمد يومى مهران : مصر ٢ / ٢٥٧، وكذا:

W. B. Emery, Preliminary Reports on The Excavations at The Egypt Exploration Society at Buhen, Kush, VIII, 1960, 1961, X, 1962.

J. Vercoutter, Kush, 4, 1965, p. 77 - 78.

G. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.

وكذا:

وقد ظلت هذه القلعة تؤدي دورها - كما سنرى - حتى أخريات الأسرة العشرين (١١٨٤ - ١٠٨٧ ق.م)، بل إن الحفريات قد أظهرت بقايا مستعمرة صغيرة من العصر المروى والمسيحي، فوق الجزء الجنوبي لمدينة من الدولة الحديثة^(٣٠). (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)

هذا وقد بدأ «أحمس الأول» (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) - كما أشرنا آنفاً - في إصلاح قلعة بوهن التي كانت قد تعرضت للتخريب والنهب في عصر الانتقال الثاني، وجعل منها المدينة الرئيسية في مناطق النوبة التي استردها المصريون، هذا ولتبقى هنا في عهد أحمس الأول بالوالي المقبل، نائب الملك «نورى» قائد بوهن، والذي كان اسمه الحقيقي «أحمس» (عحموزة) وأن كلمة «نورى» ليست سوى «كنية» له، كما نلتقى كذلك حوالى هذه الفترة في مدينة الكاب - على مبعدة ١٩ كيلا شمالي إدفو، في مقابل البصيلية عبر النهر - بلقب مبهم، هو «أول ابن للملك في الكاب»، وإن كان من العسير علينا أن نربط بين هذا اللقب، وبين تعاقب ولاة النوبة فيما بعد، ولعل مما يشجع على هذا الرأى ما نشهده بعد قرنين فيما يتصل بمدينة «نخن» (البصيلية) - مقابل الكاب عبر النهر - من أنها تعرف بنقطة البدء الشمالية لإداراتهم^(٣١).

(٣٠) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ١٧٣ - ١٧٤، والنترامرى: المرجع السابق، ص ١٠٤ - ١٠٦، تاريخ أفريقيا العام ٢ / ٢٣٨، ٢٥٢، ٢٥٩ محمد ييوى بهران: مصر ٢ / ٢، ٤٠٤ / ٣، ٢٥٧.

وكدًا: J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

W. B. Emery, Egypt Exploration Society, Preliminary Report on The Excavations at Buhen, 1962, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.

وكدًا: W. B. Emery, Kush, 8, 1960, p. 7 - 8.

A. W. Lawrence, Ancient Egyptian Fortifications, JEA, 51, 1965, p. 69 F.

(٣١) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ٢٩٨ - ٢٩٩، محمد ييوى بهران: المرجع السابق، ص ٢٠٨، وكدًا:

T. Save-Soderbergh, Aegyptien und Nubia, Lund, 1941, p. 141 - 142.

هذا وقد عثر فى «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناء الفرعون هناك، كما
تنسب إليه الترميمات التى تمت فى معبد حصن بوهن من عصر حتشبسوت، إلى
جانب لوحة كبيرة مائتزال فى فناء معبد بوهن هذا، سجل عليها الحاكم «حى»
انتصارات الفرعون (٣٢).

هذا وهناك لإكتشافات الحديثة فى عام ١٩٦٢م فى بوهن، والتى تشير -
كما أشرنا من قبل - إلى وجود مستعمرة مصرية هناك على أيام الدولة القديمة،
كان من أهم صناعاتها هناك تشغيل النحاس، كما تشير إلى ذلك أفران الصهر،
وبقايا خام النحاس هناك، الأمر الذى يدل على وجود خام النحاس هناك فى مكان
ما من تلك المنطقة، وأنه من نوع متفوق على غيره من الأماكن الأخرى فى مصر
والسودان، وتدل الدراسة العلمية لعينات من نحاس بوهن فى المدرسة الملكية
للتعدين فى لندن، فضلاً عن معلوماتنا عن علم التعدين، أن رواسب النحاس التى
ظهرت فى مصر، وفى التوبة السفلى، إنما ترجع وجود مصدر لخام النحاس فى
بوهن، وقد عثر «والتر امرى» على كميات من نحاس غير مصهور على مقربة من
ثلاثة أفراد لصهر النحاس فى بوهن، وأنها تقع على الضفة الشرقية للنيل، ومن
الناحية الكيميائية، فإن أبرز الملامح المميزة لخام نحاس بوهن أن به نسبة عالية من
الذهب (٣٣).

=/=

A. H. Gardiner, op. cit., p. 170.

وكذا:

T. G. H. James, op. cit., p. 298 - 299.

وكذا:

W. B. Emery, Kush, 7, 1959, p. 7 - 14, 8, 1960, p. 7 - 10.

وكذا:

ASAE, 10, p. 193 F.

وكذا:

J. H. Breasted, op. cit., II, p. 8 - 9.

وكذا:

J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

وكذا:

(٣٢) والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٩٥، جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣،
تاريخ أفريقيا، ص ٢٧٠، وكذا:

B. G. Trigger, op. cit., p. 110.

(33) W. B. Emery, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.

El-Sayed El-Gayar, JEA, 65, 1989, p. 31 - 32.

وقد عثر على دليل أفضل يقدمه لنا «معبد أحمس في بوهن» حيث، يحمل المدخل الباقي منه اسم «أحمس»، واسم أمه «إيعح حوتب»، فضلاً عن نص نذرى «أضفة تتر» (Tjuroy) حاكم بوهن، وإن لم يبق لنا شيئاً من آثار في منطقة القلعة التي ترجع إلى أيامه. وجه اليقين، وأكبر الظن أن الفرعون لم يعد، أو لم يكن بقادر على أن يعد فتوحاته إلى تيسرب بعيداً عن بوهن، بأكثر من ١٩٠ كيلاً، حيث وجدت آثار تحمل اسمه واسم زوجته (٣٤).

(١٠) بعصة : (Basa)

تقع في وادي الهمود، ولها نخب كبير محاط بتمائيل أسود حجرية، وتتميز بأن تخطيطها كان دقيقاً، يتفق وتضاريس الأرض التي كانت مخططة وقت ذلك بالأعشاب والأشجار (٣٥).

(١١) بناجه = بناقا = وادي بناقا:

يقع على مبعده ٤٠ كيلاً جنوبي شندى، وهناك ما يشير إلى أنه كان مركزاً هاماً للقوافل، حيث عثر على خزانات للمياه، كما عثر على إطلال معبدتين، كما أظهرت الحفائر أخيراً مبنى ضخماً، ربما كان قصراً، وآخر في شكل خلية النحل، ربما كان صومعة كبيرة للغلال، كما يشير موقع المدينة إلى أنها ربما كانت مقراً لسبكتي «الكندكات» (الملكات الحاكمات)، كما كان ميناء نهرياً.

(١٢) جبل البرقل:

جبل البرقل أو البركل: يقع على الشاطئ الشرقي للنيل، على مدى بضعة أميال من كريمة، ويقابله على الضفة الغربية للنيل مدينة «نباتا» (نبته) ويسمى

(34) G. A. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.

J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

T. G. H. Jamer, op. cit., p. 289.

A. H. Gardiner, op. cit., p. 170.

B. G. Trigger, op. cit., p. 107 - 108.

J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, in Kush, 6, 1958, p. 114 - 169.

(٣٥) أحمد محمد الحاكم: تاريخ أفريقيا، ص (٢١٩).

جبل البرقل فى المصرية القديمة «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - واعب) فقد اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون رع، وقد أقيم فيه معبد آمون الكبير، حيث وضعت نواته الأولى على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)، ثم قام «بعنخى» بإعادة بنائه وتوسيع قاعاته، ليكون على غرار معابد آمون الكبرى فى شمال الوادى ثم أقيمت على جانبيه المدخل ستة تماثيل جبرائيتية المكباش - رمز آمون المقدس - وهى تحتضن تماثيل صغيرة للملك «أمنحيب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) نقلها «بعنخى» من صولب إلى نبتة، وتكرر البوابات الضخمة التى تصل بين قاعات المعبد المتعددة، قبل الوصول إلى قدس الأقداس، حيث كان يقوم تمثال المعبود آمون، الذى لم يبق منه سوى قاعدته الحجرية التى كانت تحمل التمثال.

ونظراً لأن القوم قد اعتادوا إقامة النصب الحجرية التى تدون عليها الأحداث الهامة فى المعابد، بغية تخليد أصحابها، ومن ثم فقد عثر فى معبد آمون على عدة ألواح، منها لوح بعنخى (لوح النصر) ولوح «تانونت أمانى» (لوح الحلم)، ولوح الملك «حور سيوتف»، ولوح الملكة «سخمنخ» (٣٦).

هذا وقد شيد «تخونمس الثالث» لوحة فى برقل تسجل أن حدوده الجبرية وصلت إلى «قرون الأرض» the Horn of the Earth، وهى منطقة جنوبية الجندل الرابع، مازلنا نجهل مكانها (٣٧).

(36) PM, VII, p. 215 F G. A. Reisner, ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100 Urk, III, p. 1 J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 796 - 883, E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, p. 537.

(٣٧) محمد بيومى مهران ٧٣/٣، سليم حسن. مصر القديمة ٤ / ٤٧٠ - ٤٩٨ وكذا :

A. J. Arckell, op.cit, p. 88- 89.

R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.

B.G.Trigger, op.cit, p. 72.

G.A.Reisner, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.

E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.

W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.

J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.

=

وهناك فى «كلايشة» فى النوبة السفلى، كان يشاهد تمثال للفرعون على مقربة من المرسى المردى إلى معبد أغسطس، موحيا بأن الفرعون قد شيد جزءا من المعبد القديم، وربما شيد كذلك معبدا فى «قورته»، وعلى أية حال، فهناك - حتى منتصف القرن الماضى - كانت توجد فى قورته بوابة نقش عليها اسمه، كما أنه نحت فى الصخر معبدا فى «الليسية» - على مبعدة كيلومتر من أبريم، خصصه لعبادة «حور» و «ددو» و «سنوسرت الثالث»، وهو معبد صغير جداً، مكون من حجرة واحدة، بها كوة صغيرة، وقد زينت واجهته بعدة نقوش، فضلاً عن لوح يؤرخ بناء العبد بالعام الثالث والأربعين، من حكم الفرعون، وقد منحته مصر لإيطاليا، وهو الآن مقام فى المتحف المصرى فى تورين، وهناك فى «ميعام» - وهى عنيبة على مبعدة ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان - لوحة من العام الخمسين من الحكم، يظهر الفرعون فيها أمام «حور ميعام» والالهة «ساتيس»، وهناك فى قصر أبريم أربع مقصورات منحوتة فى الصخر، ثتان منها ترجع إلى عصر تحتمس الثالث، وإن كانتا فى الأصل من عهد آخر، أحدهما للحاكم «نحى»، والثانية ترجع إلى عصر «حتشبسوت».

هذا وقد عثر فى «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناء الفرعون هناك، كما تنسب إليه الترميمات التى تمت فى معبد حصن بوهن هذا بسجل عليها الحاكم «نحى» انتصارات الفرعون (٣٨).

L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 65

= وكذا

(٣٨) محمد بيومى مهران ٧٣/٣، سليم حسن: مصر القديمة ٤٧٠-٤٩٨، وكذا

A. J. Arckell, op.cit, p. 88- 89.

وكذا

R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.

وكذا

B.G.Trigger, op.cit, p. 72.

وكذا

G.A.Reisener, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.

وكذا

E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.

وكذا

W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.

وكذا

J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.

وكذا

L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 6

وكذا

هذا وربما كان «سيتى الأول» هو الذى أسس معبد آمون فى جبل البركل - ويسمى فى المصرية «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - راعب)، حيث اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون طيبة - ويقع هذا الجبل على الضفة الشرقية للنيل، على مدى بضعة أميال من «كريمة»، ويقابله على الضفة الغربية للنيل مدينة «نباتا» (٣٩).

وهناك فى معبد آمون الكبير (ب ٥٠٠) فى جبل البركل، قاعدة من الجرانيت، الأشهب، ما تزال قائمة فى مكانها، كانت مخصصة لحمل تمثال الإله آمون، داخل مقصورته الذهبية، وتحمل القاعدة إسم الملك طهرقا ولقبه بحجم كبير (طهرقا، نفرتم، خورع) وسط نقش يمثل وادى النيل عبارة عن صورتين لإله النيل، الواحدة : تمثل نيل الشمال، والأخرى : تمثل نيل الجنوب، يقومان بشد حمل، لعقد رمز الوحدة، وهو يمثل الرنتين والقصبه الهوائية، وكانت النوبة على أيام الرعامسة تتكون من قسمين، الواحد: النوبة السفلى أو «واوات»، وتمتد من جنوب «آبو» (يب - اليفانتين - جزيرة أسوان)، وحتى سمنا، عند الجندل الثانى، وعاصمتها «عنية» (ميعام) - على مبعده ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان - والآخر: النوبة العليا أو «كوش» (كاش)، وعاصمتها «عمارة غرب» - على مبعده ١٨٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - كما كانت مصر قد تجحت فى توطيد سلطانها تماما فى النوبة منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة (٤٠).

(٣٩) محمد ييوى مهران: مصر ٣/٣٧٠، ٣/٣٨٣ نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٢، وكذا:

A.J.Arkell, op-cit, p. 112.

B.G.Trigger, op.cit, p. 111, 126, 129.

J.Vercoutter, op.cit, p. 77 - 79.

W.B.Emery, op.cit, p. 95.

H.W.Fariman, JEA, 24, 1938, p. 151 - 156, 25, 1939, p. 139-144, 34, 1948, p. 1-11.

(٤٠) محمد ييوى مهران: مصر ٣/٣٦٩ - ٣٧٠.

A.J.Arkell, op.cit. وكذا

B.G.Trigger, op.cit, p. 111. وكذا

هذا وقد عثر في جبل البرقل على لوحة بعنخى (Py = Py) الأولى، والتي تسمى «لوحة النصر»، ومحفوطة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة (برقم ٤٨٨٦٢)، وقد غطيت اللوحة بالنقوش الهيروغليفية من جوانبها الأربعة، وهى من الجرانيت الرمادى، وجزؤها الأعلى مستدير، وارتفاعها ١٨٠ سم وعرضها ١٨٤ سم، وسمكها ٤٣ سم، وقد كشف عنها - مع أربع لوحات أخرى - ضابط مصرى غير معروف فى عام ١٨٦٢م، كان يعمل فى الجيش المصرى فى السودان على أيام الوالى «سعيد باشا» (١٨٥٤ - ١٨٦٣م).

ويرجع تاريخ لوحة البرقل إلى العام الحادى والعشرين من حكم الملك «بعنخى» (٧٤٧ - ٧١٦ ق.م)، وقد مثل على قمته قرص الشمس غير المنجح، يخرج منه صلان، وأسفله المعبود «آمون» قاعدا، وتقف خلفه «موت» ربة «أشرو»، وأمامها يقف «بعنخى» وقد وضع فى منطقته خنجرا، ويرتدى قميصا يصل إلى ركبتيه، وتتقدم امرأة إلى الملك «بعنخى» رافعة يدها اليمنى، وأكبر الظن أنها زوج «نمرات» الذى مثل واضعا الصل على جبينه، ويقود بيده اليسرى جوادا، وتقبض يده اليسرى على صنابه، وقد مثل على قمة اللوحة ثلاثة ملوك آخرون يقبلون الأرض أمام بعنخى.

هذا وقد قام مكتشف اللوحة - الضابط المصرى غير المعروف - بنقل نقوشها، ثم أرسل منها نسخة إلى «أرجست فرديناند قرانسوا مارييت» (١٨٢١ - ١٨٨١م) مدير مصلحة الآثار المصرية (١٨٥٨ - ١٨٨١م) فى القاهرة، والذى سرعان ما أدرك أهمية اللوحة، ومن ثم فقد أمر بإرسالها إلى القاهرة فوراً، لتكون فى ملكية الحكومة المصرية، وهكذا أقلعت سفينة من مدينة «مروى» إلى القاهرة، حاملة اللوحة، فوصلتها فى عام ١٨٦٢م ثم عكف «مارييت» على ترجمة النسخة التى أرسلت إليه فى عام ١٨٦٣م، ثم أعلن عن هذا الكشف إلى الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب^(٤١).

(41) Letter de M. Auguste Mariette au. Le Vicomte de Rouge sur une Stele Trouvée a Gebel Barkal in Comptes Rendus, Tom., VII, p. 119, F.

هذا وقد أرسل «ماريت» نسخة من النقش إلى «دى روجيه» مع رسالة لخص فيها النتيجة التاريخية التي اعتقد أنه يمكن استخلاصها من فحص سريع، ثم طلب منه أن يقوم بترجمة كاملة لهذا النقش^(٤٢)، وقد حاول «دى روجيه» ترجمة النص - طبقاً لنسخة الضابط المصرى - وإن عاقته بعض الصعوبات التي استلزمت ضرورة اطلاعه على النص الأصلي، الذي كان على درجة كبيرة من الصعوبة، ثم نشر الترجمة في مقال عام ١٨٦٣م^(٤٣).

ومنذ ذلك الحين، بدأ علماء المصريات في إعادة ترجمة اللوحة وتحليلها قام بذلك «كسوك» في عام ١٨٧٣م^(٤٤)، «جريفث»^(٤٥)، ثم «برستد» عام ١٩٠٧م^(٤٦)، وكذلك «بدج» في نفس العام^(٤٧).

وفي عام ١٩٣٥م قام «سير ألن هندرسون جاردنر» (١٨٧٩ - ١٩٦٣م) بترجمة وتنقيح بعض فقرات نصوص هذه اللوحة^(٤٨)، وفي عام ١٩٥٦م قام العالم المصرى الدكتور «سليم حسن» (١٨٩١ - ١٩٦١) بترجمة اللوحة الى اللغة العربية^(٤٩)، وفي عام ١٩٧٩م قدم «أنثون سبلنجر» تحليلاً عسكرياً للوحة^(٥٠) كما عنى بنفس الجوانب العسكرية «ديتركلير» فنشر عنها دراسة

(42) RA, Part, I, 1863, p. 413.

(43) De Rouge, L'Inscription Historique de Roi Piankhi-Meriamoun, in RA, Part, 2, 1863, p. 94F, With a Plate.

(44) S.Cook, The Inscription of Piankhi-Meriamon, King of Egypt in The Eighth Century B.C. London, 1873, p. 79 - 104.

(45) F.L. Griffith, Egyptian Literature (in Specimen Pages of a Library of The World's best Literature) p. 5274-5295.

(46) J.H.Breasted, ARE, IV, Chicago, 1907, Parag. 796 - 883, p. 406 - 444.

(47) E.A.W. Budge, The Egyptian Sudan, Its History and Monuments, II, London, 1907, p. 11- 26.

(48) A.H.Gardiner, in JEA, 21, 1935, p. 219-223.

(٤٩) سليم حسن: مصر القديمة ١٠/١١ - ٣٤

(50) A.Spalingner, The Military Background of The Campaign of Piye (Piankly), SAK, Band, 7, 1979, p. 273 - 301.

عام ١٩٨١م^(٥١).

هذا وقد أكمل «نيكولاس جريمال» جهود السابقين بأن ضمن ترجمته بعض القطع الناقصة من اللوحة، والتي عثر عليها «لوكيانوف» عام ١٩٢٦م، ثم قدم لنا بعد ذلك دراسة وافية عن اللوحة، مع ترجمة كاملة للنص الهيروغليفي^(٥٢).

وعلى أية حال، فلاريب في أن لوحة جبل البرقل هذه إنما هي مصدر تاريخي وجغرافي لهذه الفترة، فهي تحمل واحدا من أطول النصوص، وأكثرها تفصيلا، فهو يحتوى على ١٥٩ سطرا من الخط الهيروغليفي يصف احتفالات الملك بعنخى، واستعداداته ومراحل حروبه مع الليبيين المتمصرين الذين يسيطرون على وسط وشمال مصر.

هذا وقد تحدثت اللوحة عن أغلب مدن مصر - سواء أكانت في الصعيد أو الدلتا - فهي مثلا تقدم لنا ١٩ مدينة محصنة على امتداد ٢٦٦ كيلا، على طول نهر النيل، من مصر الوسطى وحتى الدلتا - أى بمعدل مدينة لكل ١٤ كيلا^(٥٣).

وهناك لوحة بعنخى الثانية، وهي محفوظة الآن بمتحف الخرطوم (رقم ١٨٥١)، وقد عثر عليها «جورج أندرو رايزنر» (١٨٦٧-١٩٤٢م) عام ١٩٢٠م في جبل البرقل أيضا، وذلك في قاعة العمدة (B 501) (عرضها ١٢٣ سم، وطولها ١٣٠ سم)، وإن كان هناك ما يشير إلى أنها كانت أعلى من ذلك، لأن الجزء الأسفل منها قد كسر، ولم يعثر عليه للآن، وأكبر الظن أنها قد نصبت أولا أمام البوابة الثانية، قبل بناء القاعة (B 501).

(51) Dieter Kessler, Zu den Feldzogen des Tefnachte, Namlot und Piye in Mittägypten, SAK, Band, 9, 1981, p. 227 - 250.

(52) G.N.C. Grimal, La Stele Triomphale de Pi, au Meusee du Caire (JE 48862 et 47086-47089), Etudes sur La Propagande Oyale-egyptienne, David O'connor, New Kinkdom and Third Intermediate Period, 1552-664 B.C., in AESH, p. 232.

(53) BIFAO, 105, 1981.

هذا ويتوج قمة اللوحة قرص الشمس المجنح الذى يكتنفه صلان، وقد مثل الإله آمون برأس كيش قاعدا على العرش، وقد مد يده اليسرى إلى الملك مقدما له تاج مصر السفلى، وفى يده اليمنى لباس رأس مزود بصل، وتقف خلفه المعودة «موت»، وخلفها ولدهما «خونسو» وفى مواجهة آمون تقف شخصية صغيرة تمثل نباتا، على رأسه تاج كوش، ويقدم قلادتان منهما واحدة صدرية إلى آمون، وقد اشتملت اللوحة على ٣٠ سطرا.

ويذهب «رايزنر»^(٥٤) - الذى نشر اللوحة - إلى أن اسم الملك الذى وجد مطموسا، داخل الخرطوش الوحيد فى اللوحة، يمكن قراءته - على وجه اليقين - «بعنخى»، وأما تاريخ اللوحة فيرجع إلى فترة ما قبل استيلائه على مصر، ومن ثم فهى تتحدث عن أهداف بعنخى من استيلائه على مصر، فضلا عن أنه اعتبر نفسه مصدر السلطات، وصاحب الحق فى تعيين الملوك.

هذا وتصف هذه اللوحة النظام الفيدرالى لإمبراطورية كوش، مع إعلان سيادة آمون، ويقول بعنخى: «لقد منحنى آمون نباتا السيادة على كل الناس، فمن أقول له: أنت ملك، يصبح ملكا، ومن أقول له: أنت لست بملك، لا يصبح ملكا، لقد منحنى آمون طيبة السيادة على مصر، فمن أقول له: تتوج ملكا، يتوج ملكا، ومن أقول له: لا تتوج ملكا، لا يتوج ملكا، إن الآلهة تتوج الملوك، كما أن الناس يتوجون الملوك، أما أنا فقد توجنى آمون»^(٥٥).

هذا وقد عثر فى جبل برقل - مع لوحى بعنخى - على لوح ضخم محفوظ الآن بالمتحف المصرى برقم ٤٨٨٦٣) يحمل اسم وصورة الملك «تانتوت أمان»، عرف عند الآثاريين باسم «لوح الحلم»^(٥٦)، وقد سجلت عليه نفس الأحداث

(54) G.A.Resner, Inscribed Monuments from Gebel Barkal, The Sandstone Stela of Piankhy, No. 26, in ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100, and Plate BV.

(٥٥) ج. لكان: تاريخ أفريقيا ص ٢٨٢، سليم حسن: مصر القديمة ٦٨/١١ - ٧١، عادل سيد مصطفى. دراسة تاريخية وحصارية للأسرة الرابعة والعشرين فى مصر الفرعونية - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ١٧-١٨.

(56) J.H. Breasted, ARE, IV, p. 469 - 473.

التي سجلتها الرقم الإسطوانية المسمارية^(٥٧)، ولكننا نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نلتقي بتناقض أشد مما نلتقي به عند عرض الإثنتين، فكلاهما عن قصة النصر، ولكن المنتصر في الواحدة «أشوربانيبال» وفي الأخرى «تانوت أمون»، والذي يروى أن «تانوت أمون» رأى في السنة الأولى من حكمه حلما جاء فيه، أن شعبانين كان أحدهما على يمينه، والآخر عن يساره، وقد فسر له الحكم على الوجه التالي:

«مصر العليا تخصك فخذ لنفسك مصر السفلى، ربنا الصل والعقاب ظهرنا على رأسك، أعطيت لك الأرض طولا وعرضا، وسوف لا يشترك معك أحد فيها».

«وعندئذ اعتلى تانوت أمون عرش حور في هذه السنة، وخرج من «خميمس» (مكان في وسط مستنقعات الدلتا حيث أمضى حور طقولاته) وتقدم إلى نبتة دون أن يعترضه أحد، وأقام هناك عيدا كبيرا لآمون رع، ثم قدم ولأءا بمائلا لخنوم في إليفانتين، ولآمون رع في طيبة، وقوبل بالترحاب في كل مكان في طريقه إلى منف بفرح كبير، وكذا عند وصوله إلى العاصمة الشمالية^(٥٨).

(١٣) دنقله العجوز:

تقع دنقله العجوز (دنقلة القديمة) على الضفة الغربية للنيل، قريبا من كريمة في مقابل «مروعا» عبر النهر (وهي غير دنقلة الحديثة أو دنقلة العرضي)، وقد قامت بها مملكة في القرن السادس الميلادي، امتدت رقعتها من الجندل الثاني وحتى «مروى» القديمة (البحراوية الحالية) - على مبعدة ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم - وكانت دنقلة هي العاصمة، وسميت هذه المملكة في عصر لاحق «مكوريا» (Makuria) وهي «المقرة» في العربية، وقد كشفت بعثة الآثار البولندية منذ عام ١٩٦٤ م عن أربع كنائس وعن القصر الملكي في دنقلة العجوز، كما

= وكنا. H.Schafer, Urk, III, p. 57 - 77.

وكنا. PM, 7, p. 218 - 218.

وكنا. A.J.Arkell, op.cit, p. 134 F.

(57) A.L.Oppenheim, ANET, 1966, p. 293

(58) A.H.Gardiner, op.cit, p. 348.

عشر على أقدم كنيسة بنيت بالطوب اللبن، وقد وجد بها - غير الكاتدرائية - خمسة صحنون، وهي تتركز على ٦٠ عمودا من الجرانيت.

وفى القرن السادس الميلادى أصبح فى النوبة ثلاثة ممالك (مملكة النوبة الشمالية، وعاصمتها فرس، ومملكة النوبة الوسطى وعاصمتها المقررة، والنوبة الجنوبية وعاصمتها سوبا). وفى عهد الملك «مرقوريوس» الذى تولى الحكم عام ٦٩٧ م توحدت الممالك الثلاثة، واتخذت من دنقلة عاصمة لها (٥٩).

(١٤) ساي = صاي:

ساي = صاي: هى «شعاع القديمة» وتقع على مبعدة ١٩٠ كيلا جنوبى بوهن، وقد عشر فيها على آثار شيلية وأشولية، وعلى تمثال للملك «أحمس الأول» (١٥٧٥-١٥٥٠ ق.م) مما يشير إلى وصوله إليها عندما استرجع النوبة بعد طرد الهكسوس، كما عشر على لوحة بها الألقاب الملكية الكاملة للملك «أمنحتب الأول» (١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق.م) وكذا تمثالين ولوحين صغيرين عليهما اسمه، كما بنى بها «تخوتمس الأول» (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م) حصنا، وبنى «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) معبدا. (٦٠).

هذا وقد عشر على تمثال، رأسه محفوظ الآن بمتحف الخرطوم برقم (٣٨٢٨) يحمل إسم «أحدس»، فضلا عن كتلة حجرية تحمل لإسم زوجه «أحمس نفرتارى»، هذا ويفترض أن أمنس الأول بنى أول معابد الدولة الحديثة فى «ساي» (صاي - شعاع القديمة)، ومع ذلك فربما كانت هذه القطع الأثرية من معبد يرجع إلى تاريخ متأخر، بناء أحد خلفاء أحمس.

(٥٩) ميخالوفيسكى: تاريخ أفريقيا ص ٣٣٢، وكذا: M.Martens, CAMAP, VII, 1973, p. 263 - 271, K.Michalowski, Polish Excavations at Old Dongola, Kush, XIV, p. 189 - 299.

(٦٠) محمد بيومى مهران: مصر. J.Vercoutter, Excavations at Sai, Kush, VI, p. 144 - 169, T.Save-Soderbrgh, Aegypten und Nubia, 1941, p. 145- 146.

(١٥) سدنجنا:

سدنجنا (صادنقة): تقع على مبعدة ٢٠ كيلا شمالي صولب، ١٠٩ كيلا شمالي الجندل الثالث، ٢٤٥ كيلا جنوبي وادي حلفاء، وقد شيد فيها «أمنحيب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) لزوجه الملكة «تي» أجمل معابد السودان، وما تزال بقاياها - رغم تدهورها - تثير الإنتباه، ولا بد أنه كان عند بناءه بضارع معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق الموصل من النيل إلى المعبد تحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدين يعتبران من الكنوز الفنية في المتحف البريطاني، وقد عثر عليها في «يرقل» حيث نقلها ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

(١٦) سرس:

تقع سرس (Saras) شمالي سمعة وقمة، وبها حصن كان يسمى «قامع البلاد» ويعرف الآن باسم «شالفاك» (Shelfak) ويشبه حصن «أورو - نارتى» في الشكل، وإن كان أصغر منه حجما، هذا ويحيط بالمدينة سور يتكون من جدارين، تعلوهما أبراج، وجدار طويل يمتد إلى مسافة بعيدة نحو الشمال الشرقي، وقد كانت واجهة هذا الجدار الطويل المواجهة للصحراء هي الأكثر تحصينا - كما هو الحال في حصن «أورو - نارتى» - ويمتد من الشمال والجنوب جداران آخران صغيران، أما البوابة العظمى فتقع في الواجهة الغربية^(١).

(١٧) سره:

وتقع «سره» - أوسيرا - (نخ نخت القديمة) - على مبعدة ١٥ كيلا شمالي وادي حلفاء.

وكان «جحتوتى - حتب» - ويحمل لقب «با أتيس» حاكم «نحتوت - سيرة» على أيام الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م)، وكان والده أيضا حاكما للمنطقة، مما يدل على أن هذا المنصب كان وراثيا، هذا فضلا عن أن كلا من الأب والابن إنما يحمل إسماء محليا، بينما حملت الزوجة وأخو الأمير إسمين

(١) والتر إمري. المرجع السابق ص ١٥٢، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٤٠٤

مصريين، الأمر الذى يحمل إشارة ضمنية إلى سرعة الأخذ بأسباب الحضارة المصرية المتقدمة، والتي أصبحت طابع العصر وقت ذاك.

هذا وقد عثر على مقبرة «جحتوتى - حتب»، على مبعده كيلو ونصف شرقى النيل فى قرية «دييرة» - على مبعده ٢٠ كيلا شمالى وادى حلفا - منحوتة فى تل من الحجر الجيرى، وقد تم تخطيطها وزخرفتها بطريقة مصرية تماما^(١)، وتصور مناظرها الأمير «جحتوتى - حتب»، وهو يتفقد العمل فى مزرعته، أو يتلقى فروض الطاعة من أقنانه على الطريقة المصرية أو يمارس القنص بالقوس والسهم فى مركبة يجرها حصان، أو هو يستمتع بمأدبة بين ضيوفه، ولم لم يكن قد نقش اسمه النوبى «بأتيس»، بالإضافة إلى اسمه المصرى «جحتوتى - حتب»، لاستحالة تمييزه عن أى أمير مصرى من نبلاء الدولة الحديثة - كما أشرنا من قبل - هذا وتوجد على باب المقبرة نقوش تمثل الإله «حور» وربما المعبودة «حاتحور» سيدة فرس و«أنوبيس» إله مدينة الموتى، ذو رأس «ابن آوى»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مشاركة الأمراء النوبيين فى إدارة بلادهم على أيام الدولة الحديثة، إنما قد ساعد على استمرار ازدهار بيوتات الإمارة فى كثير من مناطق شمالى السودان، تلك الإمارة التى وصلت فعلا إلى درجة من التقدم الحضارى منذ نهاية الدولة الوسطى، وأخذت تنقل عن الحضارة المصرية طوال أيام الدولة الحديثة، لتعد نفسها لدور قيادى فى حياة هذا الوادى، تنقذ فيه الوادى كله من خطر الإنهيار الحضارى، فضلا عن خطر الغزو الذى قدم من الغرب ثم من الشرق.

(1) T.Save-Soderbergh, The Paintings in The Tomb of Djehutyhetep at Debeira, Kush, 8, 1960, p. 25 - 44.

(٢) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٨٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٧ - ٢٧٩، وكذا

H.Wild, in Kush, 7, 1959 p. 76F.

T.Save - Soderbergy, op,cit, p. 30.

H.T.Thabit, Tomb of Duehuty- Hetep (Tehuti - Hetep) Prince of Semna, Kush, 5, 1957, p.81 - 86.

JEA, 39, 1953, p. 42.

هذا وتشير أسماء حكام النوبة (نواب الملك فى كوش) إلى أنها مصرية الجرس، ومن ثم فهم مصريون، غير أن هذا لا يمنع من القول بأن منهم من كانوا من أبناء النوبة، من أولئك الذين استطاعوا - بمهارتهم وصدق ولائهم - أن يتبوأوا هذا المنصب الخطير^(٣).

بقيت الإشارة إلى أن تحوتمس الثالث قد عبد فى سره، بصفته «معبود سره» (نخ نخت).

وهناك فى «سره» معبد لرعمسيس الثانى أقيم لصورته الحية فى بلاد النوبة، وأطلق عليه «وسر ماعت رع، سام فى قوته»، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان معبودا فى هذا المعبد.

(١٨) سمنة:

سمنة: وتقع على مبعده ٧٠ كيلا جنوبى وادى حلفاء، ٢٠ كيلا جنوب حصن «أورو - نارتى»، وفيها حصن يدعى «نخ كاو رع - الميجل - قوى» على الضفة الغربية للنيل، والحصن يقف مهيمنا على النيل، مع الحصن التوأم «قحة» (كحة) على الشاطئ الشرقى، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل من الصخر القوى فى أضيق منطقة للجندل الثانى، والحصن بدىء فى بنائه فى عهد الملك «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) وأتمه «سنوسرت الثالث»، كما ينسب إلى «أمنمحات الأول» بناء حصن فى سمنة أيضا، كما بنى «سنوسرت الثالث» معبدا من الطين فى سمنة، وهو الذى أعاد تشييده «تحوتمس الثالث» بالحجر للإله النوبى «ديدون» و«خننوم» والملك المؤله «سنوسرت الثالث»، وهو أكثر المعابد القائمة وحدها صموداً أمام السلى منذ ما قبل البطالمة فى وادى النيل بأسره.

وتنالك نقش فى سمنة من العام الثامن من حكم «سنوسرت الثالث» يتحدث عن الإحصاءات المشددة التى اتخذت لمنع تسرب التوبييز نحو الشمال، وقد جاء فيه (المجد الجنوبى) الذى أقيم فى العام الثامن من حكم ملك مصر العليا والمسماى «نخو كاو رع»، سنوسرت (الثالث)، الذى يعطى الحياة أبدا، لمنع أى

(١) محمد إبراهيم بذكر المرحع السابق ص ٨٧.

«نوبى» من المرور شمالا - برا أو بقارب - وكذا قطعان ماشية النوبيين، ماعدا أولئك الذين يأتون للتجارة فى «ايكن» - على مبعده ٤٠ كيلا شمالى حصن سمعة - أو لعمل مشروع يتفق عليه فسوف يقدم لهم كل شىء طيب، على ألا يسمح لأية سفينة بأن تعبر «سمعة» (حج) نحو الشمال».

ولعل من الجدير بالإشارة الى انتشار عبادة الملوك فى النوبة (السودان) - كما وجدت فى مصر على استيحاء، ربما لأسباب سياسية، على أية حال، فلقد بدأت منذ أيام «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) حيث عبد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م) بصفته الإله الحامى للنوبة، وربما لم يكن تخوتمس الثالث مبتدعا، فى تأليهه «سنوسرت الثالث»، وإنما كان متبعا، فلقد عثر على طوابع أختام فى «أورو-نارتى» - على مبعده ٢٠ كيلا شمالى سمعة، ٥٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - باسم الملك «سنوسرت الثالث»، ترجع إلى ما بعد الأسرة الثانية عشرة، ومن ثم فقد ذهب «جورج رايزنر» إلى أن «تخوتمس الثالث» لم يعمل أكثر من إحياء الماضى القديم، الأمر الذى قد يشير إلى أن «سمعة» و «أورو-نارتى» إنما كانتا من أماكن عبادة الملك المؤله «سنوسرت الثالث»^(١).

وعلى أية حال، فلقد عبد سنوسرت الثالث فى عمدا والليسية وجبل الشمس وبوهن وجبل دوشا - أى من عمدا وحتى دوشا (Dosha).

هذا وقد عبد «تخوتمس الثالث» بصفة معبود «سرة» (نخ نخت)، هذا وقد خطى «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) خطوة أخرى، فهو لم يبن معابد ضخمة فى «سدنجا» (صدنقا) وصولب فحسب، ولكن «الصورة الحية» له، إنما كانت تؤدى لها العبادة فى صولب، كما كانت تؤدى لزوج «تى» فى «سدنجا»، وقد وصف فى صولب بأنه «سيد أرض القوس» فى قلعة «خع أم

(1) T.Save - Soderbergh, Agypten und Nubia, Lund, 1941, p. 203

وكذا A.J.Arkell, A History of The Sudan, London, 1955, p. 105.

ماعت» ، الأمر الذى يشير إلى أنه لم ينظر إليه كمجرد إله محلى ، ولكنه الإله
الحامى لكل النوبة» ، كما عبد «توت عنخ آمون» فى «فرس» .

وكان «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) المعبود الرئيسى فى
«عكشة» - فيما بين فرس ووادى حلفا - وهناك فى «سرة» معبد لرعمسيس
الثانى أقيم لصورته الحية فى بلاد النوبة ، وأطلق عليه «وسر ماعت رع ، سام فى
قوته» ، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان معبودا فى هذا المعبد .

هذا وقد عبد رعمسيس الثانى كذلك فى معبد جرف حسين ، كواحد من
آلهة المعبد (بتاح وسخمت ونفرتم - ثالث منف) ، كما عبد فى معبد وادى
السبوع - مع آمون وحر أختى - وفى معبد أبو سمبل الكبير ، أقام الفرعون
تماثيل أربعة - لأمون وبتاح ورعمسيس الثانى المؤله ولرع حر أختى - وقصد من
ذلك أن يكون على قدم المساواة مع آلهة مصر العظام ، وأن يؤدى له مايؤدى لها
من شعائر ، هذا فضلا عن أنه وإنما أراد فى معبد أبو سمبل - وكذا فى معبدى
السبوع وجرف حسين - أن يأخذ مكان «خونسو» بن «أمدن» فى ثالث (أمون
وموت وخونسو) (٢) .

هذا ويسمى حصن سمته «خع - كار - رع - المسجل قوى» على الضفة
الغربية للنيل ، وتقف قلعة سمحة أمرة على النيل ، مع الحصن التوأم (قمة -
Kumina) على الشاطئ الشرقى ، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل
من الصخر القوى ، فى أنسيق منطقة للجندل الثانى .

(٢) محمد بيومى مهران عصر ٢٧٩/٣ - ٢٨٢ ، وكذا

T.Save- Soderbergh, op.cit, p. 196 - 205

وكذا W B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p. 194 - 202

H.T.Thabit, Kush, 5, 1975, p. 81 - 86.

وكذا

A J.Arkell, op.cit, p. 106.

وكذا

هذا ويدل اسم الحصن على أن بناءه إنما تم في عصر الملك «نخع كاو رع» (سنوسرت الثالث)، غير أن التنقيبات إنما دلت على أن النصف الشرقي للبناء قد شيد في عصر سابق، ربما في عصر «سنوسرت الأول». (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م.) هذا وقد بنى حصن سمنا على قمة صخرية على شكل حرف L الأفريقية، على حافة النهر، ومن ثم فتحيطه غير مستقيم، وقد بنى أسوار الخارجى الكبير من اللبن، وأساسه من الحجر، ويحيط به من الجوانب الشمالية والغربية خندق واسع جاف، وأما الجدران فسمكها فيما بين ٦، ٨ مترا، ويتخللها بين مسافة وأخرى أبراج عالية ضخمة، ويمكن الوصول إلى المدينة المزدحمة داخل الأسوار عن طريق بوابتين محصنتين من الشمال والجنوب، وتتصل هاتان البوابتان ببعضهما عن طريق يشق المدينة^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه كان فى كل قلعة معبد، ربما كان بنى فى الغالب من الطوب اللبن Mud- Brick، كان يستبدل فى الدولة الحديثة بمعبد صغير يبنى بالحجر الرملى^(٢)، وإذا أخذنا مثالا على ذلك من «سمنة» لرأينا «سنوسرت الثالث» يبنى بها معبدا من الطوب اللبن، وهو المعبد الذى أعاد تشييده «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م.) وبناه بالحجر، وكرسه للإله التوبى «ديدون - خنوم» وللملك المؤله «سنوسرت الثالث»^(٣).

(١٨) سيسبى:

تقع سيسبى جنوب صولب (على مبعده ٢٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا)، وقد أنشأها أمنتحتب الرابع (إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٠ ق.م) - فى مقابل بلدة

(١) والتر امري: المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٤٩، محمد يرمى مهران: مصر ٤٠٤/٢، وكذا

D.Dunham, Semna - Kumma, Boston, 1960

G.A.Reisner, SNR, 12, 1929, p. 143F.

G.Reisner, The Eyprian Forts form Helfa to Semna, Kush, 8, 1960.

(2) A.J.Arkell, op.cit, p. 64.

A.J.Arkell, op.cit, p. 88.

(٣) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٠ وكذا
R.A.Caminos, Surveying Semna Gharbi, Kush, 12, 1964, p. 85.

دلقر (دليجو) - في خلال سواته الأولى، وقبل أن يغير اسمه إلى إخناتون، شيد مجموعة معابد، تتكون من ثلاثة، وتقوم على أساس مشترك، كونت نواة مدينة صغيرة مسورة، تختوى على مزار ديني للإله الجديد «أتون».

وهناك ما يشير إلى أن كهان أمون - بعد فشل دعوة إخناتون - قد عاد إليهم سلطانهم القديم في مصر، ومن ثم فقد قاموا بتحطيم كل معابد أتون ولم يبق منها إلا «معبد سيسى» في السودان، فقد اكتفوا بتثريه نقوشه.

وعلى أية حال، فلقد كشف عن آثار «سيسى» كل من «بلاكمان» و«فرمان» في عام ١٩٣٧م، وقد نبين أنها مدينة أنشأها إخناتون لتكون منطلقاً للتبشير بفقيدة التوحيد التي تزعمها^(١).

(٢٠) صنم:

تقع «صنم» على الشاطئ الغربى للنيل، على مبعده ١٢ كيلا من طرفى «زوما» و«بلال» هذا وقد أقام «طهراقا» (٦٨٩ - ٦٦٤) فى «صنم» معبداً ضخماً للمعبود «أمون - رع» (ثورناستى)، كشف عنه «جريفث» (١٨٦٢ - ١٩٣٤م) فى حفائره هناك لحساب «متحف الأشمولين بأكسفورد»، وهو المعبد الوحيد للملوك نباتا فى صنم^(٢).

(٢١) صولب:

تقع صولب على الضفة الغربية للنيل، وعلى مبعده ٢٢٠ كيلا جنوب وادى

(١) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٧٦، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٠، وكذا:

W.B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p. 95

H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Sesebi and Amarah West, Anglo - Egyptian Sudan, 1937 - 1938, JEA, 21, 1938, p. 151 - 156

B.G.Trigger, op.cit, p. 126 - 127.

A.J.Arkell, op.cit, p. 92 - 93.

(٢) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤، وكذا
F.L.Griffith, LAAA, IX, p. 74 - 76, PM, 7, p. 198F.

حلفا، ٢٠ كيلا جنوبى سدنجا، وقد بنى «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) معبدا فى صولب، يعد أفخم معابد النوبة، وقد كرمه لنفسه ولصورته الحية، ليعبد هناك بجانب الإله آمون رع، وذلك حوالى عام ١٤٠٠ ق.م، من الحجر الرملى، وكان عند بنائه يضارع معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدين، يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى فى لندن، وقد نقلت هذه التماثيل إلى جبل البرقل - ربما على أيام الملك بعنخى من الأسرة الخامسة والعشرين.

وفى الواقع فإن إقليم النوبة إنما يشهد - فى حقيقة الأمر - بقوة ووضوح على عظمه الفرعون «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)، فهو لم يبن هناك معابد ضخمة فى «سدنجا» - على مبعده ١٠٩ كيلا شمالى الجندل الثالث، ٢٠٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، و«صولب» - على مبعده ٢٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٢٠ كيلا جنوبى سدنجا (صادقة) - فحسب، ولكن «الصورة الحية» للفرعون إنما كانت تؤدى لها العبادة فى «صولب»، كما كانت تؤدى لزوجه «تى» فى سدنجا، التى جعل منها الإلهة الراعية للنوبة.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» فى «صولب» على الضفة الغربية للنيل، أجمل معبد فى السودان وقد بناه بالحجر الرملى، على أساسات غير متقنة. ومع ذلك فما زالت بقاياه مثيرة للإتباه، رغم حالته المتهدمة، ولا بد أنه كان عند بنائه يضارع معابد الأقصر العظيمة، ولا عجب فالتصميم لنفس المهندس، وقد كان الطريق الموصل إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدان يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى، وقد عثر على هذه التماثيل فى برقل (بركل) حيث نقلت على أيام الأسرة الخامسة والعشرين (٧٥٠ - ٦٥٦ ق.م).

هذا وقد كرس «أمنحتب الثالث» معبده فى «صولب» - أفخم معابد النوبة قاطبة - كرمه لنفسه ونسورته الحية، ليعبد هناك، بجانب الإله «آمون رع»، بل

إن الرجل إنما رفع زوجه الملكة «تى» إلى مرتبة التقديس حيث شيد لها معبد «سدنجا» كذلك، غير أن الفرعون لم يعبد هناك فيما يرى البعض، كما كان يأمل، وأن تعبد بعض الموظفين لتمثاله على أيام حياته.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» معبده في «صولب» (حوالي عام ١٤٠٠ ق.م) من الحجر الرملي، وكان يتقدمه طريق تحف به تماثيل الكباش، يؤدي من الميناء إلى ردة أمام صرح من خلفه فناء، تحيط به الصفات، ويفضي الصرح إلى بهو أساطين، يشتمل على ثمانية وأربعين أسطوانا في ستة صفوف، وكان من وراء ذلك بهو ثان، ثم بقية أجزاء المعبد، غير أنها تهدمت^(١).
(٢٢) عكاشة:

عكاشة: عشر على آثار خاصة بالمجموعة الثالثة، وكانت الحرفة الرئيسية لأصحابها رعى البقر وغيرها من الحيوان، كما تميزت بنوع خاص من الصناعات اليدوية أهمها الفخار، وخاصة القدور السوداء ذات الخطوط البيضاء المتقاطعة، فضلا عن تلك الدمى الصغيرة من الطين والتي تمثل الحيوان والإنسان، والتي

(١) محمد يومي مهران: مصر ٢٦٣/٣، والترامري: المرجع السابق ص ١٩٦ - ١٩٨، محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة ص ٢٠٤، جيمس بيكى: المرجع السابق ص ١٨١ - ١٨٢، وكذا

A.H. Gardiener, *Egypt of The Pharaohs*, p. 205.

PM, 7. p. 166-169, 169 - 172.

J.Vandier, *Manuel d'archeologie Egyptienne*, Paris, II, p. 968.

A.J.Arkell, *op.cit*, p. 91 - 92.

B.G.Trigger, *op.cit*, p. 118.

I.E.S. Edwards, *The Prudhoe Lions*, AAA, 25, 1939, Pls, I.II.

M Schiff Giorgin, *Report on The Excavations at Soleb, Kush*, 6, 1958, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10; 1962

M.S. Giorgin, *Premiere Campagne de Fouilles Sedeings*, 1963-1964, in *Kush*, 13, 1965, p. 116 - 123.

لا نجد لها مثيلا فى حضارة كرماء، هذا إلى إن القوم إنما كانوا يتحلون بأقراط مصنوعة من الصدف، كما صنعوا نوعا من الزينة على شكل محابس، إلى جانب استعمالهم لخز الزينة، وقد اتخذت مقابرهم شكلا مستديرا جعلها متشابهة فى المنظر، كما عثر على مقابر خاصة لبعض الحيوانات كالكلاب أو الكباش، مدفونة بعناية خاصة، أو مع أصحابها فى مقابرهم، مما يشير إلى نوع من التقديس لهذه الحيوانات.

(٢٣) عكشة:

تقع عكشة فيما بين وادى حلفا جنوبا، وقرى شمالا، وقد عثر على معبد يرجع إلى أيام «سينى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) ورعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م).^(١)

(٢٤) عمارة غرب:

تشير «لوحة كويان» - وكذا الحفريات - أن «سينى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) هو الذى شيد مدينة «عمارة غرب»، وأن ولده «رعمسيس الثانى» هو الذى بنى معبدها^(٢).

هذا وكانت النوبة على أيام الرعامسة (الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين) تنقسم إلى قسمين، الواحد: النوبة السفلى، وتسمى «واوات»، وتمتد من جنوب أسوان وحتى «سمنة» - على مبعده ٧٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - وكانت عاصمته «ميعام» - وهى عنيفة، على مبعده ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان -.

وأما الثانية، فهى النوبة العليا، وتسمى «كاش»، وقد حُفرت فيما بعد إلى «كوش»، وتمتد من الجندل الثانى، عند سمنة، وحتى نهاية النوبة جنوبا،

(1) B.G.Trigger, op.cit, p. 125.

A.J.Arkell, op.cit, p. 96.

(2) H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Amara West, Anglo - Egyptian Sudan, 1938-1939, JEA, 25, 1939, p. 139- 144 and 1947-1948, JEA, 34, 1948.p. 1-11.

وعاصمتها «عمارة غرب» - على مبعدة ١٨٠ كيلا جنوبى وادى حلفا-^(١).

وهناك ما يشير - على أن «سيتى الأول» (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) هو الذى شيد مدينة عمارة غرب وأن ولده «رعميس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) هو الذى بنى معبدها وكانت النوبة على أيام الرعامسة قد انقسمت إداريا إلى قسمين، النوبة السفلى، وعاصمتها «عينية» والعليا وعاصمتها «عمارة غرب»، وكانت تشرف على الطريق الصحراوى من نهري النيل إلى واحة سليمة، وقد أجريت فيها حفائر فيما بين عامى ١٩٣٩، ١٩٤٧ م.

ولعل من الجدير بالإشارة أن الأمر فى «عمارة غرب» لم يختلف عنه فى «سيسى» إذ لم يبق الكثير فى المدينة، نتيجة للعوامل الطبيعية وخاصة الرياح، ومع ذلك فقد قدمت حفائر «فرمان» عام ١٩٣٩ م فى الموقع كثيرا من النتائج^(١).

ولعل من الجدير بالإشارة أن «دونبار» - أحد موظفى الحكومة السودانية وقت ذاك، أى أثناء المسح الأثرى الثانى - إستغل وظيفته فأمضى وقتا فى النقل باليد وتصوير النصوص التى لاحصر لها والمناظر التى وجدها على الصخور على شاطئ النيل بإسهاب، ثم سجل ما اكتشفه، وهو جهد قيم، فى سجلات مصلحة الآثار المصرية، مما ظل بعد ذلك أساسا للعمل فى هذا الأمر، بل عملا ممتازا باعتباره إطار لأى أبحاث جديدة فى هذا الفرع من آثار النوبة^(٢).

(٢٥) عينية:

كشفت فى عينية (ميعام القديمة) - وتقع على مبعدة ٢٢٤ كيلا، جنوبى

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٥٩/٣، وكدا

E.Zyghary, The Countries of The Ethiopion Empire of Kash (Kush) and Egyptian Old Ethiopia in The New Kingdom, in Kush, 6, 1958, p. 11.

R.O.Faulkner, A, Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 53, 264.

(٢) روالتر امري: المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦

الجنديل الأول - عن البقايا المارية التي لا تتعدى أساسات الحصون الكبيرة، ونواة القوة المحصنة التي بناها «سنوسرت الأول»، وتشبه في شكلها وحجمها حصن «بوهن»، فهو مستطيل الشكل، وله جدران ذات أبراج، وحاجز قصير له شرفات نصف دائرية، وخندق جاف، كما في قلعة بوهن، مما يشير إلى أن العمل لنفس المهندس في القلعتين^(١).

هذا وقد كشف عن لوحة ترجع إلى العام الخمسين من حكم «تحتمس الثالث»، يظهر فيها الفرعون أمام «حور ميعام» والإلهة «ساتيس».

وفي عصر الرعامسة نرى «بنوت» أمير ميعام (عنيبة) - عاصمة النوبة السفلى وقت ذاك - قد شيد مقبرته المنقورة في الصخر، والتي تميزت بأنها مقبرة أحد كبار الموظفين، وكان من النادر جدا أن يدفن موظف مصرى كبير في النوبة، فالمقابر الصخرية البسيطة غير المنقوشة - كما في بوهن - إنما كانت لموظفين مصريين صغار، أو لنوبيين أغنياء، ذلك لأن فكرة الدفن خارج مصر كانت غير مقبولة للذين كان في وسعهم أن يدفنوا بمصر.

(٢٦) فرس:

فرس: تقع «فرس» (باخوراس Pakhoras القديمة) على مبعدة ٢١ كيلا شمالي وادي حلفاء، ٤٠ كيلا جنوبي الجنديل الثاني، وقد عثر فيها على آثار مصرية في مقابر المجموعة الأولى، وترجع إلى عهدي الملكين «جر» و«جت» من الأسرة الأولى، كما كشف عن جدارين تحمل اسم «كاموزا» وقد شيدت الملكة «حتشبسوت» معبدا في فرس كرسته للمعبودة «حاحخور»، كما بنى «تحتمس الثالث» أيضا معبدا في فرس، أقيم على أطلال معبد من الدولة الوسطى، كما تدل النقوش التي عثر عليها في «تخنوت - سر» على أن هذه المنطقة كانت مقرا لأسرة محلية حاكمة، كما بنى «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) معبدا ومستوطنة في فرس، وكانت فرس عاصمة لمقاطعة اسمها «أكين» Akin

(١) والتر امري: المرجع السابق ص ١٥٥-١٥٧.

G.Steindorff, Aniba, Cairo, 1937, p. 2F

وكذا:

A.J.Arkell, op.cit, p. 62.

وكذا

وتقابل التوبة السفلى حاليا، وقد أظهرت الحفريات بعض المباني الرسمية، كالقصر الغربى، ويرجع إلى القرن الأول الميلادى، هذا فضلا عن حصن شيد على ضفة النهر.

وقامت فى فرس مملكة «النوباديين» (Nobadae) التى أسسها الملك «سلكو» (حوالى عام ٣٥٠م)، وتمتد من أسوان إلى قرب الجندل الثالث، وعاصمتها فرس، وقد كشفت البعثة البولندية (١٩٦٢/٦١) عن عدة مبان مسيحية.

(٢٧) قمة:

تقع فى مقابل سمته - عبر النهر - على مبعدة ٧٠ كيلا جنوب وادى حلفا - ويعرف حصنها باسم «باعد الأقواس»، وتصميمه العام مربع، وهو أصغر من حصن سمته، الذى يكون وحدة دفاعية واحدة، ورغم أن تصميمه أبسط، إلا أنه من نفس العصر، وكان له مدخل واحد من الجانب الشمالى الشرقى، غير أن اختفاء هذا الجزء من الحصن، جعل شكل المدخل غير معروف لنا، على أن هناك فى الركن الشمالى الغربى بوابة نهريّة تتصل بالنهر عن طريق ممر مغطى (١).

(٢٨) كاوا:

كاوا: هى الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ٤ كيلا جنوبى دنقلة الحديثة (دنقلة العرضى)، ٣٢ كيلا جنوبى «أرقو»، وهى مدينة كبيرة قديمة، بها معابد كثيرة تشير إلى تاريخ طويل.

(١) والتر امرى: المرجع السابق ص ١٤٩، وكذا:

D.Dunham and J M A. Janssen, Second Cataract For I, Sem-
١٩٦٠, Boston, na,

وهناك في «كاوا» أسس «إخناتون» (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) مدينة «جم أتون» (وجود أتون)، والتي كانت بمثابة المركز الثالث لدعوة التوحيد - بجانب المركز الرئيسى فى مصر فى العمارة (أخيتاتون)، ومركز ثان فى غربى آسيا - ربما فى بيت المقدس أو بيت شمس - وربما كان إسم «جم أتون» نسبة إلى معبد أتون فى طيبة (الأقصر الحالية)، كما أقام «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) معبدا صغيرا فى «كاوا»، وقد عثر «حريفث» فى «كاوا» على مجموعة من النصوص تلقى مزيدا من الضوء على سياسة «طهرقا» فى إقامة المعابد وتزويدها بالموظفين والسدنة، وتقديم القرابين النفيسة، ومنح أئمن الهدايا تقريبا للآلهة.

وعلى أية حال، فمن المؤكد أن داعية التوحيد إنما أسس المركز الثانى لدعوته فى هذه المدينة فى النبوة، وليس بعيدا أن يكون الفرعون قد أنشأ تلك المستعمرة فى وقت متأخر من حكمه، إذ لم يعثر على أى بناء قبل عصر «توت عنخ آمون» الذى بنى معبدا هناك، على أن هناك من يرى أن «أمنحتب الثالث» هو الذى أسس مدينة «كاوا»، وأن ولده إخناتون سماها «جم أتون»^(١).

هذا وقد شيد «توت عنخ آمون» معبدا صغيرا فى «كاوا» إغتصبه فيما بعد «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)^(٢)، كما بنى «حوى» نائب الملك فى النبوة على أيام «توت عنخ آمون» معبدا ومستوطنة مسورة فى «فرس»^(٣).

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٦٤/٣.

وكان B.G.Trigger, op cit, p. ١٢٨ - ١٢٩ وكان A.J.Arkeil, op.cit, p.

٩٣

وكان M.F.L.Macadam, The Temples of Kawa, I, Oxford, 1949, p p XII

M.F.L. Macadam, op cit, p (2) ١٢

وكان A.J.Arkeil, op cit, p. ٩٣

وكان B.G.Trigger, op cit, p. ١٢٨ - ١٢٩

(3) F.L. Griffith, Oxford Exavations in Nubia, LAAA, 8, 1921. p. 83.

C.D.Noblecourt, op.cit, p. 191

(٢٩) كوش:

لعل من الجدير بالإشارة أنه قد ظهر فى النصوص المصرية - ولأول مرة - الاسم الجغرافى «كاش» - والذى حرف فيما بعد إلى كوش - ويعنى فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) إقليمًا إداريًا متميزًا عن «واوات» يمتد إلى الجنوب فيما وراء الجندل الثانى، بينما يقصد به فى التوراة «أثيوبيا» عامة، وذلك فى مقابل تسمية النوبة السفلى «واوات»، وتمتد فيما بين الجندل الأول والثانى^(١).

هذا وقد قامت مملكة كوش المستقلة على أيام الهكسوس (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق.م)، ولعل استقلال كوش فى تلك الفترة إنما يفسر لنا سبب انتشار العناصر المميزة لحضارة كرما فى منطقة المجموعة الثالثة فى أخريات مراحلها، مما يدل على سقوط الحواجز السياسية بين أصحاب المجموعة الثالثة فى منطقة النوبة السفلى، وبين أصحاب حضارة كرما من حول الجندل الثالث، والتي امتدت إلى مناطق أخرى، شمالًا وجنوبًا، وذلك بعد أن انضمت الحضارتان تحت لواء أصحاب حضارة كوش^(٢).

وأما وثائق تاريخ دولة كوش، فكلها وثائق مصرية، ومن عجب أن السودان لم يمدنا بمعلومات تاريخية ذات قيمة عن تلك الفترة (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق.م)، ومن ثم فإن عمادنا الأساسى إنما هو المصادر المصرية. وأهمها:

١- لوح كارنارفون ٢- لوح الكرنك، ثم هناك فى المرتبة الثانية:

١- لوح إياح وسر ٢- لوح سويد حور^(٣).

وأما عاصمة كوش: فلقد كان رأى التقليدى أن مدينة «بوهس» إنما كانت عاصمة إمارة كوش المحلية، غير أن هناك اتجاهًا جديدًا يذهب إلى أن العاصمة إنما

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٣٩٨/٢.

(٢) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق ص ٥٩.

(٣) محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم ص ٤٣ - ٢٤٩.

كانت «كرما»، إعتماذا على أن الاسم الجغرافي «كوش» (كاش) إنما يرتبط بكرما، فضلا عن أن الرموس التي في كرما، إنما تظهر بوضوح أنها مدافن حكام رطنيين أقوياء كانت لهم علاقات تجارية ودبلوماسية مع ملوك الهكسوس في مصر، ومن ثم فإنه يبدو مرجحا أن «كرما» إنما كانت عاصمة مملكة كوش^(١).

وأما حدود مملكة كوش، فقد امتدت شمالا حتى إليفانتين، وجنوبا حتى منطقة الجندل الثاني، غير أن المعلومات التي يمكن استنتاجها من لوحة (Ha'ankhef) - والذي كان في خدمة أمير كوش - أن سلطنة ربما امتد جنوبا حتى «كرما»^(٢).

وأما عن علاقة مصر ومملكة كوش، فمن المعروف أن كوش قد انتهزت فرصة تراخي قبضة الحكام المصريين على أيام الانتقال الثاني لزيادة حجم التجارة التي كانت تعود عليها بالنفع بين وادي النيل الأعلى والأدنى، وهكذا وجدت آثار لا تخص من طين الأختام المستخدم في ختم الرسائل، وعدد من مختلف الأدوات الأخرى المستوردة من الشمال، قد عثر عليها في كرما، وفي الحصون التي لم تهجر أثناء عصر الانتقال الثاني على عكس ما كان شائعا من قبل، أو أنها هجرت في فترة متأخرة نسبيا، ولفترة لم تطل كثيرا، هذا فضلا عن أن الحاميات في عصر الدولة الوسطى كانت تستبدل على فترات منتظمة، أصبح الذين يحتلونهم في عصر الانتقال الثاني قاطنين مستديمين في النوبة، تستقر معهم أسرهم، بل ويدفنون هناك، وربما اتجهوا بالتدريج إلى الاعتراف بسيادة ملك كوش، ولما كان هؤلاء من أصل مصري، فلا بد أنهم قاموا بجهود كبيرة لنشر الثقافة المصرية في مجتمعهم

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٦٤.

وكذا A.J. ARKELL, OP. CIT, P. 72.

G. POSENER, Pour une Localisation du Pays Koush au وكذا
Moyen Empire Kush, 6, 1958, p. 39.

(2) B. Gunn, A Middle Kingdom Stela from Edfu, ASAF, 29, 1929,
P. 8 - 10.

T. Save - Soderberg, JEA, 35, 1949, p. 57 - 58

G. Posner, Kush, 6, 1958, p. 56. وانظر:

الجديد هذا^(١).

وهناك ما يشير إلى أن الصلات بين كوش والهكسوس كانت على أوثقها - كما في رسالة ملك الهكسوس (أبوفيس) إلى أمير كوش^(٢) - وقد وجد على طول الممر النوبي جدارين وأختام تحمل أسماء الملوك الأسويين الذين كانوا يحكمون مصر وقت ذاك، وهي في «كرما» نفسها من الكثرة حتى ظن البعض لفترة ما، أن النوبة قد اجتاحتها الهكسوس، بعد أن أخضعوا مصر العليا، غير أننا نعرف الآن أنه كان لأفارقة النيل الأوسط صلات وثيقة جدا مع أسويين الدلتا، لدرجة أن ملوك الأسرة السابعة عشر الطيبية عندما بدأوا حرب التحرير، واسترداد مصر الوسطى والسفلى، إجمه ملك الهكسوس بصورة طبيعية بطلب العون من حليفه الأفريقي - أمير كوش - والقيام بعمل عسكري مشترك ضد عدوهما المشترك - ملك مصر-.

على أن علاقة الكوشيين بحكام طيبة الوطنيين إنما كان يشوبها العداء، ويميزها التكامل في نفس الوقت، فالطيبيون الذين كانوا في خدمة ملك كوش إنما حملوا معهم خدماتهم الفنية إلى النوبة الوسطى، كما أن وجود الكثير من المصريين المراطيين في قلاع النوبة السفلى، قد كفل بقاء كوش على اتصال بحكام الهكسوس في الشمال، هذا فضلا عن أن أواخر ملوك الأسرة السابعة عشرة الطيبية قد استخدموا المرتزقة النجاي (المدجاو) في جيوشهم سواء في كفاحهم لتوحيد مصر العليا، أو في حروبهم ضد الهكسوس، وكان هؤلاء المرتزقة الذين جاءوا من الصحراء النوبية ينتمون، عرقيا وثقافيا، إلى النحسيرو المستقرين على ضفاف النهر.

(١) شحاته آدم، جان فركوتير: المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٩٢ - ١٩٣

A.H.Gardiner, op.cit, p. 167 - 168

وكدا:

L Habachi, ASAE. 53, 1955, p. 201 - 202.

وكدا:

وهكذا يبدو واضحاً أن النوبيين قد وجدوا في مصر، كما وجد المصريون في النوبة، طوال عصر الانتقال الثاني، الأمر الذي ساعد على نشاط العلاقات التجارية والثقافية، وبالتدريج تحول الممر النوبي إلى بوتقة امتزجت فيها العناصر الأفريقية وعناصر البحر المتوسط، وانتجت ثقافة مختلطة، غير أن هذه الصلات القوية إنما قد أسفرت عن نتائج خطيرة بالنسبة لتطور مملكة كوش الأولى في كرماء، ذلك أن ملوك التحامسة في الأسرة الثامنة عشرة المصرية، إنما قد أدركوا بعد طرد الهكسوس أن وجود مملكة قوية على حدود مصر الجنوبية أمر يمكن أن يمثل خطراً على مصر نفسها، وقد رأوا من قبل أن تحالفا عسكرياً من الهكسوس والكوشيين، كان من الممكن أن يقضى على آمال طيبة في طرد الهكسوس من مصر، خاصة وأن ذلك التحالف إنما كان إبان حرب التحرير نفسها، هذا فضلاً عن أن الخطر الآسيوي كان ما يزال محتملاً، حتى بعد تقيفقر الهكسوس إلى فلسطين، ومن ثم فقد لجأت مصر إلى سياسة التدخل العسكري المنظم في الشرق الأدنى القديم^(١).

هذا وتسجل نقوش القائد الكاين «أحمس بن إيانا» بمقبرته في الكاب ثلاث حملات على النوبة في عهد «أحمس الأول»، استطاع الفرعون بعدها إستعادة سيادة مصر هناك.

وهكذا رأينا أحمس يمد نفوذه إلى الجنوب عن برهن بأكثر من ١٦٠ كيلاً، حيث وجدت آثار تحمل اسمه واسم زوجته^(٢).

(٣٠) كوبان:

تقع كوبان وحصنها على الضفة الشرقية للنيل، على مبعده ١٠٨ كيلاً، جنوبي أسوان، ويعرف حصن كوبان باسم «حصن باكي»، وقد كشف عنه

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٠٤ - ٢٠٨.

T.G.H.James, CAH, II, Canlridge, 1965, p. 11- 13.

وكذا

J.A.Arkel, JEA, 36, 1950. p. 27 - 30.

T.Save- Soderlierg, JEA, 35, 1949, p. 50 - 58.

«إمرى» فى عام ١٩٣٠، وهو يشبه حصن بوهن إلى حد بعيد، وقد غرق تحت مياه خزان أسوان.

هذا وقد عثر على حصن من نفس الطراز على الضفة الغربية للنيل عند «إكور» (IKKur) على مبعدة بضعة أميال إلى الشمال من كوبان، وهو يكوّن مع حصن كوبان وحدة واحدة، ومن ثم فقد حمل نفس الاسم «باكى» على أن الحصنين لم يكونا معسكرين، وإنما كانا محطة تجارية، ومقراً للبعثات إلى مناجم الذهب فى وادى العلاقى، إلى جانب صد أى هجوم لأية قوة تأخذ طريق وادى العلاقى، عبر الصحراء، من «أبو حمد» بغية أن تتحاشى حصون الحدود الجنوبية عبر النهر.

هذا ويذهب «إمرى» إلى أن «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) هو الذى بنى حصون «أكور» و«كوبان» و«بوهن» و«سمنة» لحماية الطرق التجارية^(١).

(٣١) كرجوس:

تقع «كرجوس» على مبعدة ٨٠ كيلا جنوبى مدينة «أبو حمد» الحالية - عند نهاية الطريق الصحراوى الذى يبدأ عند «كورسكو» أو «كوبان» - على مبعدة ١٠٨ جنوبى أسوان - فى النوبة السفلى، ويختصر المسافة بتجنب المرور فى منطقة الجنادل - من الثانى وحتى الرابع - وقد صور الفرعون تحوتمس الأول فى نقش كرجوس هذا، على هيئة أسد أمام الإله «أمون راع»، ومن ثم فأكبر الظن أن قلعة كرجوس إنما قد بنيت فى عهده، كما أقام حولها أسوارا طولها ٧٠٠ مترا^(٢).

(١) أنظر: A.J.Arkell, op.cit, p. 62.

وكذا: W.B. Emery, Nubian Treasure, p. 20.

C.M.Firth, The Archaeological Survey of Nubia Report for 1908 - 1909, Cairo, 1912, p. 22 F.

وكذا: T.Save - Sodenbergh, op.cit, p. 1-3.

(٢) محمد إبراهيم بكر المرحع السابق ص ٦٦، محمد يرمى مهران: المراجع السابق ص ٢٦٠، وكذا:

A.J.Arkell, op cit, p. 36 - 39

(٣٢) كرما:

لعل من الجدير بالإشارة أنه رغم أن هناك من يذهب إلى أن المركز التجارى فى «كرما» إنما قد أنشئ فى عهد الدولة القديمة، فمن المرجح أنه أنشئ فى عهد «أمنمحات الأول» (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) حتى أطلقت النصوص على أسوار «أسوار أمنمحاب المبجل»، وهى حصن كبير مبنى بالطوب على هيئة حوش كبير، ذى جدران ضخمة عالية، تستطيع صد أية غارة من الصحراء وتجعل جاليتهما التجارية تعيش فى أمن وأمان، وقد كان لهذا المركز من الأهمية مما جعل فرعون يولى عليه أحد كبار موظفيه، ومن أشهرهم «حعبى زفاى»، وهو أحد أمراء أسيوط.

وأما «حضارة كرما» - جنوبى الجندل الثالث بمسافة قصيرة، وعلى مبعدة ٢٤٠ كيلا - فى خط مستقيم - إلى الجنوب من «سمنة»، حيث عشر على مخلفاتها - فهى تشبه حضارة المجموعات - الأولى والثانية والثالثة - فى أنها لم تترك آثاراً مكتوبة، كعدم معرفة أهلها بالكتابة، ومن ثم فقد انصبت كل مجهودات العلماء على الحفائر، وما تكشفه من مخلفات.

هذا وقد انتشرت حضارة كرما فى منطقة دنقلة العرضى (دنقلة الحديثة) بل من الجندل الثانى فى الشمال، حيث لم تكتشف مواقع تحتوى على نماذج من حضارة كرما فى النوبة إلا فى أماكن ينتهى امتدادها شمالاً عند مرجيسة (أو مرقيسة)، مما يشير إلى أن منطقة الجندل الثانى كانت هى الحد الفاصل بين حضارة كرما وحضارة المجموعة الثالثة، وأما فى الجنوب فقد وصلت إلى جزيرة «أرقو» على مبعدة ٣٢ كيلا شمالى كاوا^(١).

B.G.Trigger, op.cit, p. 108.

A.J.Arkell, A History of The Sudan from Earliest Times to 1821, 1955, p. 84 - 85.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٤، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 59.

هذا وقد بدأت أولى مراحل حضارة كرما بنهاية الدولة القديمة، وانتهت آخر مراحلها بقيام الدولة الحديثة، وبداية تمصير النوبة، أى فى الفترة (حوالى ٢٢٨٠ - ١٥٧٥ ق. م)، وكانت سماتها المميزة أوعية فخارية رقيقة على درجة رفيعة من الصقل، لونها أحمر، وجوانها العليا سوداء، وقد شكلت على عجلة صانع الفخار، هذا فضلاً عن أوان من فخار على هيئة حيوانات، وأخرى محلاة بزخارف حيوانية، وخناجر نحاسية خاصة ومصنوعات خشبية مطعمة بالعاج والميكا فى أشكال زخرفية، وحلى مخيطة على فلانس جلدية^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه رغم أن كثيراً من الأواني الفخارية المكتشفة فى كرما، إنما تشير، دونما ريب، إلى تراث محلى، غير أن تأثير التقنيات الصناعية، والتصميمات المصرية، إنما هو جد واضح^(٢)، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن كثير من هذه المخلوقات إنما هو من إنتاج صناع مصريين، وإن كنا نستطيع القول بأنها ربما صنعت استجابة للذوق المحلى بأيدى صناع محليين تدرّبوا على التقنيات المصرية^(٣).

وعلى أية حال، فلقد وجدت أيضاً فى مخلفات القوم صناعات خشبية مطعمة بالميكا (المايكا) أو العاج، فى هيئة صور لحيوانات وطيور، هذا فضلاً عن مساند للرأس، تتميز عن مثيلاتها المصرية بأن قاعدتها طويلة نسبياً، على عكس المساند المصرية ذات القاعدة القصيرة، وذلك لأنها إنما كانت تستعمل داخل نوابيت الدفن، التى لا يسمح اتساع عرضها بقواعد طويلة لمساند الرأس^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السمة المميزة لثقافة كرما هى شعائر الدفن حيث تتسم المذبرة برمس ترابى مقبب شحيط به حلقة من الحجارة السوداء، مشور عليها حصى أبفر، هذا ويتكون أحد الرموس الكبيرة فى مقبرة كرما (ك٣)

(١) نجيم الدين محمد شريف المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(2) B. G. Trigger, History and Settlement in Lower Nubia, New Haven, 1965, p. 103.

(3) A. J. Arkell, op. cit., p. 74.

(٤) محمد إبراهيم بكر المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٧.

من جدران دائرية من الآجر، قصرها ٩٠ متراً، ولم يستعد ارتفاعها ٣ متراً، وهناك جدران متوازيان يمتدان عبر القبة من الشرق إلى الغرب، مكوّنان ممراً وسطاً يشطر القبر شطرين، بينما تمتد إلى الخارج جدران أخرى متوازية، ومتعامدة على جانبي هذا الممر، متجهة إلى محيط الدائرة شمالاً وجنوباً، وفي منتصف الجدار الجنوبي للممر، باب يفضي إلى بهو يؤدي إلى غرفة الدفن الرئيسية في الجانب الشرقي منه، وكان جثمان صاحب الرمس يسجى على سرير على الجانب الأيمن، توضع فوقه وسادة رأس خشبية، ومروحة من ريش النعام ونعلان، كما يوضع عدد كبير من الأواني الفخارية بجانب السرير، وحول جدران الغرفة، وقد عثر في منطقة الدفن في كرما على مقاصير مبنية من الطوب، وتحمل صوراً مرسومة، وكانت بمثابة أماكن لإقامة الطقوس الخاصة بجميع مقابر الجبانة^(١).

هذا وتمثل المقابر الصغيرة في حضارة كرمة، تلك المقبرة التي عثر فيها على «خنجر» (بمتحف الخرطوم رقم ١٢٢٨)^(٢)، وقد دفن صاحبها على سرير (عنقريب) على جانبه الأيمن، والرأس إلى الشرق، واليد اليمنى أسفل الرأس، وأما الخنجر فقد وجد ملقى بين الساقين مما يشير إلى أنه كان في الأصل متصلاً بحزام الوسط، كما عثر في المقبرة على بعض القدور الفخارية، ومروحة من ريش النعام، وبعض حبات الخرز، فضلاً عن زوجين من القرون كل منهما من قرني الحيوان المتصلين بعظام الجبهة وعادة ما كانت تلون بالجير، ويرسم فوقها بعض الزخارف البسيطة، والتي ربما أعدت لفرض دينوى، هذا وقد دفن مع الميت شخصان ضحى بهما، ومعهما كبشان، وأما الخنجر فقد صنع من البرونز (النحاس والقصدير) بطريقة الضرب على المعدن الساخن، وله مقبض من العاج يثبت

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٦، محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧، وكدا:

J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, VI, 1958, p. 144 - 169.

(2) J. Vercoutter, A Daggar from Kerma, Kush, VIII, 1960, p. 265, (X- Group)

بالسلاح بأربعة مسامير، تدخل في ثقب السلاح والمقبض معا^(١).

ولعل مما يجدر الإشارة إليه أن طريقة الدفن في حضارة كرما، وما عثر عليه من صناعات يدوية متقنة، إنما تشير إلى أن حضارة كرما، إنما قد امتازت عن حضارة المجموعة النائية في الشمال، بنظام مركزي قوى، ونظام داخلي متقدم، فقد كان يتزعم أهلها أمير، تحت إمرته جهاز إداري، غير أن عدم وجود وثائق مكتوبة، - بسبب عدم معرفة القوم للكتابة - إنما كان سبباً في عدم تحديد أسماء وأنساب أولئك الحكام أصحاب تلك المقابر الضخمة في كرما، فضلاً عن معرفة الكثير عن طريقة تفكيرهم ومستوى حضارة قومهم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما قد مارسوا عادة «التضحية البشرية»، وإن اختلف عدد المضحى بهم من الخدم والأتباع والحيوانات الأليفة من شخص لآخر، ففي المقابر الكبيرة بلغ عدد من دفنوا مع سيدهم عنوة، ما بين ٢٠٠، ٣٠٠ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال، وأما المقابر الأصغر شأنًا، فقد تفاوت عدد الضحايا فيما بين ١، ١٢ شخصاً، وعلى أية حال، فلقد كان الضحايا يتركون في أرضية غرفة الدفن الرئيسية، وفي الدهليز الكبير داخل المقبرة، في غير نظام، وربما كانوا يعطون مخدراً قوياً، ثم يزرع بهم عنوة، ويغلق عليهم القبر^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما هم الأصل في قيام الحضارات المستقلة في شمال السودان في الفترة فيما بين سقوط الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة في مصر، أي أنه ليس بمستبعد أن أهل سهل كرما والمنطقة المحيطة به، هم أصحاب «دولة كوش» التي عاصرت حكم الهكسوس في شمال مصر^(٣)، والتي حاول «أبو فيس» ملك الهكسوس أن يعقد معهم حلفاً ضد أمراء طيبة^(٤).

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) انظر عن الهكسوس (محمد بيومي مهران. حركات التحرير في مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠ - ٢٢٣).

(٤) محمد بيومي مهران المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣، وكذا.

L. Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 201 - 202.

وعلى أية حال، فهناك مبنيان من الطين فى الدفوفة، يتميان إلى حضارة كرماء، أحدهما يمثل قصر أمير كرماء، وهو مبنى ضخام من اللبن، ونشير نتائج الحفريات إلى أن المدينة فى إقليم كرماء، كانت أشبه ما تكون بالمدينة المصرية، فقد كانت هناك مثلاً صناعة محلية لأدوات مصرية، كانت تجد سوقاً رائجة فى الجنوب، وقد أثرت الثقافة المصرية فى هذا الإقليم، كما تأثر الوافدون من الشمال بثقافة وعادات الأهلىن، وأن هذا التأثير امتد إلى المعتقدات الدينية ومراسيم الدفن، كما حدث فى دفن «حمى زفاى»^(١).

وأما أصل أصحاب حضارة كرماء، فهو موضع خلاف بين الباحثىن، فلقد ذهب «رايزنر» إلى أنهم مجموعة بشرية استوطنت البلاد منذ أيام الدولة القديمة، وربما قبل ذلك، وأنهم - مثل أصحاب المجموعة الثالثة - لم يطرأ عليهم إلا مسحة قليلة من العنصر الزنجى^(٢)، ويذهب «جورج شتايندورف» (١٨٦١ - ١٩٥١ م) إلى أن أصحاب حضارة كرماء من طائفة شعوب شمال إفريقيا، شأنهم فى ذلك شأن اللبىين، وأما أصحاب المجموعة الثالثة فهم وادون من منطقة متابع النيل الأزرق وعطبرة، أو من منطقة كردفان^(٣)، وأما «هرمان يونكر» فالرأى عنده أن كليهما - أصحاب حضارة كرماء والمجموعة الثالثة - من العنصر الحامى، اختلط بهما الزوج إلى حد ما، ثم يؤكد أنهما قبيلتان لشعب واحد^(٤)، ويذهب «أركل» إلى أن أصحاب المجموعة الثالثة لىيون جنوبيون^(٥).

=/=

وكذا:

A. H. Gardiner, op. cit., p. 167 - 168.

T. Save-Soderbergh, The Nuobian Kingdom of The Socond Intermediate Period, Kush, 4, 1956, 54 - 61.

G. Reisner, Excavatiopns at Kerma, I, 1926, p. 30.

(١) أنظر:

(2) Ibid., V, p. 555 F.

(3) G. Steindorff, Anilia, I, 1935, p. 13.

(4) H. Junker, Kubanieh Nord, p. IV, V.

(5) A. J. Arkell, op. cit., p. 46 F.

والرأى عند الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر، أن الدراسة المستفيضة لخلفات الحضارتين إنما توضح الصلة الحضارية بينهما، وخاصة فى طريقة الدفن على سرير، وعادة التضحية بدفن الحيوان مع صاحبه، وربما فى شكل القبر المستدير، فضلاً عن بعض الصناعات المتشابهة، وأما ما يظهر من اختلاف كبير فى حجم المقابر ربما يعزى إلى النظام المركزى الذى تمتعت به حضارة كرما، على عكس حضارة المجموعة الثالثة، وليس بغريب أن أقصى الحدود التى بلغها المصريون على أيام الدولة الوسطى إنما تنتهى عند الحدود التى تفصل جغرافياً بين هاتين الحضارتين، أى عند الجندل الثانى^(١).

(٣٣) مرجسية (مرقيسة):

وتقع على الضفة الغربية للنيل، عند الجندل الثانى، وعلى مبعدة ٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٣ كيلا جنوب «مايانارتى»، وفيها قلعة من الدولة الوسطى تدعى «التي تكيج الصحراوات» وتشبه قلعة «بوهن» فى الشكل والحجم، وهى مستطيلة ولها جدار من ناحية النهر، ويحميها من الناحيتين الشمالية الغربية والجنوبية جداران يليهما خندق جاف، وقد عثر فيها على بقايا معبد من عهد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق. م)، أضاف إليه «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق. م).

(٣٤) نورى :

تقع على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبى الشلال الثالث، ٨ كيلا جنوبى جبل البرقل، على الشاطئ الأيسر للنيل، وقد أقام بها «طهرقا» مقبرته، وهى أعظم بناء جنازى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» - على مبعدة ١٢ كيلا من كريمة - وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى نورى - على مبعدة ٢,٥ كيلا من النيل - هذا وقد بقيت الصبغة المصرية غالبية على الملوك الأوائل الذين دفنوا فى جبانة

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١، وكنا:

M. Bakr, The Relationship between The C-Group, Kerma, Napatan and Meroitic Cultures, Kush, XIII, 1965, p. 261 - 264.

نورى، حيث دفنوا فى مقابر تعلوها أهرامات ذات طراز مصرى، كذلك التى عرفها كبار الشخصيات فى أخريات الدولة الحديثة، وليس كالأهرامات الملكية للأسرة الرابعة، هذا وقد تميزت أهرام نورى بأبها من طراز واحد، وتميزها خواص ثلاثة هى: أولاً: الهرم الذى تتبعه مقصورة خارجية بنيت فى جهة منه، ثانياً: لكل هرم سور يحيط به وبالمقصورة، ثالثاً: كان لحجرة الدفن سلم مفتوح يتحدر من الغرب، ويؤدى إلى سلسلة حجرات، تتكون من حجرتين أو ثلاث حجرات للدفن.

هذا وكان الزخرف فى حجرات الدفن والتوابيت المنحوتة من الجرانيت يتمشى مع الأسلوب المصرى فى كل التفاصيل، فالتقوش الدينية التى تغطى جوانبها تتبع تقليداً ترجع إلى أهرامات مصر، كما أن بعض أدوات الأثاث الجازى التى نجت من نابشى القبور، كجرار سكب القرايين وتمائيل الأوشابتي والتماثيل الصغيرة، تماثل تماماً تلك التى وجدت فى مصر.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى «مرسوم نورى» الذى أصدره الفرعون «سيتى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) فى عام حكمه الرابع، وذلك لمخصصات معبد أوزير فى أيديوس (مركز البلينا - سوهاج)، ووجهه إلى جميع المسؤولين طالباً الحفاظ على ممتلكات المعبد فى النوبة، وعدم التدخل فى شئونه .

هذا وهناك فى «نورى» أقام «طهرقا» مقبرته، وهى أول وأعظم بناء جنائزى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» - على مبعدة ١٢ كيلا من كريمة - وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى «نورى»، على مبعدة ٢,٥ كيلا من النيل، خاصة وقد أصبح حكم مملكة نباتا - بعد تانوت أمانى - مقصوراً على السودان، دون مصر، وهناك أكثر من ٢٢ هرمًا للملوك فى نورى^(١).

ولاريب فى أن هرم «طهرقا» فى نورى، من أعظم ما أبقت عليه الأيام من أهرام السودان، ويمكن الوصول إلى حجرة الدفن فيه عن طريق سلم ذى درجات تؤدى إلى دهليز، وبعد حجرة الدفن الواسعة التى يحمل سقفها ستة أعمدة مربعة منحوتة فى صخرة الجبل نفسه، وهى تقسم الحجرة إلى ثلاثة أقسام، فى الوسط

(١) محمد إبراهيم بكر: المرحع السابق، ص ١٦٠ - ١٦٢.

منها صفة حجرية ليستقر عليها السرير الخشبي المعد لوضع التابوت فوقه، وفي آخر
حجرة الدفن يوجد باب وراءه بضع درجات تؤدي إلى دهليز يسير حول هذه
الحجرة^(١).

هذا رقد عشر داخل الهرم وحوله على أكثر من مئمة تمثال مجيب
(أوشابتي) كتب عليها «أوزير، الملك طهرقا»، وكانت هذه التماثيل ترتدى لباس
الرأس الملوكي، ومنحوتة في الحجر، وتشبه التماثيل المجيبة المصرية، كما وجدت
آنيتان من أواني الأحشاء باسم طهرقا، وقد نقشت عليها الصيغة التي سادت في
عصر الأسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين، وهي: «حماية الملك طهرقا
المبرأ، إن حابي يحمي أوزير طهرقا المبرأ»^(٢).

على أن هناك أمراً مثيراً بالنسبة لمدفن الملك طهرقا، فالرجل قد أقام لنفسه
مقبرة وهرما في نوري، ذلك أن الهرم الذي لم يعثر بداخله - كما ذكر مكتشفه
رايزنر - على أية آثار للدفن، بل إن هناك من يذهب إلى أنه قد تخلى عن المقبرة
التقليدية في «الكرو»، وبني ما يبدو وكأنه مقبرة تقليدية وهمية في نوري شبيهة
بمقبرة أوزير في أبيدوس، كذلك هناك مقبرة في «سدنجا» (صدنقا) - على
مبعدة ١٠٩ كيلا شمالي الجندل الثالث، ٢٤٥ كيلا جنوب وادي حلفا -
تحتوي بعض ألقاب طهرقا، وهي بعيدة نسبياً عن مراكز الثقل السياسي في كل من
مصر ونيابا، ومع ذلك فإن «جيورجيني» إنما يرجح أن طهرقا قد دفن فيها فعلاً،
بدليل العظام الآدمية التي عثر عليها داخل هذا المدفن^(٣).

والرأى عند الأستاذ الدكتور بكر، أن «جيورجيني» مصيب في رأيه وأن هناك
أمثلة في التاريخ المصري لا تختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى
والثانية مقابر رمزية لأنفسهم في أبيدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية في

(١) أحمد فخري: الأهرامات المصرية، ص ٣٥٦.

(٢) سليم حسن: مصر القديمة، ١١ / ٢٦٦.

(٣) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، جان لكلا: المرجع السابق، ص ٢٨٣، وكذا:
M. S. Giorgini, *Kush*, XIII, 1965, p. 116 - 123.

سقارة، كما أقام «زوسر» فى الأسرة الثالثة، مقبرة فى سقارة أيضاً، وهكذا فعل «طهرقا» فالخلفية الدينية عند ملوك نباتا، لا تختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى الثانية مقابر رمزية لأنفسهم فى أبيدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية فى سقارة. فقد أقام زوسر مقبرة لنفسه فى «بيت خلاف»، وفى نفس الوقت أقام هرمه المدرج فى سقارة ليدفن فيه، وهذا الذى فى كريما لا يختلف كثيراً عما كان سائداً فى مصر^(١).

=/=

D. Dunham and O. Bates, op. cit., II, 1955, p. 6 - 16.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، وانظر عن المقابر الحقيقية والرمزية (محمد بيومى مهران: مصر ٣/ ٣٣ - ٤٤، ١١٣ - ١١٨، محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة، ص ٢٧٦ - ٢٧٧، وكذا:

W. B. Emery, *Archaic Egypt*, 1963, p. 65 - 68, 74 - 80, 84 - 90.

W. M. F. Petrie, *The Royal Tombs of The First Dynasty*, I, London, 1900, p. 19 - 20.

الفصل الثانى

المغرب القديم

(١) المدن الفينيقية والمراكز الأثرية

تقديم:

لا ريب فى أن الفينيقين قد تأثروا إلى أبعد الحدود بالبيئة التى عاشوا فيها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تجارتهم وحياتهم الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، على أن أبرز النواحي التى ظهرت فيها آثار البيئة فى الحياة الفينيقية هى النشاط البحرى، فقد كانت جبال لبنان التى تقع خلف الوطن الفينيقى تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية، وتجبر السكان على أن يلتصقوا لأنفسهم مخرجاً آخر، وذلك بأن يتجهوا إلى البحر، هذا فضلاً عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة عدد من السكان يتزايد عددهم عاماً بعد عام، ولم تكد الزراعة بقيادة على إطعام آلاف الأفواه التى تعيش فى المدن الساحلية.

وانطلاقاً من كل هذا، فقد كان على الفينيقين أن يلتصقوا لهم سبلاً أخرى، أو أن يتطلقوا إلى ميدان التجارة، وأن يتصلوا بالأمم الكبرى من وراء البحر، هذا فضلاً عن أن سفوح جبال لبنان إنما تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن، وهكذا فإذا اقترنت الرغبة فى المخاطرة، والبحث عن لقمة العيش، بتوفر المواد الصالحة، والمواد الخام اللازمة، لم يكن شياً غريباً أن يستجيب هؤلاء الساميون القادمون من شبه الجزيرة العربية لنداء البيئة، ويتركوا حياة البداوة التى ألفوها، ويقبلون على البحر فيركبون متنه.

هذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الأسماك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال، ثم بيع هذه الأشياء وغيرها من المنتجات المحلية الأخرى، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد، حينما ضغط الأراميون عليهم فى وسط سورية، وأحاط بهم الإسرائيليون والفلسطينيون من

الجنوب، ومن ثم فلم يجدوا مقرا من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم، فقد كان هو المخرج الوحيد^(١).

وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى إنشاء محطات ومراكز مستقرة فى المناطق التى تتجه إليها سفنهم لتكون محطات استقرار، أو على الأقل، محطات يستريحون فيها أياما معدودات، فى أول الأمر، على الأقل، وقد أدى ذلك إلى تنابع هجراتهم بالتدرج، وعلى مرات معدودات، تحقيق هذا النشاط التجارى فى هذه الأسواق والمناطق الجديدة فى غربى البحر المتوسط^(٢).

وليس هناك من ريب فى أن الدوافع الأساسية وراء إرسال التجار الفينقيين إلى غربى البحر المتوسط، وهو البحث عن موارد معدنية - وخاصة الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وقد قادهم هذا البحث - فى تاريخ مبكر - إلى أسبانيا التى ظلت أحد المصادر الرئيسية فى عالم البحر المتوسط، حتى فى العصر الرومانى^(٣).

وتقدم لنا التوراة - فى سفر حزقيال - وصفا مفصلا لتجارة الفينقيين البرية والبحرية فى مظاهرها المختلفة، وهو يذكر من بين وارداتهم، الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا، والرقيق وأوانى النحاس الأصفر من إيوانيا، والكتان من مصر، والخراف والماعز من شبه الجزيرة العربية، ويشير «هيرودوت» إلى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجار الفينقيين^(٤)، ونقرأ فى التوراة أيضاً عن أسطول «حيرام» ملك صور، الذى أبهر ملج أسطول سليمان إلى «أوفير»^(٥)، وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفيسة، وكل ما هو نادر وغريب^(٦).

(١) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(٢) محمد ييوى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٨٤.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٤) حزقيال ٢٧ / ١ - ٣٦، نجيب ميخائيل. المرجع السابق، ص ١١٦، فيليب حتى المرجع السابق، ص ١٠٧ - ١٠٨، وكذا Strabo, XVI, 3 - 4.

(٥) أنظر عن «أوفير» والآراء التى دارت حول موقعها (محمد ييوى مهران: اسرائيل، التاريخ، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص ٧٨٢ - ٧٩٢).

(٦) ملوك أول ١١ / ١٠ - ١٢، محمد ييوى مهران المرجع السابق، ص ٧٨١.

ويقول «ديودور الصقلي» (٨٠ - ٣٠ ق.م) أن الرومانيين (أى فى أسبانيا) إنما كانوا يجهلون استخدام الفضة حتى حصل عليها الفينيقيون فى رحلاتهم التجارية فى مقابل كمية قليلة من السلع، وحملوها إلى بلاد الإغريق وآسيا والبلاد الأخرى، وحصلوا على ثروات كبيرة، كما زادت قوتهم عن طريق هذه التجارة التى مارسوها لوقت طويل، وكانوا قادرين على إرسال أعداد من المهاجرين إلى صقلية والجزر المجاورة وأفريقيا وسردينيا، وإلى أسبانيا ذاتها^(٧).

وعلى أية حال فلم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة والعودة من حيث أتوا، وإنما كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون منها فينيقيا جديدة، أما اذا كانت البلاد التى ينزلها الفينيقيون ذات حكومات قوية وقادرة على حماية نفسها، فإن ملاحى فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية، وإنما يكتفون بوكالات تجارية وبشراء حق حرية التجارة، كما فعلوا فى مصر، حيث استقروا عند مصبى الدلتا، وطبقا لرواية هيرودوت، فلقد اتخذوا لأنفسهم فى «منف» - العاصمة المصرية القديمة - حيا خاصا بهم سمي «معسكر الصوريين»، كمات أقاموا معبدا هناك كانوا يتعبدون فيه للمعبودة «إفروديت الأجنبية»، وهى عشتار على الأرجح^(٨).

٢- المستعمرات الفينيقية فى الشمال الأفريقى:

لعل من الأهمية يمكن الإشارة هنا - وقبل أن نتحدث عن المستعمرات الفينيقية فى الشمال الأفريقى - إلى عدة نقاط، لعل من أهمها (أولا) أن تأسيس المراكز الفينيقية فى المغرب، إنما قد تم فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ومن ثم فإن العصر الفينيقى إنما قد أستمّر فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، حيث بدأت الدولة القرطاجية فى الوقوف على قدميها، كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق.

ومنها (ثانيا) أن العصر الفينيقى فى المغرب إنما كان عصر استكشاف

(٧) ب. هـ. ورومانجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٨) ج. كوئنترو: المرجع السابق، ص ٩٥، محمد بيومى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم، ص ١٨٤، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١١٦.

اقتصادي، أكثر منه عصرا سياسيا، ذلك لأن المدن الفينيقية في الشمال الأفريقي، إنما كانت تابعة سياسيا لمدينة «صور» في فينيقيا، بل يمكننا القول أن الارتباط السياسي - فضلا عن الالتزام الضريبي، وربما الحضاري - إنما ظل قائما حتى بعد استقلال المدن الفينيقية الإفريقية عن أصولها الأولى في فينيقيا. ومُنْهَها (ثالثا) أن الانتقال من المرحلة الفينيقية إلى المرحلة القرطاجية، إنما قد تم في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، حيث أسس «ماقون» أو «ماجو» Mago أسرة حاكمة في «قرطاج» (الأسرة الماكونية)^(٩).

وأما أهم المدن أو المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي (المغرب) فهي:

١- قرطاج:

لا ريب في أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة إنما هي مدينة «قرطاج»^(١٠)، وتقع على مقربة من مدينة «تونس» الحالية، فيما بين «بورسعيد» و «لاجويت»، ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ ق.م، حتى وإن زعم البعض أنه يرجع إلى ما قبل ذلك - إلى القرن الثامن قبل الميلاد - حيث ثبت حتى الآن عدم وجود أية آثار فينيقية الأصل في تلك المناطق قبل منتصف القرن الثامن (أى حوالي عام ٧٥٠ ق.م)^(١١)، وهو لا يعد كثيرا عن التاريخ المتعارف عليه، أى عام ٨١٤ ق.م، وعلى أية حال، فلا يمكن أن نستنتج شيئا ذا قيمة تاريخية من أسطورة تأسيس قرطاج التي وصلت إلينا في مختلف كتابات المؤلفين الإغريق والرومان^(١٢).

هذا ويذهب البعض إلى أن اسم «قرطاج» (قرطاجة) (Carthago) وفي

(٩) رشيد الناصوري. المرجع السابق، ص ١٦٧ - ١٧٣، هـ ب وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٦.

(١٠) قرطاج: حرت عادة بعض المؤرخين أن يكتبوها «قرطاجة»، وهو خطأ شائع، والصحيح كتابتها «قرطاجنة» أو «قرطاج»، كما يسميها أهل تونس أنفسهم، أما «قرطاجة» فهي مدينة في أساتيا، مناسم تاريخ الإسمانية ١٢ / ٥٥٥.

(11) B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, p. 22.

D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 54.

(١٢) ب هـ وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٥.

اللاتينية Carthage) إنما هو صورة محرفة من الإسم الفينيقي «قرت حدثت» بمعنى «المدينة الجديدة»، ويدل هذا ضمناً على أن المكان قدر له منذ البداية أن يكون المستوطنة الرئيسية للفينيقيين في الغرب، وطبقاً لقصة إنشائها، أو بعبارة أصح أسطورة إنشائها^(١٣)، فقد أسستها الأميرة «إليا» (Eliasa) ابنة «متان» ملك صور، عندما هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» (Pygmalion) - الذى خلف أباه فى حكم صور، وكانت إليا ترغب فى الزواج من خالها «أشرباس» (Echerbas) - أحد كهنة المعبود ملقارت - وقد أغضب ذلك أخوها «بيجماليون» فأمر بقتل هذا الكاهن، مما دفع إليا إلى الهجرة إلى جزيرة قبرص - مع عدد من المعارضين لأخيها - وهناك أنضم إليها أحد كهنة المعبودة «عشتارت» Asterte الذى اشترط أن تكون له ولعائلته أولوية فى كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة، وأن يكون ذلك وراثياً فى أسرته، وسرعان ما انضمت إليها ثمانون عذراء كانوا أصلاً للبقاء المقدس، ثم اتجهوا جميعاً إلى منطقة الساحل الأفريقي المغربى، غير أن «إليا» سرعان ما انتحرت عندما أراد رئيس البربر أن

(١٣) لعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك الكثير من الأساطير التى ترتبط بالشخصيات الهامة - وربما الأسطورية - بتأسيس المدن الهامة، فضلاً عن الأحداث الرئيسية، وذلك لأن الكتاب القدامى أرادوا لفت الأنظار إلى أهميتها - للمدن والأحداث - فقاموا بتسجيلها بصورة شعبية وبإسهاب ونقص، قد يترى فى كثير من الأحيان عواطف العامة وخیالهم، أكثر مما يرضى عقول العلماء، فقدموا لنا أحداثاً أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ الحقيقى.

وهناك فى تاريخ العرب القديم - على سبيل المثال - مدينة «بائل» - وهى مركز دينى هام فى دولة معين - وتسمى «براقش» (وكانت قديماً تسمى يطيل)، وهى نفسها مدينة (Athluba) (Athruia) = - آخر موضع وصلته حملته «إليوس حاليوس» الرومانى على اليمن فى عام ٢٤ ق.م - وعلى أية حال فإن «براقش» عند الإخباريين مدينة قديمة جداً، كان يسكنها عند ظهور الإسلام «بو الأوبر من يلحارث بن كعب ومراد»، وقد اختلفوا فى سبب تسميتها «براقش»، فرواية تذهب إلى أنها إنما سميت كذلك نسبة إلى كلبة عرفت باسم براقش، ورواية أخرى تنسبها إلى امرأة تدعى «براقش» عهد إليها أبوها بتصرف شؤون الدولة أثناء غيابه فى واحدة من غزواته، فما كان من براقش إلا أن اعتبلت الفرصة، فبست مدينتى براقش ومعين تحليلداً لذكراها، غير أن ذلك قد أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، على أن رواية ثالثة تنسبها إلى مراكش امرأة لقمان بن عاد (أنظر: البكرى ١/ ٢٣٨، الميدانى ٢/ ١٤ - ١٥، البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٢٢، القاموس المحيط ٢/ ٢٢٢، وكذا محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٣٣٢).

يتمتعها زوجة له، هذا ريسدى الرواة الأميرة «إليا» هذه، باسم «ديدون» بمعنى «الهاربة»، وهو اسم غير فينيقي، وليست لدينا أية وثائق تسوغ لنا قبول هذه الرواية أو حتى رفضها^(١٤).

غير أن هناك مصدرا آخر يتحدث عن تأسيس «إليا» (ديدون) المدينة «قرطاج» حيث يحدثنا المؤرخ البهردي «يوسف بن متى» (يوسفوس فيلافيوس = ٣٧ - ٩٨ أو ١٠٠ م)^(١٥) - نقلا عن آخرين - أنه في السنة السابعة من حكم «بيجامبون» أسست إليا مدينة قرطاج، ومن ثم فهناك عنصر تاريخي سليم - إذا ما صدقت رواية يوسف اليهودي - يتعلق بارتباط هذه الأميرة الصورية بتأسيس مدينة قرطاج^(١٦).

وعلى أية حال، فإن المستوطنات الفينيقية جميعا، بما فيها قرطاج نفسها - على عكس المستوطنات التي أقامها الإغريق في صقلية وإيطاليا وغيرهما في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد - إنما ظلت (أي المستوطنات الفينيقية) محدودة المساحة، وربما لم يسكنها، لمدى بضعة أجيال، غير مئات قليلة من المستوطنين على الأكثر^(١٧).

ولاريب في أن المؤرخ الروماني «إبيات» (القرن الثاني الميلادي) إنما كان موقفاً إلى حد كبير في وصفه لمدينة قرطاج عندما وصفها بأنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية، فهي بنيت في شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحية، وبالبحيرتين من ناحية أخرى، الأمر الذي جعل رجبتها بحرية، أكثر منها برية أفريقية، وعلى أية حال فمدينة قرطاج إنما تعتبر نموذجا للمدينة القرطاجية التي تعبر عن التفكير والحياة القرطاجية، فضلا عن النشاط السياسي والاقتصادي في العصر القرطاجي^(١٨).

(١٤) ج. كوتتر: المرجع السابق، ص ٩٨، ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٥، رشيد.
الناصر: المرجع السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(١٥) أنظر عن يوسف بن متى (محمد يرمي مهران. تاريخ العرب القديم، ص ٣١ - ٣٢).

(١٦) رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(١٧) ر. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

(١٨) رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٧٧ - ١٧٨ وكذا

هذا وقد كان لقرطاج ميناء صناعى أُعد إعداداً جيداً، فأما الميناء الخارجى فكان لا يستخدم السفن التجارية، وإن كما لا نعرف عدد السفن التى كان يمكنها استخدامه فى وقت واحد، وأما الداخلى فكانت به أرصفة وأحواص تتسع لمائتين وعشرين سفينة حربية، هذا فضلاً عن مبنى للمراقبة يصل ارتفاعه إلى درجة تكفى للرؤية - رغم المباني المعترضة - إلى مسافة بعيدة فى البحر.

وكانت أسوار المدينة - التى ترجع إلى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد - هائلة الحجم، الأمر الذى مكنها من الصمود لكل هجوم - بما فى ذلك الهجوم الرومانى الأخير فى عام ١٤٦ ق.م - وكان طول الأسوار - بمافى ذلك المسافة المطلة على البحر - حوالى ٣٥ كيلاً، وكان ارتفاع القطاع الحاسم - لمسافة ٤ كيلاً عبر برزخ قرطاج - أربعين قدماً، وسمكه ثلاثين قدماً، ولم تقتصر مهمة تلك الأسوار، وإنما كانت جدران الأسوار الضخمة تستخدم بعد تجهيزها بالاحتياجات الأساسية - كالثكنات واسطبلات ذات أسوار سفلية وعلوية، وكان الدور السفلى يسع ٣٠٠ فيلاً، ويسع العلوى ٤٠٠٠٠ حصاناً، وقد جهزت الأرضيات المنحدرة بحيث تساعد على نزول وصعود هذه الحيوانات، وتتسع الثكنات لحوالى عشرين ألف جندي من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، هذا فضلاً عن حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين متراً لزيادة تحصين المدينة، الأمر الذى جعل وسائل الدفاع عن قرطاج فى غاية القوة.

ولم تقتصر وسائل التحصين على ذلك، وإنما أقيمت أيضاً قلعة داخلية، مكانها الآن كنيسة لويس التاسع، ويحيط بها سور كبير طوله حوالى ٣ كيلاً، وهو بلاشك أقدم جزء فى المدينة.

وهناك أيضاً آثار المباني ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالساحات - أو كما تسمى عند المواطنين العرب فى تونس بالرحبة أو البطحاء - وتشبه الساحة اليونانية (Agora) واللاتينية (Forum)^(١٩)، وتقع فى مكان

(١٩) الاجوراء (Agora) عند اليونان، و«الفوروم» (Forum) عند الرومان، هو سوق المدينة، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء، وهو ملتقى الاجتماعات العامة، ولما اتسعت روما زاد عدد الأسواق بها، وكانت تقوم به المنشآت والأبنية العامة.

متوسط بين الميناء والقلعة، وهكذا وجد بين الميناء وتل بمرصة ساحة عامة مكشوفة، تشبه «الأجوراء» الأغريقية، و«الفروروم» الروماني، وإن كان يبدو أن ساحة قرطاج إنما قد خططت تخطيطاً منتظماً، أو اتخذت مظهر الفخامة الذي تميزت به ميادين المدن الأغريقية، هذا فضلاً عن مبان أخرى لها وظيفتها السياسية مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء^(٢٠).

وعلى أية حال، فإن مدينة قرطاج - في أكبر الظن - قد نمت دون تخطيط، فكانت شوارعها ضيقة ملتوية، وإن كانت مرتفعة بالنسبة لعصرها، حتى وصل ارتفاع بعضها إلى ستة طوابق، شأنها في ذلك شأن تلك المباني التي وجدت في صور - المدينة الفينيقية الأم - وفي موتيا في صقلية، وقد استمر القرطاجيون في تلك المباني ذات الأدوار المتعددة، بصورة تقليدية لما كان في مدينة صور، رغم عدم الحاجة إليها في المغرب، وعلى أية حال، فلقد وضحت في تلك الدور القرطاجية بعض التأثيرات المعمارية اليونانية، وخاصة الأعمدة الإيونية^(٢١).

وأياً ما كان الأمر، فلقد استكملت قرطاج جوانبها الدينية ببناء المعابد، غير أن معابد قرطاج - رغم ما قيل عن كثرتها، - فليس هناك ما يشير إلى أنها كانت ضخمة، حتى المراحل الأخيرة من التاريخ القرطاجي، حين وضع التأثير الثقافي الإغريقي، وذلك لأن الأدلة إنما تشير إلى أن القرطاجيين إنما كانوا قوماً محافظين في المسائل العقدية، ومن ثم فقد ظلوا طويلاً مخلصين ببساطة الأماكن المقدسة الخالية من أية أبنية أو أنصاب فخمة^(٢٢).

بقيت الإشارة إلى أن ما يقدمه لنا المؤرخون عن عدد السكان في قرطاج، إنما هو مجرد افتراضات، لا تقوم على إحصائيات رسمية، وعلى أية حال، فلقد قدر «سترابو» عدد السكان بسبعمائة ألف، وهذا يعني ببساطة كثافة سكانية مستحالة، فضلاً عن أن مدن العالم القديم لم تكن تعرف هذه الأرقام في عدد

(٢٠) ب. هـ. وأرمستون: المرجع السابق، ص ٤٦٣، أحمد صقر: مدينة المغرب العربي في التاريخ، تونس ١٩٥٩، ص ٩٧، ١٠٢، رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٧٩ - ١٨٠

(٢١) ب. هـ. وأرمستون: المرجع السابق، ص ٤٦٣، رشيد الناصري: المرجع السابق، ص ١٨٠

(٢٢) ب. هـ. وأرمستون: المرجع السابق، ص ٤٦٣

السكان، وإن كان هناك من يذهب إلى أن «سترايو» كان يعنى بهذا العدد الذى ذكره (سبعمئة ألف) كل سكان قرطاج وكل منطقة أذار، وربما كان التقدير الأكثر قبولاً هى أربعمئة ألف، بما فى ذلك العبيد، وهو، على أية حال، رقم يجعل عدد سكان قرطاج مساوياً لعدد سكان أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد (٢٣).

وأياً ما كان الأمر، فإن التاريخ الحقيقى لقرطاج لم يبدأ إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، عندما بدأت صور تضمحل ويقال شأنها تحت ضربات الإمبراطور الكلدانى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، كما أشرنا من قبل، ثم خضوعها له وضمها إلى الإمبراطورية البابلية الكلدانية، غير أن العامل الأهم - فيما يرى وارمنجتون - إنما كان ازدياد ضغط المستوطنات الإغريقية فى صقلية، مثل «سرقوسة» التى نبت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة، والتى تأسست أصلاً - هى وغيرها من المستوطنات هناك - نتيجة للضغط السكانى فى بلاد اليونان ذاتها.

وسرعان ما ازدهرت قرطاج حتى غدت زعيمة المدن الفينيقية فى أواسط البحر المتوسط، ثم صارت قرطاج على نفس سياسة صبور وصيدا، فأظلت المدن الفينيقية بحمايتها، وأسست مستعمرات جديدة، من ذلك تلك المستعمرات التجارية فى جزيرة «إليا» - بين سردينيا وأسبانيا - حوالى عام ٦٥٠ ق.م، فضلاً عن مستعمرات أخرى على شواطئ «مينوركا» فى جزر البليارد، وغيرها من المستعمرات على شواطئ البحر المتوسط الأوربية والأفريقية (٢٤) - كما سنرى -.

هذا وكان المظهر الوحيد فى قرطاج (قرطاجنة) الذى حظى بإطراء ومديح أباطره الإغريق والرومان هو دستورها السياسى الذى يبدو أنه كان يكفل لها الإستقرار، وهو مطلب عزيز كانت تشده المدن فى العصور القديمة، إن كانت التفاصيل عن هذا الدستور غامضة، كما أنه ليس من المؤكد أن هؤلاء الكتاب

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٢٤) محمد يومى مهران: المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦، وكذا:

D. Harden, the Phoenicians, London, 1963, p. 54.

القدامي قد أدركوا الحقائق، كما ينبغي أن تدرك^(٢٥)، وعلى أية حال، فإن التنظيم السياسي في قرطاج قد مر بمراحل رئيسية ثلاثة:

١ - المرحلة الأولى: مرحلة الملكية، والتي استمرت حتى العصر الهلينستي، وذلك النظام استمرارا لما كان موجودا في حكومات المدن الفينيقية في المشرق - كما تشير إلى ذلك النظام الفينيقي الوثائق المصرية والآشورية - فقد كانت الملكية الفينيقية وراثية في الغالب، مع انقطاع أحيانا في التسلسل الملكي - ومع ذلك، ففي الإمكان عمل قوائم بأسرات ملكية حكمت في عدة مدن، وإن كانت غير كاملة، فهناك مثلا أسرة حيرام في صور، وكذا «لولي» (أيلو أيلي) في صور أيضا، وقد ظهر الأول كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد داود وسليمان عليهما السلام، وظهر الثاني كأهم شخصية في نفس المنطقة على أيام سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، بل إنه إنما قد فرض شخصيته على قسم كبير من فينيقيا، حتى أنه حاول إخضاع قبرص^(٢٦).

غير أن الملكية القرطاجية - رغم ذلك - إنما كانت إلى حد ما فريدة في نوعها، فهي ليست كالمملكة المصرية القديمة ذات الطابع الإلهي^(٢٧). أو الملكية السومرية^(٢٨)، ذلك لأن الملكية القرطاجية إنما كانت في بداية أمرها تتم عن طريق الانتخاب - وليس الوراثة - فكان الملك القرطاجي يختار من الطبقة

(٢٥) ب. هـ. واربنتون: المرجع السابق، ص ٤٦٤.

(٢٦) أنظر: (محمد بيومي مهران: إسرائيل، الكتاب الثاني ص ٧٨ - ٧٨٢، ص ٨٤٣ - ٨٤٧، ٩٠٤، ٩١٠ - ٩١٢، ٩٦٣).

(٢٧) أنظر: سرور الشعراء: آية ٢٩، القصص: آية ٣٨، النازعات آية ٢٢: ٢٤، محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثاني، الطلعة الرابعة، الإسكندرية ١٩٨٩ ص ١١٩ - ١٥١.

(٢٨) هالك ما يشير إلى مبادئ ديمقراطية بدأت في العراق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، تشير إلى تواجد التفكير الديمقراطي في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتي تتكون من جميع المواطنين، ربما بما فيهم النساء (أنظر: رشيد الناصوري: جغوب غرب آسيا وشمال أفريقيا، محمد عبد اللطيف: تاريخ العراق القديم، ص ١٧٨ - ١٨٠).

T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, in JNES, II, 1843, p. 165, No. 35.

الإرستقراطية، ذات المال والجاه المورثين، ومن ثم فإن النظام السياسى القرطاجى يتفق مع الهدف الفينيقي الأول، وهو الإستحواذ على الثروة الإقتصادية، حتى أن العمليات السياسية والحربية القرطاجية إنما كانت تهدف إلى تدعيم الجانب الإقتصادى، كما أن عمليات الإستكشاف البرى والبحرى القرطاجى، فضلاً عن التدخل فى أسبانيا وغيرها، إنما كانت لتثبيت هذا الهدف الإقتصادى الذى احتل مكان الصدارة فى التاريخ الفينيقي والقرطاجى، ومن ثم فقد كان أصحاب الثروة فى المكانة الأولى فى السلطات السياسية.

وعلى أية حال، فلقد تولى منصب الملك فى قرطاج خلال القرنين، السادس والخامس قبل الميلاد، أفراد من «الأسرة الماجونية»، والتي ظهر من أفرادها المبرزين «هملكار» (حملقرت = Hamilcar) الذى قاد حملة فى عام ٤٨٠ ق.م، والمستكشف «حنون» (هنو = Hanno) والذى ربما كان ابناً للملك «هملكار»، وذلك لأن النصوص تشير اليهما بوصفهما ملكين، وقد شغل ملوك أسرة «ماجون» (ماجون) خلال هذين القرنين (السادس والخامس قبل الميلاد) منصب القادة العسكريين للدولة كذلك، عندما تطلبت ذلك تلك القيادة، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى فى تلقيبهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا فى الإعتبار سلطتهم الدينية والقضائية، فضلاً عن سلطاتهم السياسية.

٢- وفى أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حدث تطور أدى فى النهاية إلى تناقض قوة الملوك نتيجة لتغير النظم الإقتصادية، فلقد نشأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى، وهى طبقة ملاك الأراضى الزراعية، وبذلك بدأت عوامل التنافس الإقتصادى على الثروة، والتنافس السياسى على الحكم، وقد نجحت طبقة ملاك الأراضى فى النهاية من الإستحواذ على تلك السلطة، وانتزاعها من الأسرة الماجونية، وذلك فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة هى أقرب إلى النظام الجمهورى، منها إلى النظام الملكى، رغم الإستمرار فى استخدام تعبير «الملك» الحاكم للبلاد، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية من التنظيم السياسى فى قرطاج من حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، إلى حوالى بداية القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا وقد صاحب هذا التطور الجديد نشأة «الشفطان» (Sufetes)، وهو الإصطلاح السياسى القرطاجى الوحيد الذى نقله لنا الكتاب الرومان، وكلمة «الشفطان» أو السبطان، تعادل الرقباء (السناصرة) عند الرومان، كما كان لقبها باللغة السامية يعادل لقب «القضاة»^(٢٩) عند بنى اسرائيل، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منها اثنان - وربما أكثر - سنويا، وقد ظل اصطلاح «الشفيط» (Selinus) مستخدما فى شمال أفريقيا فى مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الأقل بعد الغزو الرومانى، ليشار به إلى الحكام الرئيسيين للمدينة، وكان تقلص سلطة الملك شيئا بالتطورات فى المدن الإغريقية وروما، وفى نفس الوقت إزادت قوة الإرسطراطية الثرية، حتى أصبح لهم - إلى جانب عضويتهم الجماعية فى مجلس للدولة يشبه السناتو الرومانى (مجلس الشيوخ) - مجلسان آخران منتخبان - مجلس المائة والأربعة ومجلس الثلاثين - وهما يكونان فى الحقيقة «أوليغركية» ضيقة وثيقة البنيان، مكونة من أغنى الرجال، وأوسعهم نفوذا، ويتحكمون فى كل ادارات الحكومة.

هذا ورغم أن جماعة المواطنين كان لها بعض الرأى فى انتخابات الملك والشفطان وغيرهم من المواطنين فإنه من المؤكد أن السياسات القرطاجية كانت تحكمها الثروة دائما، ويختبر الفيلسوف اليونانى «أرسطو» (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) أن الدور الذى لعبته الثروة فى قرطاج كان مظهرا شيئا، فلقد كان شرف المولد وتوفير الثروة شرطين أساسيين للإنتخاب، فكل الأمر يقررها الملك أو الشفطان والمجلس بالتشاور معا، وفى حالة اختلافهم فقطع وتم استشارة الجمعيات الشعبية (الرجلية).

٢- وكانت المرحلة الثالثة على أيام القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد، وتركزت فيها السيادة السياسية لأمة برقة (برقا) وإن استلقت عن المرحلة الأولى، ولم تحسم هذه المرحلة الثالثة بين سلطة برقة وسلطات مجلس الشيوخ وانحازت الأخيرة الخاصة بالاعون المالية والدينية كالمجلس الثلاثينى ومجلس الشورى.

(٢٩) أدناث عن القضاة عند بنى اسرائيل (محمد بيومى مهران، إسرائيل، الجزء الثانى، ص ٦٢٣ - ١٥٧).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن قرطاج لم تخضع لانقلاب عسكري يقوده قائد طموح أو مغامر، مثلما تكرر هذا المصير في المدن الإغريقية، وخاصة في صقلية، وربما كان السبب أن أجهزة الرقابة والسيطرة كانت فعالة (٣٠).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «قرطاج» إنما قد انجبت إلى تدعيم كياناتها العسكرية بإنشاء قوة حربية برية وبحرية للدفاع عن الدولة القرطاجية، وفي القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فصلت قيادة القوات المسلحة فصلا تاما عن الوظائف الأخرى، وكان القواد يعينون فقط في حالة الضرورة، ولحملات محددة الجهة والهدف، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائدا دائما، وقد انتهجت العديد من الأسر نهجا عسكريا، مثل «آل ماقون» (ماجرون) في أوائل التاريخ القرطاجي، و«أسرة برق» (Barcids) فيما بعد ذلك.

وكان عبء قيادة الفينيقيين في الغرب - فيما يبدو - ثقيلًا على القوة البشرية المتاحة لقرطاج، وقد ظلت قرطاج حتى القرن السادس قبل الميلاد، تعتمد على مواطنيها - شأنها في ذلك شأن المدن الحرة الإغريقية - غير أنها منذ منتصف هذا القرن السادس، وتحت قيادة «ماقون» (ماجور = Mago) - الذي أسس أسرة حاكمة في قرطاج - إنما اتبعت سياسة «إستخدام القوات المرتزقة» على نطاق واسع، وهي نفس السياسة التي تبعت حتى نهاية التاريخ القرطاجي.

هذا وكانت العبادة في قرطاج تشبه تلك التي في فينيقيا، وأهم المعبودات

- ١- بعل حمون ٢- تانيت ٣- عشتارت ٤- أشمون ٥- ملقارت

هذا وقد اعتمدت قرطاج على التجارة، أكثر من أية مدينة أخرى، وأن الرجل القرطاجي الأصيل، إنما كان في أذهان الناس وقت ذلك - وخاصة عند اليونان والرومان - تاجراً بطبعه، كما كانت قرطاج تمثل أغنى مدينة في عالم البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الثروة التجارية لم تترك آثارا تنفق، وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاء، فضلا عن أنها - (أي الآثار) - أقل بكثير من آثار المدن الكبرى

(٣٠) ر. م. وارمحتون المرحع السابق، ص ٤٦٤، رشيد الناضوري. المرحع السابق، ص ١٨٠ - ١٨٤، هـ. ج. ويلر: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق حاويد، القاهرة ١٩٦٩، ص

- الإغريقية والإتروية - التي ترجع إلى نفس الفترة، وليس هناك من ريب في أن أحد الأسباب الرئيسية في حالة قرطاج، أن أغلب تجارتها إنما كانت في سلع لا تترك أثراً، فأغلبها معادن غير مصنعة - وهي الهدف الرئيسي من حركة الاستكشاف، الفينيقية - ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التي تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة، وكانت تجنى الأرباح من التجارة مع القبائل الداخلية التي جلبت منها الذهب والفضة والقصدير، وربما الحديد أيضاً، ذلك لأن قرطاج - كما هو معروف - إنما كانت تصنع أسلحتها بنفسها - .

وليس من شك في أن قرطاج إنما قد حصلت على تلك المعادن في مقابل مصنوعات رخيصة، ومن ثم فقد جنت أرباحاً طائلة، وليس أدل على وفرة الأرباح من تلك الجيوش الضخمة التي استطاعت قرطاج تجنيدها من المرتزقة في القرنين - الرابع والثالث قبل الميلاد - هذا فضلاً عن سك العملة من الذهب، على نحو ما فعلته المدن المتقدمة الأخرى وقت ذاك (٣١).

هذا وقد مارست قرطاج احتكار التجارة داخل إمبراطوريتها - سواء بإغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار، أو بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الأتروية وروما - وكان طبيعياً أن لا يسمح للتجار بالتجارة في غربي قرطاج، وهذا يعنى ببساطة أن السلع التي كانوا يحضرونها إلى هذه المدينة كانت تنقل إلى السفن التجارية القرطاجية، ومن ثم فقد كانت المنتجات الواردة من أثرويا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الإغريقية إنما تصل إلى عدد كبير من الأماكن في شمال أفريقيا.

وبدهى أن ذلك كله إنما كان مصدر قوة اقتصادية لقرطاج، خاصة بعد التغييرات الاقتصادية والسياسية الضخمة التي حدثت في غربي البحر المتوسط بسبب فتوحات الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.)، فلقد أوجدت هذه الفتوحات أسواقاً كبرى عالمية للمصنوعات الرخيصة التي كان القرطاجيون في موقع متميز يمكنهم من ترويجها، فضلاً عن الأرباح منها (٣٢).

(٣١) ب. هـ. وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٣٢) ب. هـ. وارمنجتون. المرجع السابق، ص ٤٦١ - ٤٦٢.

غذا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية، عبر الصحراء إلى منطقة نهر النيجر والسنغال، وربما كانت عن طريق «لبدة» و «صبراتة»، وهما المدينتان الواقعتان في منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة، وعلى أية حال، فإن اهتمام قرطاج بإبعاد الإغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة هامة مع الداخل، حيث أن الأرض الزراعية المناسبة للإستيطان نادرة، وفي القرن الخامس قبل الميلاد يحدثننا هيروdot عن مجموعتين قبليتين هما: الجرمانيون والناسامونيون في أقاليم جنوب مصر، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانيتين - المركز السكاني لجزيرة - تستغرق ثلاثين يوما، وأن الرومان قد حصلوا - عن طريق الجرمانيتين - على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية في القرون التالية.

ورغم أن اليونان قد استخدموا العملة في القرن السابع قبل الميلاد - وربما منذ أيام ملك ليديا «كرويسوس» (٦٥٠ - ٥٤٦ ق.م)، واستخدم الفرس العملة على أيام «دار الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) عند نهاية القرن السادس، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذلك خاضعة للفرس، غير أن دارا لم يحاول أن يضرب العملة باسمهم، وأما أقدم عملة شرقية فينيقية فقد ضربت في صور عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تبعتها صيدا وأرواد، وجبيل في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد (٣٣).

وأما «قرطاج» فقد بدأت في إصدار عملتها في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة، وحيث أصبح من الضروري - نتيجة للتفتير في الوضع الاقتصادي - أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقدا (٣٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الصراع القرطاجي الروماني، والذي عرف باسم «الحرب البونية» (٣٥) المشهورة في التاريخ الروماني القرطاجي بأدوارها الثلاثة، كانت الحرب الأولى في الفترة (٢٦٤ - ٢٤١)، وكانت الثانية في

(٣٣) عبد الحميد الشرق الخالدة، ص ٣٣٠ - ٣٣١، سبتيز موسكاتي: المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٣٤) ب. هـ. وارمجتون المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(٣٥) كلمة: «البونية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيونيكوس» (punicus) أي القرطاجية - أعنى الفينيقية - ومن هنا سميت الحرب بين روما وقرطاج بالحرب البونية أو الحرب الفينيقية.

الفترة (٢١٨ - ١٠٢ ق.م)، وكانت الثالثة فى الفترة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) وذلك من أجل السيادة على غربى حوض البحر المتوسط.

وقد انتهت الثانية منها بانتصار الرومان على «قرطاج»، وكانت الشروط قاسية، بيد أنها تركت لها المجال فى أن تأمل فى مستقبل كريم، فأجبرت عن التخلي عن أسبانيا لروما، وأن تتنازل عن أسطولها الحربى، إلا عشر سفائن، وأن تدفع عشرة آلاف تالتوم، وأن تتخلى عن سلاح الفيلة، وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطية، وبه توافق قرطاج على أن لا تخوض غمار حرب، دون إذن من روما، ثم أضيف آخر الأمر شرط يقضى بتسليم هانيبال - عدو روما اللدود - بيد أن البطل القرطاجى كفى موطنيه هذا الإذلال، بأن فر إلى آسيا، وعندما أبرمت روما الصلح مع «أنطيوخس الثالث» (٢٤١ - ١٨٧ ق.م) بعد هزيمته فى «مجنيزيا» (مجنيسيا Magnesia) فى عام ١٩٠ ق.م، كان تسليم هانيبال أحد شروط هذا الصلح، وسرعان ما قبض عليه فى «يشينيا» فى مخبأ له، فاعتقله ملكها لكى يرسله إلى الروم، بيد أن هانيبال إنما كان يحمل منذ أمد طويل فى خاتمه السم اللازم له، وبه قضى على نفسه فى عام ١٨٣ قبل الميلاد، وأما «سكيبو» فقد عاد إلى روما، وأقيمت له مواكب النصر، ومنح لقب الإفريقى، وأصبح يعرف باسم «سكيبو الإفريقى» (Scipie Africanus)، تخليدا لانتصاره على هانيبال (٣٦).

وانتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة «قرطاج»، ومن ثم فقد توقفت هذه القوة السياسية الهامة فى المغرب، وحوض البحر المتوسط، وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة، فضلا عن مناطق حوض البحر المتوسط الشرقية والغربية جميعها (٣٧).

(٣٦) هـ. ج. ويلز: المرجع السابق، ص ٥٤٩ - ٥٥٠، أحمد صقر: المرجع السابق، ص ٢٣١، رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٢٧٢ - ٢٧٥، عبد اللطيف. أحمد على: المرجع السابق، ص ١٢٧ - ١٢٩، مصطفى العبادى: المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥، وكذا:

H. G. Wells, op. cit., p. 117.

B. H. Warmington, op. cit., p. 190 - 191.

(٣٧) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) أوتيكا:

كانت أوتيكا (Utica) - أو عتيقة - بمعنى القديمة، تميزا لها عن «قرطاج» بمعنى الجديدة أو الحديثة، وقد سماها «ابن خلدون» (١٣٣٢) - ١٤٠٦م) «وطاقة»، وتقع إلى الغرب من قرطاج، وتلى قرطاج في الأهمية، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية في شمال أفريقيا، على الأرجح، وقد أسستها صور حوالي عام ١١٠٠ ق.م، أو ١١٠١ ق.م، وقد عثر على آثار ترجع إلى حوالي هذا التاريخ.

وتقع أوتيكا على مرتفع من الأرض عند مصب نهر «بجراداس»، أهم أنهار تونس، الذي يجري في أخصب بقاعها، ومن ثم فهي - كقرطاج - ميناء، رغم أنها تقع الآن على بعد ١١ كيلا في الداخل، ذلك لأن معالم الموقع تغيرت اليوم عنها في العصور القديمة، فغطى الغرين المجري الأدنى للنهر، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل كان يوما ما في داخل البحر، مع جزيرة إلى شرقه، يفصلها عنه عمر مائي ضيق.

هذا وما تزال هناك - كما هي الحال في قرطاج - خرائب رومانية كثيرة، وإن كان من العسير التعرف على آثار يونانية (٣٨)، وقد ترجع أقدم المقابر هنا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ومكانها على جانبي الممر المائي، أما المقابر من العصر المتأخر، فبعيدة إلى الغرب والشمال.

هذا وقد ظلت «أوتيكا» مستقلة - على الأقل إسميا - عن قرطاج، حتى مرحلة متأخرة، ووراءها على الساحل حتى مضيق جبل طارق عدة مواقع لمراس، ولكن قلة منها هي التي تصورت إلى نفس الدرجة التي وصلت إليها مراكز الساحل التونسي، وليس هناك من ريب في أن هذا إنما يرجع أساسا إلى الصعوبة الكبرى في الوصول إلى الداخل (٣٩).

(٣٨) كلمة «يونانية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيرويكوس» (Punicus) - أي

قرطاجية، أعنى فينيقية (معالم تاريخ الإنسانية، ١٢ / ٥١٤).

(٣٩) ج كوتسو: المرجع السابق، ص ٩٧، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٨٥، نجيب

ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣) هيبو:

هيبو - أو «هيبو أكر» (Hippo Acra) هي «بنزرت» الحالية، وكان لها مرفأً عظيم في بحيرة بنزرت، وكانت مقراً ملكياً، ومن ثم فقد أعطيت «هيبو» لقب (Regius)، وأما كلمة «هيبو» فهي كلمة ليبية، وتذهب الأساطير أن «ليبيا» - وهو الاسم اليوناني لشمال أفريقيا - كان في الأصل إسم زوجة المعبود «بوسيدون» إله البحر، ووالدة «أجينور» ملك فينيقيا.

(٤) ليتس:

وهي المدينة الوحيدة التي أختيرت في موقع غير مناسب، في مجاورات خليج «سرتة»، ولم يكن لها مرفأً، غير مصب نهر.

(٥) موجادو:

كانت أبعد مكان فينيقي أمكن الكشف عنه على الساحل الإفريقي غرب إنما يقع إلى الجنوب من مدينة «موجادو» مباشرة، على الشاطئ المغربي، فيما بين الدار البيضاء وأجاديو، حيث يصب نهر «كسوب» في خليج صغير تذود عنه أمواه المحيط، جزيرة صغيرة، طولها ٣ كيلا، وعرضها نصف كيلو متراً، وتبعد عن الشاطئ بمسافة تتراوح فيما بين كيلو ونصف، وثلاثة كيلو مترات، وقد عثر هناك على ما يؤكد قيام مستعمرة فينيقية بها (٤٠).

(٤٠) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١١٠، ج. كوتتنو: المرجع السابق، ص ٩٧، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) المدن المغربية والمراكز الأثرية

(١) أشكار:

يقع موقع أشكار فى أقصى شمال غرب «طنجة» على سواحل المحيط الأطلسى، ويمثل هذا الموقع العصر الحجرى الحديث الخالص من كل تقليد، فلا وجود للأدوات الميكروليثية به، إلى جانب المجرفة والمعل، مما يشير إلى اكتشاف الزراعة، خاصة وقد عرفت هذه المنطقة الاستقرار والنظام الاجتماعى، وقد كتف «رومان» فى «وادي باث» على مقربة من طنجة، عن ثلاث مجموعات سكنية، لا يعد الواحد منها عن الآخر، بأكثر من خمس كيلو مترات (١).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن «فوفرى» إنما يذهب إلى أن مصر إنما كانت وراء التغيرات التى مر بها العصر الحجرى الحديث فى المغرب القديم، من القفصية فى مرحلتها العليا الحديثة إلى العصر الحجرى الحديث ذى التقليد القفصى، والذى امتد من حوالى ٥٢٠٠ ق.م إلى ٣٥٠٠ ق.م، ويبدو أن العصر النيوليتى فى المغرب إنما قد تأخر عنه فى مصر، فلقد أرخ «كربون ١٤» لموقع جاعتشة بحوالى ٣٠٥٠ ق.م + ١٥٠ سنة ق.م، وهو تاريخ قد يوافق الأسرة الثانية فى مصر (٢).

(٢) المقطع:

ويقع فى مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأول شمال غرب قفصة، والثانى على مبعدة كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادى يياش، على مبعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(٣) أكاكاس:

وهى جبال تقع فى أقصى الجنوب الغربى للجماهيرية الليبية، قرب حدود الجزائر وفيها استؤنثت الماشية.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك - فيما يرى فيرون - ما يشير

(1) A. Rhubman, op. cit., p. 105 - 106.

(2) L. Balout, op. cit., p. 481.

إلى أن الصحراء وشمال أفريقيا، إما كانت في العصر الحجري الحديث مسكونة بقسوم من الرعاة قدموا من الشرق، مع قطعان لهم^(١)، من الخراف والماعز^(٢) والثيران ذات القرون، والبقر^(٣) والكباش، فضلاً عن الحصان المستأنس (حوالي ١٥٠٠ ق.م) والجمال المستأنس (ربما قبل القرن الثالث أو الرابع قبل

(١) يذهب بعض العلماء إلى أن استئناس الحيوان واستخدام الزراعة، إنما كان موطنهما الأصلي في مكان ما في الشرق الأدنى القديم، وطبقاً لرأى «مالك إيراني» فإنه في غربى آسيا، على أن هناك فريقاً آخر يعيل إلى أنهما قد ظهرا في أماكن مختلفة، ومستقلة عن أي تأثير اتصال، على أن «ريموند مورى» إنما يقترح نظريتين أوصل الحيوانات المستأنسة من الشرق الأدنى القديم إلى الشمال الأفريقي، عن طريق مصر. أولهما: على طول سواحل البحر المتوسط، وحتى المغرب القديم، ومنه اجتاز الأندلس. السحراوي بحثاً عن الماء، حتى وصل التاسيلي والهوفار، بينما يمتد الطريق الثاني مباشرة من مصر العليا (الصعيد) إلى الصحراء على طول خط عرض ٢٠ (عشرين درجة).

ولكن يقف دون ذلك أمران: الواحد: عدم وجود آثار استئناس الحيوان في مصر، أقدم من وجوده في الصحراء الوسطى (الصحراء الجزائرية)، كما أن «العير» أو «الحمادة» (وتقع جنوب جبال الهوفار في الجزائر، وتمثل مناطق عظيمة الاتساع تغطيها صحور شديدة الصلابة، عارية من الرواسب والخصوبة، بسبب فعل الرياح) إنما تعتبر طريق مرور من مصر العليا إلى الصحراء الوسطى، ومع ذلك، فلا أثر لماشية مستأنسة هناك (أنظر: أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦، C. B. M. Mc Burney, op. cit., p. 248).

A. R. Wilcox, *Rock Art of Africa*, New York, 1948, p. 35).

(٢) ليس هناك ما يميز الهياكل العظمية للماعز عن تلك التي للإغنام، وإن استؤنس الماعز أولاً، وهناك من يرجع أصل الماعز إلى النوبة، غير أن حفريات «أركل» في «شهينات» (٤٨ كيلا شمال أم درمان) أثبتت أن الماعز لم يستأنس محلياً، وإنما وجدت من الخارج، وعلى أية حال، فلقد وجدت آثارها في كهف «دوارف» في النوبة - حراء الجزائرية وفي جنوب السودان، وهناك احتمال دخول الماعز من كهف دوارف إلى شهينات، كما وصلت وادي النيل عن طريق التمسحي، ومن ثم فیهناك من يذهب إلى أن الإنسان في شمال أفريقيا قد استأنس الحيوانات من أ. أ. وفي وقت - بكر، وكان هذا اتجاهاً فرشته الظروف الطبيعية عليه، أما الزراعة فقد وصلتهم عن طريق أقوام شرقيين لأنظر:

A. J. Arkell, *Shaheinab*, p. 15 - 16.

وكذا.

R. Vaufray, *L'Art Rupestre Nord Africain*, 1939, p. 65.

(٣) هناك من يذهب إلى أن الماعز من المغرب القديم، الأولى كمير الحميم، وهو ببليل الأبقار السرية، والثاني صعيبر الحميم. يذهب العلماء إلى أنه من إيراني.

هذا العصر موضوع الحديث)، وكذا الفيل والخرتيت والجاموس الضخم^(٤)، ومن المؤكد أن الثور قد تم استثنائه حوالى عام ٤٠٠ ق.م، على الأقل.

(٤) برقة:

من المعروف أن شعوب البحر - بعد أن أخضعوا كريت - فكروا فى الإبحار جنوبا، وكان الشاطئ الأفريقى عند برقة Cyrenaica أقرب اليهم من أية نقطة أخرى (٢٨٨ كيلا)، ذلك لأن أقرب ميناء مصرى كان ضعف تلك المسافة تقريبا، ومن هنا نشأت علاقات ودية بين شعوب البحر وبين ريو برقة، فضلا عن ذلك فإنه من المحتمل أن التجارة المصرية البحرية قد حملت فى تلك الفترة، ومن هنا ربما كان النضال بين شعوب البحر ومصر من أجل تجارة البحر الأبيض المتوسط وربما كان ذلك هو نفس السبب الذى جعلهم يتضمون إلى الليبيين ضد مصر فى هذه الحرب^(٥).

هذا وقد عقد الفرعون «أحمس الثانى» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) حلفا فى الغرب مع «برقة» وتزوج من سيدة - وربما أميرة - من هناك تدعى «لاديكه»، كما عمل على تحصين حدوده الغربية، فأنشأ حاميات كثيرة على الشاطئ، وفى الواحات، وشجع إقامة الناس فيها، وبنى المعابد فى سيوه والبحرية والخارجة، ليجعل من الواحات الحصون الأمامية، إذا جد خطر، وحدث هجوم على مصر من يوناني ليبيا^(٦).

(٥) بئر العاتر (الحضارة العاترية):

موقع حضارى فى وادى جبانة قريبا من قسطنطينة فى الجزائر، على الحدود بينها وبين تونس - وكان «فردريك مورو» أول من أشار إلى الصناعة العاترية فى عام ١٨٨٨ م، وذلك عندما التقط «أدوات مذبنة» فى وادى سليحة (جنوب غرب

(4) H. Alimen, op. cit., p. 422.

R. Furon, Manuel de Prehistoire generale, Paris, 1958, p. 311.

(5) W. Resch, Das Rind in den Felsbilddarstellungen Nordafrikas, P. 5, 2. P. Beck et P. Huard, Tihesti, Carrefour de la Prehistoire Saharienne, Paris, 1969.

(٦) انظر: محمد بيومى مهران. مصر ٦٥٧/٣ - ٦٥٨.

قنصية)، وإن كان أكبر، قد سبقه إلى ذلك، عندما نشر عام ١٨٨٦م عن مواقع ما قبل التاريخ في «غزان» ووصفها بأنها «موسيرية» وإن كانت انحصارة العاترية - رغم تشابهها مع الحنطرة الموسيرية في كثير من الوجوه - إنما تختص بالأدوات المذنية^(٦).

وفي عام ١٩١٩ نشر «بيجاس»^(٧) دراسة عن التقنيات الحجرية القديمة في شمال أفريقيا، كما أشار إلى اكتشاف الموقع الموسيري النموذجي (الأويرة) ثم اكتشف موقع «بئر العاترة» وعثر فيه على الصناعة العاترية تحت عمق ثلاثة أمتار في نفس الطبقة، مع الصناعة الموسيرية، ومنذ ذلك التاريخ دأب «بيجاس» على استخدام مصطلح العاترية، بدلا من الأويرة، ثم أقر «مؤتمر مونبلييه» عام ١٩٢٩م هذا المصطلح، ويعني التقنيات الموسيرية ذات الأدوات المذنية^(٨).

وعلى أية حال، فلقد وجدت العاترية بمظهرها الصميم في كثير من المواقع والطبقات الأثرية في جميع أنحاء المغرب، فوجدت في الرسومات السطحية لوادي جبانة ووادي جوف الجمل وكاف الأحمر ووادي سرديس، وفي رمال جبل عواش، وفي عقلة شعاشع، وفي كل رسوبات مقاطعة قسطنطينية، وفي رواسب الرمل الأحمر على طول الساحل الجزائري في كازويه وضواحي بتزوت وغيرها، وفي كهوف المملكة المغربية، في الحنزيرة، وفي الرواسب السطحية لوادي جوربا وكهوف دار السلطان وتافغورال، وبيت مليل والحنك^(٩).

هذا ويبدو أن الإنسان في هذا العصر، قد استعمل — بجانب الحجر — الأخشاب والجلود والعظام وبيض النعام أو قشوره، كما بدأ يدرك حقيقة وجود قوى خفية تحكم في الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية، وأراد تجسيم

(6) A. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Arts, et Metiers Graphiques, Paris, 1955, p. 269.

(٧) أنار:

M. Reggasse, Etudes de Palethnologie Maghrebine (Nouvelle Serie), L'Anthropologie, 25, 1919-1920.

(٨) أم العير العقون. العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال أفريقيا منذ أقدم العصور

حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٧

(9) R. Vaufrey, op.cit, p. 106

هذه القوى فى أماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره^(١٠). هذا وقد اختلف الباحثون حول المناخ الذى ساد الشمال الأفريقى إبان عصر الحضارة العاترية، فمن يرى أن المناخ كان رطباً حاراً (أى آخر فترة مطيرة)، ومن يرى أنه كان جافاً، ومن يحاول التوفيق بين الاتجاهين، فيذهب إلى أن المناخ إنما كان وقت ذاك يتميز بالترطوبة الشديدة، مع انخفاض قليل فى درجة الحرارة^(١١). وعلى أية حال، فالرأى عند «كاتون طمسون» أن موقع الخزيرة (طبقة أ) فى المغرب الأقصى، إنما يمثل أقدم مرحلة للعاترية فى الشمال الأفريقى^(١٢)، ثم انتشرت جنوب الأطلس الصحراوى فى العصر العاترى الوسيط، ثم إلى الشرق حيث وجدت بعض المواقع العاترية فى ليبيا، كما فى وادى ما صودا، ووادى درنة، اللذين اكتشفهما «ماك برنى» عام ١٩٤٩م، ووصفهما بالفللوازيه المستيرية، ومن ثم فقد أصبحت منطقة الجبل الأخضر فى ليبيا بمثابة جسر انتقال الحضارة العاترية من الشرق إلى الغرب أو العكس، وتذهب «كاتون طمسون» إلى أن العاترية سرعان ما انتقلت إلى الواحات المصرية - سيوه والداخلية والخارجة - حوالى العصر الحجري القديم الأعلى المبكر، بدليل وجودها فى واحة الخارجة فوق طبقة اللفللوازيه مباشرة^(١٣).

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخري - طيب الله ثراه - إلى أن «ستون كان» (H.W.Seton Ken) و «كومنجتون» (C.W.Cummington) إنما قد عثرا فى واحة سيوه على بعض الأدوات التى نسبها إلى تأثيرات غربية (شمال أفريقيا)، ووصلت مصر أثناء العصر الحجري القديم الأعلى^(١٤).

(١٠) رشيد الناضورى، المرجع السابق ص ١٠٥.

(11) H.Alime, Prehistoire de L'Afrique, Ed.N.Boubee, VI, Paris, 1955, p. 63 - 64.

(12) Caton - Thompson, The Aterian Industry, Its Plice and Significance in The Paleolithic World, in JRAI, V. 1946, p. 115.

(13) G.Caton - Thompson and E.W. Gardiner, Kharga Oasis in Prehistory, London, 1952, p. 31.

(14) A.Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, p. 71.

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن الصناعة العاترية (العاطرية) قد وصلت إلى مصر في العصر الحجري القديم الأوسط، ولعل أهم مواقعها إنما كانت تلك التي كشف عنها «ساندفورد» على مقربة من تفادة، وفيما بين دندرة والمراشدة، فضلا عن تلك التي على مقربة من نجع حمادى (بمحافظة قنا) وأسيوط، إلى جانب ماكشف عنه «سليجمان» فى ضواحي طيبة «الأقصر»، وفي العرابة المدفونة «مركز البلينا - بمحافظة سوهاج»، وأخيرا فلقد كشفت «كاتون - طمسون» عن وفرة من الصناعة العاطرية فى واحة الخارجة (١٥)، بل إن هناك ما يشير إلى وصول النماذج العاطرية التى وجدت فى مصر إلى المملكة العربية السعودية (١٦).

هذا وقد اختلف الباحثون حول أصل هذه الحضارة العاطرية، فهناك من ينسبها إلى الشمال الأفريقى، ويرى أنها ظهرت فى غرب الجزائر، وفى المغرب الأقصى، ثم بعد ذلك فى شرق الجزائر وتونس (١٧)، على أن هناك وجها آخر للنظر تذهب صاحبه - كاتون طمسون (١٨) - إلى احتمال أصل أسيوى لصناعة النصال العاترية انتقل إلى شمال أفريقيا باعتبار الحضارة السبيلية مرحلة انتقال (١٩).

(15) C.Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, Fig, 31-35, p. 13-35, p. 128 - 129.

K.S.Sandford and W.J.Arkell, Paleolithis Man and The Nile Fayum Divid Chicago, 1933, p. 116 - 118, Fig, 47-52.

G.Caton - Thompson and E.W. Gardiner, in GL, LXXX, 1932, p. 404.

(16) R.M. Gramly, Neolithic Flin Implement Assemblages from Suadia Arabia, in JNES, 30, 1971, p. 177 - 185.

G.Caton - Thompson, in JRAI, LXXVI, 1946, p. 89.

(17) L.Balout, op.cit., p. 334.

(18) G.Caton- Thompson, The Aterian Industry, its Place and Signetiance in The Palealitic World, in JRAI, V, 1946, p. 119.

(١٩) أنظر عن الحضارة السبيلية (محمد ييوى مهران - مصر - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠١ - ٢٠٦).

وأيضا، استأذنا الدكتور الناصوري إلى أن الانتاجية المادية متدنية مستأذنا
 الدكتور الناصوري المستيرية الفلسطينية - طيب الله ثراه - في الإنتاج
 الصناعي وفي انتماء كل منهما لفترة زمنية واحدة، وقد طبقت طريقة كاريون
 ١٤ المشيخ، شلى بعض البقايا المتفحمة التى عشر عايرها غنى مواقع فى طبقات
 فى منطقة وادى درنة، فأدى إلى تقدير عمر هذه البقايا بموالى
 كما أن هناك شياها بين البقايا العظمية الإنسانية من هذه المرحلة
 التى يدورنالى الفلسطينية، وقد أدى ذلك كله إلى وجود صلات
 بين غربى آسيا - وخاصة فلسطين - وبين المغرب - وخاصة
 شرق ليبيا، الأمر الذى يدل على وجود جانب شرقى - فضلا عن
 العناصر المحلية - فى حضارة العصر الحجري القديم الأوسط فى المغرب (٢٠).

(٦) تونس:

وتقع على مبعده ١٦ كيلا من قرطاج، وهى الآن عاصمة جمهورية تونس
 العربية.

(٧) دار السلطان:

هى مغارة تقع على مبعده ٦ كيلا جنوب غرب الرباط، ويتكون من بقايا
 مواقع نيوليتية ذات تقليد قفصى ثم مجموعة من النصال والمحكات، وأما فخار
 فهو - فيما يرى رومان - أكثر تطورا من موقع فخار رديف، كما أن زخرفته جدد
 متفوقة، وهى التى تسمى تقنية مسحة المشط التى تغطى مساحة الإناء بأكمد،
 وقد يكون له فى بعض الاحايين نتوءات (مثل أذنين)، ربما لرفع الإناء (٢١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد عشر على عدد من البقايا
 العظمية الإنسانية فى الكهوف والمغارات الساسية المواجهة للمحيط الأطلسى.
 التى تمتد على طول الساحل المغربى مثل كورف: مغارة العالية وأشقر فى

(٢٠) رشيد الناصوري المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٨ وانظر

(٢١) G.M. Mc Burney, 'The Stone Age of The Northern Africa,

Lodon, 1960, p. 168.

(21) A.Rhubman. op.cit., p. 68.

«نومى» ويمتدل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا - Mulucha) وكانت مدينة
«شرشال» عاصمة لموريتانيا القيسرية، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا
الطنجية (١١٠).

(١١٠) قفصة:

هى المدينة الرومانية القديمة (Capsa) فى جنوب تونس وهى «قفصة» الحالية
فى إقليم «قسطيلة» شمالى شط الجريد.

هذا وقد نسب إلى مدينة «قفصة» «الحضارة القفصية»، ويذهب العلماء إلى
أن الموقع النموذجى لهذه الحضارة، هو «حقل الجازون» أو «الرماديان».

وكان «دى مورجان» أول من حدد سميتها الصناعية (٢٥)، معتمداً على المادة
الأثرية من موقع «المقطع» (على بعد ١٤ كيلا شمال غرب قفصة)، وقد قام
كل من «فوفرى» و «جوير» بحفائر فى هذا الموقع.

هذا وقد ظهر أصحاب هذه الحضارة حوالى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد،
وهم قوم ذو قوام طويل رشيق، من جنس البحر المتوسط، وإن لم يخلو من
الصناعات، شرب الزنجبة، وقد ازدهروا فى منطقة غير محددة تماماً، وإن كانت على
سبيل التمييز فى الجزء الداخلى، دون الإمتداد - على ما يظهر - إلى أقصى
الحدود الغربية لشمالي أفريقيا، أو إلى الصحراء الجنوبية، وقد انتهت هذه الحضارة
القفصية حوالى عام ٤٥٠٠ ق.م (٢٦).

هذا وقد أطلق العلماء الفرنسيون على مواقع الحضارة القفصية «الحلزونات»
أو الرامات (Escargotieres)، وهى وكام من الرامد أو الحجارة التى استعملت
كأواني الفخار لنوع من القواقع، وتبلغ أبعادها أحيانا ٢٠٠ مترا طولا، ٥٠ مترا
عرضا، مع أرتفاع، هذا فضلا عن الأدوات الحجرية التى كان يستخدمونها
الإيمان.

١٤٠٠، ريسن «نومى» المرجع السابق ص ٣٢٥، ٣٣٢.

(٢٥) J.De Morgan. Les Premieres Civilizations. Paris, 1901.

(٢٦) جيهان ديراخ. تاريخ أفريقيا العام ص ٢٣٢.

G.Camps, op.cit.,p. 159, 262, 155.

وذلك ما يشير إلى بداية التعبير الفكري؛ عند إنسان الحضارة القفصية، الأمر الذي سوف تتحدد ملامحه بصورة واضحة في العصر الحجري الحديث - مختلف عن إنسان «مشتا العربي» (حامل الحضارة الإيبرو مغربية)، وأنه من جنس البحر المتوسط، وإن كان يحمل ملامح زنجية، وقد مارس هذا الإنسان عادة صقل الحجارة في صنع الكرات المثقوبة - والتي ربما كان يستخدمها لدق وطحن الحبوب البرية، وإن لم يثبت عدم معرفته للزراعة -، كما استخدم الفخار، ومارس عادة قلع الأسنان، بطرق تختلف عند الرجل عنها عند المرأة، فبعضهم تعلق أسنانه العلوية، وبعضهم تعلق أسنانه السفلية، وإن لم يعرف الهدف من هذه العادة حتى الآن (٢٧).

وهناك ما يشير إلى بداية التعبير الفكري؛ عند إنسان الحضارة القفصية، الأمر الذي سوف تتحدد ملامحه بصورة واضحة في العصر الحجري الحديث، هذا فضلا عن ممارسة النقش على قشور بيض النعام ثم صياغتها في حبات لنظم عقود الزينة، ومن المعروف أن استعمال قشور بيض النعام إنما كانت من مظاهر الصناعات الأصلية في الشمال الأفريقي في المرحلة التي أعقبت العاترية (٢٨).

هذا وقد انتشرت الحضارة القفصية حول موارد المياه والأماكن الصعبة المال في تونس وشرق الجزائر، وخاصة في منطقة «تبسة»، حيث وجدت بها ما يزيد عن تسعين «رمادية»، ولعل من أهم مواقعها: عين مترشام وبشر أم علي وعين دو كازة وبشر حميرة وعين غيلان وواد مدفون وكف ركنية وخنقة موحد وفم السلجة وفج إبراهيم والمقطع ورديف، وتشير مواقع سكني القفصيين هذه - فيما يرى بالوه - إلى أن القوم إنما كانوا غزاة، لا يحسنون بأمان فردي أو جماعي، ومن هنا كانت سكناتهم في مواقع صعبة المال، فضلا عن سيطرتهم على موارد المياه (٢٩).

(27) R.Fauvrey, La Préhistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb, Paris, 1955, p. 127, 257.

L.Balout, op.cit., p. 100.

(28) H.Alimen, op.cit., p. 78.

(29) L.Balout, op.cit., p. 399.

على أن القفصية الصميمة لم تمتد إلا في الجزء القارى من جنوب تونس، وتتفق حدودها مع قاطعة قسطنطينية الجزائرية، ولا تصل إلى الساحل الشرقى، كما أنه في الغرب لا تتعدى الكتل الجبلية لجبال أطلس، ولا تتجاوز شمالها، ثم هي بعد ذلك لا وجود لها في الصحراء أو مقاطعات الجزائر ووهران، فضلا عن المغرب الأقصى، ومن ثم فقد اعتبر البعض مرحلة القفصية الصميمة مرحلة حضارية قصيرة الأجل (٣٠).

وأما القفصية العليا، فقد شملت كل منطقة القفصية الصميمة، فضلا عن أنها زحفت إلى الشمال، ولكن دون الاتجاه نحو الشرق، ووصلت إلى الحد الشمالى للهضاب العليا، ولكن دون بلوغ البحر، أما من جهة الغرب فهي لم تتجاوز خط التنصيف لمدينة الجزائر، الذى يرى فيه «فوفرى» الحد الغربى بيقفصية العليا، وعلى أية حال، فلقد أربط انتشار الحضارة القفصية بأماكن وفرة المظران (٣١).

هذا وقد قسم «بالوه» الصناعة القفصية إلى مرحلتين، مرحلة القفصية النموذجية، وتشمل أدوات كبيرة من نصال وأزاميل، ثم تطورت إلى القفصية الحديثة التى تتميز باتجاه صناعتها إلى الأدوات القزمية واتخاذ الاشكال الهندسية، وقد أرخ «كربون ١٤» للمرحلة النموذجية فى موقع «المقطع» (٣٢) بفترة تتراوح فيما بين ٦٦٥٠ + ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، وللفترة الحديثة فى موقع «الماء الأبيض» فى تبسة بالجزائر، بحوالى ٥٠٥٠ + ٢٠٠ سنة قبل الميلاد (٣٣).

هذا وقد ظهرت القفصية فى «كهف هوافتح» فى الطبقة (E) والى امتدت زمنيا فيما بين عامى ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ ق.م، وفى هذا الكهف تبدأ الحضارة

(30) R.Vaufrey, op.cit., p. 195.

(31) Ibid., p. 241.

(٣٢) المقطع: الموقع الأثرى النموذجى للحضارة القفصية، ويقع فى مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأول شمال غرب قفصة، والثانى على مبعدة كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادى بياش، على مبعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(33) H.Alimen, op.cit. p. 82.

القفصية في الانخفاض في عدد الأزاميل والمحكات في الطبقة «الإبيرو مغربية» ثم ظهور اللون الأحمر على النصال الكبيرة، ووجود قشور بيض النعام مزخرفة بأشكال هندسية، ورصف عقود من هذه القشور (٣٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عددا من الباحثين إنما ينسبون آثار بعض المواقع الأثرية المصرية إلى الصناعة القفصية (نسبة إلى قفصة في إقليم قسطلية، شمالي شط الجريد في تونس) - بما في ذلك المستوى الثالث لقرية السبيل (في مجاورات مدينة كوم امبو بمحافظة أسوان)، وصناعة حلوان القرمية، وكل ما نسبته «ماندفورد» و«أركل» إلى الصناعة السيلية الحديثة - معتمدين في ذلك على أن الصناعة القفصية إنما قد وجدت في الشمال الأفريقي وفي سورية وفلسطين - أي في غرب مصر وشرقها - ومن ثم فمن الصعوبة بمكان، أن لا توجد هذه الصناعة في مصر، ثم يخللون قلة المواقع القفصية في مصر، بأن القوم في أرض الكنانة إنما كانوا يقتربون في السكنى من شواطئ النيل، وأن الطمى الحديث للنيل، ربما قد طمر بقايا الصناعة القفصية في تلك المواقع (٣٥).

ولعل أهم المواقع التي نسبها بعض الباحثين إلى الحضارة القفصية، إنما هي ستة مواقع اكتشفها الأمير كمال الدين حسين في منخفض عين دالة وشمال الفرافرة في الصحراء الغربية، وتبعد هذه المواقع الستة عن ينابيع المياه بما لا يزيد عن أربع كيلو مترات، ومن أدواتها شظايا، بعض منها طويل، وآخر قزمي، وكذا مكاشط ومحكات مقعرة، ونصال مثلثة، ومواقد صغيرة، مع كسرات من قشور بيض النعام (٣٦).

هذا وقد عثر «جبرودي كوتفيل» على مواقع للصناعة القفصية في منطقتين، الواحدة: حول طيبة (الأقصر)، وتنتشر حول وادي المدامود، بين الأقصر وخزام

(34) G.B.M.Mc Burney, op.cit., p. 333.

(35) R.P.Bovier - Lapierre, L'Egypte Prehistorique, Percis de L'Histoire de L'Egypte, Le Caire, 1932, p. 34.

(36) Kamel El Din Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, Recentes Explorations dans Le Desert Libyque-BIE, 1929 - 1930, XII, Le Caire, P. 123- 126

(على مبعدة ١٥ كيلا شمال الأقصر)، فضلا عن مواقع أخرى في مصر العليا (الفصعيد)، على مقربة من الصحراء الشرقية، وأما المنطقة الثانية فكانت في الفيوم، عند قناة هواره (على مقربة من مدينة غراب) وفي عزبة جورج، وجنوب جبال الروسى، وقد وجدت أدوات هذه المواقع على السطح، ويذهب الأثرى «جيرودى كوتفيل» إلى أن هذه الصناعة القفصية الوافدة متقنة الصنع ومتفوقة على سابقة (السبيلية)، ومن ثم فهو يستبعد احتمال أن تكون الحضارة القفصية قد تطورت من الصناعة السبيلية، وإلى هذا القول يذهب «أدموند فينيار» (٢٧)، أيضا أضف إلى ذلك أن بعضا من الباحثين إنسا قد نسبوا آثارا لهذه الحضارة «المستيرة - قفصية» في شمال مدينة حلوان، بين خط السكة الحديد وعزبة الرائدة (٣٨)، ويعتقد «جيرودى كوتفيل» أن مصر قد شاركت في تطور صناعة قفصية في مصر، مشابهة للإبيرو مغربية، وذلك بوجود الآلات الميكروليثية في موقع حلوان عند فتحة وادى خوف، وفي كوم امبو بمحافظة أسوان (٣٩).

وعلى أية حال، فرغم إمكانية وصول مؤثرات قفصية إلى مصر في هذه الفترة من خواتيم العصر الحجري القديم الأعلى، فلعل من الأفضل التحفظ بشأن هذه الآراء - وخاصة تلك التى ترى فى كل صناعة وجدت فى مصر تمسب المستيرية، إنما هى صناعة قفصية أو قفصية متطورة (٤٠) - إذ أن كل ما عثر عليه إنما هو لقىة سطحية لبعض القطع والآلات الحجرية، زعم مكتشفوها أنها قفصية - كما فى نواحي أسوان والمدامود وحلوان فى الوادى، وعين دالة فى الصحراء الغربية، ومنخفض الخارجة (٤١).

(37) G.Cotteville, L'Egypte avant L'Histoire, BI FAO, 33, 1933, p. 28 - 34.

(38) A.J.Arell and K.S. Sandford, Paleolithic Man and The Valley in Upper and Middle Egypt, p. 116 - 118.

(39) Giraude Cotteville, op.cit., p. 40.

(40) Ibid., p. 28.

(41) G.Caton - Thompson, Man, 32, 1932, p. 131 - 133.

K.Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, op.cit., p. 126.

E.Massoulard, Prehistoire et Protohistoire de L'egypte, Paris, 1949, p. 23.

C. Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, p. 129 - 130.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى موقع نفاية قصب السكر، على مقربة من مصنع السكر فى نجع حمادى (بمحافظة قنا)، وعلى مقربة من المدينة الرومانية «ديوسبوليس بارفا»^(٤٣)، حيث كشف «أدموند فينيار» عن مجموعة من الآلات الحجرية، تتميز بوجود مجموعة كبيرة من الأزاميل - فضلا عن بعض المحكات، وقطع أخرى مشذبة ذات نمط خاص - ونظرا لأن الأزميل هو آلة الصناعة «الأورنياسية» المميزة - إلى جانب اعتبارات تقنية أخرى - فقد نسب «أدموند فينيار» هذا الموقع إلى «الأورنياسية الأوربية»، وأن سكان هذا الموقع إنما جاءوا إلى مصر من سورية أو من تونس^(٤٣).

وقد أثار رأى «فينيار» هذا جدلا بين العلماء، فذهب «هرمان يونكر» إلى أن هناك شبهة بين موقع نجع حمادى هذا، وبين المستوى الثانى للسبيلية، وأنهما ربما كانا متعاصرين، ويصلان إلى بداية «القضية»، بينما المستوى الثالث - الأكثر تطورا - ما هو إلا «القضية» ذاتها^(٤٤)، وأما «دى مورجان» فقد عثر فى مواقع سطحية تنتمى إلى هذه المرحلة على فؤوس صنعت بنفس التقنية التى

(٤٣) «ديوسبوليس بارفا» مكانها الآن قرية «هو»، وتقع على بعد ٥ كيلا جنوب غرب مدينة نجع حمادى، وربما كانت (هو) هذه تصحيفا للاسم المصرى القديم «حو» أو «حات» (والتي كان اسمها الكامل «حات سخم نوت») عاصمة الاقليم السابع من أقاليم الصعيد، ويسمى «حات سخم» بمعنى «قصر الصاجات»، هذا وقد سميت «هو» كذلك «بكنمت» بمعنى الكرم، وهو اسم واحة الخارجة المعروفة بخمرها، وكانت تتبع الاقليم السابع هذا من الناحية الادارية (محمد ييوسى مهران - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٠ - ١٦١ وكذا).

P.Lacau et H.Chevrier, Une Chapelle de Sesostri Ier a Karnk, Cairo, 1956, p. 225,

H.Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, IV, p. 45, 129, 130.

(43) E.Vignard, une Station Aurignacienne A Nag - Hammadi, (Haute Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921, p. 1- 20.

(44) H.Junker, Bericht über die Bon der Akademie de Wissenschaften in Wien Nach dem Westdelta Entsendete Expedition, Wien, 1928, p. 14.

صنعت بها قزوس نجع حمادى (٤٥).

ويذهب الدكتور سليمان حرين إلى أن الأزاميل لا تعتبر دليلا مميزا للعصر البابليولىتى الأعلى، فقد وجدت فى فلسطين فى زمن الآشولية العليا، كما عثر فى أرمنت (٤٦) على أزاميل، بعضها يشبه تلك التى عثر عليها الأثرى الفرنسى «أدموند فينيار» فى نجع حمادى. ثم يحلص - بعد عدة مقارنات بين بعض الآلات الحجرية من الموقعين - إلى أن الواحد منهما إنما كان بهامصر الآخر، وأنهما ينتميان إلى عصر الحجر النحاس (٤٧).

على أن هناك افتراضا عكسيا يذهب أصحابه إلى أن السبيلية فى مصر العليا هى المهد الذى ولدت فيه الحضارة القفصية، وكل صناعة ميكروليثية أخرى، غير أن «بالو» إنما ذهب إلى أن تقويم السبيلية لا يعتمد على تسلسل الطبقات، وأن انقطاع الصلة بين إنسان «نياند رثال» (حامل الصناعة المoustيرية) وإنسان الصناعة القفصية، لا يتفق مع وجود صلة تطور، ومن ثم فإن البعض إنما يرى أن السبيلية والقفصية حضارتان ميكروليتان متشابهتان إلى حد كبير، من حيث التقنية والشكل، وخاصة فى المرحلة الأخيرة من تطورهما (٤٨)، غير أن هذا الاتجاه لم

(45) J.De Morgan, La Prehistiore Orientale, II. L'Egypte et L'Afrique de Nord, Paris, 1926, fig. 86, 88, p. 31, 82.

(٤٦) أرمنت: كانت واحدة من المدن الأربعة التى تكون الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد (طيبة والدمارد وطود)، قبل أن ينتقل مركز النقل إلى طيبة (الاقصر) لتصبح العاصمة، وتقع أرمنت على مبددة ١٥ كيلا جنوبى الاقصر ٧٤٧ كيلا جنوبى القاهرة، وكان مبددها «موتوس»، وقد سميت فى العبد الاغريقى «هرموتس»، وأصبحت منذ الأسرة الخامسة والعشرون تحوى جبانة العمل المقدس «بوحيس» (الموسوعة المصرية ٩٠/١، وكذا، محمد بيومى مهران: الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية ص ١٣٥ - ١٣٦، وكذا:

A.H Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 116.

(47) S.A. Huzayyin, The Place of Eyp in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, 1941, p. 292.

R.Mond, O H.Mayers, Cemeteries of Arnant, London, 1937, p. 198-199.

(٤٨) أم الخير العتود المرجع السابق ص ٥٢، وكذا L.Balout, op.cit., p 416.

يعد أن يكون مجرد فرض، وليس نظرية علمية، فضلاً عن أن تكون حقيقة تاريخية.

هذا وقد استمر الإنسان في تشكيل بعض القطع على هيئة معينة كما في كهف Marhsal و «كهف أشكار» ، هذا إلى جانب المجموعة التي اكتشفها Bu-chet والتي رأى فيها Kochler رموزاً قفصية مرتبطة بالمعبودات النسائية التي سادت رموزها حوض البحر المتوسط، وقد عرفت بمعبودات أشكار (٤٩).

وهناك أيضاً إمكانية وجود غاية سحرية في هذه الرسوم، على أساس تصور الإنسان وإظهار تحكمه فيها، ليحمل في طياته معنى تجسيم هذه الفكرة في الواقع، ذلك لأن الإنسان - رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجري القديم - فهو لا يزال يبحث عن الأمان والطمأنينة، فضلاً عن الانتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله.

هذا وتؤرخ هذه الرسوم بالفترة التي تمتد من حوالى منتصف الألف الثالث وحتى منتصف الأول قبل الميلاد، وهى فترة تقابل فترات هامة من صميم العصر التاريخى في مصر الفرعونية، الأمر الذى يؤكد أن هذه الرسوم إنما تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة، مما يعد استمراراً للصلات المصرية ببلاد المغرب، وإن كان هناك اتجاه إلى أن هذه الرسوم إنما قد جاءت من غربى أوروبا وأسبانيا، أو هى تطور من الحضارة القفصية، وإن كان هذا الاتجاه يصعب الإعتماد، إذا ما قورن بالأدلة الأثرية الأنفة الذكر (٥٠).

وعلى أية حال، فلقد كشف فى المستويات السفلى من «تل سوس» على مجموعة من التماثيل الصغيرة - الحيوانية والإنسانية - والمصنوعة من الحجر أو الطين أو العاج (٥١)، وقد كشف فى مصر عن تماثيل من الصلصال فى مقابر

(49) H.Camps - Febrer, op.cit., p. 401.

H.Kochler, La grotte d'Achakar au Cap Spertel, Bull, de Inst, d'Et des Reliy. de Eveleche de Rabat, 1931.

R.Vaufrey, op.cit., p. 365.

(٥٠) رشيد الناضورى: الرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٤

البدارى ونقادة - وكذا فى العالم الإيجى - تمثل إلى حد ما تلك التى وجدت
«أشكار» (٥٢)، مما يشير إلى انتشار هذا النوع فى إقليم البحر المتوسط، وعلى أية
حال، فرغم اختلاف التفسيرات من حول هذه الأشكال، فأكبر الظن أنها ترتبط
بمعبودات البحر المتوسط، كرمز أنثوى لشعائر الخصوبة.
(١١). قورين: (قورينة)

أنشأ الدريون فى عام ٦١٣ ق.م، مستعمرة «قورينة» على الشاطئ الشمالى
البعيد فى أفريقيا، أخذت تهدد استقلال القبائل الليبية، فضلا عن اغتصاب
مساحات واسعة من أملاك الأهالى، إلى جانب الإضرار بالمصالح المصرية، بل
وربما بتجارة اليونانيين فى أفريقيا عموما.

وهكذا نشأ نزاع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية، وبين
هذه الجماعات الدورية الإغريقية التى استعمرت «برقة» وما حولها، استعمارا
تجاريا تحول إلى استعمار سياسى، أصبحوا به سادة البلد، واتخذوا من مدينة
«قرينة» (Cyrene) عاصمة، وشيئا فشيئا ازدادت أعداد المهاجرين، وفى نفس
الوقت ازداد ضيق الليبيين بمنافستهم لهم فى أرزاقهم وأرضهم، فضلا عن
تعاليمهم عليهم، ومن ثم فقد لجأ «إديكرات» - أحد رؤساء الليبيين إلى الفرعون
«إبريس» يلتمس حمايته.

وهكذا وجه الفرعون «واح إيب رع» (إبريس ٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) جيشا
إلى هذه الناحية، غير أن هذا الجيش المصرى إنما لقى هزيمة منكرة، حين وقع
فى كمين بسبب خيانة بعض ضباطه من اليونانيين، وكاد أن يبيده يونانيو ليبيا،
ولم يعد منه غير القليل، الأمر الذى أدى إلى ثورة المواطنين فى مصر ضد
الفرعون وأعلن من نجوا العصيان، واتهم الجميع - المواطنين والجنود المصريون -
الفرعون بأنه دبر هذه الحملة ليتخلص من المصريين فى الجيش، حتى يزداد
تسلطا، وأنه قد أسرف فى احتضان الإغريق على حساب المواطنين المصريين،
وكان لكل من الإتهامين نصيب من الصعة.

(51) H.Camps- Febrer , op.cit., p. 402.

(52) A. Jodin, Les grottes de Khrl a Achakar, (Province de
Tanger), Bull d'Archeol. Neroac, III, 1959, p. 249 - 331.

وانتهت الأمور بقتل الفرعون إبريس عند «مومفيس» (كوم الحصن - مركز كوم حمادة - بمحافظة البحيرة)، أو على مقربة من «الطرانة» على الفرع الكانوبي للنيل، أو كما كانت تسمى قديماً «سخت مافكا» (٥٣).

(١٢) كهف حجفة الطرة: (حكفت الطير):

ويقع على مبعدة ٢٤ كيلاً من بنى غازى، عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى، حيث عشر على آثار مرحلة الانتقال فى أرضية الكهف، فضلاً عن الصناعات النصلية، وخاصة الأسلحة الميكروليثية والأزاميل الدقيقة.

(١٣) كفه حجفة الضبع: (حكفت الضبعة):

وهو فى «برقة» حيث عشر على أسلحة كثيرة مختلفة الأحجام، مما يؤكد اعتبارها منطقة إنتقال حضارى، ذلك لأن التوصل إلى صناعة حجرية جديدة لا يعنى أبداً الإنقطاع الفجائى عن التقاليد الحضارية السابقة، وإنما المفروض منطقياً أن يسير التقليدان جنباً إلى جنب، حتى يحل القديم محل الجديد.

(١٤) كهف هوافتيح:

وثالثهما «كهف هوافتيح» (٥٤)، والذي تعتبر طبقاته الأثرية بمثابة سجل حى

(٥٣) محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الثالث، ص ٦٥٦-٦٥٨، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢٨٠-٢٨٢، وكذا:

A. A. H. Gardiner, op. cit., p. 361 - 362.

S. A. Cook, CAH, III, 1965, p. 401.

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 281 - 284.

Herodotus, II, 169. W. J. Wiseman, op. cit., p. 94 - 95.

(٥٤) كهف هوافتيح (Haua Fteah): كشفت عنه بعثة كمبريدج فيما بين عامى ١٩٥١،

١٩٥٥م، على مقربة من سوسة فى ليبيا (إلى الشرق قليلاً من مرمى سوسة، وهى أبو لونا القديمة، بمنطقة الجبل الأخضر) وأرخ له «كربون ١٤» ما بين ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويعد هذا الكهف من أكبر وأوسع كهوف عصور ما قبل التاريخ، ربما فى كل حوض البحر المتوسط، وشكله نصف دائرى بقطر ٨٠ متراً، ويبعد عن ساحل البحر ببضعة مئات من الأمتار، وتوجد فى سطح الكهف آثار من عهد الإستهيطان الإغريقى (القرن ٧ ق. م)، ثم آثار الليبيين القدماء، ثم أدوات من العصر الحجري الحديث، ومع أن عمق الحفريات وصل إلى ١٣,٥ متراً، غير أن عمق الترسبات غير معروف (أنظر عن كهف هوافتيح:

C. B. M. Mc Burney, the Hawa Fteath (Cyrenatca) and the Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1967).

لتاريخ الانسان فى هذه المرحلة، وما تلاها حتى العصر التاريخى، حيث عشر على كميات كبيرة من الأسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجفة الطيرة، ولتحدث الان عن الحضارتين الوهرانية والقفصية.

هذا فضلاً عن آثار العصر الحجري الحديث فى موقع «هوافتيح» بمنطقة الجبل الأخضر فى برقة، وعلى رأسها الفخار، إنما تثبت توصل الانسان هناك إلى الإستقرار والزراعة، وقد طبقت طريقة «كربون ١٤» المشع على آثار الطبقة الأخيرة فى موقع هوافتيح، وأرخت نتيجة لذلك بحوالى النصف الثانى من الألف الخامس قبل الميلاد(٥٥).

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى موثرات مصرية واضحة فى هذه الآثار الليبية، فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم وبين موقع هوافتيح، والأمر كذلك فى الصناعات الحجرية، كرؤوس السهام، والتي لم يعثر على جذور لها فى المواقع الليبية، الأمر الذى يؤكد وجود التأثيرات المصرية، خاصة وأن حضارة الفيوم، فيما يرى كثير من الباحثين - ومنهم سليمان حزين، وكاتون طمسون، وبرتر، وجاك فاندبييه، ووليم هيز - إنما كانت أسبق من حضارة مرمدة(٥٦)، ذلك لأن مجتمع الفيوم، رغم أنه كان مجتمعاً مستقراً، ولكن دون أن يقيم أكواخاً، أو يتخذ له مأوى ثابتاً - كما فعل أهل مرمدة وحلوان العمرى - هذا فضلاً عن أن أدوات أهل الفيوم إنما كانت أقل تطوراً، وفخارهم أكثر خشونة، وربما يرجع إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد(٥٧).

(55) L. Balout, op. cit., p. 481.

وانظر عن الآراء المختلفة حول التواريخ المقترحة لعصر التأسيس (الأسرتين الأولى والثانية فى مصر الفرعونية): محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٩ - ١٢.

(56) W. C. Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago, 1962, p. 70.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Fayum, I, 1943, p. 295 - 296.

S. A. Huzayyin, op. cit., p. 295 - 296.

(٥٧) اختلف العلماء حول بداية العصر الحجري الحديث فى مصر ونهايته، فهناك من يقترح البداية فى الألف العاشر أو الثامن من قبل الميلاد، ومن يقترح حوالى عام ٦٥٠٠ ق. م، كبداية بالنسبة للفيوم (أ)، وحوالى ٥٠٠٠ ق. م بالنسبة للزراعة، وأنه استمر حوالى ٨٠٠ عام، على أن فريقاً
==/==

وعلى أية حال، فهناك صلات حضارية بين حضارة الفيوم أ، وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية، مما يؤكد وجود سير خط حضارى بين منطقة شرقى ليبيا وبين وادى النيل الأدنى وخاصة منطقة الفيوم، فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الإنسان.

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب إلى أن الجذور الأولى لحضارة العصر الحجري الحديث فى شمال أفريقيا، بوجه عام، إنما ترجع فى الحقيقة إلى جهود الإنسان وقت ذاك فى منطقة الصحراء الكبرى - وهى منطقة فسيحة تمتد من البحر الأحمر وحتى المحيط الأطلسى - وكانت مسرحا ضخما لتجول الإنسان وتنقله بين الأودية والعيون والواحات والآبار، خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية، وقد عثر الآثاريون على عدد كبير من المواقع الأثرية فى أجزاء من هذه المنطقة، وقد أكدت أبحاث «كاتون طمسون» وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الأثرية.

وقرب نهاية العصر الحجري القديم الأعلى، وبداية الانتقال للعصر الحجري الحديث، أى بعد ظهور مراحل الجفاف الأخيرة، اضطر الإنسان فى هذه المنطقة الصحراوية إلى الرحيل نحو الأودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه، ومن ثم فقد اتجهت مجموعات من هذا الإنسان نحو الشمال - نحو برقة وتونس - واتجه بعضها نحو الشرق - نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الأدنى - وقد تمكن هؤلاء الذين انتقلوا إلى المنطقة الأخيرة من أسبقية التوصل إلى الاستقرار، وإنشاء القرى، وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية

=/=

رابعا يرى أن العصر الحجري الحديث يبدأ فى الربع الأول من الألف الخامسة، أو حوالى منتصفها فى الوجه البحرى، وأخيراً فهناك من يراه فيما بين منتصف الألف الخامسة وبداية الألف الرابعة قبل الميلاد (أنظر: محمد يومى مهران: مصر، الجزء الأول، ص ٢١٥ - ٢١٦، وكذا:

W. C. Hayes, op. cit., p. 113 - 116.

E. Massoulard, op. cit., p. 48.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, op. cit., p. 93.

K. W. Butzer, BSRGE, 32, 1959, p. 43.

G. Clark, op. cit., p. 227.

J. Vandier, op. cit., p. 188.

الآنفة الذكر، بين حضارة الفيوم أ، وبين حضارة منطقة شرقى ليبيا، على أساس إمكانية انتماء كلتا الحضارتين أصلاً، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة فى منطقة الصحراء الكبرى (٥٨).

هذا ويذهب الدكتور يسرى الجوهري إلى أن تفسير بعض التشابه بين مواقع سيوه والخارجة والفيوم وكهف هوافتيح، إنما وجد عن طريق افتراض إمكانية انتماء حضارة الفيوم وشرق ليبيا، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة فى الصحراء (٥٩).

بقيت الإشارة إلى أنه قد عثر - من مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط - على فك إنسانى فى «كهف هوافتيح» - إلى الشرق قليلاً من مرسى سوسة (أبولونا القديمة) فى غرب درنة بمنطقة الجبل الأخضر فى ليبيا - وطبقاً لتأريخ «كربون ١٤»، فـلقد أُرِخ الفحم الخشبى الذى عثر عليه فى الموقع بحوالى ٤٣,٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٦٠)، وقد أكدت الدراسات الدقيقة لإنسان «هوافتيح»، أنه قريب الشبه بإنسان «الطابون» و«الكرمل» فى فلسطين (٦١)، فضلاً عن التشابه فى الصناعة الحجرية، مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، مما دفع البعض إلى القول بأن هذا الإنسان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب أثر هجرة جنوبية - شمالية، ظهرت آثارها كذلك فى وادى النيل، ثم تطور بعد استقراره فى هذه المنطقة (٦٢).

بقيت الإشارة إلى وجود صلات حضارية بين شرقى البحر المتوسط - وخاصة فلسطين، وعلى الأخص مدينة أريحا (٦٣) - وبين المواقع الليبية (حكفت

(٥٨) رشيد الناضورى: المغرب الكبير ١ / ١٢٦ - ١٢٧.

(٥٩) يسرى الجوهري: جغرافية المغرب العربى، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٨١، ص ٥٤.

(60) C. B. M. Mc Burney, The Haua-Fteah (Cyrenaica) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1961, p. 168.

(61) Ibid., p. 349.

(٦٢) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٦٣) أريحا (جريكو = Jericho): ومعناها مدينة القمر، أو مكان الروائع العطرية، وهى مدينة هامة

=/=

الطيرة، وحكفت الضبعة، وكهف هوافتيح) أثناء العصرى الحجري القديم الأعلى، وأن هذه التأثيرات أو الصلات نمت عن طريق دلتا النيل، غير أنه لم يعثر على آثار هذه الحضارة فى المنطقة ما بين دلتا النيل وخليج سرت فى ليبيا، بينما وجدت فى هذه المنطقة أدوات الحضارة العاترية، واستمرت حتى العصر الحجري الحديث بدون انقطاع، ومن ثم فقد بدأ العلماء فى البحث عن طريق آخر لمرور هذه الحضارة من غربى آسيا إلى ليبيا.

هذا وقد أصدر «فيلب جيمس» (٦٤) عام ١٩٨٣م دراسة عن ٢٧ موقعاً أثرياً، تقع فى المنطقة ما بين أسوان والأقصر، وتنتمى جميعها إلى العصر الحجري القديم الأعلى، وكان من بينها موقعان يقعان على مبعده ٨ كيلا شمال غرب إسنا (ربما غرب مدينة «حسفت القديمة، وهى المطاعنة الحالية»)، وقد عثر فيها

=/=

تقع على مبعده ٨ كيلا غربى نهر الأردن، ٢٧ كيلا شمال شرق القدس، أما «أريحا» التى جاء ذكرها فى التوراة فمكّانها «تل السلطان»، على مبعده ميل واحد من مدينة «أريحا» الحديثة، وقد أثبتت الحفريات التى أجريت فى «تل السلطان»، على أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، وقد اكتشف فيها فخار من أقدم فحار العالم، كما عثر فى أريحا على آثار الحضارة النطوفية بصورة متصلة حضارياً، تؤكد الانتقال الفعلى نحو مرحلة الاستقرار وإنتاج الطعام (أى مرحلة ما قبل النيوليتية، كما عثر على آثار مرحلة العصر الحجري الحديث الصميم ابتداء من الطبقة التاسعة، وكان أول من قام بالحفر فى أريحا «أرنست ميللين» و «كارل فترزجر» فى الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩م)، ثم «جون جارستانج» فى الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦) ثم «مس كاتلين كنيون» منذ عام ١٩٥٢م (أنظر: رشيد الماضوى: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ١١٧ / ١ - ١١٩، ٢٤٠، محمد يرمى سهران: إسرائيل ٢/ ٦٠٥، قاموس الكتاب المقدس ١ / ٥٩، وكذا:

E. Sellin and C. Watzinger Jericho, 1913.

J. and J. B. E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82 and in Scientific American, 90, 1954, p. 76 - 82.

(64) Phillips James The Nile Valley Final Paleolithic and Externai Relations. University Microfilms International, Aim Albor, Michigan, U.S.A., 1983.

على كميات ضخمة من النصال، بلغت فى الموقع الأول ١٠١٩٤، وفى الثانى ٢١٥٠٢ نصلاً، وأن أحد الموقعين يشبه تشذيب أدوات «أوشتاتا» فى تونس، كما اتبع فى صنع أدواته نفس التقنيات التى اتبعها إنسان موقع «أوشتاتا» Ouchtata، وأن الموقع الثانى (وقد انتقل إليه أصحابه من الموقع الأول) يشبه كثيراً من حيث التقنية والشكل موقع «الهامل»، الذى يبعد عن الساحل الجزائرى بحوالى ٥٢٠ كيلاً، كما أشرنا من قبل، وقد خضع الموقعان لعملية التأريخ بواسطة «كربون ١٤» (٦٥)، المشع، فأرخ لها بفترة لا تقل عن ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وبالتالى فهما سابقان لموقعى شمال أفريقيا (٦٦).

وانطلاقاً من هذا، فإن «فيلب جيمس» - وكذا «بالوه» - يتفقان على أن التأثير الذى وقع على شمال أفريقيا إنما قدم من الشرق - من السواحل الليبية أو وادى النيل - وليس من الصحراء، وأنه لم يكن مقصوراً على الأداة فقط، وإنما امتد كذلك إلى الملامح الجسمانية، خاصة وأن إنسان النوبة وقت ذاك إنما كان يشبه رجل «مشتا العربى» (٦٧)، وبالتالى فإن أصل الحضارة الإيبرو مغربية (الوهرانية) من وادى حلفا (السودان) وليس من مصر، خاصة وقد كشف «فاربردج» فيما بين عام ١٩٦١، ١٩٦٢م عن ستة مواقع ذات أدوات ميكروليثية ميزتها اتصال ذات القاعدة فى منطقة شمال وادى حلفا (٣٤٠ كيلاً جنوب أسوان)، وأطلق عليها «حضارة حلفا»، وتظهر أهمية هذا الكشف الأثرى فى أمرين، الواحد: أنه يكشف لنا عن أول صناعة ميكروليثية فى أفريقيا، والآخر: أنه

(٦٥) أنظر عن التقويم بكربون ١٤ (محمد يومى مهران: مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٢٧٠ - ٢٧٤، وكذا:

W. F. Libby, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.

R. M. Derricourt, Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.

H. S. Smith, Egypt and C 14 Dating, Anliguity, 1964.

C. Flight, A Surjeý of Recent Results in The Radiocarbon Charonology Northern and Western Africa, JAH, 14, 1937.

(٦٦) Phillips James, op. cit., p. 35, 130, 202.

(٦٧) Fred Wendorf, The prehistory of Nubia, I, Dallas-Texas, U.S.A., 1968, p. 32.

تم فى هذه المواقع الستة تطور الصناعة من التشظية إلى النصال (وهى تقنية جديدة).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصناعة ميكروليثية تماماً، ومبكرة جداً فى أفريقيا، ولا علاقة لها بالحضارة السبيلية (نسبة إلى قرية السبيل، فى مجاورات مدينة كوم، بمحافظة أسوان)، وتمثل صناعة نصال قزمية فى وادى النيل، ومبكرة عن باقى مناطق أفريقيا، ولقد أُرُخ لها «كربون ١٤» بحوالى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتمثل النصال فيها نسبة ٩٢,٧٪ من مجموع أدواتها^(٦٨).

هذا وقد نزحت هذه الحضارة شمالاً إلى «إسنا» (بمحافظة قنا)، وسكن أصحابها فى غربى «حسفت» (المطاعة الحالية - مركز إسنا)، كما وجدت فى «بلانة» (٣٠ كيلا شمالى وادى حلفا) بالنوبة المصرية القديمة (النوبة السفلى)، ويؤرخ لموقع بلانة هذا بحوالى ١٤,٠٠٠ سنة ق. م (طبقاً لكربون ١٤)، ويؤكد «وندروف» أن الحضارة الإيبرو مغربية ظهرت فى شمال أفريقيا حوالى ١٢,٥٠٠ سنة ق. م، وقد نزحت من مصر - وليس من أوربا - وأن أصحابها إنما كانوا يعيشون على طول نهر النيل، قبل أن تنتقل إلى شمال أفريقيا، وبالتالي فإن موقعى «وادى حلفا» و «بلانة» إنما هما سابقان زمنياً، ومن ثم فهما يمثلان السلف المباشر للحضارة «الإيبرو مغربية»^(٦٩).

(١٥) محجر سيدى عبد الرحمن:

هو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة فى نواحي مدينة «الدار البيضاء» بالمملكة المغربية، نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملى والجص طوال العصور الجيولوجية، وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقيرة - كفرس النهر ووحيد القرن - وحيوانات لافقرية، فضلاً عن البقايا الأثرية - التى خلفها الإنسان من تلك المرحلة، وتنحدر هذه المواقع من ارتفاع يزيد عن مائة متر، وإلى مسافة ٥ كيلا، تجاه المحيط الأطلسى، كما تمتد

(٦٨) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٣٨ - ٤١، وكذا:

F. Wendorf, op. cit., p. 457.

(69) Fred Wendorf, The Prehistory of Nubia. II, 1968, p. 1050, 1057.

نحو الجنوب الغربى، حيث عشر على «كهف الدبة» (Grotte des Ours)، و «كهف ليتورين» (Grotte des Littorines) وقد كشف فى الكهف الأخير (ليتورين) فى عام ١٩٥٥م عن فك سفلى إنسانى من قطعتين، وفى حالة جيدة، ينتمى إلى مجموعة إنسان «باليكار»، أى «مجموعة أثلاثروبوس»، اتى ترتبط بمجموعة الشرق الأقصى (إنسان جاوه، وإنسان بكين)، وإن كان حجم الأسنان فى كهف «ليتورين» (Littorines) يقل عن نظيره فى «باليكار».

وفى شهر فبراير عام ١٩٣٣م، عشر فى نواحي «الرباط» على بقايا إنسان، عرف باسم «إنسان الرباط»، وأغلب الظن أنه ينتمى إلى مجموعة إنسان «باليكار»، وسيدى عبد الرحمن (مجموعة أثلاثروبوس). كما يؤكد التشابه الجيولوجى بين طبقات محجرى سيدى عبد الرحمن والرباط، تشابه البيئة المحيطة بحياة الإنسان الأول فى كلا الموقعين^(٧٠).

(١٦) أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجري الحديث:

(١) موقع عبد العظيم: يقع فى أقصى الجنوب الغربى، على حافة وادى الساوره.

(٢) موقع زميلة بركة: ويعد من أغنى المواقع، ويقع على مبعده ٢ كيلا، جنوب غرب واحة أوغرطة، وعلى مبعده ١٥٠ كيلا شمال موقع عبد العظيم.

(٣) موقع زفان: ويقع على مبعده ٢٥ كيلا، جنوب شرق مدينة زفان.

(٤) موقع تبليلة: ويقع غرب الساوره، ويتميز برؤوس سهام وفؤوس ومدى ذات تأثير مصرى.

(٥) موقع أمكين: ويقع فى أقصى الجنوب الشرقى للصحراء الجزائرية، وعلى مبعده ٤٠ كيلا شمال غرب «تمتراس»، وهو تل مرتفع يشرف على السهل، حيث يعجرى عند السفح مجرى مائى كبير يمد السكان بالماء والأسماك، كما

(٧٠) رشيد الناضورى: المغرب الكبير، ص ٥٤ - ٦١، وانظر:

H. V. Vallois, L'homme de Rabat, BAM, III, 1958 - 1959, p. 89

C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of Northern Africa, London, 1960, p. 118.

وجدت آثار لمساكن متناثرة بين الكتل الصخرية، وقد وجدت بجانبها أحواض الطحين محفورة في الصخر، وتعتمد الصناعة في هذه المواقع على الكوارتز، ومن أدواتها نصيلات مسننة ورؤوس سهام.

هذا ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن المواقع الأثرية الصحراوية إنما وجدت في الهضاب أيضاً - كما وجدت في الجبال - وقد عثر على أدوات على السطح، وقد كشف «فورو لامي» في عام ١٩٠٥ م في العرق الشرقي الكبير عن أكثر من ٢٣٢ موقعاً، في مساحة لا يتعدى طولها ٤٨٥ كيلاً، وعرضها ٣٢٠ كيلاً، وقد عثر فيها على نصال عادية، وأخرى متنوعة قزمية، وفؤوس وسهام مستيرية، وأخرى عاترية، كما عثر على ما يدل على استخدام القوم هناك في العرق الشرقي لقشور بيض النعام والفخار^(٧١).

(١٧) مخبأ رديف:

هناك ما يشير إلى وجود أدوات العصر الحجري الحديث، ذات التقليد القفصي في عدة مواقع تمتد من تونس شرقاً، وحتى المغرب الأقصى غرباً، ومن أهمها مواقع: الصفصاف والكف الأحمر والكيهان وجاعتشة، ثم مخبأ رديف، وهو أهمها جميعاً، (ويقع على سفح جبل رديف غربي قفصة بحوالي ٥٥ كيلاً، وعلى مبعده كيلو متر واحد من بلدة رديف على الشاطئ الشمالي لخور ينزل من جبل رديف)، ويذهب «جوبار» إلى أن موقع «مخبأ رديف» هذا، إنما يمثل حداً مشتركاً بين العصر الحجري الحديث في المغرب القديم والصحراء، أو هو - فيما يرى فوفري - نقطة عبور من السمة الصحراوية إلى سمة العصر الحجري الحديث ذي التقليد القفصي^(٧٢).

(٧١) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٧١ - ٧٤، طاهر العدواني: دراسة للحضارة في عصور ما قبل التاريخ بالصحراء الجزائرية، وخاصة أثناء العصر الحجري الحديث، الإسكندرية ١٩٧٥، ص ١٦٠ - ٩٦١، وكذا:

Foureaux Lamy, Documents Scientifiques De La Mission Saharhennne, II, Publications De La Societe Geographique De Paris, 1905, p. 1100 - 1125.

(72) R. Vaufer, op. cit., p. 291 - 306.

(١٨) موقع برزينة.

ويقع جنوب «وهران» في الجزائر، ويمثل مرحلة انتقال من العصر الحجري الحديث (١) (موقع رديف) إلى العصر الحجري الحديث (٢) (دار السلطان)، فيما يرى «بالوه»^(٧٣)، وإن ذهب «فوفري» إلى أن الموقع متأخر زمنياً عن مواقع أخرى وجدت في وهران، وذلك لقلّة الأدوات القفصية، وزيادة الأدوات النيوليتية الخالصة في الموقع، وأما الفخار فلم يعثر منه على آنية كاملة، وإنما عثر على كسور ذات زخرفة بمسحة المشط أو بالأصابع، فضلاً عن كسور ذات لون واحد، أحمر وأسود، يدون زخرفة، على أن هناك نوعاً أحمر ذا قمة سوداء يشبه فخار عصر ما قبل الأسرات في مصر، وآخر بلون أحمر يشبه فخار المعادى، والفخار جميعه أما ذو قاع محروطي أو دائري^(٧٤).

(١٩) مشتا العربي:

كان مشتا العربي مكنياً لأقوام طوال القامة (١٧٢ سم في المتوسط) ومستطيلي الرأس، لهم جبهة ضيقة، وشفاه طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطناً في المغرب، وكانوا يمارسون عادة سخلع الأسنان القاطعة، ثم بدأ يظهر تحوّل نحو قصر الرأس، وتحافة الجسم في أماكن معينة أظهرتها «كتولومناثا» (Columnata) في غرب الجزائر، وذلك حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م.^(٧٥)

(73) A. Rhulman, La Grotte Prehistorique De Dar-Essoltan, Paris, 1951, p. 88.

(74) R. Vaufrey, op. cit., p. 360.

(٧٥) جيهان ديزاج: تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو ١٩٨٥، ص ٤٣١ - ٤٣٢،

L. Balout, op. cit., p. 346, 349 - 351. وكذا:

G. Camps, op. cit., p. 81 - 88. وكذا:

M. C. Chamla, Les Hommes epipaleolithiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C R. A. P. E, XV, 1970, p. 113 - 114).

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن هناك من يذهب إلى أن إنسان «مشتا العربى» من أصل غربى لوجود شبه بينه وبين إنسان كرومانيون، وكذا إنسان جزر كناريا، والتي كانت بمثابة ملجأ بشرى تصل إليه العناصر البشرية من المغرب، غير أن هناك فريقاً من العلماء إنما يرى أن ذلك أمراً بعيد الاحتمال، ذلك لأن «الجوانشيين» (Guanches) رغم أنهم مشابهون أنثروبولوجيا لرجال «مشتا العربى»، فإنهم لا يماثلونهم فى الحرف والصناعات والعادات، كما أن الحضارة الوهرانية لم تأت من أوربا، ذلك لأنها إنما ظهرت قبل بداية الملاحة عبر المضائق (حوالى الألف الرابع قبل الميلاد)، ومن وإلى صقلية، وهناك ما يحمل على الظن بأن أصولها شرقية، ومن المحتمل أيضاً أنها أتت من شمال السودان وادى النيل - فيما يرى تكسيير - ومن ثم فما داموا قد أتوا تحت ضغط من الشعوب المهاجرة، فلا شك أن «الإيبيريين - الموريتانيين» قد اتخذوا ملاجئ فى التلال، ويمكن أن يعتبروا أحد العناصر الإنثروبولوجية لسكان الجبال (٧٥).

(٢٠) وهران:

ميناء جزائرى على البحر المتوسط، وكانت أهم القواعد البحرية الفرنسية بشمال أفريقيا، هذا وينسب تأسيسها إلى تجار من عرب الأندلس فى القرن العاشر الميلادى، وقد تداولها الأسبان والأتراك (القرن ١٦ - ١٨ م) واحتلها الفرنسيون فى الفترة (١٨٣١ - ١٩٦٤ م) (٧٦).

هذا وينسب العلماء إلى «وهران» «الحضارة الوهرانية» وقد كشف عنها «بول بالارى» (Paul Pallary) فى عام ١٨٩٩ م فى وادى موبلج، على مقربة من مدينة مغنية فى غرب الجزائر، وأطلق عليها اسم «إيرو - مغربية»، اعتقاداً منه

(٧٥) جيهان ديزانج. المرجع السابق، ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:

M. C. Chamle, Les home epipaleolithiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C.R.A.P.E, XV, 1970, p. 113 - 114.

(٧٦) جيهان ديزانج: المرجع السابق، ص ٤٣٢.

أن هناك صلة تربطها بحضارة العصر الحجري القديم الأعلى فى شرق أسبانيا، وإن أثبتت المقارنة بين المواقع المختلفة عدم وجود هذه العلاقة، ومن ثم فقد أطلق عليها «فوفرى» اسم «الحضارة الوهرانية»^(٧٧)، غير أن موقع مويلح إنما كان متوسط الأهمية، وأقل شأنًا من موقع «أفلوريمال» بين جيجل وبجاية فى شرق الجزائر، هذا فضلاً عن انتشار مصطلح «إيرو - مغربية» فى الأبحاث الأثرية، الأمر الذى أدى إلى الإبقاء على هذا المصطلح، رغم عدم دقته.

وعلى أية حال، فالحضارة الوهرانية حضارة ساحلية، وصناعاتها غير دقيقة، ومن مادة رديئة، بل ويعدّها الباحثون من أفقر صناعات عصور ما قبل التاريخ، ويقسمها الباحثون إلى ثلاث مراحل: الأولى سابقة للحضارة القفصية، وتوجد فى موقع واحد قرب مدينة قفصة فى تونس حيث الأدوات الكبيرة وعدم وجود أدوات ميكروليثية، ثم تتجه شمالاً إلى موقع سيدى منصور فى تونس أيضاً، حيث وجدت الأزاميل القزمية. والثانية والثالثة معاصرة لها، وإن تميزت المرحلة الثانية بالأدوات الميكروليثية، فضلاً عن تلك التى صنعت من عظم، وقد وجدت فى مواقع عميقة فى المغرب الأقصى ككهف الخزيرة ودار السلطان ومغارة تافورالت، وأما المرحلة الثالثة فقد وجدت فى مغارة «كلومنانا» فى الجزائر، وقد تميزت بأدواتها الميكروليثية، وأنها تمثل أوج «الحضارة الأيرومغربية»^(٧٨).

هذا وقد اختلف الباحثون فى تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية فى سلم التطور الحضارى فى هذا العصر، فهناك من يراها متأخرة زمنياً، أى أنها معاصرة للمرحلة الأخيرة من الحضارة القفصية، ومن يرى لها أسبقية فى الصناعة النصلية على أساس أن بعض المواقع الأثرية فى نواحي الدار البيضاء إنما تحوى خليطاً من

(٧٧) قارن: رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

(٧٨) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣١، وكذا:

R. Vaufray, Prehistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb Ed-Masson, Paris, 1955, p. 88 - 89.

L. Balout, op. cit., [304.

الآثار الوهرانية، وبالتالي فإن للحضارة الوهرانية أولوية فى النصلية فى المغرب، على أن هناك وجهها ثالثا للنظر يذهب إلى وجود صلات حضارية بين حضارة «هوافتيح» فى بركة، والحضارة الوهرانية، وأخيرا فهناك اتجاه رابع يذهب أصحابه إلى الاعتقاد فى وجود صلات حضارية بين المواقع الساحلية الأسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية، وإن اختلفت الآراء فى أيهما المصدر الأصلي لهذه الحضارة، هل هو الجانب الأوروبى أم المغربى (٧٩).

وعلى أية حال، فلقد انتشرت الحضارة الوهرانية فى تونس والجزائر والمغرب، وإن اختلفت مواقعها من الساحل قربا أو بعدا، ففى تونس: وجدت مواقع: أكارت، وأدواته مطابقة لأدوات كحفن الطيرة فى ليبيا، و«أوستاتا»، وقد كشف عنه عام ١٩٥٢ م، ويعتبره البعض من أقدم مواقع الحضارة الوهرانية فى الشمال الأفريقى، وفى «قلعة الصنم» على الحدود بين تونس والجزائر (٨٠).

وأما مواقع الحضارة الوهرانية فى الجزائر، فهى مواقع ساحلية تمتد من عنابة وحتى أقصى الغرب الجزائرى، وقد وجدت فى عنابة وسوق وهران وبجاية، وأما فى الوسط الجزائرى، فتبعد المواقع عن الساحل، ويتمثل ذلك فى اختراق إنسان «مشتا العربى» (٨١) (حامل الإيبرو مغربية) للهضاب العليا، كما فى موقع «الهامل» على مبعده ٢٥٠ كيلا من الساحل، وتشير القواقع البحرية فى هذه المواقع على اتصال بالمواقع الساحلية.

(٧٩) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ١١٥ - ١١٧.

(80) L. Balout, op. cit., p. 375 - 377.

(٨١) كان مشتا العربى سكنا لأقوام طوال القامة (١٧٢ سم فى المتوسط) ومستطيلى الرؤوس، لهم جبهة ضيقة، وشفاة طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطنها فى المغرب، وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطعة، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس، ونحافة الجسم فى أماكن معينة أظهرها «كولومنتا» (Columnata) فى غرب الجزائر، وذلك حوالى عام ٦٠٠٠ ق.م (أنظر: جيهان ديزانج: تاريخ أفريقيا العدم - اليونسكو ١٩٨٥ ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:

L.Balout, op.cit., p 346, 349-351.

G.Camps, op.cit., p. 71- 88

وكذا

M.C. Chamla, Les Hommes Epipaleolitiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem . C.R.A.P. E, XV, 1970, p. 113 - 114).

هذا ويعد موقع «أفلوبوريمال» (Aflou bou Rhummel)، على مقربة من بجاية في الجزائر من أكثر المواقع أهمية لهذه الحضارة، فلقد عثر «أمبورج» في حفائر عام ١٩٢٨م على حوالي ٦٠ هكيلا عظيما، إلى جانب مجموعة من الآلات الحجرية وغيرها، وهناك موقع «كولومنانا» - على بعد ٢٠ كيلا شمال تياره، ١٢٠ كيلا من الساحل - وقد قدم لنا تتابعا طبقيًا لثلاث مستويات حضارية من أسفل إلى أعلى (وهرانية ثم قفصية عليا ثم عصر حجري حديث)، كما أن صناعته ذات سمة وسطى للتحول نحو القفصية، وقد أطلق عليها «الكلومنانية».

(٢١) نوميديا:

كان سكان المغرب القديم - أثناء حكم القرطاجيين - من البربر، وقد كثرنا ممالك نوميديّة، وفي أثناء الصراع بين روما وقرطاج - الذي انتهى بانتصار روما نهائيا في موقعة «زاما» (Zama) في عام ٢٠٢ ق.م.

وتقع «زاما» أو «جامة»: السبع يبار، على مقربة من قرطاج نفسها - (وهي ساقية سيدى يوسف على مقربة من ناراجرا (Naraggara) فيما يرى وارمنجتون وهي قرب الضريح القائم بقصر طوال الزامل، وفي أعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماحبوح شمالا، والجبال الملاصقة لصرد مكثر من جهته الشمالية جنوبا، والذي يصل فيما بين سهل سليانة وسهل السرس، فيما يرى أحمد صقر) وقد ساهم في معركة «زاما» هذه «ماسينيسا» بأربعة آلاف فارس، فأكسب ذلك الروم ولأول مرة تفوقا عظيما على هانيبال في الفرسان، فتزحزح جناح هانيبال من الفرسان عن مراكزهما، على حين استطاع مشاة «سكيبيو الأفريقي» بما لهم من نظام أصلب وأسلم، أن يفسحوا بين صفوفهم دروبا تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية، دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة.

هذا وقد استغل «ماسينيسا» - حليف روما - ذلك الشرط الجائر الذي يقضى بتقييد حرية قرطاج العسكرية، وألا تشن حربا - داخل أو خارج أفريقيا - إلا باذن من روما، في توسيع رقعة بلاده، على حساب جارتها المهزومة قرطاج، وكثيرا ماهاجم الأراضي القرطاجية بهذه الدعوى، وفي كل مرة كانت قرطاج

لاستطيع رد العدوان، وكل ما كان فى إمكانها أن تتقدم بشكوى إلى مجلس السيناتو فى روما، الذى كان يجد عادة مايرر به اعتداءات ماسينيسا.

على أن هذا لا يمنع من القول بأن «ماسينيسا» (Masinissa) - فيما يرى البعض - إنما كان شخصية قوية البنيان، جمة النشاط، متعددة المواهب، وقد تلقى تعليمه فى قرطاج، وقدر - تقديرا سليما - أهمية الإفادة بما يمكنه من الحضارة القرطاجية فى اقليحه الخاص (مملكة نوميديا)، وفى الواقع، فلقد كانت شخصيته فى مستقبل الأيام، أكبر من كونه رجلا خرج على قومه، ليعمل فى صفوف أعدائهم الرومان، وهكذا بدأ منذ عام ٢٠٦ ق.م، يعقد أواصر صداقة متينة مع عدد من أبرز السياسيين الرومان، وقد كوفىء بعد معركة «زاما» فى عام ٢٠٢ ق.م بالأجزاء الشرقية، والتي تمثل أنصب أراضى «سيفاكس» وهكذا امتد حكمه من «قسنطينة» (قرطه Cirta) فى منطقة تمتد إلى الغرب من هذه المدينة، وحتى الحدود القرطاجية الجديدة - فى نفس الوقت الذى تركت فيه المنطقة الأقل تقدما بين مملكة ماسينيسا وحتى وادى ملوية، لابن سيفاكس -.

هذا ويذهب بعض الكتاب القدامى إلى أن «ماسينيسا» إنما قد زاد الانتاج الزراعى فى نوميديا زيادة كبيرة، حتى أن «سترابو» إنما يحاول أن يوهمنا أنه قد حول الرعاة إلى مزارعين، ورغم ما فى هذا القول من مبالغة، فالذى لاشك فيه أن هناك زيادة فعلية فى المنطقة المزروعة بالحبوب، حتى أصبح هناك فائض للتصدير، وإن ظلت الماشية سائدة دونما ريب، كما أن هذا يبشر، دونما ريب أيضا، بمزيد من التطور الزراعى فى العصر الرومانى، ورغم أن التجارة كانت محدودة، فلقد سكّت العملة من البرونز والنحاس.

هذا وقد أصبحت «قرطه» (قسنطينة) عاصمة «ماسينيسا» مدينة حقيقية، وإن كان تقدير عدد السكان بمائتى ألف نسمة فى عهد ابن ماسينيسا، مبالغ فيه كثيرا، ورغم أننا لانعرف عن آثارها الكثير، فإن شكلها العمرانى إنما كان قرطاجيا صميما، وقد عثر فيها على لوحات حجرية بونية، أكثر مما عثر فى أى موقع أفريقى آخر - عدا قرطاج نفسها - كما أن لغة قرطاج إنما قد استخدمت بكشل متزايد فى نوميديا وموريتانيا.

وعلى أية حال، فلقد ظل «ماسينيسا»، وعلى مدى نصف قرن من الزمان، يمارس ضغطا متزايدا لانتزاع أراضي قرطاج، وربما ساروره أمل في أن تكون قرطاج نفسها في النهاية من نصيبه بموافقة الرومان، وعلى أية حال، فلقد ظلت مكاسب «ماسينيسا» حتى عام ١٧٠ ق.م، صغيرة في الأرض، غير أن روما إنما بدأت منذ عام ١٦٧ ق.م، تنتهج سياسة تتسم بالخشونة والقسوة، سواء أكان ذلك في أفريقيا، أو في خارجها، مع استمرار تعاطفها مع ماسينيسا الذي يفدى شكوكها نحو قرطاج^(٨٢)، وفي كل هذا لم تكن قرطاج تملك غير الشكوى لمجلس السيناتور في روما، وكانت روما - كالعادة - ترد بإرسال وفد من مجلس السيناتور Senato للتحقيق في الأمر.

على أن روما إنما قد أرسلت في إحدى المرات «ماركوس بوركيوس كاتو» (٢٣٤ - ١٣٩ ق.م) لتسوية الخلاف بين نوميديا وقرطاج، وكان «ماركوس بوركيوس كاتو» هذا، محاربا قديما، وسياسيا ضيق النظر، وقد شاهد برأس عينيه أن قرطاج إنما قد بدأت تستعيد شيئا من تجارتها وريختها، فهاله ذلك، بل أربعه ما في قرطاج من بعض دلالات الرخاء، بل وإمارات السعادة، ومنذ تلك الزيارة أصبح «كاتو» هذا، يختتم كل خطاب يلقيه في مجلس السيناتور، بأن ينطق قائلا: «يجب أن تدمر قرطاج» Delenda est Carthago^(٨٣).

هذا وقد أدى موت «ماسينيسا» في عام ١٤٨ ق.م - أثناء الحرب البونية الثالثة ١٤٩ - ١٤٦ ق.م - إلى عودة البربر إلى «الفرقة السياسية - مرة أخرى، بعد أن نجح «ماسينيسا» إلى حد كبير في جمع شملهم، فضلا عن الخلافات الأسرية بين أبناء «ماسينيسا» الثلاثة (ميسيسا ومستعجل وغولومة)، فيمن ي خلف الأب على عرش نوميديا، ولعل في تدخل القائد الروماني «سكيبيو» في هذه الشؤون الداخلية، بل في شؤون الأسرة البربرية، مايدل على وثاقه العلاقات بين الروم والقرطاجيين، وعلى أية حال، فلقد انفرد «ميسيسا» (Micipsa) الأخ

(٨٢) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٨٣) هـ. ج. ويلز: المرجع السابق ص ٥٤٢، وكذا B.H.Warmington, op.cit., p. 202.

الأكبر، بعرش نوميديا فى الفترة (١٤٨ - ١١٨ ق.م) كما صلب الأخ الثالث (غولوسه) القائدة الرومانى فى حملته على قرطاج.

وهكذا انتهت مشكلة «نوميديا» بانضمامها نهائيا مع الروم ضد قرطاج، غير أن قبائل البربر الموريتانية إنما قد انضمت إلى قرطاج ضد روما وبربر نوميديا، الأمر الذى يؤكد أنه - على الرغم من نجاح الرومان فى توطيد صلاتهم بالبربر، وتقوية روح الكراهية بينهم ضد القرطاجيين، على الأقل فى المجال الحربى - فإن هناك فريقا من البربر مايزال فى جانب القرطاجيين، هذا فضلا عن تقبل البربر للتراث القرطاجى - الأدبى والدين - والذى يتمثل فى استمرار اللغة البونية الجديدة، بعد اندحار القرطاجيين فى أعقاب الحرب البونية الثالثة - إلى جانب التأثير الكبير بالعقيدة القرطاجية^(٨٤).

هذا ويتميز عهد «ميسبسا» (Micipsa) (١٤٨ - ١١٨ ق.م) بن ماسينيسيا: بازدياد حجم التبادل بين روما وإيطاليا، وبين النوميديين، ومن ثم فقد أصبحنا نسمع كثيرا عن العديد من التجار فى العاصمة «قرطه»، وعندما توفى انتقل حكم نوميديا إلى اثنين من أخوته، فضلا عن ابن أخ لهما يدعى «يوجورتا» (يوغرطه - Jugurtha)، حفيد «ماسينيسا»، والذى كان يحظى بتأييد رجل الدولة الرومانى «سكيبىو ايميليانوس» (Scipio Aemellanus) - كما كان جده «ماسينسا» يحظى بتأييد سكيبىو الأفريقى^(٨٥).

وانتهت الأمور فى عام ١٦ قبل الميلاد، بأن قسمت روما «مملكة نوميديا» إلى مملكتين، الواحدة: شرقية يحكمها «أدهربال»، وتمتد من حدود الدولة القرطاجية القديمة - والتي أصبحت الولاية الأفريقية الرومانية - وحتى حدود «قرته»، والأخرى: غربية، وتمتد حتى الحدود الشرقية للمغرب الأقصى أى وادى ملوية، ويحكمها «يوجورتا».

غير أن «يوجورتا» سرعان ماثار على هذا الوضع، واستولى على «قرطه»، وأعاد الوحدة السياسية مرة أخرى لنوميدية - المملكة البربرية - تحت رياسته، وهو

(٨٤) رشيد الناصورى: المرجع السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٨٥) ب. هـ. وارمنتجون: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢.

أمر، لاشك في أنه يتعارض تماما مع السياسة الرومية، وقد يؤدي - في نفس الوقت - إلى تكوين قوة بربرية جديدة لها شأنها في المغرب، يمكن أن تحل محل القوة القرطاجية القديمة، ومن ثم فقد انتهز الروم قتل «يوجورتا» لأفراد الجالية الإيطالية هناك، فأعلنوا عليه الحرب، وهكذا بدأ صراع عنيف بين يوجورتا والروم في الفترة (١١١ - ١٠٥ ق.م)، حقق فيها الرجل عدة انتصارات على الروم، بعد أن ألحق بجيوشهم هزائم منكرة، غير أن روما سرعان ما لجأت إلى الخداع والمؤامرات حتى أمكنها الإيقاع به، وأخيرا غرر به حموه «بوخوس» (Bocchu) - ملك موريتانيا، وسلمه للرومان، بناء على اتفاق بين بوخوس والقائد الروماني «سلا» (Sulla)، وهكذا تحقق للرومان ما يريدون من تقوية نفوذهم في المغرب، وقتل «يوجورتا» في عام ١٠٤ ق.م، ونال «بوخوس» ثمن غدره بصهره لإقليما كبيرا شرقي ملوية.

وسرعان ما نصبت روما عضوا آخر من أسرة «ماسينيسا» ملكا يدعى «غودة» أو «جوده» (Gauda)، ثم خلفه ولده «هيمبسال» (Heimpsal) الذي خلعه أحد منافسيه قرابة أعوام خمسة (٨٨ - ٨٣ ق.م)، غير أنه أعيد مرة أخرى إلى الحكم لمدة تقرب من ثلاثة وعشرين عاما (٨٣ - ٦٠ ق.م)، ومن المعروف عنه أنه ألف كتابا عن أفريقيا باللغة البونية، وفي أكبر الظن أنه استمر في الخط الحضاري الذي بدأته أسرته.

هذا وقد تورطت نوמידيا - في أخريات أيامها كدولة مستقلة - في الحرب الأهلية التي دمرت الجمهورية الرومانية، وذلك بسبب إهانة تلقاها «يوبأ» (Juba) بن «هيمبسال» (٦٠ - ٤٦ ق.م) على يد «يوليوس قيصر» باعتباره فتى صغيرا، الأمر الذي دفع «يوبأ» إلى الانضمام إلى معسكر «بومبي» في عام ٤٩ قبل الميلاد، وقدم له قدرا كبيرا من المساعدة في أفريقيا، حتى قيل أن «يوبأ» قد وعد بأن يتولى إمارة الاقليم الروماني في أفريقيا، إذ ما قدر لأنصار «بومبي» (١٠٦ - ٤٨ ق.م) أن يكسبو الحرب، غير أن النصر إنما كان منتصب «يوليوس قيصر» (١٢٠ - ٤٤ ق.م) في معركة «نابسوس» (رأس الديماس على الساحل التونسي)، في عام ٤٦ ق.م، الأمر الذي أدى إلى انتحار «يوبأ»، وفرض الحكم

الرومانى المباشر على نوميديا، فضلا عن تكوين ولاية جديدة - إلى جانب ولاية أفريقيا التى حلت محل الدولة القرطاجية - وقد دعت الولاية الجديدة، ولاية «أفريقيا الجديدة»، وهكذا بدأ الرومان يشبتون أقدامهم فى المغرب، مما مهد فى السنوات التالية إلى احتلال كامل للمنطقة، واعتبارها جزءا من الإمبراطورية الرومانية^(٨٦).

(٢٢) موريتانيا:

يذهب المؤرخون إلى أن تقدم المملكة الموريتانية - بصفة عامة - أكثر بطئا من نوميديا، وربما كان هذا التصور بسبب نقص المعلومات، غير أنه من الواضح أن الجزء الرئيسى لجبال أطلس إنما ظل حصنا للحضارة الفينيقية - مثلما كان فيما بعد حصنا للحضارة الرومانية - ومع ذلك، فلاريب فى أن هناك بعض التقدم فى حياة الاستقرار فى المناطق الخصبة مثل «وادي ملوية»، وعلى طول ساحل الاطلنطى، وفى المناطق الجبلية احتفظت القبائل المستقلة بشخصيتها خلال العصر الرومانى، وحتى بعد ذلك.

ومرت البلاد بفترة نزاع داخلى، حتى أصبحت فى عام ٣٣ قبل الميلاد، ومقتل «بوجود» فى عام ٣١ ق.م، خلوا من أى حاكم وطنى، وكان فى إمكان روما ضمها إليها مباشرة، غير أن القيصر «جايوس أوكتافوس» - ابن أخ يوليوس قيصر، والذي صار إمبراطوراً يحمل لقب «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤ م) - إنما رأى أن الوقت لم يعد بعد مناسباً، لكى تتولى روما الحكم المباشر، ربما خوفاً من المشاكل العسكرية الكبيرة من جانب القبائل الجبلية.

وأياً ماكان الأمر، ففى عام ٢٥ قبل الميلاد، نصب «يوبيا» الثانى - ابن الملك النوميى الأخير - ملكاً، وهو الذى قضى طفولته منذ الرابعة من عمره فى إيطاليا، والذي أعاد تنظيم المملكة النوميديه مؤقتاً فى الفترة (٣٠ - ٢٥ ق.م)، وقد استمر هذا الملك «يوبيا الثانى» فى الحكم أكثر من أربعين سنة (٢٥ ق.م - ١٥ م)، كان خلال دونما ريب عميلاً مخلصاً للروم، وقد قام فى موريتانيا -

(٨٦) ب.هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢، رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢.

والى حد ما - بنفس الدور الذى قام به «ماسينسيا» فى نوميديا، وإن كان الأمر الذى لاشك فيه أن عاصمته «إيول» Iol أمكن آخر الأمر من إخضاعها فى عام ٢١٢ ق.م قد صارت متحضرة فى عصره، كما صارت كذلك العاصمة البديلة «وليلى» (فولوبيليس - Volubilis) متحضرة أيضا^(٨٧).

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن «يوبيا الثانى» هذا، إنما كان يعد مواطنًا رومانيًا، وأنه قد ارتبط بالزواج بالأميرة «كليوبترا» ابنة الملكة الشهيرة «كليوبترا» آخر ملوك البطالمة وأن عصره إنما يعد - من الناحية الحضارية - أقرب إلى الصفة الدولية، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطاجية واليونانية والمصرية، وقد دعم هذا الاتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلفة هذه الثقافات فى ذلك العصر، وأنه هو شخصيًا على جانب من العلم والأدب، حتى نسب إليه تأليف عدد من الكتب بالإغريقية، وإن لم يوجد منها شيء الآن.

على أن تأثره بالثقافة الرومانية كان أكثر وضوحًا من غيره، ربما بسبب نشأته الرومانية، ومن ثم فقد اتجه إلى النظام السياسى الرومانى، فضلًا عن العقيدة نفسها، ومن هنا فإنه - على الرغم من أن البربر إنما كانوا يتمسكون بالمعبودات البرية الأصل، والتي أمن بها الفينيقيون والقرطاجيون سواء بسواء - غير أن «يوبيا الثانى»، إنما اعتنق عبادة الإمبراطور الرومانى «أوغسطس»، بل وشيد فى عاصمته «شرشال» معبدًا للإمبراطور أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤ م)^(٨٨).

وكانت الأسباب الرئيسية للثورة، مقاومة السكان الأصليين للإستيطان الرومانى، فلقد حمل الثائر التومدى (تكفاريناس) السلاح لإرغام أقوى إمبراطور وقت ذلك، على الإعراف بحق شعبه فى أرضه، ذلك لأن الغز الرومانى إنما قد أدى إلى مصادر كل الارضين الخصبة فى الحال، وخربت حقول التوميديين المستقرين، كما تقلصت، وأحيانًا حددت المناطق التى تعارف التوميديون على

(٨٧) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧٣.

(٨٨) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٣٢١ - ٣٢٣.

التجوال فيها، ووطأ المحاربون القدماء وغيرهم من الايطاليين والرومان بأقدامهم فى كل مكان، هادئين بأغنى أجزاء البلاد، واقتطعت شركات التزام جبائية الضرائب، وأعضاء الإرسقراطية الرومانية، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ممتلكات ضخمة لأنفسهم، وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة، فإن الرعاة الأصليين، وكل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتالية، أو إجراءات المصادرة للملكية الشخصية، فهم إما تحولوا إلى فقر مدقع، أو طردوا إلى السهوب غير المشجرة، وإلى الصحراء، وصار أملهم الوحيد فى المقاومة المسلحة، وكان هدفهم الرئيسى من الحرب، هو استعادة أراضيهم^(٨٩).

وعلى أية حال، فلقد تبادل «تكفاريناس» مع الروم، النصر والهزيمة، طوال سنوات الثورة الثمانية، حتى تمكن الروم آخر الأمر من استخدام طريقة الكمائن المفاجئة ضد قوات «تكفاريناس»، وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته، حتى تمكنوا آخر الأمر من التحكم فى الموقف، وقتل «تكفاريناس» عام ٢٤ م.

وجاء بعد «يوما الثانى» ولده «بطليموس»، والذي ظل يحكم موريتانيا فى الفترة (٢٣ - ٤٠ م) ثم استدعاه الإمبراطور «جايوس كاليجولا» (٣٧ - ٤١ م) وأعدمه لسبب غير معروف، على وجه اليقين، على رأى، ولأنه اجتذب انتباه الحاضرين بزيه الأرجوانى اللون فى حفل رسمى فى عام ٤٠ بعد الميلاد، على رأى ثان، غير أن السبب الحقيقى إنما يرجع، دونما ريب - إلى أن الرومان إنما كانوا يرغبون فى الإستيلاء على المناطق شبه المستقلة فى الغرب، ثم ضمها إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية، وقد تحقق لهم هذا الأمر، ومن ثم فقد أنشئت ولايتى موريتانيا القيصرية والطنجية، داخل نطاق المغرب الرومانى.

وهكذا أصبح المغرب يتكون من أربع ولايات رئيسية هى: أفريقيا ونوميديا وموريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية، وقد امتدت الولاية الإفريقية فى جانبها

(٨٩) عمار محجوبى: العصر الرومانى وما بعده فى شمال أفريقيا - كتاب تاريخ إفريقيا العام - تورينو ١٩٨٥ ص ٤٧٦.

الشرقى حتى مدينة طرابلس، وفى جانبها الغربى حتى مدينة عنابة، بينما تركزت ولاية نوميديا فى شرقى الجزائر، وأما ولايتا موريتانيا - القيصرية والطنجية - فتحتل مناطق غربى الجزائر والمغرب الأقصى، ويفصل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا - Mulucha) وكانت مدينة «شرشال» عاصمة لموريتانيا القيصرية، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا الطنجية^(٩٠).

(٩٠) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٣٢٥، ٣٢٢.

الباب الخامس
إيران وآسيا الصغرى

الفصل الأول

إيران

(١) فيما قبل العصر الإخميني

تقديم:

لعل من الجدير بالإشارة أن الباحثين إنما يستخدمون تعبيرين للإشارة إلى منطقة جغرافية واحدة، وإن كانا ليسا مترادفين تمامًا، وأعني بهما: إيران وفارس:

١- إيران: وهي التسمية الأقدم، وقد جاءت في الأوستاكا «إيرينا فيجا»، بمعنى «موطن الآريين» و«الإيرانيين»، ثم تطورت إلى «بلاد إيران»، هذا وقد استخدم الجغرافي مصطلح «بلاد إيران» (إيرانا)^(١).

والآرى: بمعنى «نبيل أوسيد» وهي تسمية عامة لهؤلاء القوم الذين قدموا إلى هذه المنطقة - فيما بين نهري الجايج والفرات، عند نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد^(٢).

٢- فارس: وأول من أطلق هذا الاسم هم الأغارقة، ولعله اشتق من إقليم «بارسا» (Parsa)، ثم حُرف إلى «برسيس» (Persis)، ثم أسماه العرب «فارس»، وربما استبعد إقليم «بارسا» شهرته من أنه مسقط رأس الملوك الهخامنشيين الذين أسسوا البيت الفارسي الحاكم، ثم أطلق الأغارقة هذا الاسم على الإمبراطورية الإيرانية، ومن ثم فقد عرفت باسم «الإمبراطورية الفارسية»^(٣).

وعلى أية حال ففي عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م، طلبت الحكومة الإيرانية من الدول الأجنبية أن تطلق على بلادها رسمياً اسم «إيران»^(٤).

(١) أحمد أمين سليم: إيران من ٧-٨ (وسترجع إليه بعد ذلك عدة مرات)، عبد النعيم حسنين: الإيرانيون القدماء - القاهرة ١٩٧٤ من ١١، طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٣٧٣/٢ (بغداد ١٩٥٦).

وكنّا: E.Herzfeld, Iran in The Ancient East, Oxford, 1941, p. 192.

وكنّا: R.N.Frye, The Heritage of Persia, London, 1963, p. 2.

(٢) طه باقر: المرجع السابق من ٣٧٣.

(٣) أحمد سليم: المرجع السابق من ٨.

وكنّا: B.Dicks, The Ancient Persian.. London, 1979, p. 14.

(٤) ديبالدالبر: إيران ماضيها وحاضرها من ١ (مترجم - القاهرة ١٩٥٨).

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية فى إيران فهى:

(١) بهستون: قرية بين همدان وحلوان، وعلى مبعدة ٤٨ كيلا شرق «كرمنشاه» وقامت بالحفر فى الموقع بعثة انجليزية فى الفترة (١٨٣٦ - ١٨٤١م) برئاسة «سيرهنرى رولنسون» وقد تمكنت من الكشف عن نقش للملك الفاراسى «داريوش» (دارا الأول ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م). وقد نحت فى صخرة عالية هناك.

ثم قامت بالحفر هناك بعثة أمريكية فى الفترة (١٩٤٨ - ١٩٤٩م)، وقد عثر «كارلتون كورن» فى «كهف بهستون» هذا فى عام ١٩٤٩م، على بقايا عظام إنسانية مثل «عظمة الزند» وأحد الأسنان، فضلا عن بعض الأدوات المoustيرية، إلى جانب كمية كبيرة من السكاكين ذات التقنية التى تفوق مثيلاتها فى المناطق الأخرى^(٥).

(٢) تبة جيان:

تقع جنوب غرب مدينة «نهاوند»، شرق «كرمنشاه» بمطنقة «لورستان» وعلى ارتفاع حوالى ١٨٠٠ م فوق سطح البحر، فى آخر الأودية التى تتاخم شمال جبال لورستان، وكانت تقع على الطريق الذى يصل ما بين «حارسين» و«دلفان» و«على أشتار».

وهناك على مبعدة ٤٠ كيلا إلى الشمال الغربى منها، الطريق الذى يصل ما بين «حمدان» و«طهران»، حيث يسهل الوصول إلى «بلاد النهرين» (العراق) عن طريق «قصرى شيرين»، فضلا عن الوصول إلى «سوسة» عن طريق أودية لورستان، الأمر الذى أدى إلى اتصال «حضارة جيان» بـ «حصارات عصور ما قبل التاريخ» فى العراق القديم من ناحية، و«سوسيانا» من ناحية أخرى، وقد ظهر أثر ذلك فى إنتاج حضارة جيان فى عصور ما قبل التاريخ.

هذا ويقع الموقع الأثرى شمال «قرية جيان» مباشرة، ويصل ارتفاعه إلى حوالى ١٩م، وطوله يزيد عن ٣٥٠ م، وتشغل الجبانة معظم التل الأثرى.

(٥) أنظر عن «بهستون» (أحمد سليم: المرجع السابق ص ٣٨، ٨٨، أحمد فخري: دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ٢١٩، جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧/١ بيروت ١٩٦٨).

هذا وقد قامت بعثة فرنسية - برئاسة جورج كوتنتيو، ورومان جرشمان - بعمل حفائر في موقع «تبه جيان» في عام ١٩٣٢/١٩٣١؛ بإشراف متحف اللوفر بباريس.

وقد عثر على نوعين من الفخار في الطبقة الخامسة - من العصر الحجري الحديث - أولهما: صنع من عجينة خشنة ومسامية، وجدرانها سميككة، وحوافه غليظة، والثاني: صنع من عجينة جيدة وخالية من الشوائب. وأما التحديد الزمني لعصر حضارة جيان الخامسة (أ) فيذهب «ديسو» إلى تحديدها بالفترة فيما بين عامي ٤٨٠٠، ٤٥٠٠ ق.م^(٦). (٣) تبه حसार:

وتقع بالقرب من «دمغان» - والتي على مبعده ٣٦١ كيلا شرق طهران - وقامت بعثة أميركية مشتركة من «متحف بنسلفانيا للفن»، والمعهد الأمريكي للفنون والآثار الفارسية - تحت إشراف إريش ف. شمدمت (Erich. F.Schmidt) - في عام ١٩٣٢/١٩٣١ م.

هذا وقد تميز موقع تبه حसार - على مبعده ٣ كيلا من مدينة دمغان - بأهميته طوال العصور التاريخية لموقعه على الطريق التجاري الذي يمر بشمال إيران.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «عادة وأد البنيات» ربما وجدت في «تبه حसार»، اعتماداً على ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال، وأن ذلك بسبب «وأد البنات» في سن الطفولة - كنوع من التضحية البشرية^(٧).

هذا فضلاً عن انتشار عادة الزواج بين الأخ وأخته، وقد كانت منتشرة في

(٦) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤٠، ٤١ - ١٥٨ - ١٦١.

وكذا G.Contenau et E. Ghirshman, Fouilles du Tepe- Gyon Pres de Nehavend (1931- 1932), Paris, 1935, p. 1 - 3, 62-63.

(٧) أنظر عن التضحية البشرية في مجتمعات الشرق الأدنى القديم (محمد يومي مهران، بنو اسرائيل ١٥٢/١ - ١٦٣ (ط ١٩٩٩)، مصر ٤٠١/٢ - ٤٠٢، المدن الفينيقية ص ٣٤٥ - ٣٥٣، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٧٧/١ - ١٨٠ (ط الرياض ١٩٨٠، ط بيروت ١٩٩٠، ط الإسكندرية ١٩٩٥).

غربي آسيا، ثم ظلت بين الفرس، فضلا عن عادة زواج المرأة بأكثر من زوج، ورغم عدم وجود أدلة مقنعة على ذلك، غير أن هذا الزواج قد وجد له شبيه في بعض مناطق الشرق الأدنى القديم^(٨).

(٤) تبة جانجي داره:

وتقع على مبعدة ١٤ كيلا جنوب بهستون، وعلى ارتفاع يصل فيما بين ١٣٠٠، ١٤٠٠ م ويصل عمق المخلفات الأثرية إلى ٧ م، ويمكن تأريخها بأواسط الألف التاسعة قبل الميلاد.

هذا وقد كشف فيها عن بقايا معمارية صلبة يصل سمكها إلى ٢٠ قدما، وكانت مساكنها بهدف الاستقرار الدائم، وإن لم يعثر على أية مخلفات فخارية في هذا الموقع لم يتوصلوا، بينما عثر على كميات كبيرة من العظام الحيوانية. وكان حجر الصوان هو المادة الرئيسية التي صنعت منها الأدوات الحجرية، ولم يعثر على أية أدوات مصنوعة من حجر الأوبسيدان، كما أن سكان هذا الموقع إلى مرحلة «إنتاج الطعام».

هذا ويرجع بعض الباحثين إلى أن هذا الموقع (تبة جانجي داره) يرجع إلى فترة ما قبل العصر الحجري الحديث، والذي كان في هذه المنطقة في الفترة (١٠٠٠ - ٨٠٠٠ ق.م)^(٩).

(٥) تبة جوران:

وتقع على نهر الكرخة، على مبعدة ٦٧ كيلا جنوبا كرمشاه، ويصل ارتفاعها إلى حوالي ٩٥٠ قدما فوق مستوى سطح البحر، وتغطي بقايا الموقع الأثرى مساحة (١١٠ × ٨٠ م) وسمات الطبقات الأثرية حوالي ٨ م. هذا وتمتد زمنيا من حوالي منتصف الألف السابعة، وحتى منتصف الألف

(٨) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤١، ٢٣٤، ٢٥٢.

E.F.Schmidt, Excavations at Tep - Hissar Damghhan, Philadelphia, 1937, p. 25 - 29.

(٩) أحمد سليم: إيران ص ١٠٤ - ١٠٥.

T.C.Young and P.E.L. Smith, Research in The Prehistory of Central Western Iran, in Science, Vol, 153, No 3731, 1966, p. 387 - 388.

السادسة قبل الميلاد، وتعاصر حضارة جرمو في العراق القديم^(١٠)، وهي من أولى المواقع الإيرانية التي تدل بقاياها الأثرية على بداية الاستقرار البشري في الهضبة الإيرانية.

وتشير الحفائر إلى أن المساكن التي شيدت في الطبقة الأولى إنما كانت أكواخا بسيطة من الخشب، وكان سكانها من الرعاة، كما اشتغلوا بصيد بعض الحيوانات الضخمة، كالماشية البرية.

وقد كشف في الطبقات الأثرية الوسطى من «تة جوران» - في بداية الألف السادسة قبل الميلاد - عن بعض أدوات الإنتاج الزراعي - كالرحى والمناجل - كما عثر على بعض حبوب الشعير المتكرنة، وقد عرف الإنسان إستئناس الحيوان - كالماعز - هذا وقد جمع الإنسان هنا بين الرعي والصيد، وبداية الزراعة المستقرة، وبالتالي فقد بدأت الأكواخ الخشبية تختفى، وأخذت المنازل تبنى بقوالب اللبن، فوق أساس من الحجر، ثم غطيت أرضية الحجرات بملاحق من الجص الأبيض والأحمر، واستخدم القوم أفران مقببة - كالتى فى حضارة جرمو فى العراق-.

هذا وقد بدأ الفخار يظهر فى المرقع بعد الطبقات الثلاث الأولى، وهو عبارة عن أوان ذات لون رمادى داكن، غير مزينة، وبشكل خشن، وجدران الأواني سميكة، وجوانبها أفقية أو مقوسة، ثم أصبح الفخار مصقولا، ثم الفخار الملون، ثم المزين باللون الأحمر، وفوق أرضية صفراء أو برتقالية، ثم الفخار الأحمر المصقول، وعليه طبقة لامعة، ويشبه فخار «سيالك الأولى»، وهو يعاصر «حضارة حسونة»^(١١) - سامراء» فى شمال العراق.

هذا وقد عرف إنسان هذا الموقع الصناعات الحجرية والعظيمة، كما صنع من العظام بعض المخارز والدبابيس، وكان حجر الصوان، هو الحجر الرئيسى، كما عرف حجر الأوبسيدان، واستخدم الأصداغ والطين المجفف فى عمل أدوات الزينة، فضلا عن تماثيل النساء والحيوانات، وقد يشير إلى أهمية المرأة كأم.

وأما عن دفن الموتى، فقد عثر على دفنة واحدة فى الطبقات الأولى، فى قبر

(١٠) أنظر عن حضارة جرمو (محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ١١ - ١٤).

(١١) أنظر عن حضارة حسونة (محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ١٤ - ٢٠).

بيضاوى، وقد وضعت الجثة فى هيئة مقرقة (١٢).

(٦) تل باكون:

يقع تل باكون على مبعدة ٢ كيلا جنوب «برسيبوليس» فى إقليم فارس، شرق إقليم خوزستان، فى سهل «ميرف داشت»، ويتكون من تلين أ، ب، وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الاستقرار البشرى إنما بدأ فى «تل باكون ب» منذ العصر الحجري الحديث.

ويتميز الموقع بأنه منطقة مراعى، وقد اعتمد الاستقرار البشرى فيه، فضلا عن الزراعة، على مياه الأمطار، هذا وتعتبر مرحلة «باكون ب» من أقدم مواقع العصر الحجري الحديث فى منطقة فارس، ويؤرخ - عن طريق كربون ١٤ - بحوالى الفترة ٤٢٢٠ ± ٨٣ ق.م - وكان الفخار فيه غير ملون، وخال من الزينة، وإن ظهر الفخار الملون فى الطبقات العليا (مرحلة باكون ب ٢)، وأما «باكون أ ١» فهى المرحلة التالية من عصور ما قبل التاريخ فى إيران (١٣).

(٧) تبة سيالك:

تقع تبة سيالك على مبعدة ٣ كيلا، جنوب غرب كاشان، فى واد مرتفع يصل إلى حوالى ١٠٠٠ م فوق سطح الأرض، على الحافة الغربية للصحراء الإيرانية الكبرى، على مقربة من سلسلة الجبال التى تمتد المنطقة بالمياه من الأمطار التى تسقط عليها.

وموقع «تبة سيالك» مهين جغرافيا لأن يكون محطة هامة على الطريق التجارى، الذى تشعب منه الصحراء، ويتصل بالمركز المزدهر فى «جبال البرز» وغيره من مراكز غربى وجنوب غربى إيران، وكشفت الطبقات الأثرية فى الموقع عن اتجاه السكان للتبادل التجارى مع المناطق الواقعة إلى الغرب منها، فى المراحل الأولى والثانية من سيالك، ومع المناطق الواقعة إلى الشرق منها فى المرحلة الثالثة،

(١٢) أحمد سليم: إيران ص ١١٥ - ١١٩.

(١٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٦ - ١٧٩.

M.Mallowan, The Development of Cities from Al- Uleaid to كندا
The End of Urjk, 5, in CAH, I. Part, I, Camleridge, 1976, p. 441
- 442.

تم إلى المناطق الواقعة إلى الغرب منها في المرحلة الرابعة^(١٤).

ويتكون الموقع من تلين، يفصل بينهما ٦٠٠ م، أقدمها التل الشمالى، إذ كشف عن إتباع المرحلة الأولى والثانية، ثم التل الجنوبي حيث كشف عن المرحلتين الثالثة والرابعة، ويبلغ ارتفاع المخلفات الإنسانية فيهما حوالى ١٤ م.

وتتنمى حضارة «سيالك أ» إلى نهاية العصر الحجري القديم، لم يعرف فيها القوم بناء المنازل، وإنما كانت «دورة» من المواد الخفيفة، ثم تطورت إلى جدران من الطين، ورغم استمرار الفرد فيها صياداً، فقد استأنس بعض الحيوانات - كالماشية والأغنام - كما بدأ مرحلة الزراعة، وصنع الفخار (أسود أو أحمر)، وزخرف أوانيه التى كانت محاكاة للسلال، وكانت الآلة من الحجر، وقد عثر على سكاكين وفؤوس.

واستعمل أدوات الزينة - كالدلايات والأساور والخواتم - كما استعمل «الوشم»، كما بدأ الحفر والنقش فى العظام، وقد عثر على مقابض بعض الأدوات مزينة بما يمثل غزال أو أرنب، فضلاً عن مقبض سكين فى هيئة إنسان يلبس قلنسوة، ويغطي عورته إزار، مثبت بحزام، وهى تعد من أقدم تماثيل الشرق الأدنى القديم.

وكان القوم يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل فى وضع «مقرص»، وربما اعتقدوا فى البعث لوجود بعض الأثاث الجنائزى، والتقدمات مع الموتى.

ويرجح بعض الآثاريين توصل القوم إلى معرفة النحاس واستخدامه فى بعض الأغراض كعمل الدبابيس، ومن ثم تصبح إيران - إن صح ذلك - أول من استخدم النحاس فى العالم القديم، وبالتالي لاتصبح «سيالك أ» من العصر الحجري الحديث.

وأما «سيالك ب» فتعاصر حضارة البدارى فى مصر^(١٥)، وحضارة العمق

(١٤) أحمد سليم : المرجع السابق ص ١٤٣ - ١٤٥.

V.G.Child, New Light on The Most Ancient East, London, وكنا: 1964, p. 191.

R.Ghirshman, Fouilles de Siālk, Pres de Kashan, 1933, 1934, 1937, Vol, I, Paris, 1938, p. 5, 9, 34.

(١٥) أنظر عن حضارة البدارى (محميد بيومى مهران: معبر ٢٤٧/١ - ٢٥٧ (الإسكندرية ١٩٨٨).

(ج) فى سورية، وفيهما بدأ القوم يستخدمون اللبن، بدلاً من الكتل الطينية التى كان يستعملها فى بناء المنازل، والتى كان شكلها بيضاوياً، وكانت متسعة، ومطلية باللون الأحمر، وتزود بالأبواب أو بمنافذ تغطيها ستائر، وكان الموتى يدفنون فيها، كالحضارة السابقة.

وتقدمت صناعة الفخار، وزينت بمناظر حيوانات وطيور رسمت بلون أسود على أرضية حمراء، وكثير استخدام النحاس، وأزدوات الزينة، واستخدم فيها مواد جديدة كالعقيق، وغيره من الأحجار البراقة، واستأنس القوم كلاب الصيد، والخيول الصغيرة الحجم، فضلاً عن الماشية والأغنام التى استأنسها القوم من الحضارة السابقة.

وفى حضارة سيالك ٣: ظهر تطور معمارى، وأصبح شكل اللبن منتظماً، بعد أن صار يصب فى قوالب، وأصبحت القرى تخرقها ممرات طويلة ضيقة ومتعرجة، وزودت المنازل بأبواب ونوافذ صغيرة ضيقة، وساعد على زيادة إضاءتها أنها كانت ذات مداخل ومخارج أو فجوات، على أبعاد منتظمة، وكانت تزينها من الخارج قطع من الأواني الفخارية الكبيرة، يرجح أنها ثبتت فى الجدران لحمايتها من الرطوبة، كما كانت تطلّى باللون الأحمر أو الأبيض، وظل الموتى يدفنون تحت أرضية المنازل، وفى الوضع المقرص، وزادت كمية الأثاث الجنزى، وكثرة التقدّمات.

هذا وينسب لهذا العصر «عجلة الفخار» التى ساعدت على إنتاج أشكال مختلفة من الأواني، كما أدخلت أنواع عديدة من الخزارف، مرت بمراحل ثلاثة، وترجع هذه المرحلة إلى العصر الذى ظهرت فيه الكتابة فى العراق، كما أنتجت هذه الفترة تماثيل صغيرة، تمثل إلهة الأمومة، فضلاً عن أنواع مختلفة من الحيوانات ولعب الأطفال.

وأصبح النحاس فى هذه الحضارة يصهر ويصب فى قوالب لعمل أدوات مختلفة، وإن ظلت الآلات الحجرية مستعملة كذلك، وتعددت أدوات الزينة، وزاد استعمال الأحجار شبه الكريمة، هذا وكان اتساع التجارة سبباً فى أن يميز الصناع صناعتهم، بعلامات مميزة، فاستخدموا ختماً من الحجر، على شكل مخروط، كان فى بداية الأمر ينقش بزخارف هندسية الشكل، ثم وضعت بعد ذلك رموز أخرى من الكائنات الحية، والنباتات التى كانت تستوحى من رسوم الفخار.

هذا وقد انتظمت الجماعات المختلفة فى مدن كبيرة فى مناطق السهول - وخاصة فى «سوسة» فقد ظهر أول حكومة مدينة فى عيلاام، غير أن قلة السكان وتفرقهم فى المناطق الأخرى من الهضبة، وفى أماكن متباعدة، إنما كان سببا فى تأخر نمو هذه الجماعات، وانتظامها فى مدينة كبيرة.

ثم أخذت صناعة الفخار والمعادن تخطو فى تقدمها خطوات موحدة تقريبا، وإن وجدت مميزات خاصة بكل منطقة، الأمر الذى أدى إلى تطور الحضارة فى منطقة عيلاام، قبل دخولها فى العصر التاريخى.

ولعل من الجدير بالإشارة أنه وجد فى «سيالك» آثار حريق وتدمير بعض المساكن التى تنتمى إلى «سيالك ٣» وإقامة مساكن أخرى فى مكانها، اختفى الفخار الملون منها وحل مكانه فخار أحمر أو رمادى، يشبه فخار سوسة، هذا وقد أصبح الختم للإسطوانى يستعمل بدلا من الختم المخروطى، مما يدل على إدخال الكتابة على الألواح الطينية، ثم ظهرت «الكتابة قبل العيلاامية» فى ألواح وأثار، وجدت مع هذه الأختام.

هذا وقد دخلت هذه العناصر - التى أتت بالكتابة «قبل العيلاامية» إلى سوسة - إلى منطقة «سيالك» فى غزوة وحشية، ومن المرجح أنها كانت أقوى وأغنى من سكان المنطقة الأصليين، ذلك لأن وجود مظاهر حضارية - من تلك التى أحدثوها فى سوسة - بمنطقة سيالك، مع ماصاحبها من آثار تدمير وحريق، إنما يشير إلى أن هذه الحضارة قد فرضت بالقوة، خلافا لما حدث فى المنطقة الشمالية، حيث تسلمت إلى هذه الأخيرة العناصر المسالمة التى يحتمل مجيئها من التركستان أو من السهول البعيدة فى وسط آسيا، وقد أتت معها بالفخار الأسود والرمادى، واندمجت مع السكان الأصليين.

وتتميز منازل هذا العصر بأنها بنيت بعناية، وقد زوّدت عند مدخلها بموقد، قسم إلى قسمين: أحدهما للطعام، والآخر للخبز، وإلى جانبه إناء للماء، وقد عثر فيها على أثاث خشن الصنع.

وكان الموتى يدفنون تحت أرضية الحجرات، وتوضع معهم مهمات جنزیه، وتقدمات مختلفة، كأدوات الزينة، والمرایا النحاسية، وأوانى من المرمر وغيرها، وقد زين الموتى أنفسهم بحلى كثيرة، كالدلايات المطعمة بالذهب أو الفضة، وأقراط مزينة بقطع من الذهب، وأساور من فضة، وعقود طويلة خرزها من أحجار بيضاء،

ومن الذهب والفضة، ويوحى تعدد المواد، ورقى الصناعة، بأن هذه الحلى قد صنعت فى «سوسة» أو بلاد العراق، حيث عشر على شبيهة لها فى مقابر أور الملكية.

هذا وقد ظهرت الكتابة فى حضارة سوسة، والتي توغلت إلى وسط هضبة إيران، وهى كتابة متقدمة عن الكتابة التصويرية البحتة، وقد وجدت وثائق مكتوبة - قبل عصر الإخمينيين - فى داخل الهضبة، والتي تأثر بحضارة عيلام، وربما كان هذا التأثير أتى عن طريق توسع سياسى عيلامى، ربما لخدمة أغراض تجارية، على أن هذه التأثيرات الحضارية التى أتت إلى إيران لم تأت من منطقة واحدة، أو فى وقت واحد، أو بدرجة واحدة، ومع ذلك فقد امتصتها، بل ونشرت ثقافتها فى جيرانها، ومثالنا ذلك النوع من الفخار المزخرف الذى انتقل إلى العراق، وكان شائعاً فى إيران - فى سيالك وحسار - (١٦).

(٢) العواصم الإيرانية (الفارسية)

كانت العاصمة الإيرانية - أو الفارسية - شأنها شأن غيرها فى كثير من الدول - قد تغيرت أكثر من مرة، بل ربما كانت توجد أحياناً أكثر من عاصمة فى وقت واحد.

وعلى أية حال، فلقد كان مقر الحكومة المركزية فى «إقليم فارس»، حيث كان يوجد الملك - كرئيس للجهاز الإدارى - وكان يوجهه فى سرعة ودقة إلى الهدف المقصود، وهو السيطرة على الولايات، حتى لا يخرج عن طاعته، وكان يستعين فى ذلك بقوته وشجاعته، وسلطانه، وأما عواصم الإمبراطورية الفارسية فهى:

١ - سوسة:

إختار «كبيروش» مدينة «سوسة» (سوسا) عاصمة عيلام، لتكون مركز إدارته، عندما كان حاكماً لإقليم «أنشان» - وربما كانت مدينة «مسجيدى سليمان» الحالية - والتي أصبح يحكم منها حتى أسس عاصمته «بازار جاده» (Pasargadae).

(١٦) محمد أبو الحسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم - الإسكندرية ١٩٦٨ ص ٣٩٩ - ٤٠٧.

وانظر: R.Ghirshman, Iran, p. 48 F.

ومدينة «سوسة» هذه، إنما هي واحدة من المدن القديمة، وقد جاء اسمها في سجلات الملك الآشوري «أشورباينبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م)، وذلك عندما استولى عليهما في عام ٦٥٠ قبل الميلاد.

ثم صارت للبابليين، بعد اقتسام المملكة الآشورية بين البابليين والميديين، حيث استولى الميديون على قسمها الشرقي، وأخذ البابليون جنوبها، واضطرت الحكومة الآشورية - بقيادة الملك «أشور - أو بلط الثاني» (٦١١٠ - ٦٠٩ ق.م) - أن تجعل من «حران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات - عاصمة لها، بعد سقوط «نينوى» - على مبعدة ٤٠ كيلا، من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى، قبالة الموصل - في أغسطس من عام ٦١١ ق.م، ثم أعقبتها «حران»، في عام ٦٠٩ قبل الميلاد^(١٧).

هذا وقد ذكرت «سوسة» في التوراة باسم «شوشن القصر»^(١٨)، و«شوشان القصر»^(١٩).

وتشغل «سوسة» هذه الأيام موضع قرية «شوش أو سوس» بين نهري الخرجة وأولاي، وتشغل خرائبها مسافة محيطها حوالي ٥ كيلا، وتتكون من أربعة أكوام. هذا وقد كشفت الحفريات عن «قصر دارا العظيم»، هذا فضلا عن النص الحالي لقانون «حمورابي»، إنما كشف عنه في هذه العاصمة العيلامية (سوسة) في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠١ م، بعثة فرنسية برئاسة «جاك دي مورجان»، ثم نقل إلى متحف اللوفر في باريس، وكان قد نقله الملك العيلامي «شترك نخخته»، ربما حوالي عام ١١٥٠ قبل الميلاد^(٢٠).

(١٧) محمد بيومي مهران: العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٤٩، تاريخ العراق القديم - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٤٣١، وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 258

وكذا G.Roux, op.cit, p. 346- 347 وكذا A.L.Oppenheim, ANET, p. 303- 305

وكذا C.J.Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٨) نحemia ١/١، أمثريا ١/٢.

(١٩) دانيال ٢/٨، وكذا A.Poebel, The Name of Elam in Sumerian and Akkadian and Hebrew, AJSL, 48, p. 20F

(20) H.Schmokol, Geschichte des Alten Vorderasien, Leiden, 1957, P.III.

وكذا J.Meek, ANET, p. 163-164.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «كيروش» - بعد أن أسس عاصمته الجديدة «بازارجادة»، وبنى فيها قصرًا له، إنما كان يقضى معظم وقته فى «سوسة».

(٢) أكبتانا:

لتأخذ «كيروش» مدينة أكبتانا (أكبتانا - Ecbatana) ومكانها الآن مدينة همدان الحالية - عاصمة لمملكته، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة صيفية.

(٣) بازار جادة:

أسس «كيروش» الثانى (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) عاصمته «بازار جادة» (Pasargadae) والتي أصبحت - ولأول مرة - عاصمة بلاد فارس الموحدة^(٢١)، بعد أن أصبح لها حاكم واحد، هو «كيروش» - أوقورث -.

وتقع «بازار جادة» أو «باسار جادى» (Pasargadae) إلى الشمال من مدينة «برسبوليس» (Persopolis) بحوالى ٨٠ كيلا، ومعنى اسمها فى الفارسية «مخيم الفرس»، ومكانها - على وجه التحديد - الخرائب المعروفة فى الوقت الحاضر باسم «مشهدى مرغاب».

وهناك رواية تذهب إلى أن «قورث» قد اختار مكانها، لأنها فى مكان الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها على «إستياجز» - آخر ملوك الميديين -.

وظلت سوسة - كما أشرنا من قبل - على أهميتها، بعد تأسيس العاصمة الجديدة (بازار جاده) وبنى فيها قصرًا، كما عمر أيضًا فى بابل، فى قصر «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) فى الجزء الشمالى من المدينة.

(٤) برسبوليس:

لم يقتنع «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) بهذه العواصم القديمة، وقد بلغ نفوذ الفرس غايته فى عهده، فامتدت دولته من البحر الأبيض إلى نهر السند، وأواسط آسيا، وشملت مصر وسورية وفينيقيا وليديا وأرمينيا والقوقاز، وأشور وبابل، وميديا وفارس، وأفغانستان وبلوخستان، وجزءًا من الهند.

(٢١) سميت إيران باسم «فارس»، نسبة إلى الإقليم الذى كانت فيه عواصم الدولتين الإخمينية، (الهخامنشية عند الفرس، والإخمينية عند اليونان) والساسانية، وأطلق الجزء على الكل، كما سميت اللغة التى يتحدث بها الإيرانيون باسم «اللغة الفارسية» نسبة إلى هذا الإقليم أيضًا، وتحتل الدولتان - الإخمينية والساسانية - مكانة كبيرة فى نفوس الفرس أو الإيرانيين، لأنهما الدولتان اللتان تحقق فيهما الاستقلال الفارسى، وبلغ مجد إيران فيهما ذروته (عبد المعصم حسنين: المرجع السابق ص ٤١٨ هامش ١).

وعلى أية حال، فلقد استقر رأى «دارا» على إنشاء عاصمة جديدة فى موطن قومه - أى فى فارس - و«برسيبوليس» هى نفسها البلد المعروف باسم «إصطخر» (Stakhra) - أى الحصن - والتي عرفت فى أيام العرب باسم «إصطخر».

ومن عجب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن ملك «سليمان» عليه السلام، إنما وصل إلى اليمن، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر، إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً - فى «إيران»، حيث اتخذ من «إصطخر» التى ينسبون إليه - أو إلى جنته - أمر بنائها، مقراً لحكمة، وعاصمة لبلاد^(٢٢).

وليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد، يعرفون أن المدينة الفارسية (بروسيولس = إصطخر Stakhra) إنما قد بدىء فى بنائها حوالى عام ٥٢٠ قبل الميلاد، على أيام الملك الفارسى «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م)، ولكن البناء لم يتم إلا فى عهد الملك «أرتاكزركسيس الأول»، (أرتخششا الأول ٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م) حوالى عام ٤٦٠ قبل الميلاد.

وإذا تذكرنا أن سليمان عليه السلام، إنما كان يحكم فى الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م)^(٢٣)، لتبين لنا أن المدينة إنما قد بدىء فى بنائها، بعد وفاة النبى الكريم، بحوالى أربعة قرون^(٢٤)، بقيت الإشارة إلى أن مدينة «برسيبوليس» إنما تعرف فى الفارسية باسم «تخت جمشيد»، كما تعرف «بازار جادة» - فى الفارسية أيضاً - باسم «تخت مادر سليمان».

هذا فضلاً عن أن الملك الفارسى، إنما كان يدير شئون ولايات إمبراطوريته من آية واحدة من عواصمه - الآنفة الذكر^(٢٥).

بقيت الإشارة إلى أن ماعثر عليه من خرائب مدينة «بزر جادة» إنما يثبت أنها مدينة فارسية أصيلية، لم تدخل عليه عناصر غريبة، ذات أهمية.

(٢٢) على إمام عطية: الصهيونية العالمية وأرض اليعازر ص ٧١، ٧٢، وانظر: معجم باقوت الحموى

٢١١/١ (بيروت ٢١٩٥٥)، محمد يوسى مهراڤ: إسرائيل ٨٠٣/٢.

(٢٣) أنظر عن فترة حكم سليمان عليه السلام (محمد يوسى مهراڤ: إسرائيل ١٤٥/٢، تاريخ العرب القديم ٥٢٠/٢).

(٢٤) محمد يوسى مهراڤ: إسرائيل ٨٠٣/٢ - ٨٠٤ (الإسكندرية ١٩٧٨).

(٢٥) عبد النعيم وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٤٣٥.

وأما مدينة «برسبوليس» = «برسيبوليس» ففيها عناصر مختلفة من العمارة والزخرفة، وفيما عثر عليه من تماثيل ولوحات وحلى وغيرها، نرى فيها آثاراً من فنون أواسط آسيا، وبلاد الراقدين وآسيا الصغرى وسورية، ومصر، على الأخص. هذا ورغم ما تعرضت له بقايا القصور والدور الحكومية والمعابد في «برسيبوليس» فإن هذه البقايا إنما تشهد بمظمة وفخامة تلك المباني. على أن الذي يحز في النفس، ويسجله بالعار على الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أنه أقام وليمة كبيرة، أفرط فيها الجميع في الشراب، ثم قام الإسكندر بحرق المدينة، إرضاء لإحدى محظياته، التي كانت تكره الفرس (٢٦).

(٢٦) أحمد فخري المرجع السابق ص ٢٢٩،
E.Herzfeld, Archaeological History of Iran, 1935. وانظر:

الفصل الثانى آسيا الصغرى

تقديم:

آسيا الصغرى: شبه جزيرة بأقصى غرب آسيا، تدعى «الأناضول»، يحدها البحر الأسود شمالا، والبحر المتوسط جنوبا، وبحر إيجه غربا، ويصل البحر الأسود وبحر إيجه، بحر مرمرة، ومضيق البوسفور والدردنيل.

هذا وبالقرب الحد الجنوبي لآسيا الصغرى تمتد جبال طوروس، بينما يتكون باقى شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال، وتكثر بها البحيرات.

وكانت آسيا الصغرى ملتقى الحضارتين الشرقية والغربية فى العصور القديمة، إذ يربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان، وبعد تدهور «الدولة الحيثية» ظهرت المستعمرات اليونانية على السواحل، وبذا اتصل اليونانيون بليديا وفريجيا وطروادة، وأدى غزو الفرس لآسيا الصغرى للحروب الفارسية، وأدمج الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) الإقليم فى إمبراطوريته، وبعد وفاته قسمت إلى ولايات صغيرة، ثم وحدها الرومان من جديد ولكنها كانت موضع مستمر من الغزاة فى ظل الإمبراطورية البيزنطية، وسقطت بيد العرب والأتراك السلاجقة، واستعادها الغرب مؤقتا على أيدي الصليبيين، واستولى عليها الأتراك العثمانيون فيما بين القرنين ١٣، ١٥ م، ودخلت بعد ذلك ضمن الإمبراطورية العثمانية، وكانت عاصمتها «القسطنطينية» وفى عام ١٩٢٣ م، أصبحت «أنقرة» عاصمة لتركيا.

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية فى آسيا الصغرى فهى كالتالى:

١- أرثو (أرزاوا):

أرثو: هى «أرزاوا» بالبابلية، وهى معروفة من رسائل العمارنة، وسجلات «بوغازكوى» وهى ليست مدينة، وإنما هى بلد - أو عدة بلاد - وهناك شبه اتفاق بين العلماء على أن «أرزاوا» إنما تقع على ساحل البحر المتوسط، فى الجهة الغربية من الجنوب الغربى من بلاد «خاتى»، وتشغل المنطقة التى احتلتها أخيرا «بامفيليا» (Pamphylia).

وأما لغة أرزوا، فقد عرفت - للمرة الأولى - من خطابين من العمارنة، وتنتمي إلى «اللغة الهندو - أوروبية» ، وتنسب إلى اللغة الحيثية، وتعرف الآن باسم «اللغة اللوية» (Luwian).

هذا وتظهر «أرزوا»، وكأنها تحتل مركزا بارزا بين حلفاء الحيثيين في معركة قادش (حوالي عام ١٢٨٥ ق.م) بين رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) والحيثيين^(١).

وفي قائمة رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) - بمدينة هابو في طيبة الغربية - فإن «أرزوا» هي «أرثو»، وعلى أية حال، فهي قد ذكرت مرة - على الأقل، في عهد رعمسيس الثالث - في حملة السنة الثامنة^(٢) - إذ يرى رعمسيس الثالث، وهو يهاجم مدينتين حيثيين، أحدهما «أرزوا»^(٣).

٢- إيسوس:

مدينة في قلب آسيا الصغرى، تقع في عمق الخليج الذي يحمل اسمها، وفيها وقعت معركة إيسوس في عام ٣٣٣ ق.م، بين الإسكندر الأكبر، والملك الفارسي، «دارا الثالث» (٣٣٥ - ٣٣٢ ق.م)، وانتهت بانتصار الإسكندر، وفرار الملك الفارسي، تاركاً والدته وزوجته في الأسر^(٤).

٣- بوغازكوى:

تقع «بوغازكوى» (Boghazkoy) على مبعدة ١٤٤ كيلا، شرق العاصمة التركية الحالية «أنقرة» ، على الهضبة المرتفعة التي في أواسط آسيا الصغرى، شرق نهر «هاليس» (Halys)^(٥).

(١) أنظر عن معركة قادش (محمد بيومي مهران: مصر ٣٥٢/٣ - ٣٥٦.

(٢) أنظر عن «حملة السنة الثامنة» من عهد رعمسيس الثالث (محمد بيومي مهران: مصر ٣٧٤/٣ - ٣٨٠).

(3) A.H.Gardiner, Onom..., I, p. 129 - 132.

W.Edgerton and J.Wilson, Histoical Records of Ramassess, III, Chicago, 1936, p. 53.

(٤) أنظر (محمد بيومي مهران: مصر ٦٩٤/٣، و.وتارن: الإسكندري الأكبر - ترجمة زكى على - القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٥ - ٦١.

(٥) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث ص ١٩١ - ١٩٢ الإسكندرية ١٩٦٩. وكذا A.H.Gardiner, Onom., I, p. 126.

هذا وقد قام «هوجوفنكلر» (Hugo Winckler) بعمل حفائر لحساب «جمعية الشرق الألمانية» (The German Orient Society)، وبدأت الحفائر - تحت إشرافه - عام ١٩٠٦م، وقد حققت النتائج كل الآمال، بل وأكثر، فقد كشف عن حوالي عشرة آلاف لوح مسماري، ووضح للمنتقبين أنهم قد عثروا على سجلات ملكية، هذا فضلا عن أن معظم هذه الألواح مكتوبة بلغة أرزوا، ولا يمكن فهمها، وإن كتب بعضها بلغة بابل الأكديّة المعروفة.

وقد كشفت الدراسة الأولية لهذه الخطابات أن هذه المدينة (الخرائب) إنما هي في الواقع «عاصمة بلاد خاني» (خاني) (٦)، وأن «لغة أرزوارا» إنما كانت

(٦) «خت» أو «خاني» - بلاد الحثيين - ورد ذكرها في النصوص المصرية من عهد الفراعنة العظيم «تحتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) لأول مرة - حيث الهدايا - وليست الجزية - أرسلت من أمير خاني إلى فرعون، وتشير «لوحه منف» التي أقامها «أمنحتب الثاني» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) إلى أمراء نهريّن وخاني وسنجر - أي أعظم ثلاثة ملوك شماليين وقت ذاك - جاءوا إلى مصر، لوضع أسس الصداقة مع الفرعون، إثر سماعهم بانتصاراته في سورية. وفي عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ظلت بلاد «خاني» تسمى «خت» لأن معظم التغيير إلى «خاني» إنما حدث في عهد الفرعون «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م).

هذا وتقع بلاد خاني (الحثيين) في آسيا الصغرى، وأما العاصمة فهي «بوغاز كوي»، ويقع على الهضبة المرتفعة بوسط آسيا الصغرى، شرقي نهر هاليس Halys. وكانت علاقة «خاني» بمصر - في معظمها - عدائية حتى عقدت معاهدة السلام بين البلدين، في السنة الحادية والعشرين من عهد رعمسيس الثاني (حوالي عام ١٢٦٩ ق.م) لم توجت بزواج رعمسيس من ابنة ملك الحثيين «خاتوسيل» حوالي عام ١٢٥٦ ق.م. غير أن القوة الحثيين إنما بدأت في الانهيار السريع تحت ضربات الآشوريين، ثم بدأت الاضطرابات وعمت القوضى، وكثرت المحاعات، مما اضطر الفرعون «مرنبتاح» (١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م) أن يرسل إلى «خاني» القمح، حوالي عام ١٢٢٠ ق.م بل وأن يرسل إمدادات عسكرية إلى غربي آسيا، غير أن ذلك لم يفي شيئا، إذ سرعان ما انتهزت دولة الحثيين، تحت ضربات «شعوب البحر» التي كان القضاء عليها من نصيب فرعون مصر العظيم «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م).

بقيت الإشارة إلى أن الملك «خاتوشيليش الأول» (١٤٢٠ - ١٤٠٠ ق.م) إنما تولى الحكم في العاصمة «كيشار» ثم نقل العاصمة إلى «خاتوشاش»، وقد نسب إلى هذا الملك عقد معاهدة سلام مع مصر، حوالي عام ١٢٧٠ ق.م (محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث، رسالة دكتوراه، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ١٩٢؛ أحمد سليم، تاريخ العراق،

اللغة الرسمية لمملكة حاتى، وكما حدث فى الماضى، إذ زُصِبت كلمة «حاتى» (Hattite) وصفاً للخط الهيروغليفى فى «حماة»، فهكذا حل هذا الإسم محل «أرزاورى» للدلالة على النصوص المسماة (The Cuneiform Texts) وما كلمة «حتى» (Hittite) إلا النطق الإنجليزى للأصل «حاتى» (Hatti).

وأما عن تاريخ الألواح، فلقد عثر على وثيقة تبين أنها النسخة الحيثية للمعاهدة التى عقدت بين الفرعون رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) وملك حاتى فى السنة الحادية والعشرين من حكم فرعون (١٢٦٩ ق.م)^(٧).

وهكذا تبين لنا أنه هنا - فى حاتى - وليس فى سورية - كانت عاصمة «خيتا العظمى» (Great Kheta) التى دفعت إتاوة للفرعون «تحتوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، والتى حاربت «رعمسيس الثانى» تم هادته.

وفى عام ١٩٠٧م قدم «هوجوفنكلر» قائمة من اللوحات بأسماء ملوك حاتى - من «شوبيلوليو ماش» (١٣٧٥ - ١٣٨٥ ق.م) فى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إلى «أرنووانداس» فى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد - ثم تنقطع السجلات فجأة.

وقد دل ذلك على أن المملكة الحيثية فى كابا دوكيا (The Cappado- cian Hittite Kingdom) سائته مدة هذه المائتين من السنين جميع ممالك الاتحاد الحشى الأخرى، مثل قرقيش وميليد وحماة، والتى ذكرت السلجات الآشورية أن الغزاة الموشكيين (Mushki)، الذين وحدهم الآشوريون يحتلون هذا الجزء من البلاد فى القرن الثامن، قد تغلبوا عليها حوالى عام ١٢٠٠ ق.م، وأن الممالك الحيثية الأخرى قد استقلت عندئذ من جديد تحت زعامة «قرقيش»

=إيران، آسيا الصغرى، الإسكندرية ١٩٩٨، ص ٤٨٧، ٥١١ - ٥١٢ وكنا:
O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5F; A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, p. 127.

(٧) أنظر عن المعاهدة (محمد بيومى مهران: مصر ٣٥٦/٣ - ٣٦٠، وكنا
K.A.Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 69.
G.G.aballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88.
J.Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14.
L.D. III, 156.

(Carchemish)^(٨).

وعلى أية حال، فإن الممالك الحثية - فيما عدا قرقيش - سوف تكون في الألف الأولى قبل الميلاد، دولا جديدة، بعد سقوط مملكة كبادوكيا (The Capadocian kingdom Fall)

هذا وقد ظل «الخط الهيروغليفي» مستعملاً في الصخر المنقوش في «نشان تاش» (Nishan Tash) في وسط منطقة بوغازكوي، فضلاً عن العلامات الهيروغليفية في طابع خاتم على لوح من الألواح المسمارية^(٩).
(٤) طرسوس:

مدينة في آسيا الصغرى تقع على نهر طرسوس (قره صو) - وهي كدنوس القديمة، التي كانت ثغرا لبلاد كيليكيا (قيليقيا) - في جنوب تركيا، كانت حوالي ١٢٠٠ ق.م تحت حكم الحيثيين، ثم تعرضت لغزوات شعوب البحر، واستولى الآشوريون عليها في الفترة فيما بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ثم جاء من بعدهم الفرس، فالإسكندر الأكبر (عام ٣٣٣ ق.م) فالسلوقيون.

هذا وقد تحزبت المدينة لقيصر ضد «بومبي»، وأطلقت على نفسها اسم «يوليس بوليس»، وقد نهبها «كاسيوس»، غير أنها سرعان ما استعادت امتيازاتها على أيام أنطونيوس.

وقد حاولت «طرطوس» في ظل الإمبراطورية الرومانية أن تنافس الإسكندرية وأثينا على صعيد مدارس الفلسفة وعلم البيان، ولكن يبدو أنها لم تنجح، وأن تفوقت في الميدان التجاري.

وكانت تقيم في طرسوس جالية -يهودية كبيرة، اشتهر من أفرادها القديس بولس الرسول، وقد ولد فيها، وقد توفي ودفن فيها الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٢٣ م) في آخر غزواته في بلاد الدولة البيزنطية^(١٠).

(٨) أ.رجري: الحثيون - ترجمة. حمد عبد القادر محمد - القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٦، ٢٧، وانظر الأصل

O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5- 7.

(٩) أ.رجري: الحثيون ص ٢٦، ٢٧، وانظر الأصل.

O.R.Gurney, The Hittites, p. 7.

(١٠) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٧٤/٢، قاموس الكتاب المقدس ١٩٦/١ - ١٩٩، هنري

٥- طروادة:

وتقع على مبعده ٦ كيلا، شرقى مدخل الدردنيل - من ناحية بحر إيجه - ويعرف موقعها اليوم باسم «حصار ليناب»، هذا وقد تكونت أول محلة فى طروادة فى «عصر البرونز القديم» والذى استغرق الجزء الأكبر من الألف الثالثة قبل الميلاد، وإن لم يستخدم النحاس فى داخل الهضبة إلا فى وقت متأخر عن ذلك.

هذا وقد قام «شليمان» (Shliemann) بحفائر فى الفترة (١٨٧١ - ١٨٨٢م) كشف فيها عن بقايا تسع مدن، أقيمت كل منها فوق أطلال الأخرى - منذ أوائل عصر البرونز، وحتى العصر الرومانى.

هذا وقد أثبت حفائر جامعة سنسينانى أن المدينة السابعة كانت مدينة «بريام» لأنحريقا خرب هذه المدينة وقع حوالى التاريخ التقليدى لحرب طروادة، وتدل مخلفات طروادة على أنها كانت من أهم مراكز الحضارة الإيجية.

هذا وتشير مخلفات الحضارات التالية من عصر النحاس فى طروادة، والتي تتمثل فى طبقاتها الأثرية - ابتداء من الطبقة الثانية، وحتى الطبقة الخامسة - والتي تعد نموذجا لكل المنطقة المحيطة ببحر إيجه، إلى اقتصاد زراعى متواضع، غير أن بعض الآثار انما تدل على غنى عظيم، يوحي بوجود مستوى أعلى للحياة بين الطبقات العليا، والتي تتمثل فى وجود بعض حلى من الذهب والفضة، عثر عليها «شليمان» فى الطبقة الثانية من حفائره فى طروادة، غير أن شواهد أخرى من هذه الطبقة الثانية انما تدل على تغييرات واضحة فيما بعد، حيث توجد آثار حريق كبير فى هذه الطبقة الثانية يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد^(١١).

٦- قدى:

منطقة تقع بين قرقميش والبحر المتوسط، وكانت فى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) تغطى منطقة واسعة، وفى عهد رعمسيس الثانى

عبودى، عجم الحضارات السامية ص ٥٦٣ (بيروت ١٩٨٨)، الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٧.

(١١) محمد أبو المحامن عصفور. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٣٠١ - ٣٠٣، الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٨.

(١٢٩١ - ١٢٢٤ ق.م) كانت بين حلفاء حاتى ضد مصر، وفي نقوش رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) بمدينة هابو، قائمة بالشعوب التى اجتاحتها شعوب البحر - ومن بينها «قدى» - مما يشير إلى أنها قد نظرت إليها وقت ذاك، على أنها قوة عظيمة، ولكنها أثبتت عدم القدرة على مقاومة شعوب البحر الذى هزمهم رعمسيس الثالث.

وفى أكبر الظن أن «قدى» إنما كانت تمتد حتى البحر، وقد وصفت فى نصوص مصرية متأخرة أنا خشب أمور^(١٢)، مما يشير إلى أن قدى وأمور كانتا مختلفتين، وأن «قدى» يجب أن تكون إلى الشمال الأقصى، وإن كانت - دونما ريب - لائنصل إلى الخليج إيسوس (إسوس)، ولكنها تمتد إلى مسافة بعيدة إلى الشرق من «كزواتانا»، كما عين موقعها - فيما يذكر جاردنر - كل من «سيدنى سمث» و«جوتز»^(١٣).

٧- قرة تبه:

موقع أثرى فى «قليقيا» (تركيا)، شمال شرق «كادرلى»، عثر فيه عام ١٩٤٦م على «حصن حثى» يحيط به سور، ذو أحجار ضخمة، يتخلله بابا مزخرفتان على الطريقة الفينيقية، برسوم مآدب وصيد وحرب، ترجع إلى القرنين - التاسع والثامن قبل الميلاد، كما عثر كذلك على تمثال نصفى ملكى، من البازلت، عليه كتابة فينيقية، كما عثر على كتابات أخرى، ساعدت على قراءة الكتابة الهيروغليفية الحثية.

هذا وقد استولى «إسرحدون» الآشورى (٦٨١-٦٦٩ ق.م) على المدينة، ودمرها عام ٦٨٠ ق.م^(١٤).

٨- قليقيا:

قليقيا: بلاد فى آسيا الصغرى، تقع على شاطئ البحر المتوسط فى القسم الجنوبى من الأناضولى، وكانت قليقيا (كليكيا) منذ العصور الحثية ممراً للجيوش المتجه لغزو سورية.

(١٢) أنظر عن «أمور» (محمد ييوى مهرا: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث من ١٩٥، ١٩٦، مصر ٣/٣٧٣ - ٣٧٤).

(١٣) محمد ييوى مهرا: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث من ١٩٢، ١٩٣ وكذا A.H.Gardiner, Onom., I, p. 136.

(١٤) هنرى عبودى: المرجع السابق ص ٦٨٣.

وفي القرن التاسع قبل الميلاد، دخلت قليقيا (كليكيا) في الفلك الآشوري، فقد اجتاحتها «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) وكانت تابعة للملك «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) تدفع له الجزية، هذا وقد قام «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) بضم «قليقيا» إلى الإمبراطورية الآشورية، وعين عليها حاكما^(١٥)، ثم هجر إليها إسرائيلى السامرة - عاصمة دولة إسرائيل وهى مبسطة الحالية على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب شكيم^(١٦) - بعد أن استولى عليها عام ٧٢٢ ق.م^(١٧).

هذا وقد استعمل الجيش الآشورى قليقيا قاعدة لغزو جبال طوروس، غير أن غزواته قد أخفقت، مما أدى إلى حروب كثيرة، كان من نتائجها تهجير جديد، فلقد أرسل كثيرا من الحيثيين والإسرائيليين إلى بابل.

ثم وقعت قليقيا تحت الإحتلال الفارسى، ثم استعملها الإغريق ممراً للجيش، ومن ثم فقد أصبحت مسرحاً للمعارك بين البيزنطيين والفرس، ثم بين البيزنطيين والعرب^(١٨).

٩ - قبادوقيا:

قبادوقيا - أو كبادوكيا Cappadocia - منطقة فى آسيا الصغرى على نهر هاليس الأعلى، شمال قليقيا، كانت عاصمتها «مازاقا»، وقد دعت «قيصرية»^(١٩)، وهى «قيصرى» الحالية، وتقع المنطقة كلها غربى الفرات الأعلى.

(١٥) أنظر: محمد يومى مهران: العراق القديم ص ٣٧٣، ٣٩٤، ٣٩٧، عبودى: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٦) أنظر عن السامرة (محمد يومى مهرانك إسرائيل ٩٠٠/٢ - ٩٠٢ وأنظر طبعة ١٩٩٩ م).

(١٧) محمد يومى مهران: إسرائيل ٩٤٠/٢ - ٩٥٠.

(١٨) عبودى: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٩) قيصرية: هناك أكثر من مدينة تحمل هذا الاسم، فهناك: ١- قيصرية فلسطين: وقد بناها الملك «هيرودوس» (٣٧ - ٤ ق.م) - والذى قدر لها أن تكون عاصمة فلسطين الرومانية، وتقع على مبعدة ٧٢ كيلا جنوبى عكا، ٧٥ كيلا شمالى غرب القدس، وذلك فى عام ١٠ ق.م، وسمّاها «قيصرية» تكريماً للإمبراطور «أوغسطس قيصر» (٢٧ ق.م - ١٤ م)، ٢- قيصرية بانياس: بلدة فى سورية على جبل حرمون، على مقربة من الحدود اللبنانية الفلسطينية الحالية، وفى عام ٣٠٢ م قام فيلبس بن هيرودوس بتوسيعها وتجميلها، ثم أطلق عليها إسم «قيصرية بانياس»، وسميت أيضاً «قيصرية فيلبس» ٣- قيصرية لبنان: وهو اسم أطلقه الرومان على مدينة «عرق» اللبنانية، ٤-

وكان يعيش فيها قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، قوم من الساميين، هذا وقد عثر في كل تبة - شمالي شرق قيصرية - على ألواح مسمارية تمثل أقدم أشكال اللغة الآشورية - القريبة من البابلية القديمة - وتعلق هذه الألواح بأمور اقتصادية.

هذا وتشير الوثائق إلى أن التجارة البرية - عن طريق القوافل - إنما كانت مزدهرة في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد - قبل اجتياح الهكسوس والكاشيين^(٢٠).

وقد تبعت قبادوقيا (كبادوكيا) الإسكندر المقدوني، ومن بعده السلوقيين فالرومان^(٢١).

١٠ - كانش:

أشارت النصوص المسمارية المكتشفة في «كانش» - وهي كول تبة الحالية، على الضفة اليسرى لنهر هاليس، شمالي قيصرية - بمنطقة قبادوقيا إلى وجود جماعات من التجار الآشوريين كانت تقطن في شرقي بلاد الاناضول في مراكز تجارية ذات تنظيمات إدارية وقانونية خاصة بها.

ورغم أننا لانعرف على وجه اليقين متى بدأ اتصال الآشوريين التجاري بآسيا الصغرى؟ وكيف حدث هذا الاتصال؟ وهل تم سلماً أم عنوة؟ غير أن أكبر الظن إنما قد تم منذ ظهور الكيان السياسي للآشوريين، وأنه كان في بدايته - على الأقل - إتصالاً سلمياً، وأنه كان نشاطاً تجارياً واسعاً، وآية ذلك إقامة هذه المراكز التجارية الآشورية المتعددة بمنطقة وسط الاناضول، والتي يمكن تحديدها

=قيصرية الجزائر، وهو اسم أطلق في العصر الروماني على مدينة «بول» القرطاجية (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١٤٤٢/٢، فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٣١٢/١، قاموس الكتاب، المقدس ٧٥٥/٢، ١٠٠٩، وحلدا M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, p. 470.

وكذا Strabo, XVI, 2, 27 وكذا Josepus, Antiquities, XV, 9, 6

وكذا Pliny, V, 14، وانظري هنري عبودي: المرجع السابق ص ٦٩٧ - ٦٩٨.

(٢٠) أنظر عن الهكسوس والكاشيين (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٠٣، ٢٢٣، تاريخ العراق القديم ص ٢٩٨ - ٣١٥.

(٢١) هنري عبودي: المرجع السابق ص ٧٠٩، ٧١٠.

بحوض نهر هاليس وتخومه المباشرة، وما وراء هذا الحوض جنوباً حتى سهل قونيا وأقاليم قليقيا، وشرقاً حتى مشارف أعالي الفرات، وأنه كان لاستغلال ثروات هذه البلاد، وممارسة نشاط تجارى كبير بها، دون أن يتكبدوا فى ذلك جهداً حريماً يذكر، حيث خلت نصوصهم من الإشارة إلى توجيه حملات حربية إلى هذه البلاد.

على أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن هذه المراكز التجارية إنما قد مارست نشاطها من خلال كونها مستعمرات أقامها الآشوريون للسيادة وفرض النفوذ على آسيا الصغرى، وكانت «كانش» بمثابة مركز للإدارة الآشورية الحاكمة، وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على أنه من الصعب أن يحقق الآشوريون هناك استقلالاً اقتصادياً كاملاً، دون سيطرة سياسية، فضلاً عن عبادة الإله آشور فى هذه المراكز التجارية بآسيا الصغرى، وتشابه بعض التنظيمات الإدارية بهذه المراكز التجارية مع مثيلات لها فى آشور^(٢٢).

وأكبر الظن أن هذه المراكز التجارية إنما كان خاضعة سياسياً لأمراء الدويلات المحلية، مع تمتعها بتنوع من الاستقلال الذاتى والحماية العسكرية، مقابل ضرائب معينة كانت تدفع للأفراد المحليين، وأما علاقة هذه المراكز بالدولة الآشورية، فربما كانت من نوع علاقة الفرع بالأصل، وإية ذلك أنها كانت تدين بالديانة الآشورية، وتعيش الحياة الآشورية، مع بعض التأثيرات المحلية، ومن ثم فقد تشابهت العقود التجارية والقوانين الآشورية التى كشف عنها فى «كانش» بتلك التى كانت فى بلاد آشور نفسها.

وعلى أية حال، فلقد كانت هذه المراكز التجارية الآشورية فى آسيا الصغرى (وتسمى كاروم)^(٢٣) تقوم بدور الوسيط بين الدولة الآشورية الأم، وبين الدويلات

(٢٢) محمد عبد اللطيف: المراكز التجارية الآشورية فى وسط آسيا الصغرى فى العصر الآشورى القديم، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ٣، ٤، ١٨،

CAH, I, Part, 2, Maps, 9 - 10, p. 373,

J. Lewy, on Some Institutions of The old Assyrian Empire, in HUCA, 27, 1956, p. 13 - 21.

(٢٣) أطلق الآشوريون على كل مركز من مراكزهم التجارية اسم «كاروم» (Karum)، وتعنى فى الأكديّة رصيف أو حائط ميناء يقع على نهر أو قناة، تجمع عنده ضرائب الدخل على الوارد، ثم

=/=

المحلية في بلاد الاناضول، وهكذا كانت القوافل التجارية الآشورية تذهب محملة بالمنسوجات والملابس الآشورية والبابلية وخامات القصدير - وهي مستوردة أصلاً - وتعود إلى بلاد آشور بالذهب والفضة والنحاس - وربما الرصاص - والاحجار الكريمة (٢٤).

وأياً ما كان الامر، فلقد زاد هذا النشاط التجارى على أيام «ايلوشوما»، وهناك نص من عهد ولده «اريشوم الاول» (١٩٠٦ - ١٨٦٧ ق.م) يشير إلى أنه أقام حرية الحركة للفضة والذهب والنحاس والرصاص، فضلاً عن القمح والصوف، إلى جانب سلعتين أو ثلاث من السلع الرخيصة - وكان أرخصها التبن - وأن هذا الامتياز قد منح للتجار الآشوريين، الامر الذى يشير إلى دعم النشاط التجارى مع آسيا الصغرى التى أقيم فيها عدد كبير من المراكز التجارية الآشورية التى نالت اهتمام هذا الملك، كما نالت اهتمام خليفته «ايكونوم» (١٨٦٦ -

=/=

اتسع مفهومه ليعنى السوق على جانب الرصيف، ثم مجموعة تجار المدينة، ولم يقصد الآشوريون بتعبير «كاروم» فى نصوص الألواح القبادوشية ميناء نهرياً غالباً، إذ لم يقع كاروم كانش أو «خاتوش» (بوغازكوى) أو غيرهما، على نهر، وإنما يعنى غالباً مجموعة الرجال الذين تولوا إدارة المركز التجارى، وهم من التجار وأصحاب رؤوس الأموال الآشوريين، وقد شيدت «الكاروم» غالباً فى الأماكن الملائمة على طرق القوافل، كمركز تجارى للسلع المتبادلة بين آشور وآسيا الصغرى، فضلاً عن جباية المكوس التى كانت تحصل من القوافل التجارية، مثل ضريبة الطريق وضريبة العشر وضريبة الخمسة فى المائة التى كان الكاروم يقوم بتحصيلها، ربما لحساب الدولة الآشورية، وقد استخدم القوة فى تحصيلها أحياناً، كما كان للكاروم سلطة قضائية، وجهاز إدارى على رأسه «حاكم الكاروم» الذى انتحل لقب (Rubaum)، والذى كان يمثل السلطة التنفيذية للكاروم ويرأسها، وغير خاضع غالباً لحكام آشور، كما كان للكاروم مقر مركزى يسمى «بيت الكاروم» (بيت كاريم - Bit-Karim) وكان بمثابة غرفة تجارية وبيت تخليص للتجارة، ووكيلاً للقصر (أنظر: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٧٢ - ٨٨، وكذا:

J. Bottero and Others, op. cit., p. 196.

J. Lewy, CAH, I, Part, 2, p. 37, 47, 709, 722, 760 F.

(٢٤) عامر سليمان: المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٦، وكذا:

J. Lewy, op. cit., p. 24 - 28.

١٨٥٥ ق.م) و«سرجون الأول الآشوري» (١٨٥٥ - ١٨٤٠ ق.م) (٢٥)

ولعل من الأهمية بمكان أن الوثائق الآشورية انما تشير إلى أن العصر الأموري إنما قد شارك في مجتمعات المراكز التجارية الآشورية القديمة في آسيا الصغرى، وأن الاختلاط بين الأسماء الآشورية والأمورية في هذه المجتمعات، ما يشهد بامتزاج هذه العناصر كسكان يتعايشون معا في نطاق المركز التجاري الواحد.

وكان الأموريون أقرب العناصر للآشوريين، وأكثرهم ارتباطا بهم اجتماعيا ودينيا، وقد اعتمدوا عليهم بدرجة كبيرة في مزاوله نشاطهم التجاري، أما السكان الوطنيون وخاصة العناصر (الهندو - أورية) فقد نظر إليهم الآشوريون بازدراء، وأطلقوا عليهم صفة «برابرة» (٢٦).

وليس هنا من ريب في أن الوجود الأموري في هذه المجتمعات إنما كان سبباً في التقارب بين الأموريين والآشوريين في آسيا الصغرى، وطبقاً لدراسة عقود الزواج والطلاق، فإن معظم زيجات الآشوريين بالأناضول إنما كانت من هؤلاء الأموريين، كما كان رجال الأعمال الآشوريين كثيراً ما يستعينون بهؤلاء الأموريين، وكثيراً ما كانوا يعهدون إليهم بتولى أمر قوافلهم التجارية (٢٧).

(١١) واشوكاني:

واشوكاني عاصمة دولة ميتاني، التي عاصرت الامبراطورية المصرية (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)، والكاشيين (١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م) في جنوب العراق، وقد أثرت هذه القوة الجديدة (الحوريين) في بلاد آشور.

والحوريون قوم من منطقة القوقاز، إنتشروا في بلاد الأناضول وسوريا وأعلى

(25) CAH, I, Part, 2, p. 1001.

J. Lewy, in JAOS, 78, 1958, p. 99 - 101.

J. Lewy, in HUCA, 27, 1956, p. 40, 65, 66.

A. Goetze, in JLSA, 30, 1954, p. 350.

(26) H. Lewy, Anatolia in The Old Assyrian Period, in CAH, 2, 1971.

(٢٧) محمد بيومي مهران: بلاد الشام، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ٦٨ - ٧٠، وكذا:

J. Lewy, Amurritica, in HUCA, 32, 1961, p. 65.

ما بين النهرين وشرقي بلاد آشور، وأقاموا دولة قوية هي «دولة الميتان»، واتخذوا من مدينة «واشوكاني» (Washukkanni) عاصمة لهم، وهي «تل الفخارية» (Tell - Fekheriya) الحالية، وقد استغلت الدولة الميتانية ضعف الإمبراطورية الحيثية وانقساماتها الداخلية، فمدت نفوذها على المناطق الواقعة فيما بين بحيرة «وان» (Lake Van) وأواسط الفرات، ومن جبال زاغروس وحتى الساحل السوري، وكانت بلاد آشور من المناطق التي وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة، ومع ذلك فلقد ذكرت قوائم الملوك الآشوريين أسماء عدد من الملوك الذين حكموا في بلاد آشور في فترة السيطرة الميتانية، وربما كانوا ملوكاً محليين تابعين للملوك الميتانيين المختلطين.

غير أن قوة الدولة سرعان ما انتابها الضعف، وانقسمت إلى دولتين، الواحدة تسيطر على منطقة بحيرة وان، والأخرى تسيطر على بلاد آشور وأجزاء من سورية، وقد استغلت آشور هذا الضعف واستقلت عن الميتانيين، ثم تمكنوا بعد فترة من القضاء على الدولة الميتانية وضم أراضيها إلى الدولة الآشورية، وقد تم ذلك على يد الملك «أشور أوبلطان» (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م) الذي انتصر على الملك «أرتاتاما الثاني» (١٣٦٦ - ١٣٥٩ ق.م)، كما أعاد بناء الدولة الآشورية (٢٧).

هذا وكان الميتانيون على علاقة مصاهرة بفراعنة مصر، فلقد تزوج «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) من «جيلوخيبا» أخت «توشراتا» ملك ميتاني، فضلاً عن ابنته «تادوخيبا»، وكان أبوه «تخوتمس الرابع» (٤١٣ - ١٤٠٥ ق.م) قد تزوج من ابنة ملك الميتان، التي أعطيت الإسم المصري «موت إم ويا».

ولعل سبب هذه المصاهرات أن دولة الميتان إنما كانت تتجاوز حدود الإمبراطورية المصرية في غربي آسيا، وربما لأن الفرعون قد أخطأ التقدير في معرفة قوة الحيثيين - أعداء الميتان.

(٢٧) عامر سليمان، المرجع السابق ص ١٢٩ - ١٣١، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٤٩٠،

٤٩٩، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٥، طه باقر، المرجع السابق ص ١٧٣ -

١٧٥، ل. دولات: المرجع السابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧، محمد عبد القادر: المرجع السابق ص

٢١٣، وكذا - G.Roux, op.cit., p. 229, 233, J.Laessoe, op.cit., p. 82

92, Delaporte, Les Hittites, p. 93F.

وأيا ما كان السبب، فلقد كان من نتائج هذه الصداقة - أو المصاهرة
- المصرية الميثانية، أن امتنع الفرعون عن التفكير في مدّ نفوذ مصر إلى الشرق من
الفرات، وإلى أن ينشأ نوع من العداء، لدولة «حاثي» التي مدت يد الصداقة لمصر،
فأغفلها الفرعون (٢٨).

(٢٨) محمد بيومي مهران: مصر ٢٣١/٣، ٢٣٤، ٢٣٨، نجيب ميخائيل: مصر الشرق الأدنى القديم
٥/٢، ٢٤٤، وكذا

S.A.B.Mercer, The Tell - Amarana Tablets , I,p. 162.

H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypt, II, 1908, p. 301.

المراجع المختارة أولاً: المراجع العربية

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الحديث الشريف
- أ- صحيح البخارى (٩ أجزاء) القاهرة ١٣٨٦ هـ
- ب- صحيح مسلم (١٨ جزءاً) بيروت ٨١-١٩٨٣
- ج- منن أبى داود القاهرة ١٩٥٢
- د- فتح البارى - بشرح صحيح البخارى القاهرة ١٩٥٩
- هـ- مسند الإمام أحمد بن حنبل بيروت ١٩٦٩
- ٣- كتب التفسير
- ٤- التوراة
- ٥- ابن بلهيد: صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار (٥) القاهرة ٥١-١٩٥٣ أجزاء
- ٦- ابن ظهير: الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها، وبناء البيت الشريف بيروت ١٩٧٩
- ٧- ابن عساكر: تاريخ دمشق - تحقيق صلاح المنجد دمشق ٥١-١٩٥٣
- ٨- ابن عنبه: عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب بيروت -
- ٩- ابن عبد ربه: العقد الفريد (٩ أجزاء) بيروت ١٩٨٣
- ١٠- ابن فهد القرشى: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام مكة المكرمة ١٩٨٦
- ١١- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول القاهرة ١٩٦٥
- ١٢- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: دولة الرسول فى المدينة الكويت ١٩٧٢
- ١٣- أحمد السباعى: تاريخ مكة مكة المكرمة ١٣٨٧ هـ
- ١٤- الدكتور أحمد أمين سليم: سوريا وبلاد العرب الإسكندرية ١٩٩١
- ١٥- الدكتور أحمد أمين سليم: إيران بيروت ١٩٨٨

- ١٦- الدكتور أحمد أمين سليم: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم بيروت ١٩٨٩
- ١٧- أحمد حسين شرف الدين: مسالك القوافل التجارية فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها الرياض ١٩٨٤
- ١٨- الدكتور أحمد سوسة: تاريخ حضارة وادى الرافدين (جزءان) بغداد ١٩٨٦
- ١٩- الدكتور أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ دمشق ١٩٨٢
- ٢٠- الدكتور أحمد فخرى: اليمن ماضيها وحاضرها القاهرة ١٩٥٧
- ٢١- الدكتور أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم القاهرة ١٩٦٣
- ٢٢- الدكتور أحمد فخرى: معبد المساجد يلاذ مرء القاهرة ١٩٦١
- ٢٣- الدكتور أحمد ضياء - محمد يرمى مهران: العلاقات بين مصر وبني اسرائيل أثناء الألف الأول قبل الميلاد الإسكندرية ١٩٨٨
- ٢٤- الدكتور إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود فى بلاد العرب القاهرة ١٩٢٧
- ٢٥- البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٥١-٤٥
- ٢٦- البلاذرى: أنساب الأشراف القاهرة ١٩٥٩
- ٢٧- البلاذرى: فتوح البلدان (٣ أجزاء) القاهرة ١٩٥٧
- ٢٨- الحرى: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة الرياض ١٩٦٩
- ٢٩- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (ط السعادة) القاهرة ١٣٤٩ هـ
- ٣٠- السهمودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٤ أجزاء فى مجلدين) بيروت ١٩٧١
- ٣١- السهيلي: الروض الأنف (٧ أجزاء) القاهرة ١٩٧١
- ٣٢- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الإسكندرية ١٩٦٧
- الجزء الأول
- ٣٣- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الإسكندرية ١٩٨٢
- تاريخ الدولة العربية
- ٣٤- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الإسكندرية ١٣٩٨ هـ
- العصر العباسى الأول

- ٣٥- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ مدينة صيدا بيروت ١٩٧٠
فى العصر الإسلامى
- ٣٦- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) القاهرة ١٩٦٩ / ٥٧
- ٣٧- العمرى: مسالك الأبطال فى ممالك الأمصار القاهرة ١٩٢٤
- ٣٨- الفاسى: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين بيروت ١٩٨٦
- ٣٩- الفاسى: المتع من أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء بيروت ١٩٨٦
- ٤٠- القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب القاهرة ١٩٥٩
- ٤١- المقرئى: النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم القاهرة ١٩٨٨
- ٤٢- الدكتورة أمل محمد يومى مهران: دراسة تاريخية للعلاقات بين الجزيرة العربية، وبلاد الشرق الأدنى القديم، خلال الألف الأول قبل الميلاد الإسكندرية ١٩٩٦
- ٤٣- النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى (٣ أجزاء) مكة المكرمة ١٩٨٣
- ٤٤- الهمدانى: صفة جزيرة العرب الرياض ١٩٧٤
- ٤٥- الدكتور نقى الدين الدباغ: العراق فى عصور ما قبل التاريخ - العراق فى التاريخ بغداد ١٩٨٣
- ٤٦- الدكتور جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام بيروت ١٩٧١ / ٦٨ (١٠ أجزاء)
- ٤٧- حامد إبراهيم أبو درك: مقدمة فى آثار تيماء الرياض ١٩٨٦
- ٤٨- الدكتور حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام القاهرة ١٩٦٧ / ٦٤
- ٤٩- حسن عبد الله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة القاهرة ١٩٦٤
- ٥٠- الدكتور رشاد بغدادى: العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين مكة المكرمة ١٩٨٧
- ٥١- الدكتور رشيد الناضورى: حول أرض مدين: موقعها ودورها الرياض ١٩٨٤
- التاريخى المبكر
- ٥٢- الدكتور رشيد الناضورى: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا بيروت ١٩٦٩ (جزءان)
- ٥٣- الدكتور رشيد الناضورى: المغرب الكبير - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٦٦
- العصور القديمة

- ٥٤- الدكتور رشيد بورية: مسجد المدينة في حقائق الكتب القديمة الرياض ١٩٧٩
- ٥٥- الدكتور رضا الهاشمي: تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم بغداد ١٩٨٤
- ٥٦- الدكتور سامي سعيد الأحمدى: نظرة في جغرافية شبه جزيرة العرب الرياض ١٩٦٩
- ٥٧- الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام بيروت ١٩٧٥
- ٥٨- سعيد الأفغاني: أسواق العرب بيروت ١٣٧٩ هـ
- ٥٩- الدكتور صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب - الجزء الأول بغداد ١٩٥٩
- ٦٠- الدكتور صبحي أنور رشيد: العلاقات بين وادي الرافدين ونيماء الرياض ١٩٨٤
- ٦١- صلاح البكري: تاريخ حضرموت السياسي - الجزء الأول القاهرة ١٣٥٤ هـ
- ٦٢- الدكتور صلاح الشامي: الموانئ السودانية القاهرة ١٩٦١
- ٦٣- الدكتور طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - (جزءان) بغداد ١٩٥٥
- ٦٤- الدكتور عامر سليمان: العصر الآشوري - العراق في التاريخ القديم بغداد ١٩٨٣
- ٦٥- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: لحات من القبائل البائدة في الجزيرة العربية - مجلة كلية الآداب الرياض ١٩٧٥
- ٦٦- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: لحات من بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة - مجلة الدارة الرياض ١٩٧٥
- ٦٧- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو الرياض ١٩٧٩
- ٦٨- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية الرياض ١٩٨٩
- ٦٩- الدكتور عبد الرحمن الأنصاري: الموسم الرابع لحفريات قرية الفاو الرياض ١٩٨٤
- ٧٠- الدكتور عبد العزيز الدوري: كتب الأنساب وتاريخ الجزيرة العربية الرياض ١٩٧٩

- ٧١- الدكتور عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول القاهرة ١٩٧٣
- ٧٢- الدكتور عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في القاهرة -
عصورها القديمة
- ٧٣- عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة المدينة المنورة ١٩٧٣
- ٧٤- عبد القدوس الأنصاري: الكعبة الرياض ١٩٨٤
- ٧٥- الدكتور عبد الله مصري: آثار الجزيرة العربية، ودورها في نشأة حضارة سومر الرياض ١٩٧٦
- ٧٦- الدكتور عبد الله مصري: ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها الرياض ١٩٨٤
- ٧٧- الدكتور عبد الله الوهبي: تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية الرياض ١٩٧٩
- ٧٨- الدكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد: البحر الأحمر وظهيره في الإسكندرية ١٩٩٣
العصور القديمة
- ٧٩- الدكتور عبد النعيم محمد حسنين: الإيرانيون القدماء القاهرة ١٩٧٤
- ٨٠- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٥) بيروت ١٩٨٥
أجزاء
- ٨١- الدكتور عويد المطرفي: داود وسليمان عليهما السلام في القرآن مكة المكرمة ١٩٧٩
والسنة
- ٨٢- غالى محمد الأمين الشقيطي: كتاب الدر الثمين في معالم الدوحة ١٩٨٨
دار الرسول الأمين
- ٨٣- الدكتور فؤاد سفر: الحضر - مجلة سومر - العدد ٨ بغداد ١٩٥٢
- ٨٤- الدكتور فؤاد سفر، ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس بغداد ١٩٧٢
- ٨٥- الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة بيروت ١٩٧٨
- ٨٦- الدكتور محمد إبراهيم بكري: تاريخ السودان القديم القاهرة ١٩٨٣
- ٨٧- الدكتور محمد أبو المحاسن عصمور: معالم تاريخ الشرق الأدنى الإسكندرية ١٩٦٨
القديم

- ٨٨- الدكتور محمد العبد الخطراوي: المدينة في العصر الجاهلي دمشق ١٩٨٤
- ٨٩- الدكتور محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦
- ٩٠- الدكتور محمد بيومي مهران: بنو اسرائيل (٥ أجزاء - طبعة الإسكندرية ١٩٩٩
ثالثة)
- ٩١- الدكتور محمد بيومي مهران: بلاد الشام الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٢- الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم (جزءان) الإسكندرية ١٩٩٥
- ٩٣- الدكتور محمد بيومي مهران: الحضارة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٨٨
- ٩٤- الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٥- الدكتور محمد بيومي مهران: المغرب القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٩٦- الدكتور محمد بيومي مهران: المدن الفينيقية (تاريخ لبنان بيروت ١٩٩٤
القديم)
- ٩٧- الدكتور محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الإسكندرية ١٩٩٥
الكريم (٤ أجزاء) (طبعة رابعة)
- ٩٨- الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ السودان القديم الإسكندرية ١٩٩٤
- ٩٩- الدكتور محمد بيومي مهران: المدن الكبرى في مصر والشرق القديم - الجزء الأول - مصر - الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٠٠- الدكتور محمد بيومي مهران: حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٠١- الدكتور محمد بيومي مهران: قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٥
- ١٠٢- الدكتور محمد عوض: السودان الشمالي القاهرة ١٩٥١
- ١٠٣- محمد عبد القادر فقيه: تاريخ اليمن القديم بيروت ١٩٧٣
- ١٠٤- محمد لبيب البتانوني: الرحلة الحجازية القاهرة ١٣٢٩ هـ
- ١٠٥- الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين: مقدمة في الآثار صنعاء ١٩٨٤
اليمنية

- ١٠٦- الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين: مواقع ومناخف الآثار القاهرة ١٩٩٨
المصرية
- ١٠٧- الدكتور محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية (٤ القاهرة ٦٥ / ١٩٧٢
أجزاء)
- ١٠٨- الدكتور محمود عمر: التأثير المصري فى آثار تيماء القاهرة ١٩٩٣
- ١٠٩- مير خورى: صيدا عقب حقب التاريخ بيروت ١٩٦٦
- ١١٠- هنرى عيوى، معجم الحضارات السامية بيروت ١٩٨٨
- ١١١- الدكتور نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم (٦ الإسكندرية ١٩٦٣
أجزاء) - ١٩٦٦
- ١١٢- ياقوت الحموى: معجم البلدان (٥ أجزاء) بيروت ١٩٥٧ / ٥٥
- ١١٣- يوسف رزق الله غنيمه: الحيرة: المدينة والملكة بغداد ١٩٣٦
- ١١٤- يوسف محمد عبد الله: أوراق فى تاريخ اليمس وآثاره بيروت ١٩٨٥
- ١١٥- الدكتور يوسف مزهر: تاريخ لبنان القديم - الجزء الأول بيروت -
- ١١٦- قاموس الكتاب المقدس (جزءان) بيروت ١٩٦٧ / ٦٤

ثانياً: المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

- ١١٧- الدكتور أحمد فخرى رحلة أثرية إلى اليمن - ترجمة صنعاء ١٩٨٨
الدكتور هنرى رياض، الدكتور يوسف محمد، ومراجعة الدكتور
محمد عبد الحليم نور الدين
- ١١٨- أحمد محمد على الحاكم وأ. هريك وج فركوثير: حضارة
نباتا ومروى (تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثانى) اليونسكو ١٩٨٥
- ١١٩- إليوس موسى: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الإسكندرية ١٩٥٢
الحسينى
- ١٢٠- أندريه بارو: بلاد آشور - ترجمة عيسى سلمان ومليهم بغداد ١٩٨٠
التكريتى

- ١٢١- أرثر كريستس: إيران في عهد الساسانيين - ترجمة الدكتور القاهرة ١٩٥٧
يحيى الخشاب
- ١٢٢- أرنولد ويلسون: الخليج العربى - ترجمة الدكتور عبد القادر الكويت -
يوسف
- ١٢٣- اليزابيث مونرو: الجزيرة العربية بين البخور والبترول - ترجمة الرياض ١٩٧٦
محمود محمود
- ١٢٤- أ. ر. جرنى: الحثيون - ترجمة الدكتور محمد عبد القادر القاهرة ١٩٦٣
والدكتور فيصل الوائلى
- ١٢٥- ب. هـ. وارمنجتون: العصر القرطاجى - تاريخ أفريقيا العام تورينو ١٩٨٥
- ١٢٦- برنارد لويس: العرب فى التاريخ - ترجمة نبيه فارس ومحمود بيروت ١٩٥٤
يوسف
- ١٢٧- تيودر نولدكه: أمراء غسان من آل جفنة - ترجمة قسطنطين بيروت ١٩٣٣
رزق وبندلى خورى
- ١٢٨- جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب - ترجمة قدرى بيروت ١٩٦٣
قلعجى
- ١٢٩- جورج فضلور حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى -
ترجمة وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر القاهرة ١٩٥٨
- ١٣٠- جورج كوتيتو: الحياة اليومية فى بلاد بابل وأشور - ترجمة
طه التكريتى، وبرهان عبد التكريتى بغداد ١٩٨٦
- ١٣١- ج. كوتيتو: الحضارة الفينيقية - ترجمة الدكتور محمد
عبدالهاده شعيرو، ومراجعة الدكتور طه حسين القاهرة ١٩٦٥
- ١٣٢- جيهان ديزاخ: البربر الأصليون - تاريخ أفريقيا العام تورينو ١٩٨٥
- ١٣٣- حسن بيرينا: تاريخ إيران القديم - ترجمة محمد نور الدين القاهرة ١٩٧٩
عبد النعيم، والسباعى محمد السباعى - مراجعة وتقديم
الدكتور يحيى الخشاب
- ١٣٤- دونالد دولبر: إيران: ماضيها وحاضرها - ترجمة عبد النعيم القاهرة ١٩٥٨
محمد حسنين - مراجعة وتقديم إبراهيم الشواربى

- ١٣٥- ديتلف نلسن وآخرون التاريخ العربى القديم - ترجمة وزاد القاهرة ١٩٥٨
عليه الدكتور فؤاد حسين
- ١٣٦- رينيه ديسو: العرب فى سورية قبل الإسلام - ترجمة القاهرة ١٩٥٩
عبد الحميد الدواخلى
- ١٣٧- سبتيو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد القاهرة ١٩٦٨
عليه الدكتور السيد يعقوب بكر
- ١٣٨- فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - (جزءان) - بيروت ١٩٥٨
ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق
- ١٣٩- فيلب حتى: تاريخ العرب - الجزء الأول - (مطول) - بيروت ١٩٦٥
ترجمة إدوارد جرجس، وجبرائيل جبور
- ١٤٠- فبريو مورى: حول تاريخ الرسوم الصخرية فى الصحارى ليبيا ١٩٧٩
الكبرى - ترجمة مكائيل محرر - كتاب الصحراء الكبرى -
- ١٤١- لويس أميل سديو: تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعتر القاهرة ١٩٤٨
- ١٤٢- لانكستر هاردنج: آثار الأردن ترجمة سليمان موسى عمان ١٩٦٥
- ١٤٣- مانفرد فيبر: المصريون القدماء والصحراء الكبرى - ترجمة ليبيا ١٩٧٩
عماد الدين غانم - كتاب الصحراء الكبرى
- ١٤٤- هريت جورج ويلز: معالم تاريخ الإنسانية (جزءان) - ترجمة القاهرة ١٩٦٩
عبد العزيز توفيق جاويد
- ١٤٥- ول ديورانت: قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمة محمد القاهرة ١٩٦١
بدران
- ١٤٦- وندل فيليبس: كنوز مدينة بلقيس - قصة اكتشاف مدينة سبأ القاهرة ١٩٦١
الأثرية فى اليمن - ترجمة عمر الدينادى
- ١٤٧- و. و. تارن: الإسكندرية الأكبر - ترجمة زكى على ومراجعة القاهرة ١٩٦٣
محمد سليم سالم
- ١٤٨- وليم أولبرايت: آثار فلسطين - ترجمة زكى اسكندر، ومحمد القاهرة ١٩٧١
عبد القادر

- ١٤٩- يوسبيوس القيصري: تاريخ الكنيسة - ترجمة مرقس داود
القاهرة ١٩٦٠
١٥٠- يوسفيوس. تاريخ يوسفيوس - دار صادر
بيروت
١٥١- دائرة المعارف الإسلامية - دار الشعب -
القاهرة ١٩٦٩

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- 152- Abbot, (n.), The Rise of the North Araba, Chicago, 1939.
153- Abbot, (n.), Pre - Islamic Arab Queens, AJSL, 1944.
154- Al-Adami, (K.A.), Excavations at Tell-Es-Sawwan, in Sumer,
24, 1968.
155- Arkell, (J. A.), Early Kharton, Oxford, 1949.
156- Arkell, (J. A.), A History of the Sudan from the Earliest Time
to 1821, London, 1961.
157- Amer, (M.), The Ancient Trans - Peninsular Routes of Arabia,
Cairo, 1926.
158- Bates (H.), The Eastern Lilyans, London, 1914.
159- Baker, (M.), The Relationship Between The C-Group, Kerma,
Napatan and Meroitic Cultures, in Kush, XIII,
1965.
160- Beeston (A. F.L.), The Royal Inscriptions of Sumer and
Akkad, New Havan, 1924.
161- Beeston, (A. F. L.), Sculptures and Inscriptions from Shabwa,
in JRAS, 1954.
162- Belgrave, (J. H. D.), Welcome to Bahrain, London, 1965.
163- Bent (T.) and Mrs. Bent, Southern Arabia, Sudan and Socotra,
London, 1900.

- 214- Save - Soderlergh, (T.), Aegypten und Nubia, Luna, 1941.
- 215- Shata, (A.), The Lower Nubia Area, Egypt, in BSGE, 35, 1962.
- 216- Smith (W.), Adictionary of The Bille, 3 Vols, London.
- 217- Shahid (I.), Pre-Islamic Arabia, in CAH, I, Cambridge, 1970.
- 218- Stark, (R. F.), An Exploration in The Hadhramut and Journey to Coast, in GJ, XCIII, 1939.
- 219- Shanidar Cave, Northern Iraq, Smithsonian Report Publication (1959 - 1960).
- 220- Woolley (L.), Excavations at Ur, London, 1963.
- 221- Woolley (L.), Ur of The Chaldees, London, 1965.
- 222- Woolley (L.), The Beginnings of Civilization, N. Y., 1965.
- 223- Steindroff, (G.), Inibia, I, 1935.
- 224- Smith, (H. S.), The Nubian B-Group, Kush, 14, 1966.
- 225- Trigger, (B. G.), Nubia under th Pharaohs, London, 1976.
- 226- Vercoutter (J.), Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964.
- 227- Vercoutter, (J.), Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, 1968.
- 228- Vercoutter (J.), ADaggar from Kerma, Kush, VIII, 1960.
- 229- Vercoutter (J.), Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom, Nubia, Kush, V, 1967.
- 230- Vercoutter (J.), Mirgissa, I, Paris, 1970
- 231- Young (T. C.), Smith, (P. E. L.), Research in Prehistory of Central Western Iran, in Science, 153, 1966
- 232- Enceyclopaedia Bullica.
- 233- Enceyclopaedia Britannica.
- 234- Encyclopaedia of Islam
- 235- Encyclopaedia of Religion and Ethics.
- 236- The Jewish Encyclopaedia, N Y , 1903

المؤلف في سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



- ١- ولد في البصيلة - مركز إدفو - محافظة أسوان.
- ٢- حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمعهد المعلمين بقنا، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩ م
- ٣- عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ - ١٩٦٠ م).
- ٤- حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.
- ٥- عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم، بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١ م.
- ٦- حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٧- عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٨- عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤ م.
- ٩- عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩ م.
- ١٠- أعيير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٧ م.
- ١١- عين عضواً في مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢ م.

- ١٢- عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢م.
- ١٣- أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- ١٤- عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية (١٩٨٧ - ١٩٨٨م).
- ١٥- أختير مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ - ١٩٨٩م).
- ١٦- عين أستاذًا متفرغاً فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨م.
- ١٧- عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.
- ١٨- عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.
- ١٩- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢٠- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢١- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.
- ٢٢- أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.
- ٢٣- أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢م.
- ٢٤- شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠ / ١٩٨١م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ (فى عام ١٩٨٣ / ٨٢م).
- ٢٥- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- ٢٦- عضو مجلس إدارة لإتحاد الآثاريين العرب.
- ٢٧- عضو نقابة السادة الأشراف، بجمهورية مصر العربية.

مؤلفات

الأستاذ الدكتور: محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أولاً: فى التاريخ المصرى القديم

- ١- الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية مصر رسالة ماجستير الإسكندرية ١٩٦٦
- ٢- والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث رسالة دكتوراه الإسكندرية ١٩٦٩
- ٣- حركات التحرير فى مصر القديمة
- ٤- إخناتون - عصره ودعوته

ثانياً: فى تاريخ اليهود القديم

- ٥- التوراه (١) مجلة الأسطول - العدد ٦٣ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٦- التوراه (٢) مجلة الأسطول - العدد ٦٤ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٧- التوراه (٣) مجلة الأسطول - العدد ٦٥ الإسكندرية ١٩٧٠
- ٨- قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة مجلة الأسطول - العدد ٦٦ الإسكندرية ١٩٧١
- ٩- النقارة الجنسية عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٧ الإسكندرية ١٩٧١
- ١٠- النقارة الجنسية عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٨ الإسكندرية ١٩٧١
- ١١- أخلاقيات الحرب عند اليهود مجلة الأسطول - العدد ٦٩ الإسكندرية ١٩٧١
- ١٢- التلمود مجلة الأسطول - العدد ٧٠ الإسكندرية ١٩٧٢
- ١٣- بنو إسرائيل - الجزء الأول - طبعة ثالثة، منقحة مزيده الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٤- بنو إسرائيل - الجزء الثانى - طبعة ثالثة، منقحة مزيده الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٥- بنو إسرائيل - الجزء الثالث - طبعة ثالثة، منقحة مزيده الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٦- بنو إسرائيل - الجزء الرابع - طبعة ثالثة، منقحة مزيده الإسكندرية ١٩٩٩

- ١٧- بنو إسرائيل - الجزء الخامس - طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩
- ١٨- أرض الميعاد - طبعة ثالثة، منقحة مزيدة الإسكندرية ١٩٩٩

ثالثاً: في تاريخ العرب القديم

- ١٩- الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي الرياض ١٩٧٤
- ٢٠- مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة الرياض ١٩٧٧
- ٢١- العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة الرياض ١٩٧٦
- ٢٢- الديانة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٧٨
- ٢٣- العرب والفرس في العصور القديمة الإسكندرية ١٩٧٩
- ٢٤- الفكر الجاهلي القاهرة ١٩٨٢

رابعاً: في تاريخ العراق القديم

- ٢٥- قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٦
- ٢٦- قانون حمورابي، وأثره في التوراة الإسكندرية ١٩٧٩

خامساً: سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم

- ٢٧- الجزء الأول - في بلاد العرب طبعة ثالثة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٢٨- الجزء الثاني - في مصر طبعة ثانية الإسكندرية ١٩٩٥
- ٢٩- الجزء الثالث - في بلاد الشام طبعة ثانية الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٠- الجزء الرابع - في العراق طبعة ثانية الإسكندرية ١٩٩٥

ملحوظة: الطبعة الأولى في الرياض ١٩٧٧ والثانية في بيروت ١٩٨٨

سادساً: سلسلة: تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

- ٣١- مصر - الجزء الأول طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٢- مصر - الجزء الثاني طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥
- ٣٣- مصر - الجزء الثالث طبعة سادسة الإسكندرية ١٩٩٥

١٩٩٠ الإسكندرية	طبعة رابعة	٣٤- الحصار المصرية القديمة - الجزء الأول
١٩٩٠ الإسكندرية	طبعة رابعة	٣٥- الحصار المصرية القديمة - الجزء الثاني
١٩٩٤ الإسكندرية	طبعة سادسة عشرة	٣٦- تاريخ العرب القديم - الجزء الأول
١٩٩٤ الإسكندرية	طبعة سادسة عشرة	٣٧- تاريخ العرب القديم - الجزء الثاني
١٩٩٠ الإسكندرية	طبعة ثانية	٣٨- بلاد الشام
١٩٩٠ الإسكندرية	طبعة ثانية	٣٩- العرب القديم
١٩٩٠ الإسكندرية	طبعة ثانية	٤٠- العراق القديم
١٩٩٤ الإسكندرية	طبعة ثانية	٤١- التاريخ والتاريخ
١٩٩٤ الإسكندرية	طبعة ثانية	٤٢- السودان القديم
بيروت ١٩٩٤	طبعة أولى	٤٣- المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)
١٩٩٦ الإسكندرية	طبعة ثالثة	٤٤- الحضارة العربية القديمة
١٩٩٩ الإسكندرية	طبعة ثانية مفعقة مزيلة	٤٥- الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية
١٩٩٩ الإسكندرية	طبعة أولى	٤٦- حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول
تحت الطبع	طبعة أولى	٤٧- حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الثاني

سابعاً: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم

١٩٩٩ الإسكندرية	طبعة أولى	٤٨- الجزء الأول - مصر
تحت الطبع	طبعة أولى	٤٩- الجزء الثاني - الشرق الأدنى القديم
		ثامناً: سلسلة في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين،
بيروت ١٩٩٠		٥٠- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول
بيروت ١٩٩٠		٥١- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني
بيروت ١٩٩٠		٥٢- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث
بيروت ١٩٩٠		٥٣- السيدة فاطمة الزهراء
بيروت ١٩٩٠		٥٤- الإمام علي بن أبي طالب - الجزء الأول

- ٥٥- الإمام علي بن أبي طالب - التاريخ - بيروت ١٩٩٠
- ٥٦- الإمام الحسن بن علي - بيروت ١٩٩٠
- ٥٧- الإمام الحسين بن علي - بيروت ١٩٩٠
- ٥٨- الإمام علي زين العابدين - بيروت ١٩٩٠
- ٥٩- الإمام جعفر الصادق - تحت الطبع

تاسعاً: سلسلة الإمامة وأهل البيت

- ٦٠- الإمامة - بيروت ١٩٩٣
- ٦١- الإمامة والإمام علي - بيروت ١٩٩٣
- ٦٢- الإمامة وخلفاء الإمام علي - بيروت ١٩٩٣
- عاشراً: مقالات في مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
- ٦٣- دراسة حول التأريخ للأنبياء - العدد ٣٩ - الإسكندرية ١٩٩٢
- الإعجاز في القرآن - دراسة في الإعجاز التاريخي
- النقاوة الجنسية عند اليهود - دراسة جديدة - العدد ٤٠ - الإسكندرية ١٩٩٣
- منقحة مزيده - العدد ٤٦ - الإسكندرية ١٩٩٧

محتويات الكتاب

الباب الأول

بسلامد العسرب

الفصل الأول: فى شمال بلاد العرب

١- مكة المكرمة :

١٧٦-١

٥٢-١

٥٢-١

٣-١

٦-٣

١٩-٦

٢٣-١٩

٢٥-٢٣

٢٦-٢٥

٢٨-٢٦

٣٥-٢٨

٤٢-٣٥

٥٢-٤٣

٩٠-٥٣

٥٧-٥٣

٥٩-٥٧

٦٠-٥٩

٧٩-٦٠

١- موقع مكة المكرمة الجغرافى وأهميته

٢- أسماء مكة المكرمة

٣- نشأة مكة المكرمة

٤- تحريم مكة المكرمة

٥- حدود الحرم المكى

٦- أمان مكة المكرمة

٧- مكة فى عهد إسماعيل وولده

٨- مكة فى عصر قصى

٩- بنو هاشم

١٠- مكانة مكة المكرمة

٢- المدينة المنورة

١- موقع المدينة الجغرافى وأهميته

٢- بين مكة ويثرب

٣- أسماء المدينة المنورة

٤- سكان المدينة المنورة

١- اليهود ص ١١ - ٧٢

٢- العرب ص ٧٢ - ٧٩

٥- فضائل المدينة المنورة

٦- المسجد النبوى الشريف

٨٣-٧٩

٨٤

٩٠-٨٤	٧- البرزخية الشريفة
١٠٠-٩١	٣- الطائف
١١١-١٠١	٤- تيماء
١١٧-١١٢	٥- دومة الجندل
١٢٣-١١٨	٦- مدائن صالح (الحجر)
١٢٨-١٢٤	٧- العلا (ديدان)
١٤٨-١٢٩	الفصل الثاني: في جنوب بلاد العرب
١٣٠-١٢٩	١- في دولة معين
١٢٩	١- قرناو
١٢٩	٢- يراش
١٣٠	٣- نشق
١٣٠	٤- نشان
١٣٠	٥- لوق
١٣٤-١٣١	٢- في دولة حضرموت
١٣١	١- شبوه
١٣١	٢- ميفعة
١٣٢	٣- قنا
١٣٢	٤- مذب
١٣٣	٥- سنا
١٣٥-١٣٤	٣- في دولة قتيبان
١٣٤	١- تمنع
١٣٤	٢- حريب
١٤٨-١٣٥	٤- في دولة سبأ
١٣٥	١- صرواح
١٤٠-١٣٦	٢- مأرب

١٤٤-١٤١	٣- سد مأرب
١٤٦-١٤٥	٤- بجران (رجمت)
١٤٦	٥- ظفار
١٤٨-١٤٦	٦- صنعاء
١٥٢-١٤٩	الفصل الثالث: فى شرق بلاد العرب
١٤٩	١- دلمون
١٥٠	٢- جرما
١٥١	٣- مجان
١٥٣-	الفصل الرابع: فى الممالك والإمارات العربية فى العراق والشام
١٦٣-١٥٣	١- تدمر
١٦٤	٢- الجابية - جلق
١٦٨-١٦٥	٣- الحيرة
١٧١-١٦٩	٤- الحضر
١٧٤-١٧٢	٥- الرها
١٧٥-	٦- حمص
١٧٦-	٧- مدين

الباب الثانى

العراق

١٧٧-	الفصل الأول: المدن والمراكز الاثرية فيما قبل العصر التاريخى
١٧٧-	تقديم
١٧٨-١٧٧	١- فى شمال العراق
١٧٨	١- تل الصوان
١٧٩-١٧٨	٢- تل حسونة
١٧٩	٣- تل حلف
١٨٠	٤- حرمر
١٨٠	٥- سامراء
١٨١	

١٨٦-١٨٢	٢- في جنوب العراق
١٨٢	١- أريدو
١٨٣	الوركاء
١٨٤	٣- جمدة نصر
١٨٥	٤- سيار
١٨٥	٥- الحاج محمد
١٨٦	٦- الغنيد
١٨٧-١٩١	الفصل الثاني: المدن والمراكز الأثرية منذ العصر السومري وحتى
	قيام الدولة البابلية
١٨٨-١٨٧	١- العصر السومري
١٨٧	١- تقديم
١٨٨	٢- لجش
١٨٩	٣- أوما
١٨٩	٤- نيبور
١٩٠-١٩١	٥- كيش
١٩١-١٩٢	٢- العصر الأكدي
١٩٢-١٩١	١- أكد
١٩٢-١٩٤	٣- أسرة أور الثالثة
١٩٢-١٩٤	١- أور
١٩٤-١٩٥	٤- إيسين ولارسا
١٩٥-١٩٤	١- إيسين
١٩٥	٢- لارسا
١٩٥-١٩٦	٥- مملكة أشنونا
١٩٥-١٩٦	١- أشنونا

الفصل الثالث: منذ قيام الدولة البابلية وحتى قيام الدولة ١٩٧-٢٠٦
الآشورية

١٩٧-٢٠٤	١- بابل
٢٠٤	٢- كوث
٢٠٤	٣- سفروايم
٢٠٤-٢٠٦	٤- دوركو ريجالز
٢٠٧-٢١٦	الفصل الرابع: الدولة الآشورية
٢٠٧	تقديم

٢٠٨-٢٠٩	١- آشور
٢٠٩-٢١٠	٢- كالح
٢١١	٣- كار - توكلتي - ننورتا
٢١١-٢١٣	٤- دور شاروكين
٢١٣-٢١٥	٥- نينوى

الفصل الخامس: منذ العصر الإخميني وحتى الفتح الإسلامي

٢١٧	١- الإخمينيون
٢١٧	١- بابل
٢١٧-٢١٩	٢- السلوقيون
٢١٧-٢١٩	١- سلوقية
٢١٩-٢٢٠	٣- البارثيون
٢١٩-٢٢٠	١- بابل
٢٢٠-٢٢٣	٤- الساسانيون
٢٢٠-٢٢٢	١- المدائن (طيسفون)
٢٢٢-٢٢٣	٢- كوخة
٢٢٣	٣- مدينة كسرى أنطاكية

٢٢٤-٣٣٢	الفصل السادس: العواصم الإسلامية
٢٢٤-٢٢٥	١- البصرة
٢٢٥-٢٢٧	٢- الكوفة
٢٢٨	٣- واسط
٢٢٨-٢٣١	٤- بغداد

الباب الثالث

بلاد الشام

٢٣٣-٢٤٤	الفصل الأول: فلسطين
٢٣٥-٢٦٨	١- القدس الشريف
٢٣٥-٢٤٤	١- موقع القدس
٢٣٥	٢- مكانة القدس الدينية
٢٣٨	٣- أسماء القدس
٢٤٠	الفصل الثاني: المسجد الأقصى
٢٤٥-٢٥٥	٢- السامرة
٢٥٦-٢٥٨	٣- أريحا
٢٥٩-٢٦٠	٤- أشدود
٢٦٠-٢٦١	٥- أفيق
٢٦١	٦- أدام المدينة
٢٦١	٧- ترصة
٢٦٢	٨- تعنك
٢٦٢	٩- بئر سبع
٢٦٢	١٠- بيت إيل
٢٦٢	١- بيت شان
٢٦٣	١٢- بيت لحم
٢٦٤	١٣- جميع

٢٦٤	١٤- جبعون
٢٦٤	١٥- جازر
٢٦٥	١٦- حبرون
٢٦٥	١٧- حاصور
٢٦٥	١٨- دان
٢٦٦-٢٦٧	١٩- الناصرة
٢٦٧	٢٠- يابيش جلعاد
٢٦٧	٢١- يافا
٢٦٧	٢٢- شعليم
٢٦٧	٢٣- غيش
٢٦٩-٢٩٠	الفصل الثاني: لبنان - المدن الفينيقية
٢٦٩-٢٧٥	تقديم
٢٧٥-٢٧٨	١- أوجاريت
٢٧٨-٢٧٩	٢- أرواد
٢٧٩-٢٨٠	٣- جبيل
٢٨٠-٢٨٤	٤- صيدا
٢٨٥-٢٨٨	٥- صور
٢٨٩	٦- بيروت
٢٨٩-٢٩٠	٧- سميريا
٢٩١-٢٩٢	الفصل الثالث: سورية
٢٩١	١- في شمال سورية
٢٩١	١- مرعش
٢٩١	٢- سنجرلي
٢٩١	٣- كوتالوا
٢٩١	٤- أرباد

١٩٢-٢٩١	٥- حلب
٣٠٢-٢٩٢	٢- في وسط وجنوب سورية
٢٩٣-٢٩٢	١- حران (حاران)
٢٩٦-٢٩٣	٢- دمشق
-٢٩٦	٣- صرية
٣٠٢-٣٠٠	٤- ماري
٣٠٢	٥- مجدر
٣٠٩-٣٠٣	الفصل الرابع: شرق الأردن
٣٠٤-٣٠٣	١- الادوميون
٣٠٤-٣٠٣	١- البتراء
٣٠٤	٢- بصره
٣٠٤	٣- تيمان
٣٠٥-٣٠٤	٤- عصيون جابر
	٢- المؤابيون
٣٠٥	١- ديبون
	٣- العمونيون
٣٠٦-٣٠٥	١- ربة عمون (عمان)
	٤- مملكتا الأموريين في شرق الأردن
٣٠٧	١- حشبون
٣٠٨-٣٠٧	٢- باشان
	الباب الرابع
-٣٠٩	السودان والمغرب القديم
-٣١١	الفصل الأول: السودان (النوبة العليا)
٣١٣-٣١١	تقديم
٣١٦-٣١٣	١- نباتا

٣١٨-٣١٦	٢- سرون
٣١٩	٣- الخرطوم
٣٢٠-٣١٩	٤- البحراوية
٣٢١-٣٢٠	٥- إيكن
٣٢٥-٣٢١	٦- الكرو
٣٢٦-٣٢٥	٧- أور - نارتي
٣٢٦	٨- النقة
٣٣٠-٣٢٦	٩- بوهن
٣٣٠	١٠- بعصة
٣٣٠	١١- بناجة
٣٣٨-٣٣٠	١٢- جبل البرقل
٣٣٩-٣٣٨	١٣- دنقلة المعجوز
٣٣٩	١٤- ساي - صاي
٣٣٩	١٥- سدنجا
٣٤٠	١٦- سرس
٣٤٢-٣٤٠	١٧- سره
٣٤٥-٣٤٢	١٨- سمنة
٣٤٦-٣٤٥	١٩- سيسي
٣٤٦	٢٠- صنم
٣٤٨-٣٤٦	٢١- صولب
٣٤٩-٣٤٨	٢٢- عكاشة
٣٤٩	٢٣- عكشة
٣٥٠-٣٤٩	٢٤- عمارة غرب
٣٥١-٣٥٠	٢٥- عنينة (ميعام)
٣٥٢-٣٥١	٢٦- فرس

١٥٢	٢٧- قمة
٣٥٣-٣٥٢	٢٨- كارا
٣٥٧-٣٥٤	٢٩- كوش
٣٥٨-٣٥٧	٣٠- كوبان
٣٥٨	٣١- كرجوس
٣٦٤-٣٥٩	٣٢- كرما
٣٦٤	٣٣- مرجيسيه
٣٦٧-٣٦٤	٣٤- نوري
-٣٦٧	الفصل الثاني: المغرب القديم
٣٦٧	المدن الفينيقية والمراكز الأثرية
٣٦٧	١- تقديم
٣٦٩	٢- المستعمرات الفينيقية في الشمال الأفريقي
٣٧٠-٣٨٢	١- قرطاج
٣٨٣	٢- أوتيكا
٣٨٤	٣- هيو
٣٨٤	٣- المدن المغربية والمراكز الأثرية
٣٨٥	١- أشكار
٣٨٥	٢- المقطع
٣٨٥	٣- أمكاكاس
٣٨٧	٤- برقة
٣٨٧	٥- بئر العاتر
٣٩١	٦- تونس
٣٩١	٧- دار السلطان
٣٩٢	٨- سرته
٣٩٢	٩- شرشال

٣٩٣	١٠- قفصة
٤٠١	١١- قورينه
٤٠٢	١٢- كهف حجفة النظرة
٤٠٢	١٣- كهف حجفة الضبع
٤٠٢	١٤- كهف هوافتح
٤٠٨	١٥- محجر سيدى عبد الرحمن
٤٠٩	١٦- أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجري
٤٠٩	الحديث
٤٠٩	١- موقع عبد العظيم
٤٠٩	٢- موقع فيلة بركة
٤٠٩	٣- موقع زفان
٤٠٩	٤- موقع تبليلة
٤٠٩	٥- موقع أمكين
٤١٠	١٧- مخبأ رديف
٤١١	١٨- موقع برزينة
٤١١	١٩- مشتأ العربى
٤١٢	٢٠- وهران
٤١٥	٢١- نوميديا
٤٢٠	٢٢- موريتانيا

الباب الخامس

إيران وآسيا الصغرى

٤٢٥	الفصل الأول: إيران
٤٢٧-٤٤٠	١- تقديم
٤٢٨	٢- أهم المدن والمواقع الأثرية فى إيران
٤٢٨	١- بهستون

٤٢٨	٢- تبة جيان
٤٢٩	٣- تبة حसार
٤٣٠	٤- تبة جانجي داره
٤٣٠	٥- تبة حوران
٤٣٢	٦- تل باكون
٤٣٢	٧- تبة سيالك
٤٣٦	٣- العواصم الإيرانية (الفارسية)
٤٣٦	١- سوسة
٤٣٨	٢- اكبتانا
٤٣٨	٣- بازار جادة
٤٣٨	٤- برسيوليس
٤٤١-٤٥٤	الفصل الثاني: آسيا الصغرى
٤٤١	١- تقديم
٤٤١	٢- أهم المدن والمواقع الأثرية في آسيا الصغرى
٤٤١	١- أرثو (أرزاوا)
٤٤٢	٢- إيسوس
٤٤٢	٣- بوغاز كوى
٤٤٥	٤- طرسوس
٤٤٦	٥- طروادة
٤٤٦	٦- قدى
٤٤٧	٧- قره تبة
٤٤٧	٨- قلقيا
٤٤٨	٩- قصادوقيا
٤٤٩	١٠- كانش
٤٥٣	١١- واشوكاى
٤٥٥	المراجع المختارة

